سلسلة الأعمال الكاملة

للإمام اليوسي في الفكر الإسلامي

①

القانون

في

أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم

تأليف

الإمام أبي المواهب الحسن بن مسعود اليوسي

المتوفى سنة 1102 هـ

تحقيق وشرح وتعليق وفهرسة وتقديم

حميد حماني

الأستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الحسن الثاني عين الشق

1419 هـ — 1998م.



القـــانـــون

في

احكام العلم واحكام العالم واحكام المتعلم

عنوان الكتاب : **القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم**

المؤلف : أبو المواهب الحسن بن مسعود اليوسي.

المحقق : حميد حماني.

الطباعة والسحب : مطبعة شالة الرباط.

الطبعة : الأولى.

تاريخ النشر : نونبر 1998.

رقم الإيداع القانوني : 1378/أكتوبر 1998.

ردمك : X – 0 – 1982 – 9981.

الإهـــداء

إلـى روح جدنا الأكبر الإمام اليوسي ﷺ بـرورا بوصيته لأولاده وأحفاده بالعناية بتراثه الأثيل.

إلـى والدي وعمي رحمهما الله، إنجازا لوعد قطعته على نفسي زمن اليفاع، بمواصلة التحصيل، والإستزادة من نور الحق والمعرفة.

إلـى ثمرة الفـؤاد ابني عمـاد الديـن أصلحه الله وأمتع به، بسمة الأمل والطموح.

إلـى مثال التضحية والوفاء ابن عمنا الأستاذ الأصيل السيد حسن مهليل.

إلـى السيد الفاضل عبد السلام الرتابي، الكاتب العام لجمعية رباط الفتح، ورئيس الفيدرالية الوطنية لاتحادات جمعيات الأشخاص المعاقين بالمغرب، لمواقفه المشهودة معي، بدافع محبته الجامحة للعلم وطالبيه.

إلـى الشغوفين بالعلوم الإسلامية دراسة وبحثا وتحقيقا.

حميـد حمانـي



مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد المخصوص بجوامع الكلم، الذي تولاه ربه بالأدب فأحسن تأديبه، وبعثه معلما وهاديا للعالمين، ورضي الله تعالى عن صحابة رسول الله نجوم الظلم، الذين اهتدوا بهداه، وتعلموا في رحاب مدرسته القرآنية السنية، فاقتبسوا أنوارها، وضربوا في الأرض ناشرين دعوة النور والعلم.

وبعد، فبسرور نفسي فياض، يطيب لي أن أقدم كتاب "**القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم**" للإمام أبي علي اليوسي، وهو-كما يدل عليه اسمه- من أهم المراجع المغربية التي تناولت العلوم الإسلامية بشقيها: العقلي والكوني من جهة، والشرعي من جهة أخرى، تناولا اتسم بالعمق والشمولية.

فعقد الباب الأول لنشأة مختلف العلوم وتطورها، ومكانتها، وموضوعها، وأهميتها، ونشرها، وتلقيها، وأشهر العلماء المشاركين في كل فن منها، وما خلفوه من مصنفات. وخصص الباب الثاني لجملة الأحكام التي تتصل بالعالم من وجهة النظر الإسلامية، أدبا وسلوكا وممارسة، وإفتاء وتصنيفا ... أما الباب الثالث فقد أفرده لأحكام المتعلم، فغدا بحق دليلا وافيا، يرسم ما يجب أن يكون عليه حال طالب العلم في علاقته مع أستاذه، وآدابه في الدرس والأخذ عنه، وذكر الأسباب التي ينال معها العلم بإذن الله تعالى.

وكان سبب الترامي عليه، جملة أمور منها:

1- ما يلاحظ من قصور في تناول أعمال اليوسي في التفسير والفقه والأصول والكلام... بالرغم من وفرتها، وانصراف همم الباحثين إلى إنتاجه الذي يدخل في دائرة الأدب إن في مفهومه الخاص أو العام.

2- إعجابي بشخصية الإمام اليوسي، منشأه المحبة التي توثقت عراها منذ صباي، وأنا اختلف إلى مسجده للتعلم، حيث الكتاب القرآني لقرية "تمزيت"، وما كان يطرق سمعي مع مرور الزمن، من مواقفه العلمية المشهودة ومآثره العظيمة.

وهو ما سعيت إلى تجسيده عمليا، حين أتيحت لي الفرصة في صيف سنة 1979، لأساهم في تأسيس جمعية ثقافية تعنى بجمع تراثه وتحقيقه ونشره، سرعان ما تعطل سيرها وأصيبت بالجمود القاتل إلى اليوم، غير أن الأمل بقي مع ذلك يراودني، في أن أوفق بمفردي يوما ما، لإنجاز ما عجزت الجمعية المذكورة عن الإضطلاع به. وأصبح هذا الأمر شغلا شاغلا، انضاف إلى ما كان ينوء به كاهلي من هموم المستقبل والمسؤوليات العائلية، وأنا على وشك الإنتهاء من الخدمة المدنية.

ويسر الله الأسباب واشتغلت على فترات بالقطاع العام، والشبه العام، والخاص، ولم تستقر بي الأحوال وأنا أزاوج بين الوظيفة والدراسة، وظلت رغبتي مع ذلك تزداد قوة للسير قدما في إخراج الأعمال الكاملة لليوسي في الفكر الإسلامي.

وحتى يتسنى لي دخول البيوت من أبوابها، قاطعت الدراسات العليا بكلية الحقوق بالدار البيضاء، وشددت الرحال إلى دار الحديث الحسنية- حفظ الله بانيها وراعيها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني- فتوجت سنوات الدراسة بها بالحصول على دبلوم الدراسات العليا في العلوم الإسلامية، في موضوع: " جانب العقيدة في فكر الحسن اليوسي- دراسة وتحقيق لبعض تراثه في العقيدة".

وكان هذا العمل أول باكورة على طريق فكر اليوسي اللاحب، مكنني إلى حد بعيد، من الإطلاع على إنتاجه في كل حقول المعرفة، بما تجمع لدي من تراثه المخطوط، والمطبوع طباعة حجرية وحديثة، دفع بي إلى أن أجعله في طليعة الموضوعات التي أدرت

عليها بحوث طلبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، منذ الموسم الجامعي 1985/1986، في مجال التفسير والعقيدة والأصول...

ومن هنا تبدت الحاجة اليوم، إلى استثمار هذا المجهود المتواضع، حصيلة ما يقارب عشرين عاما من التنقيب و الجمع والبحث في تراث الإمام اليوسي، باعتبار التراث الإسلامي عموما، والمغربي خصوصا أصلا ومنبعا يعين على توجيه أسلم، وأكثر أصالة لأجيالنا، بما يزخر به من «قيم إيجابية ودلالات عميقة، من شأنها عند الإستلهام، أن تسهم بأكبر قسط في فهم أكثر حدة لقضايا عصرنا، وتشحن وجدان الأمة بدفقة حية من الشعور المرهف، والصادق بإمكانية تحقيق طفرة حضارية»[1].

فاليوسي كشأن طائفة من أعلام المغرب «يعتبر أحد أعلام المعرفة الكبار، الذي يعتز ويفتخر به الفكر المغربي الأصيل، لشمولية علمه، ورحابة معرفته، وتفتح ذهنه وحدة نباهته، وتمسكه بالمبادئ الإسلامية والوطنية، وإخلاصه لرسالته العلمية المثلى، التي نبهت إلى مدرسة ذات طابع متميز في التفكير والمنهج، وهي ظاهرة من الطاقة المتجددة حركت الفكر المغربي، ووثبت به إلى مناخ نشيط مبتغى»[2].

وفي هذا الإطار يأتي تأليف كتاب "القانون" من قبل الإمام اليوسي إيمانا منه بقيمة العلم، الذي اتخذه صنعة طوال حياته، وتقديرا منه لعواقب الجهل الوخيمة على الفرد والجماعة، وفي ذلك يقول: «إن طلب العلم والاشتغال بالتعليم نوع من الجهاد، بل هو الجهاد الثاني، بل هو أهم الجهادين، وذلك أن جهاد العدو مطلوب للدفع عن بيضة الإسلام، والعلم مطلوب لدفع الجهل عنهم، ثم إذا نظرنا وجدنا العدو لو تسلط على الأموال والرقاب، وهي أمور دنيوية لابد من فراقها، إما بذلك أو غيره، والموعد الآخرة،

1- دعوة الحق عدد: 248 ص: 2.

2- المناهل عدد: 15 ص: 11.

ولو تسلط الجهل عياذا با لله، لم تبق عقيدة صحيحية، ولا إيمان ولا عمل صالح، وهذا هو الهلاك الأبدي، الذي يستمر إلى الآخرة»[1].

واستنادا إلى هذه القناعة، فهو لا يتردد -كما تجلى من خلال القراءة الواعية لتراثه المنظوم والمنثور- في أن يطلق العنان لقلمه الساحر، ليحض على طلب العلم ونشره بكل الممكنات المتاحة.. كما هو الشأن في كتابه "البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع"، الذي ألفه حين إقامته بالزاوية الدلائية منذ سنة 1065هـ إلى سنة 1079هـ وكتابه "الحاشية على شرح كبرى السنوسي" الذي ألفه سنة 1071هـ، وكتابه "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، الذي انتهى من تأليفه سنة 1080هـ، واستهله بمقدمة امتدح فيها العلم، وكتابه "نيل الأماني في شرح التهاني"، الذي وضعه كشرح لقصيدته الدالية سنة 1077هـ، وكتابه "المحاضرات"، الذي شرع في تأليفه سنة 1095هـ، ورسالته الكبرى إلى المولى إسماعيل المؤرخة في سنة 1096هـ ، ثم فهرسته التي حصر الكلام عن العلم فيها في الفوائد: الخامسة، والسادسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة.

وهي كلها تدور بسطا وإيجازا حول نفس الأفكار التي أفاض فيها القول في كتاب "القانون"، الذي يعد في رأيي امتدادا لها، وخاتمة الرحلة الطويلة مع العلم، على اعتبار أنه آخر ما خطته يراعته، قبل أن يرحل إلى دار البقاء قبل عشرة شهور تقريبا، وهي الفترة الفاصلة بين قراءته عليه من قبل ولده محمد العياشي، كما جاء على لسانه: «بلغت المقابلة إملاء على الشيخ الوالد وسردا عليه رحمه ا لله حرفا حرفا... صبيحة يوم الأحد آخر شهر صفر عام أحد ومائة بعد الألف»، وبين تاريخ وفاته يوم الإثنين 23 ذي الحجة عام 1102هـ.

وبذلك يكون كتاب "القانون" عصارة تجربة مريرة وطويلة، تعكس التطور الروحي والعاطفي للإمام اليوسي في مضمار العلم ومتعلقاته، وفي نفس الوقت جماعا لأشتاتها،

1 - رسائل اليوسي/1: 138.

وصيحة في سبيل الأخذ بأسبابها، تماما كما فعل الإمام ابن حزم الظاهري (ت: 456هـ) في "الرسائل"، والإمام أبو بكر ابن العربي (ت: 543هـ) في "الرحلة" و"العواصم من القواصم"، والحافظ ابن عبد البر القرطبي (ت: 463 هـ) في "جامع بيان العلم وفضله".

يقول اليوسي في الرد على من يتعلل بتحريم المنطق، بدعوى أنه من علوم اليهود مميزا بين فرضيتين: «فإن يعني أن اليهود يشتغلون به، فقد اشتغلوا بكثير من علومنا كالنحو وغيره، وإن كان يعني ليسوا مسلمين، فليس شرف العلم بحسب الواضع، بل بحسب الموضوع والغاية، وناهيك بغاية هذه الصيانة من الخطإ، وإلا فكثير من العلوم قد وضعها النصارى والمجوس والجاهلية، كالطب والتنجيم وغيرهما و لم يجتنبا. وما أجدر هؤلاء أن يقال لهم عليكم أن تجتنبوا آلات صنائعكم، لأن واضعيها اليهود والنصارى، وهم المشتغلون بها كثيرا، فإن لم يجتنبوها فاعلم أنما يتبعون أهواءهم».

ولا يملك الباحث في تراث اليوسي، إلا أن يقف منه موقف الإكبار لسعة أفقه، وبعد مراميه في زمنه، من خلال الحث على التعامل مع العلوم جميعا، مهما كانت طبيعتها ومصدرها، يكفي فيها أن تخدم المسلمين وتشد عضدهم، ولا تتعارض مع أصول معتقداتهم.

ومن تم حق لنا القول، أن هذه الصيحة التي أطلقها اليوسي، في مطلع القرن الثاني عشر الهجري، تعد النواة الأولى لتلك الكتابات التنويرية، والشعارات الصادقة التي لوحت بها الحركة السلفية، أو الفكر الإسلامي الحديث كما يطلق عليها أحيانا، لحث الشعوب العربية على النهوض من سباتها، بعد معاناتها من ليل بطيء الكواكب ،خيل معه للبعض منها أن الصبح ليس بقريب.

لذلك صح العزم مني، على أن يكون أول عمل من أعمال اليوسي الفكرية، يحظى بالتحقيق والتعليق والفهرسة، هو كتاب "القانون"، الذي كان الأستاذ السيد المهدي الوافي رحمه الله –قيدوم كلية اللغة العربية بمراكش سابقا– يود أن يخصه بالدراسة والتحقيق، حسبما أكده لي في إحدى المناسبات العلمية، جمعتني وإياه بالرباط في غضون سنة 1990.

هذا، ولا يفوتني وأنا أقدم لجمهور القراء المتعطشين، لعيون تراث أعلام الفكر المغربي الأصيل، على عهد الدولة العلوية الشريفة، هذا الكتاب الموسوعي لجدنا الأكبر الإمام اليوسي، أن أسجل كلمة تحية وتقدير، للسيد حسن مهليل بن محمد بن الغازي، الذي ذلل من الصعاب الشيء الكثير، مما يسر إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود.

فما إن عرضت عليه ما تطلعت إليه همتي - بعد مشيئة الله السابقة، وربوبيته الهادية السائقة- من إبداء كتاب "القانون" وغيره للوجود، وإخراجه من خبايا الخمود، حتى سارع من منطلق محبته القوية لليوسي وتراثه، والسعي في خدمة مصلحة بلاده، فأعرب عن استعداده المطلق لتحقيق هذه الأمنية الفكرية، التي كانت ولا زالت من أعز الأماني لدينا جميعا، لطالما تمنينا بلوغها ونحن طلاب خلال السبعينات، بكل من كليتي الحقوق بالرباط والدار البيضاء، فأضحت اليوم بعون الله وتوفيقه في حكم الممكن، بعد أن كانت عزيزة المنال.

والله المسئول أن يسبغ علينا نعمة التوفيق والعون، لإنجاز هذه السلسلة من تراث اليوسي في الفكر الإسلامي كاملة.

وهذه مقدمة بين يدي الكتاب تشتمل على الآتي:

أولا: أصل اليوسي و أسرته و نشأته، وأبناؤه و أمواله.

ثانيا: إعداده الفكري وتكوينه العلمي وآثاره.

ثالثا: مكانته العلمية وثناء العلماء عليه.

رابعا: التعريف بكتاب "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم".

خامسا: المنهج المتبع في تحقيق كتاب القانون، والنسخ المعتمدة في إخراج الكتاب.

أولا: أصل اليوسي و أسرته و نشأته، وأبناؤه و أمواله.

حقيقة أصل الشيء عند اللغويين «ما كان عليه معتمده، و من ثم سمي العقل أصالة، لأن معتمد صاحبه عليه، ورجل أصيل أي عاقل، وحقيقة أصل الشيء ما بدئ منه، ومن ثم يقال إن أصل الإنسان التراب»[1]، وعلى هذا يكون أصل الرجل في مفهومه الشائع، الأصول التي ينحدر منها، وتجري في عروقه دماؤها، فيكون حاملا لعناصر الوراثة في بعدها الديني والعرقي والسلوكي.

أما النشأة فهي الكيفية التي تمت بها تربية الفرد و نموه في وسطه الأسروي، بما يتميز به ذلك الوسط من عادات وتقاليد، وقيم، ونمط عيش.

ونظرا لأهمية هذه العوامل في حياة الإنسان، فإن اليوسي عقد فصولا خصبة للحديث عنها، وعن النسب خاصة، وفوائده التي من بينها «أن يعرف من يقف عليه من ذوي القرابة للتوصل إلى صلة الرحم، والموارثة والمعاقلة، وغير ذلك من الأحكام ... الثانية أن يعلم انقطاع النسب عند انتهائه إلى القرى ... الثالثة أن يعلم أن حفظ الأنساب ليس خصوصية للعرب، وإن كان لهم مزيد اهتمام بها، ومزيد ارتفاع همة»[2].

واعتمادا على ما كتبه اليوسي عن نفسه في هذا الجانب، وما ورد من نتف في المصادر التي ترجمت له، أسلط الضوء على أصله، وأسرته، ونشأته، وأبنائه، وأمواله:

1- الفروق في اللغة: 156.

2- المحاضرات/1: 37-43.

أصل اليوسي

عرف اليوسي بنفسه في كتابه المحاضرات بقوله: « أنا الحسن بن مسعود بن محمد، بن علي بن يوسف، بن أحمد بن إبراهيم، بن محمد، بن أحمد، بن علي، بن عمرو، بن يحيى، بن يوسف، و هو أبو القبيلة، بن داوود، بن يدراسن، بن يننتو، فهذا ما بعد من النسب، إلى أن دخل بلد "فركلة"، في قرية منه تسمى حارة أقلال[1]، و هي معروفة الآن»[2].

وأول ملاحظة تسترعي الإنتباه في عمود نسب اليوسي، هو ذلك البتر والتحريف لبعض الأسماء في النسخ الخطية لكتاب المحاضرات، وأمثل لذلك باسم "عمرو" الذي ورد في نسخة خزانة الرباط العامة رقم32 ج كذلك، بينما ورد في نسخة مخطوطة الخزانة العامة رقم20329 ك، ونسخة المخطوطة ملك العلامة اكنسوس[3] هكذا "عمر" المعدول[4].

أيضا كلمة "يننتو" وردت هكذا في نسخة رقم32 ج، بياء فنون فنون أخرى فتاء مثناة بعدها واو، وفي النسخة الخطية رقم20329 ك كتبت "يلنتو" بياء فلام فنون فتاء فواو، وفي نسخة المرحوم أكنسوس "ينتنن" بياء فنون فتاء فنونين، بينما كتبت في نسخة الطبعة الحجرية (يلنتن) بياء فلام فنون فتاء بعدها نون.

وكذلك الشأن في كلمة "يحيى" التي حذفت نهائيا من نسخة الطبعة الحجرية، ووردت في النسخ الخطية، وهي ملاحظة تدعو للوقوف عندها قليلا.

1- تعني باللسان البربري: حارة الشرفاء.

2- المحاضرات/1: 30.

3- المقصود به العلامة الوزير، الكاتب، الشاعر، المؤرخ أبي عبد الله محمد بن أحمد اكنسوس (ت: 1294 هـ)، صاحب كتاب الجيش العرمرم. شجرة النور الزكية: 404.

4- من جملة الأعلام: اسم العلم الممنوع من الصرف: المعدول، كعمر المعدول عن عامر. راجع باب الممنوع من الصرف.

وقد ذهب الكتاني في هذا الإتجاه، إلى حد التحريف المكشوف في سلسلة عمود نسب اليوسي، مما حمل الأستاذ علال الفاسي -رحم الله الجميع- على القول : ومن المفيد أن ننبه هنا إلى تحريف ارتكبه الشيخ الكتاني في الفهارس، فإنه حين سرد عمود نسب أبي علي، وقف عند يوسف بن أحمد وقال: «ومن العجيب أن المرتجم له في محاضراته، لما ذكر أنه ابن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف، قال: وهو أبو القبيلة وهو عجيب، فإن جده يوسف هذا رابع الآباء، ومع قربه من زمنه تفرعت منه خلائق، وأنت ترى في التعدد الذي سقناه عن المحاضرات نفسها، أن يوسف أبا القبيلة ليس هو رابع الآباء، بل هو الثاني عشر منهم، فهل يبلغ حب الإغراب إلى التحريف؟»[1].

ومنشأ الخطإ عند الكتاني هو ما نقله عن القادري من غير تنبيه منه على ذلك، فقوله: «وهو عجيب فإن جده يوسف هذا رابع الآباء...» عبارته هذه شبيهة بعبارة القادري الذي قال: «وهذا عجيب، فإن جده يوسف هذا هو رابع الآباء، ومع قربه من زمنه تفرع عنه خلق كثيرون، فإن قبيلته اليوم كبيرة جدا، ولا عجب في أمر الله»[2] مع أن الفارق الزمني بين عصر القادري وعصر الكتاني يقدر بسنين عددا.

ثاني ملاحظة: ذكر اليوسي لاسم البلدة التي ينتمي إليها، وهي بلد "فركلة" في قرية منه تسمى "حارة أقلال"، التي ورد ذكرها أيضا عند الحسن الوزان حين وصفها بقوله: «دائرة أخرى مأهولة، على نهر صغير يكثر فيها كذلك التمر وغيره من الفواكه، لكن الحبوب لا تنبت فيها إلا بقدر قليل جدا، وهناك ثلاثة قصور وخمس قرى بعيدة بنحو مائة ميل عن الأطلس، وستين ميلا عن سجلماسة، وسكانها خاضعون للأعراب»[3].

1- مجلة المناهل عدد :15 هامش ص: 16.

2- نشر المثاني/1: 16.

3- وصف افريقيا/2: 130.

فهي إذن من بلاد الصحراء، زاد الأستاذ حجي موقعها بيانا بقوله «فركلة اسم لأحد روافد نهر غريس، يسقي واحة أسرير الواقعة على بعد نحو عشرين كيلومترا غربي كَلميمة»[1].

وهو ما ذهب إليه أيضا صاحب الموسوعة المغربية، حين بحثه في أصول قبيلة آيت يوسي، التي تنحدر في -رأيه- من تافيلالت بالصحراء «وقد استقر منهم منها في ناحية صفرو بحوز فاس، وإليهم ينتمي العلم أبو علي الحسن اليوسي»[2].

فقبيلة آيت يوسي ترخيم يوسف بالبربرية، توجد مساكنها حاليا جنوبي عمالة إقليم صفرو[3] ، الذي أحدث بمقتضى المرسوم رقم: 90-291 الصادر في 14 من جمادى الأخيرة1411 هـ (فاتح يناير1991)، والمتعلق بتغيير وتتميم الظهير الشريف رقم: 351-59-1 الصادر في فاتح جمادى الأخيرة 1379 هـ (2 دسمبر 1959) في شأن التقسيم الإداري للمملكة الذي أحدثت بمقتضاه ولاية فاس، التي تتكون زيادة على إقليم صفرو من عمالات: فاس الجديد-دار الدبيبغ، فاس المدينة وزواغة-مولاي يعقوب.

ونظرا لشساعة الرقعة الترابية لقبيلة آيت يوسي، فإن من دوائرها ما هو تابع لعمالة إقليم صفرو، وما هو تابع لعمالة إقليم بولمان، وتنقسم إلى ثلاث قبائل فرعية:

1- آيت يوسي دائرة أمكلا (مقلاته)[4] وتقع في الشمال بطونها:

1- الحركة الفكرية/2: 527.

2- الموسوعة المغربية، معلمة المدن والقبائل، ملحق: 2. ص: 2.

3- ينقسم إقليم صفرو في الحقيقة إلى 23 جماعة: منها 5 جماعات بلدية. و18 جماعة قروية. ولكن نظرا لخلو يدي حتى الآن من التقسيم الإداري المعمول به حاليا، فإنني اكتفيت بالتقسيم الإداري أعلاه المنجز برسم سنة 1991 والمنشور ضمن كتاب منوغرافية إقليم صفرو.

4- من الأعلام المنتسبين إليها: أبو الحجاج يوسف بن محمد بن المعز المكلاتي (550-626 هـ)، عاصر المنصور الذي صحبه في أول سفرة له إلى الأندلس، بلغ مكانة رفيعة في العلم ومن كتبه: "لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول" الذي تم تحقيقه بعناية الدكتورة فوقية حسين.

"آيت عيسى بن الحسن"، و"مكلاتة" (أمكلا)، و"شربانة"، و"العناصر"، و"البقعية"، و"سيدي خيار"، و"سيدي يوسف"، و"تازوطة"[1]، و"مزدغة"[2]، و"عزابة"، و"زكان"[3]، و"سيدي لحسن »[4]، و"الزراعة"، و"البسابيس"، و"بنو يازغة »[5].

2- آيت يوسي "كيكو" تقع في الوسط بطونها:

"بني حمزة"، و"بني حلي" دائرة بولمان، و"بني حلي دائرة كيكو"، و"بني كايس".

3- آيت يوسي دائرة "الجيل" في الجنوب بطونها:

"بني عثمان"، و"آيت بن عامر"، و"آيت ابن موسى"، و"آيت الرامي" و"آيت لحسن"، و"آيت الختيريين".

وينضوي تحت لواء قبيلة آيت يوسي البرابرة والأعراب، فليس كل بطونها كما توحي التسمية عبارة عن برابرة أقحاح، بل منهم من هو من أصل عربي، فوثيقة البيعة التي

1- تزوطة بلدة مبنية على ربوة عالية جدا، وكان مؤسسو تزوطة من أسرة بني مرين قبل أن يصبحوا ملوك البلاد، يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم. وصف افريقيا/1: 342.

2- إليها ينتسب أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي (ت: 655هـ)، أخذ العلم بفاس ورحل إلى الأندلس لنفس الغاية. له: "عقيدة"، و"شرح الأحكام"، و"أرجوزة في علم الأصول". شجرة النور الزكية: 199 - النبوغ المغربي/1: 156

3- يجاور هذا الجبل جبل صفرو غربا، و يمتد جنوبا إلى الجبال التي تحادي نهر ملوية، وينتهي شمالا في سهول إقليم فاس. وصف افريقيا/1: 362.

4- المقصود به سيدي لحسن اليوسي موضوع دراستنا، وأحفاده الذين يشكلون بطنا خاصا بهم اليوم، يسكنون أربعة مداشير، في نطاق تراب جماعتهم القروية الجديدة، حسب التقسيم الإداري الأخير، كما سيأتي التعريف بهم لاحقا.

5- من أعلامها المشهورين: أبوجيدة بن أحمد اليازغتي، نسبة إلى بني يزغتن (ت: 362 هـ)، وهو الاسم التي كانت تعرف به قديما. عاش بفاس، بلغ درجة رفيعة في العلم والفقه والصلاح. وكذا أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي (ت: 543هـ)، عالم كبير تولى التدريس بدمشق، من مؤلفاته "تهذيب المسالك في نصرة مذهب مالك". شذرات الذهب/4: 436 - تذكرة الحفاظ/4: 1297.

خطها وجهاء وأعيان قبيلة آيت يوسي، وعقدوها للسلطان مولاي الحسن الأول، تحمل عددا من الأسماء ذات أصل عربي، ويعود تحرير عقد البيعة المذكورة إلى يوم 8 شعبان عام 1290هـ، و أصل البيعة اليوسية محفوظ بمديرية الوثائق الملكية[1].

وعلى هذا الأساس، وإذا سلمنا بأن آيت يوسي صنهاجية من أصل عربي، فهل يمكن اعتبار اليوسي كذلك؟ وبخاصة حين تتظافر بعض الإشارات الواردة عرضا في مواضع متفرقة، توحي بأن اليوسي من أهل النسب، ومن ذلك مثلا:

– الإشارة الأولى:

يقول اليوسي: «ومن غريب الاتفاق أني كنت أكتب ما تقدم من النسب، فجاء أعرابي بقصيدة من الملحون يمدحني بها، وفي أثنائها يقول ما معناه: إن اسمه، أي الممدوح، على اسم الحسن بن علي رضي الله عنهما، فقلت في نفسي: سبحان الله في هذا كان عملي»[2].

– الإشارة الثانية:

جاء في كتاب "مصابيح البشرية في أبناء خير البرية" ما نصه: «الشرفاء أولاد سيدي سليمان بن عبد الله، بن محمد المكنى بأبي راس، يوجد ضريحه ببلاد أغمات حوز مراكش، وأصله من الساقية الحمراء. يوجدُ أبناء عمومة لهم بفجيج، والجزائر الشقيقة، ينحدرون ـ كما سبق ـ من جدهم سيدي سليمان، بن عبد الله، بن محمد المكنى بأبي راس بن عبد الرحمن، بن عبد الحق، بن عبد الجبار، بن عثمان، بن عمرو، بن علي، بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن سليمان، بن عبد الصادق، بن إبراهيم، بن عبد الحليم، بن عبد العظيم، بن بلمان، بن محمد، بن إسماعيل، بن علي، بن عبد العزيز، بن محمد، بن

1– عدد المبايعين المنتمين إلى النسب 27 من أصل 46، انظر نص وثيقة البيعة كاملا في "الوثائق الملكية" المجموعة الثالثة، سنة 1976 ص: من 23 إلى 235.

2– المحاضرات/1: 33.

سالم، بن محمد، بن هاشم، بن محمد، بن مزوار، بن محمد الشمس، بن هلال، بن عمران، بن يحيى، بن المولى إدريس الأزهر، بن المولى إدريس الأكبر إلى مولانا رسول الله ﷺ. ومن أبناء عمومتهم: أولاد الشقيري. آيت يوسي. منهم العلامة سيدي لحسن اليوسي دفين أحواز صفرو[1].

– الإشارة الثالثة:

ما ذكره الكتاني نفسه في "فهرس الفهارس"، بقوله: «والمترجم يشعر في رسالته الكبرى للسلطان أبي الأملاك المولى إسماعيل، بأنه من أهل النسب والله أعلم»[2]، ولست أدري أين اهتدى الكتاني لهذه الملاحظة في الرسالة الكبرى أو "جواب الكتاب" كما تسمى أيضا، فقد قرأتها مرارا، و لم يستوقفني شيء مما ذكره، اللهم إلا ما كان من الفقرة المتعلقة بالرد على ما جاء في رسالة السلطان، حين نسب الكُتّابُ اليوسي إلى الأصل البربري، فأجاب قائلا: «و قول الكتاب: فأراك رجلا بربريا، فأقول: نعم هو ذاك في الظاهر، و الأصل يعلمه الله»[3].

فهل معنى هذا أن اليوسي كان بربريا في الظاهر فقط، بحكم ولادته ونشأته في وسط بربري؟، كما أقر هو بذلك أيضا، حين قال في معرض بيان اهتمام البربر بالأنساب، وأن ذلك ليس خصوصية للعرب: «و كنت أنا قبل أن أخالط قومي أظن ذلك وأقول: إن العجم إنما هم كالمعزى ليس بين الأم وبين ولدها عهد، إلا أن يرعى فيذهب حيث شاء، وأما الأب فلا سؤال عنه، فلما باحثت قومي في هذا، ألفيت الأمر

1– مصابيح البشرية في أبناء خير البرية/1: 269–270.

2– فهرس الفهارس/2: 1155.

3– رسائل اليوسي/1: 213.

على خلاف ما كنت أظن، ووجدتهم يحفظو أنسابهم كما مر، وإذا فيهم نسابون يحققون الفصائل والشعوب، على نحو ما كانت العرب تفعل في أنسابها»[1].

- الإشارة الرابعة:

ما ورد في الصفحة الأولى من ديوان اليوسي الشعري، ونصه: «هذا ديوان العالم الكبير، العلامة المحقق المحرر الشهير، أديب العلماء، وعالم الأدباء "الشريف" أبي علي سيدي لحسن اليوسي»[2].

فهل اعتمد مسؤولو المطبعة، في تحليته "بالشريف" على دليل ثبت لديهم؟

- الإشارة الخامسة:

ما ذهب إليه العلامة أبو العباس أحمد بن محمد الهشتوكي[3] في تلقيبه "بمولاي" وذلك بقوله: «فارس المعقول والمنقول، العالم الرباني، بحر المعارف والعلوم والمغاني، عمدة المسلمين، وخاتمة المحققين، مولاي أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، نفس الله في عمره للإسلام»[4].

ولقب "مولاي" هذا، ورد أيضا على لسان العلامة ابن زاكور[5]، في كتابه "نشر أزاهير البستان" بقوله فيه: «حبر الأحبار، وجهينة الأخبار، وزين القرى والأمصار، العديم النظير في سائر الأقطار... مولاي أبو علي سيدي لحسن بن مسعود اليوسي»[6].

1- المحاضرات/1: 43.

2- الديوان الذي طبع بفاس على الحجر.

3- سترد ترجمته لاحقا كتلميذ لليوسي.

4- الدرر المرصعة: 38.

5- سترد ترجمته لاحقا كتلميذ لليوسي.

6- نشر أزاهير البستان: 88.

وكما هو معلوم، فإن العرف قد جرى في المغرب على قصر لقب "مولاي" على الشرفاء العلويين منهم والأدارسة، إلى حد أنه تم تخصيص مؤسستهم بالاهتمام الفائق، انطلاقا من المرينيين ومرورا بالسعديين، وانتهاء بالعلويين.

ورغبة في الاستفادة من الامتيازات المادية والمعنوية المخولة بمقتضى "ظهائر التوقير والاحترام" لهذه الشريحة الاجتماعية، هب المدلسون وذوو الاستحقاق على السواء، للحصول على لقب "شريف"، فقام الملوك بإحصاء عام للشرفاء، و أثبتوهم في دواوين خاصة على سبيل الحصر.

لذلك يتساءل الباحث، ألا يمكن تفسير ذلك الحذف والتغيير في أسماء عمود أجداد اليوسي، بأنه من وحي شيطان خصومه، الذين كانوا من ذوي النفوذ السياسي، مستغلين في ذلك موقفه الاصلاحي الذي نادى به في رسائله إلى المولى إسماعيل، على غرار ما فعلوا ببعض نسخ فهرسته، كما أكد ذلك الكتاني حين قال: «وقع في نسخة ظفرت بها من "نشر المثاني" عتيقة عليها طرر وإلحاقات، بخط من يعتمد من القادريين، في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي[1]، قال الإمام أبو علي الحسن اليوسي في فهرسته لما ذكر أخذه عن أبي بكر بن علي التطافي[2] شيخ اليوسي، وكان -أي التطافي رحمه الله- ما يذكر أمير المومنين، مولانا أحمد المنصور بالله، إلا ذكره بإنكار، ثم يقول: كذا: أي لعنه الله، قال الشيخ اليوسي: ولعله ورث ذلك من شيخه الإمام العارف بالله أبي محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر، فإنه كان له قدم في الزهد راسخ»[3].

1- من كبار علماء زمانه (ت: 1045هـ). انتصب للتدريس بمراكش، فكان نسيجا وحده في التفسير والحديث. من تآليفه "عقيدتان: صغرى وكبرى"، و"حاشية على المرادي". مباحث الأنوار:175 - المحاضرات/2: 672 - فهرس الفهارس/1: 352.

2- سترد ترجمته لاحقا.

3- فهرس الفهارس/2: 1160.

يقول الكتاني في رد هذه الفرية: «هذه غريبـة كـبرى و طامـة عظمـى، فـإن نسـخ فهرسة اليوسي التي بيدي وهي نحو العشرة[1] ، ليـس فيهـا شـيء مـن ذلـك، وإنمـا فيهـا في ترجمة التطافي المذكور: وكان رحمه ا لله ما يذكر الذهب، إلا ذكره بإنكار، ثم يقول: لعنه ا لله، وكأنه ورث ذلك من شيخه الإمام العارف أبي محمد عبد ا لله بن علي، فإنه كان لـه قدم راسخ في الزهد».

ومن نسخة بخط ابن أخي اليوسي سعيد بن محمد بن مسعود نقلت، أتم نسخها من خط عـمه مؤلفها سنة أربع و مائة و ألـف (1104 هــ)، فلعـن التطـافي للذهـب، المعـدن المعروف، لافتتان الناس به واشتغالهم به عن ا لله، لا للسلطان المنصـور السـعدي المعـروف بالذهبي قطعا، ويؤكد ذلك وصفه لشيخ شيخه بالزهد.

وكأن أحد الحاسدين للمنصور ولدولته بعد انقراضهـم، دس علـى اليوسـي مـا قـرأ القادري واعتمده، وإلا فالمنصور من أعظم المفاخر بين ملـوك المغـرب، ودولتـه مـن خـير الدول، فلعنة ا لله على الكاذبين»[2].

وعليه، فإن الاحتمال القاضي بالتحريف في عمود نسب اليوسـي، يبقـى واردا ولـو بنسبة ضئيلة، لعدم فهم الخصوم لبعد مراميه، وصدق نيته في مخاطبته للمولى إسماعيل، الذي أشاد به غير ما مـرة، كقولـه منصفـا لـه: «... إذ مـا تفتـخر فـاس عـلى سـائـر المـدن والأقاليم والأقطار إلا بالعلم، حتى أن لو جاءهم عالم براني لم يرضوا بعلمه و لم يبالوا بـه، وقد حزنا السيد الحسن اليوسي على سكنى فاس، واشـتغاله بـالقراءة فيهـا، فاشـتكى مـن إذاية أهلها، وذلك لا يكون في الإنسـان، إلا أن يـعلم أن ا لله تـعالى أعطـاه مـن العلـم مـا

1- تؤكد الروايات الشفوية الشائعة بين حفدة اليوسي، أن الكتاني المذكور، قـدم خـلال الخمسـينات زائرا لضريح اليوسي، فتلطف مع حفدته حتى أتوه بأحمال المخطوطات، المكونة لمكتبة الزاوية اليوسية، فسافر بها إلى فاس حيث ضمها إلى مكتبته الشهيرة.

2- فهرس الفهارس/2: 1160.

كفاه عن الغير، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] و منتهى العلم إلى الله العظيم»[2].

وهذا ما يجعلني أقطع ببطلان الطروحات، التي تذهب إلى اعتبار اليوسي قد تبنى موقف المعارضة من سياسة المولى إسماعيل من أجل المعارضة ليس إلا. وإلا كيف نغض الطرف عن قوله: «ولو قلت إن عندي من محبة السلطان في قلبي أقوى مما يكون عند كثير ممن يتملقون بين يديه، ويدعون المحبة والحفاوة و﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[3] لم أكذب، وسأبين ذلك في آخر الكلام إن شاء الله »[4].

بل إن المولى إسماعيل فيما يبدو تقديرا منه لليوسي ولعلمه، أنعم عليه بظهير شريف، يقضي بتوقيره واحترامه، وبقي أبناؤه ومن بعدهم حفدته، يسعون في تجديده بكل اعتزاز لدى الملوك العلويين، الذين يتعاقبون على العرش، كشكل من أشكال التعبير عن تجديد فروض الطاعة والولاء لهؤلاء الملوك.

وكان آخر تجديد في هذا الشأن، هو ذاك الذي تفضل به جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه سنة 1933 م، في نطاق الحفاظ على الآصرة القوية، التي تجمع بين رمز التحرير وولي عهده آنذاك، وبين أفراد رعيته. وتقضي هذه الظهائر جميعا بتوقير واحترام حفدة اليوسي وإخراجهم من زمرة العوام، بحيث لا يكلفون بتكاليف مخزنية ولا يطالبون بأداء الزكاة، بل يرد أغنياؤهم ما فضل منها على فقرائهم، إلى غير ذلك من الامتيازات.

1- يوسف: 76.

2- مجلة تطوان. عدد خاص بالمولى إسماعيل. ص: 38.

3- الفتح: 11.

4- رسائل اليوسي/1: 161-162.

ويبدو أن إجراء تجديد هذه الظهائر، لم يعد معمولا به في مغرب ما بعد الاستقلال، واستعيض عن ذلك بتوزيع مداخيل صناديق الأضرحة على الأحفاد، إضافة إلى الهبات الملكية، التي توزع عليهم في مختلف المناسبات: كمواسم الأضرحة، وشهر رمضان، والأعياد الدينية [1].

ويعزى سبب الإحجام عن إجراء تجديد "ظهائر التوقير و الاحترام" إلى إعمال نصوص الدستور المغربي، ولاسيما الفصل الخامس، الذي يقضي بسيادة مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، بين المواطنين أمام القانون، وأمام الانتفاع من المرافق العامة... في سبيل السعي الحثيث نحو "دولة الحق والقانون".

ومهما يكن من أمر، فإن الباحث لا يمكن أن يخرج باستنتاج قوي يبدد كل الشكوك، ويشع الطمأنينة في النفس، في مسألة شرف أصل اليوسي، اعتمادا على هذه النتف التي سبق أن ألمعت إليها، وإلى ما تحمله من دلالات، بقدر ما تنير السبيل أمام الباحث إلى حد ما في موضوع الأنساب، الذي جاء في دعوة عمر بن الخطاب للاعتناء به قوله: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»[2].

وأود أن أشير إلى أن الهدف هو التنقيب عن الحقيقة، وإلا فنسب الإنسان طينه وحسبه دينه، كما جاء في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]، وكذا قول الصادق المصدوق ﷺ: (أَنْتُم بَنُو آدَم وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ)[4].

وحسبي أخيرا، أنني تناولت مسألة أصل اليوسي من زاوية أخرى، تمثلت في تدقيق البحث في عمود أجداده، ثم الوقوف عند قول الكتاني وغيره من العلماء في تحليته

1– السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم: 184.

2– المحاضرات/1: 137.

3– الحجرات: 13.

4– من خطبته ﷺ يوم فتح مكة.

بالشريف، وصنيعي يخالف ما درج عليه الباحثون من قبلي في هذه النقطة بالذات، إذ لم يزيدوا على ما ورد في تعريف اليوسي لنفسه بنفسه في كتابه المحاضرات. ولست أدري لغاية كتابة هذه السطور، من عمق البحث في هذه النقطة، بشكل يرفع ذلك الشك الذي يحوم حول أصل اليوسي، وهو أمر يتطلب مزيدا من البحث والاستقصاء حذارا من إطلاق الأحكام الجزافية المجانبة للصواب.



أسرة اليوسي

نتناول في الحديث عن أسرة اليوسي الظروف المادية، والثقافية، والاجتماعية، والمفارقات التي ميزت بينه وبينها، وساهمت في تكوين شخصيته، ثم أبناؤه وأزواجه وأملاكه.

ينحدر اليوسي من أسلاف بسطاء في مظاهر عيشهم، ونمط تفكيرهم، وسائر أحوالهم، وصفوا بالقناعة والتجرد من الطمع لما في أيدي الناس، كما يحدثنا عنهم بقوله: «وقد كان أسلافنا وهم عامة، يعيشون بما رزقهم الله تعالى، قانعين به، ويخوضون في الأسباب الشرعية، غير متصنعين لأحد، ولا متشوفين له، ولا طامعين إلا في الله، حتى ماتوا ذوي عز وخلوص من دنس الطمع، ومن حرفة منن الناس، وخفت ظهورهم من التبعات، وكثيرا ما نتمنى أحوالهم، لولا ما من الله تعالى علينا به من تلاوة كتابه، ومزيد التفقه في دينه»[1].

فأجداد اليوسي إذن كانوا عاديين، و لم يشتهروا بعلم ولا بمال، لكن مع أخلاق حميدة، ونفوس أبية، وتحرر من منن الناس، واعتماد على النفس، بالخوض في الأسباب الشرعية لكسب الرزق الحلال، بعيدا عن الرياء والمداهنة. وقد ورث صفات الأخلاق

1- رسائل اليوسي/1: 377.

الإسلامية الرفيعة، عن أبيه المسعود بن محمد بن علي اليوسي، الذي كان رجلا صالحا وإن مع أميته، يجمع إلى إيمان الرجل العامي الساذج، يقينا يبعثه على الرجاء في الدعوات الصالحة والمراثي الطيبة، بشهادة ابنه فيه بقوله: «فاعلم أن أبي مع كونه رجلا أميا، كان رجلا متدينا مخالطا لأهل الخير، محبا للصالحين زوارا لهم، وكان أعطي الرؤية الصالحة، وأعطي عبارتها، فيرى الرؤيا، ويعبرها لنفسه، فتجيء كفلق الصبح»[1].

ويسترسل اليوسي متحدثا عن نفسه وعن ظروف ولادته، فيقول حكاية عن أبيه «قال: رأيت عيني ماء إحداهما لي، والأخرى لعلي بن عثمان، وهو والد ابن عمنا، الأديب البارع أبي سعيد عثمان ابن علي -رحمه الله- قال: غير أن عين علي كنا نسقي بها في بلدنا، وعيني خرجت إلى ناحية أخرى، وزعموا أنه قال: وكانت العين التي هي لي أقوى ماء وأكثر فيضا، ثم فسر ذلك بمولودين ينتفع بهما، فولد أبو سعيد المذكور، فانتفع ونفع حتى مات رحمه الله، وظهر أنه العين المذكورة لأبيه، وولدت أنا أيضا»[2].

والنص يعكس مشاعر الوالد، التواقة إلى أن يرزقه الله ابنا ضليعا في العلم، ليملأ ذلك الفراغ الذي كانت تعانيه الأسرة من قلة العلماء، فلم يظفر أحد أفرادها منه بنصيب وافر، حتى ما كان من شقيقي اليوسي الكبيرين، فإنهما كانا أميين فماتا قبله على تلك الحال .[3]

وإذ لم أتمكن من معرفة الأول منهما، فإن المصادر قد أسعفتني بمعرفة الثاني على الأقل، وهو المدعو محمد بن المسعود[4]، أبو الأستاذ الفقيه سيدي سعيد، الذي كفله اليوسي

1- المحاضرات/1: 84.

2- نفسه/1: 84.

3- نفسه/1: 84.

4- فهرس الفهارس/2: 1160.

بعد موت والده المذكور، فعاش في بيت عمه معززا مكرما حتى صار عالما بارعا، وزوجه ابنته السيدة عائشة، وقد عاشا إلى ما بعد سنة 1151 هـ.

أما الأخت الوحيدة لليوسي، فهي التي ذكرها في المحاضرات والديوان الشعري، عند لقائه بها بعد غياب طويل، فأخذت تبكي من تباريح الفراق، فقال واصفا لحالها:

ومحزونة بالبين طال بها الجوى ❖ علينا و شوق بالجوانح لداغ
تبيت وجفناها يباريهما الحيا ❖ وما تحت جنبيها من الفرش لداغ
إلى أن تسخى الدهر بالوصل بيننا ❖ ولاح ضياء للمسرات بزاغ
فلما انقضى التسليم ما بيننا بكت ❖ وفاض لها دمع من العين نشاغ
فقلت: ألم يأن السرور ولم يدر ❖ شراب للقيان الأحباء سواغ
فقالت: تذكرت الفراق غدا فذا ❖ لقلبي عن تلك المسرات صداغ[1]

وقد احتفظت المصادر بأسماء لأعلام من أبناء عمومة اليوسي بلغوا حظا في المعرفة والتحصيل من هؤلاء: أبو عمرو عثمان بن علي اليوسي[2]، الذي كان عالما فاضلا شاعرا ماجدا، وأحمد بن عثمان اليوسي، ومحمد بن عمرو اليوسي، وهما عالمان مشاركان، ورد ذكرهما في فهرسة[3] أحمد بن محمد الشتوكي، ومحمد بن يعقوب اليوسي[4]، ومحمد بن عبد الصادق بن ريسون الحسني اليوسي[5].

1- انظر القصيدة كاملة في الديوان حرف الغين. طبعة حجرية. والمحاضرات/1: 206.

2- درس بالزاوية العياشية، ولازم شيوخها سنين طويلة. (ت: 1084 هـ). من آثاره مجموع يتعلق بتراجم "آيت عياش" وعليه اعتمد صاحب كتاب "الإحياء والإنتعاش في التعريف ببعض أهل الزاوية العياشية". التقاط الدرر: 196.

3- انظر فهرسته، مخطوط الخزانة العامة رقم: 147 ق. ص: 51-70.

4- نزهة الحادي في ملوك القرن الحادي: 168.

5- فهرس الخزانة الحسنية/1: 248.

وفي أوساط هذه العشيرة، التي تأخذ أقوال والد اليوسي مأخذ الجد والاعتبار الأدبي، لمكانته الاجتماعية بينهم كما يستفاد، ازداد اليوسي سنة 1040 هـ من أم تنتمي حسب الروايات الشفوية إلى "آيت بوحدو"، على عكس ما ذهب إليه الكتاني[1] نقلا عن فهرسة أبي التوفيق الدمناتي من كون كل من والد اليوسي، ووالدته من أصل بوحدوي، والصواب أن "آيت بوحدو" هؤلاء أخوال لليوسي، والمعتبر في النسب طبعا وشرعا أصل الأب لا أصل الأم، وهو ما شاع بين هؤلاء الأخوال الذين كانوا وإلى عهد قريب، يترددون بكيفية دورية على ضريحه ـوهو شيء عايناه لا سمعناه ـ ويقيمون ليالي حافلة بالذكر، وتلاوة القرآن بمعية حفدته، الذين تواتر لديهم أبا عن جد، أن "آيت بوحدو" أخوال لهم، فيبالغون لأجل ذلك، في إكرامهم وحسن ضيافتهم.

وصنيع هؤلاء الأخوال في زياراتهم الدورية لضريح اليوسي، يأتي في نطاق الحفاظ على عادة ترسبت فيهم، وأطردت سنين عددا بين بطون قبائل آيت اليوسي، وغيرهم من سكان القرى والمداشر المجاورة، كشأن "آيت سغروشن" المقطوع بشرفهم الإدريسي، والذين يذهبون إلى أن هناك من الروابط الدموية ما يجمعهم باليوسي، وسكان مدينة "البهاليل"، وكذا سكان "القصبة" من قبيلة "بني يازغة" الشهيرة.



نشأة اليوسي

ذلكم كان المحيط العائلي لليوسي، أما إطاره البيئي، فقد تميز بقساوة الطبيعة، وانعدام الأمن في جو مشحون بالثورات، وما يعقبها من حملات قمعية، وما كان يتخلل ذلك من رحلات للجماعات البشرية التي تبحث لقطعان الماشية عن مراتع العشب الخصيبة حين تستقر الأحوال نسبيا. فأصالة اليوسي وبداوته اللتان طبعتا شخصيته، هو مدين بهما

1– فهرس الفهارس/2: 1154.

لهذه العوامل، التي ربت فيه الشعور بـالاختلاف، سـواء علـى مستوى الإنسـان، أو علـى مستوى التمييز بين المناطق. و لم تفلح فترات العيش التي قضاها في الحاضرة أن تلطـف مـن حدة ذلك الشعور المزمن، وهو ما ستعمل فاس على تفجيره لديه وتحسيسه به[1].

كانت نشأة اليوسي إذن بين أحضـان الطبيعـة «والفجـاج الواسـعة، بـين الشـيح والـريح، والجنوب والشمال»[2]، فتشبعت روحه بالحرية والعفوية، فكان لا يتردد في تقويـم كل ما يخالف الطبع والشـرع، مع التزام الإخـلاص والصراحـة. حيـث ولـد علـى وجـه التحديـد بـإحدى القـرى بجبـل ملويـة ، والممتـدة علـى طـول وادي "ورن"، ومنهـا قريـة "تسجدلت" وكذا قريـة "تغدلت"، حـيث تـنتشر مـزارات وقبـور أهـل ا لله، علـى امتـداد الوادي الـمذكور، و«أولهـم الشـيخ يحيـى بـن يوسـف، وهـو قديـم لا يعـرف لـه تـاريخ، واقتدى الناس في زيارته بذوي البصائر، مع ظهور البركات بزيارتـه»[3]، وهـذا الشـيخ هـو الجد الأكبر الذي ينحدر منه اليوسي، والذي ذكره في عمـود نسبه، ونعتـه بكونـه «أبـو القبيلة».

فهذه البيئة ولدت في نفسية اليوسي نوعا من الحياء، بلغ حدود الخجل المفرط، حين أصبح يمنعه من القيام بحاجياته الضرورية، وفي ذلك يقول: «كنت شديد الحياء في صغـري حتى كان الحياء يمنعني من ضروريات نفسي أن أتناولها، أو أتذاكر فيها عند الناس، فكان مما ألقي في وهمي أن من دخل المكتب، كيف يتأتى له أن يخرج لقضاء حاجـة الإنسـان، وكيف يمكنه أن يذكر ذلك أو يشاور عليه المؤدب أو غيره، فلم يمكني إلا الهرب»[4].

1- مقال من كتاب "اليوسي" لجاك بيرك" المنشور بجريدة "صباح الصحراء". عدد: 5428.

2- رسائل اليوسي/1: 162.

3- مباحث الأنوار: 208.

4- الفهرست: 45.

وقد بلغت الحالة النفسية لليوسي ذروتها في الحزن والانقباض، حين توفيت والدته، وحرم من عاطفة الأمومة، وهو لا يزال صبيا، وكان وقع الصدمة في نفسه ذا أثر فعال، حتى إن نظراته للأرض التي ولد فيها تغيرت، والأهل الذين عاش بين ظهرانيهم، استحكمت عوامل النفور بينه و بينهم جميعا، فعبر عن ذلك الإحساس بلسان المقال:

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ❖ ولا الدار بالدار التي كنت تعرف[1]

ويذهب اليوسي في تفسير هذا المصاب الجلل، الذي ألم به تفسيرا عقديا، يتضمن حكمة الله تعالى في شؤون خلقه، وتصرفه فيه حسب مشيئته، ولطفه بعباده، وضرب لذلك مثلا بسيدنا محمد ﷺ في فقده لوالديه قائلا: «قالوا إن الحكمة في ذلك، أن لا يبقى عليه حق لمخلوق، قلت: وفي اليتم انقطاع العلائق، وصحة التجرد للخالق»[2].

ومن وجوه الخير في ذلك، «التفرغ لعبادة الله تعالى، وإفراده بالخدمة، وذلك لا يكون إلا بطرح حق الوالدين العظيم، لانتقالهم إلى دار الخلد، لأن حقهما شكر إحسان واعتقاد التسبب، يضاف إلى هذا صرف الإنسان عن محبة والديه اللذين بهم انتظم أمره، تربية واستصلاحا ومشاورة، حتى غرزت المحبة في قلوب بعضهم البعض، ولما كان هذا شاغلا عن محبة الله والالتجاء إليه، كان من أسباب السعادة أيضا، لمن أراد الله به ذلك، أن يقطع عنه علاقة والديه، حتى لا يكون له مفزع إلا مولاه الحق، ولا محبوب ولا مألوف إلا هو»[3].

غير أن هذه الفاجعة التي داهمته لم تكن سلبية في كل أبعادها، بل فتحت عينيه على كثير من الحقائق، وأعادت إليه رشده، وخاصة ميله إلى العلم، والرغبة الشديدة فيه،

1- الفهرست: 45.

2- نفسه: 45.

3- نفسه: 45.

فجعل يطلب من أبيه أن يغربه إلى الأمصار للقراءة، فغربه كما طلب لناحية القبلة، بعد ان قرأ حزبين من القرآن، وكان لوحه في سورة "و المرسلات عرفا".

خروج اليوسي إلى بلاد القبلة (سجلماسة و كَلميمة)

من المفارقات العجيبة، الملفتة للنظر، مغادرة اليوسي لأهله وبلده، وهو يومئذ فتى حديث السن، لأن من كان في لوحه "و المرسلات عرفا" يكون عادة في سن السادسة أو السابعة، قاصدا سجلماسة بدافع تحصيل العلم، دون أن يصرفه عن مرامه حداثة سنه، ولا قلة ذات يده، ولا انعدام الأمن بين المراكز العلمية.

وصنيعه في ذلك مخالف لما عرف من سير العلماء، إذ الرحلات العلمية كتقاليد مصطفاة عندهم، لا تحمل على السفر إلا بعد أن يحفظ الشاب القرآن الكريم، ويحصل جملة من العلوم، أو مبادئها على الأقل، ثم يرحل للاستزادة والإكثار من الشيوخ.

والمقصود بناحية القبلة، في عرف المغاربة، التخوم الصحراوية، بما فيها سجلماسة حاضرة العلم، وعاصمة ملك محمد بن الشريف، إلى حيث قصد اليوسي زمن الصبا، صحبة شيخ كتاب قريته المسمى "بأبي إسحاق"، وهناك اتصل بالشيخ أبي بكر بن الحسن التطافي[1] الذي يقول عنه: «قرأت عليه ختمة، وحضرت عنده جملة من الرسالة، وجملة من مختصر خليل، وجملة من جمع الجوامع والخلاصة»[2] كما اتصل بالأستاذ الصالح أبي العباس أحمد الدراوي[3] الذي ختم عليه القرآن، أما الفقيه أبو عبد الله بن السيد الحسني[4] فدرس عليه الفقه من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشيئا من التوحيد من صغرى

1- من أعلام سجلماسة في العلم والزهد. نشر المثاني/2: 404. وقد ورد ذكره في مواضع متفرقة من كتاب القانون موضوع التحقيق.

2- الفهرست: 51.

3- إمام الفريضة بجامع القصبة السجلماسية، له كرامات. الفهرست: 52.

4- المحاضرات/2: 673.

السنوسي (أم البراهين) بينما لزم لدراسة علم القواعد اعتمادا على ألفية ابن مالك ولامية الأفعال وغيرهما، شيخه أبا فارس عبد العزيز الفيلالي[1] الذي أشاد بطريقته بقوله «وكان له تحصيل في مهمات العربية وله طريقة في التدريس، وتدريج المبتدئين سهلة حسنة، فانتفع به الناس كثيرا»[2].

والملاحظ أن نفسية اليوسي، كانت تعرف نشاطا متدفقا، في مرحلة الصبا والطلب بسجلماسة، يظهر ذلك جليا من انكبابه الكلي على العلم، والتفرغ له طوال اليوم في جدية وإقبال دون كلل، كما صور ذلك بقوله: «وكنا هناك - يعني سجلماسة - حتى إن أكثر الأيام لا نذوق طعاما إلا من الإسفرار. لانشغالنا بطلب العلم، وتقلبنا في المجالس طول النهار»[3].

أما بلد كلميمة [4] كمركز علمي تكاثر فيه العلماء خلال القرن الحادي عشر الهجري، نتيجة لانتشار الحركة الثقافية بالبادية، فقد درس اليوسي على شيخين من شيوخها المشاهير هما: أحمد بن محمد التجموعتي[5] الذي قرأ عليه: «جملة من مورد الظمآن وجملة من مختصر خليل، ومن القرآن»[6]، ثم محمد بن محمد التجموعتي[7] الذي يقول عنه: «قرأت عليه معظم ألفيه بن مالك والقرآن»[8].

1- فقيه ومحتسب فاس، حسنت سيرته في الحسبة (ت: 1096 هـ). نشر المثاني/2: 330. ورد اسمه في مواضع من كتاب القانون.

2- الفهرست: 53.

3- رسائل اليوسي/1: 146.

4- تبعد عن الراشدية بنحو ستين كلم.

5- من علماء سجلماسة، (ت: 1080 هـ). التقاط الدرر: 200.

6- الفهرست: 53.

7- عالم محقق، (ت: 1088 هـ). التقاط الدرر: 200.

8- الفهرست: 53.

ولم يفت اليوسي وهو يدون لمرحلة الصبا، أن يثني خيرا على شيخه أبي إسحاق، ضمن شيوخه الذين أخذ عنهم بمسقط رأسه، إذ قال فيه: «كان رحمه الله تاليا لكتاب الله متعففا عن محارمه محافظا على دينه... ومن أحسن ما استفدت على يده، أنه كان عنده مجموع فيه "المورد العذب" لابن الجوزي و"بحر الدموع" له، فكنت آخذه أنظر فيه، فأطالع حكايات من فيه من الصالحين، فانتقشت تلك المآثر في عقلي ووقعت حلاوتها في قلبي، فكان ذلك بدرا لما أنعم الله تعالى به من الإيمان بالطريقة، ومحبة أهلها والتسليم لهم»[1].

وبذلك يكون ميسم هذا الشيخ هو المعطى الأول في شفافية روح اليوسي، وقاعدة البناء الصوفي لديه طول حياته، وعليها سيعتمد ابن ناصر في تطوير ذلك الجانب من شخصيته الغنية، يوم يشد الرحال إليه بزاويته بدرعة.



أبناء اليوسي و أمواله

تحدثت المصادر التاريخية عن أبناء اليوسي بكيفية عرضية، فأشارت إلى البعض منهم، وسكتت عن البعض الآخر، بل من هذه المصادر من قدرت تاريخ وفاة بعض هؤلاء الأبناء كفقهاء تقديرا غير سليم[2]، وهو شيء يعزى إلى ندرة المعلومات الدقيقة المتعلقة بهذا الموضوع.

ولسد هذا النقص أمدني أحد حفدته[3] مشكورا بوثيقتين عدليتين، يرجع تاريخهما إلى سنتي 1113 هـ وسنة 1151 هـ، أي بعد سنوات قليلة من وفاة الإمام اليوسي سنة

1- الفهرست: 45.

2- الأعلام/6: 7.

3- المرحوم الأستاذ الحبيب شرف، رئيس غرفة الأحوال الشخصية بمحكمة الإستئناف بفاس سابقا.

1102هـ، وتتعلقان بمعالجة ما يثور عادة بين الورثة من نزاعات وخصومات، حول ضبط وقسمة تركة الهالك، ومن خلالهما تمكنت من التعرف بدقة، على عدد أبناء اليوسي ذكورا وإناثا وأمهاتهم، إضافة إلى حسم الخلاف في تاريخ وفاة اليوسي »[1].

والوثيقتان بالإضافة إلى ما ذكر، تتعرضان لضبط أملاك اليوسي في مناطق مختلفة من المغرب، مما يسمح بالقول: إن غنى اليوسي ووفرة ماله، قد ساعدا على تعزيز موقفه من السلطة في زمنه، لما كان يتمتع به من استقلال اقتصادي، غير خاضع لإجراء المرتبات عليه، وذلك في عهد المولى إسماعيل خاصة، لما لعنصر المال من دور هام في استقلالية العالم، وضمان القيام برسالته في كل الظروف والملابسات.

زوجات اليوسي

تزوج اليوسي بالحرائر والإماء، فقد ذكر في وصيته لأبنائه حكم الشرع في الحرائر، بينما تعمد عدم ذكره في الإماء، لتطبيق حكم الرقيق عليهن، وهو أمر معلوم فقهيا، من غير أن يذكر اسما لإحداهن، ولعل السبب في ذلك، حرص اليوسي على التقيد بأحكام الشرع الإسلامي، في شأن صيانة الزوجات، والحيلولة دون تمكين الأجانب من التعرف عليهن، وهو سلوك ديني أخذ به أبناءه أيضا في تربيته لهم، تربية إسلامية صميمة، مع الحفاظ على أصولهم البدوية الصرفة.

وقد كان في عصمة الإمام اليوسي أربع زوجات، أستعرضهن فيما يلي، بحسب الترتيب المستخلص من بعض الوثائق العدلية. وكذا ما ورد في شأنهن من معلومات مبثوتة في المظان.

1- ابن مخلوف في شجرة النور الزكية، حيث ذهب إلى أن وفاته كانت سنة 1111هـ، وكذا صاحب هدية العارفين/1: 296، وإيضاح المكنون/1: 275، والجبرتي في عجائب الآثار/1: 68، وجرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية/3: 285، وعبد الرحمن الفاسي، الذي حددها في سنة 1120هـ، في مقالة له بالمناهل. عدد:15. ص: 149.

1- السيدة عزيزة، التي تزوجها لأول مرة خلال إقامته بالزاوية البكرية، وأم ولديه محمد ومحمد (فتحا)، وقد ذكر في المحاضرات ظروف حمل هذه الزوجة بابنه محمد الكبير، وما عانته من غم بسبب تراخي الولادة عنها [1].

وقد توفيت هذه الزوجة بالزاوية الدلائية، كما تؤكده إحدى رسائل اليوسي إلى التستاوتي التي جاء فيها «فكانت زوجتي أم الأولاد -رحمها الله تعالى- وأنا بالزاوية البكرية».

2- السيدة وزي بنت الشيخ عبد القادر الحمادي المعروف بالتستاوتي، الذي جاء في إحدى رسائله المؤرخة في عام 1079 هـ، إلى الشيخ ابن ناصر الدرعي، ملتمسا منه الدعوات الصالحات لأزواجه وأولاده قوله: «ولي بنت أشهد أني زوجتها من يدي الحسن اليوسي، أطمع أن أفدي بها رقبتي من النار، فادع الله لصلاحها، وأن يجمعها في خير وعافية»[2].

وقد رزق اليوسي من هذه الزوجة، بولدين: عبد الله بن الحسن، و عبد الكريم، وأخت شقيقة تسمى أم كلثوم، حسبما ورد في الوثيقة رقم: 1، المتعلقة بالمفاصلة بين عبد الله المذكور، وبين أخيه لأبيه محمد، والتي جاء فيها: «أشهد كاتبه عبد الله بن الحسن اليوسي عفا الله عنه على نفسه، أنه تفاصل مع أخيه الأجل أبي عبد الله السيد محمد بن الحسن اليوسي، في جميع متروك والدنا رحمه الله، وأنه توصل بجميع نصيبه ونصيب أخيه الشقيق عبد الكريم، وأخته الشقيقة أم كلثوم».

وقد بقيت رابطة المصاهرة قوية بين التستاوتي وأبناء اليوسي بعد وفاة أبيهم، من خلال إسداء النصح لهؤلاء الأبناء، و توجيههم حتى لا يخرجوا عن نهج أبيهم، وموروث أجدادهم، كما جاء على لسانه: «أنزهكم أن تقنعوا بسابق الجاه، أو أن تكتفوا بما تقدم

1- المحاضرات/1: 184-185

2- نزهة الناظر/1: الورقة: 18 ص: 43.

من الارتفاع، أو تحيدوا عن طريقة والدكم، أو تظهروا خلاف ما كان يظهر أسلافكم لقاصدكم، أو يغرنكم إقبال الناس عليكم، أو تميلوا إلى الدنيا... ولا تغتروا بمدح العامة، ولا بثناء الخاصة، حتى تروا الأمر عيانا، وبئس الرجل من يقول كان أبي، واتقوا الله ما استطعتم... واحسنوا إلى أصحاب والدكم رحمه الله، وإلى أولاده وبناته وأزواجه وخدمه وكل من انتسب إليه».

3- السيدة الزهراء بنت محمد الشرقية، الملقبة بالطالبة زهراء الصميلية الفاسية، وقد تحدث عنها الكتاني في ذكر أسانيد الرواة، الذين رووا عن اليوسي، لما عرفت به من صفات الضبط والتحري، فقال: «نروي ما لأبي علي اليوسي المذكور، عن طريق عبد السلام بناني[1]، وأحمد المشتوكي [2] عنه (ح)[3]، ومن طريق العربي الرباطي، عن أبي الحسن العكاري [4]، وغيره (ح) وبأسانيدنا إلى ابن الطيب الشرقي[5] عن عمته الزهراء بنت محمد الشرقية، زوجة أبي علي اليوسي»[6].

والذي يستفاد من قراءة الوثائق المذكورة، فإن الاسم الكامل لهذه الزوجة هو: الطالبة زهراء الصميلية الفاسية، نسبة إلى مدينة فاس، وليست الشرقاوية نسبة إلى الزاوية الشرقاوية كما يظهر، للعلاقة الوطيدة التي كانت تربط بين محمد الصالح[7] الشرقي وشيخه

1- سأفرده بترجمة خاصة كتلميذ لليوسي لاحقا.

2- " " " " "

3- إشارة إلى تحويل السند.

4- سأفرده بترجمة خاصة كتلميذ لليوسي لاحقا.

5- هو شمس الدين بن الطيب بن موسى الصميلي الفاسي المدني، لغوي ومحدث كبير (1110-1170 هـ). الحياة الأدبية: 258.

6- فهرس الفهارس/2: 468.

7- سأفرده بترجمة خاصة كتلميذ لليوسي لاحقا.

اليوسي، عقد عليها يوم كان مقيما بالزاوية الدلائية، خلال الفترة الممتدة من سنة 1065 هـ إلى سنة 1079 هـ، وقد أنجبت له المسمى محمد العربي، وبنتا تدعى عائشة.

4- السيدة لمو بنت عبد الرحمن اليازغية، نسبة إلى بني يازغة القبيلة المشهورة، التي خصها الحسن الوزان بترجمة وافية [1]، والتي يفصلها عن قبيلة آيت يوسي "وادي سبو"، ومن ضمن مداشيرها: "القصبة" وهي تتراءى للناظر من "تمززيت"، حيث ضريح العلامة الحسن اليوسي.

وقد رزق الله اليوسي من هذه الزوجة بنتا واحدة تدعى فاطمة البغدادية، وقد ذكرها أخوها لأبيها عبد الله بن الحسن في تعداده للورثة، في رسم المفاصلة، المؤرخ في سنة 1113 هـ.

وهذا التقارب العائلي، هو الذي يفسر اطراد عادة القيام بزيارات موسمية، لضريح اليوسي حتى عهد قريب، من طرف أهالي مداشر قبيلة بني يازغة. كما سبق الحديث عن ذلك.

أبناء اليوسي

اتضح لنا من خلال تحليلنا للنقطة المتعلقة بأزواج اليوسي أنه خلف خمسة أولاد، هم على التوالي: محمد، ومحمد (فتحا)، وعبد الله، وعبد الكريم، والعربي، وثلاث بنات هن: أم كلثوم، وعائشة، وفاطمة البغدادية، ويحسن في هذا المطلب أن أتعرض لهؤلاء الأبناء وبخاصة الفقهاء منهم.

1- محمد بن الحسن اليوسي

هو أفضل إخوته علما وفضلا ونباهة، خصه صاحب السلوة بترجمة ضافية جاء فيها «قال بعض من ألف في التعريف بوالده المذكور، لما تعرض لذكره ما نصه: كان أكبر أولاد الشيخ رضي الله عنه، ورث عن والده جميع العلوم... وحاز قصب السبق في ميدان

1- وصف افريقيا/1: 361.

الفهوم، جلس في موضع والده الرفيع، فتكلم بلسانه البديع، وتزيا بسمته، وتحلى بوصفه ونعته، فكان علامة زمانه، ووحيد عصره وأوانه.

ظهرت عليه مخايل الصلاح، وركب نهج الفلاح والنجاح، وكانت لـه اليد الطولى في تدريس الحديث والتفسير، والباع المديد فيما سواهما من الفنون، مع ما لـه في ذلك من حسن الإيضاح والتعبير، إلا أنه كانت في لسانه لكنة، تعقل اللسان عن إستيفاء أداء جميع ما حواه الجنان، لكن قلمه كان يترجم عن علمه، ويعبر عن أبلغ فهمه، ففيه ظهرت مخابع صدره، وعنه برزت ربات خدره، فلم تطل مدة حياته بعد والده، إلى أن مرض مرضه الذي توفي منه، بمدينة فاس أدامها الله للإسلام، في شهر ربيع الأول عام ستة ومائة وألف، ودفن بالقرب من ضريح سيدي علي بن حرزهم نفعنا الله ببركاته، ثم أخرجه شقيقه سيدي محمد العياشي، ودفنه مع والده بتمززت، ثم لما نقل والده، نقله معه إلى الضريح الذي أحدثه بعين تمززت، ودفنه خلف ظهر والده المذكور»[1].

يشهد لذلك ما دار بينه وبين أبيه من مراسلات ومخاطبات شعرية، أشار إلى البعض منها في كتاب "الديوان" الشعري الذي جمعه وطبع بفاس حوالي سنة 1328 هـ موافق 1920م.

قال: «وكتبت له أيضا رضي الله عنه كتابا وهو بفاس ونحن بالبداية، وفي أثنائه:

سلام وما التسليم مني بنافع ❖ إذا لم أقبل بين تلك الأنامل

فأجابني رضي الله عنه:

سينفعك التسليم يا فلذة الحشا ❖ وإن لم تقبل بين تلك الأنامل
وذلك أن القلب ينمو وداده ❖ بكل جميل يرتضيه لفاعل
وإن لم تقبلها بفعل فنية ❖ يجازى بها الإحسان كل مجامل

1- السلوة/3: 81 - الأعلام/6: 4.

فأعطاك رب العرش علما وحكمة ❖ وصونا وسرا بارها في المحافل[1]

بعض آثاره

من آثاره كتاب سماه "تنبيه الإخوان على ترك البدع و العصيان" و هو مخطوط يوجد في خزانة زاوية "تنغملت" بإقليم بني ملال تحت رقم: 282.

كما ألف "الرحلة الحجازية" نبه فيها على أنهم وصلوا مراكش أول ربيع الثاني سنة اثنين وتسعين وألف، وسلكوا طريق رباط سلا، ثم رباط آزمور، وبعد ثلاث سنين رحلوا منها يوم الإثنين لثلاث بقين من صفر لقرية الزاوية البكرية، وفيها قال والده: بنو إسحاق كلهم عراقى الخ... وخرجوا منها يوم الإثنين أوائل رجب عام 1098 هـ، ونزلوا بشعاب حمود، ورحلوا منها أول صفر إلى قرية صنهاجية: صفرو، ونزلوها يوم الأحد التاسع من الشهر، و لم يلقوا دارا ولا جارا، ولا منزلا ولا قرارا، فبئست القرية:

فلو أبصر الشيطان صورة وجهها ❖ تعوذ منها حين يمسي و يصبح

وأما ناسها فكأنهم خشب مسندة، ثم رحلوا منها يوم الأربعاء أواسط جمادى الثانية عام مائة وألف، ونزلوا فاسا يوم الخميس من غده بدار علي ابن رحمون بدرب العلوج بالطالعة، ولها باب ينفذ لدرب السراج، فلم تستقم له أيضا سكنى، وبقوا فيه سبعة أشهر ونصفا، وخرجوا منه يوم الأحد لثمان بقين من الحرام لتمام المائة، ونزلوا بقرية "تمزريت" -أولاد عباد- وهي بلدة قليلة خالية من شياطين الإنس، وأهلها همج مسلمون لا ينفعون ولا يضرون، وهنا خلفوا العيال، فخرج مع والده من الدار يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الأولى عام واحد ومائة وألف، وتوجه والده لفاس فأقام فيه شهرا ويومين، ثم خرج الركب ورحل منه يوم السبت الرابع عشر من جمادى الثانية...

1- الديوان حرف اللام. طبعة حجرية.

ثم وصلوا مكة، وأقاموا بها خمسة عشر يومـا، ثم زاروا المدينة المنـورة، ثـم رجعـوا إلى مصر، فوجدوا الشيخ الخرشي توفي رحمـه الله، وأقاموا بمصر أربعة أشهر وتسعة أيـام، ثم خرجوا من مصر يوم الخميس الخامس عشـر مـن جمـادى الثانيـة، ثـم كتـب لـه أخـوه العلامة سيدي محمد مع الركب الشرقي، الذي تلاقوا به بالصحراء قبالة طرابلـس، وبلغـوا عين ماضي خامس شوال، ثم بلغوا تازة، ووجدوا هناك أخـاه الشـقيق والإخـوة الصغـار، وبلغوا الدار بتمزريت يوم الأحد الخامس والعشرين من شوال. انتهى ملخصا مـن الرحلـة الحجية.

والممعن للنظر في هذه الرحلة، يجدهـا قـد اشـتملت علـى فوائـد لا تنكـر أهميتهـا، فالذي يظهر أن مؤلفها كان يدون كل الأحداث والوقائع والأخبار الـتي اسـترعت انتباهـه طوال مراحل سفره مع أبيه، وبخاصة ما تعلق بإجازة الحسن اليوسي للشيخ الخرشي شارح "مختصر خليل" المالكي، مما يحمل علـى الظـن أن الشـرق كمـا جـاء علـى لسـان اليوسـي نفسـه، بعـد أوبتـه مـن مناسـك حجته: «لم تـعد هنـاك من تشـد إليـه الرحال في العلم»[1] و بخاصة و المجاز يعني الخرشي هو من هو في علمه وقدره.

خلف الفقيه محمد بن الحسن اليوسي بعض الأشعار، غير أنهـا فيمـا يبـدو لا تجمـع العناصر الفنية للشعر في مفهومه الدقيق، وإنما هي أراجيز ذات مسحة صوفية، لمـا تضمنتـه من مدح للأولياء والصـالحين، ويكفـي أن أسـوق هـذه الأبيـات للوقـوف علـى شـاعريته المهزوزة.

جاء في مخطوطة[2] ما نصه: وللنجل الصالح أبي عبد الله محمد بن سـيدنا الحسـن بـن مسعود قدس الله ضريحهما في الجنان:

1- يقال إن الباعث على القول هو ما لاحظه اليوسي من لحن في سرد أحاديث صحيح البخاري مـن قبل العلامة الخرشي المجاز.

2- مخطوط الخزانة العامة رقم: 612 ج.

صـاح إن رمـت نـوالا وزو ❖ را ورجوت الحصن من درهم كسر
فـارج العيش وعج نحو الـذي ❖ سطـع النـور عليـه و بهـر
وانـح ركبك من بـاب الـذي ❖ هو حصـن ومـلاذ للبشـر
وهـو ركـن وغيـاث للـورى ❖ وهو كهف وعـلاج للضـرر
ثم بـث الشكوى وأقصصها على ❖ غوث هذا القطر بدوا وحضـر
واخضعن بيـن يد الشيخ وتـلا ❖ بلسان خاشـع قلبـي انكسـر
يا أبـا يعزى[1] الجـواد المرتـضى ❖ أغث الملهوف واجمع ما انتشـر
وامنحـن العـاص ما أملـه ❖ واعطـه السؤلـى جميعا والوطـر
وارحـم الضارع واعطـف غـده ❖ واسقه كاسات خمـر منتشـر
وتشفعـت وقدمـت لكـم ❖ أحمد المبعوث من نسـل مضـر
وبـآل وصحـاب بعـده ❖ تكـرم العبـد يا كنـز المدخـر
وجـميع الأهـل والإخـوان مـع ❖ كـل من زار ضريحـا وجـار
وعلى الكـل صـلاة دائـما ❖ ما هـم وابـل قطـر وانهمـر

والذي يظهر في هذه الأرجوزة، المنظومة على سبيل استعطاف الشـيخ أبـي يعـزى، الذي اشتهر أمره في بلاد تادلة، أن ناظمها قـد تـأثر بأبيـه في مسـألة الطـواف علـى قبـور الصالحين، فاليوسي أيضا مدح العديد من الأوليـاء كبوعبيـد الشرقـي، وعبـد السلام بـن مشيش... وهو حب للولي فيه شطط ولا يستساغ عقديا.

وتأثرا بالجو الصوفي المهيمن، يظهر أن محمد اليوسـي هـذا كـان يتطلـع إلى الزعامـة الصوفية، واستقطاب المريدين، وما ينشأ عن ذلك من تنـافس حـول المشـيخة، يستشـف هذا من رسالة الشيخ التستاوتي التي وجههـا إليـه في هـذا الشأن «من أحمد بن عبد القادر كان ا لله له، إلى أخيه وسيده كان ا لله لـه، إلى أخيـه وسـيده السـيد محـمد بـن مسعـود،

1- سبقت ترجمته في هامش ص:

رزقنا الله وإياكم الموافقة فيما يحب ويرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فهاهنا مسألة معتاصة، لم يجد الحبر لها خلاصة، وقد علمت أن أمور الغيب خارج الفتوى، ومن لم ينظر لحقائق الأشياء بنور بصيرته، فحسبه النظر إلى ظواهرها بنور العلم مع تحسين سريرته.... وبأي وجه يغضب والدك على من لم يصله من أصحاب الشيخ، ويأنف ممن وصلنا الله أمره بذلك، فنسلم تسليم أم إسماعيل عليه السلام، هو شيء مستنده الإجتهاد، ومنع الواردين، وزيارة غيركم، مشعر بتزكيتكم لأنفسكم... وما يدريكم أن المدد منا، وإن كانت الزيارة لكم»[1].

خلف محمد اليوسي هذا ولدا يدعى محمد الشاذلي، وبنتا تسمى آمنة، إلا أنهما ماتا صغيرين، وبذلك انقطع نسله.

2- محمد (فتحا) ابن الحسن اليوسي:

هو الابن الثاني لليوسي، وقد حل محل أبيه في تدبير شؤون الزاوية، والسهر على الأهل بعد مماته، وكان من الفضلاء ذا علم ومروءة، عاش بمراكش بصحبة أبيه يوم كان مقيما بها، كما ذكره ابن ابراهيم: «ثم إن اليوسي كان عنده ولدان إثنان، كل منهما يسمى محمدا، وكانا معا في مراكش حين كان والدهما هناك، أما أحدهما فتقدمت وفاته وهو الذي مات عام1107 هـ، وأما الثاني فتأخرت وفاته بعد ذلك فقد كان حيا سنة 1109هـ»[2].

وإمعانا في التمييز بين الإخوين المذكورين في النص، أقول إن الذي مات سنة 1107هـ، هو محمد الكبير، وقد سبق الحديث عنه، والذي امتدت به السنون إلى سنة 1109هـ، هو مَحمد (فتحا)، وإن كان تحديد وجوده حيا سنة 1109هـ لا يستقيم، بل الثابت أنه عاش إلى ما بعد سنة 1119 هـ.

1- نزهة الناظر/1: الورقة: 57 ص: 111.

2- الإعلام/6: 7.

وتسكن طائفة من عقبه اليوم، بجوار ضريح الحسن اليوسي، وطائفة أخرى منهم بدوار "أزكان"[1]، و ثالثة بدوار "المتربة" على بعد خمسة عشر كلم، من مدفن جدهم الأكبر الشيخ اليوسي.

خلف كتبا منها المنثور والمنظوم، غير أنها ضاعت فيما يبدو نتيجة الإهمال، فحتى عهد قريب[2] حسب روايات[3] حفدته الملقبين "بآيت الصفاح" فإن بعض هؤلاء كانوا يستعملون كتب ومخطوطات جدهم هذا، وجدهم الأكبر الحسن اليوسي في تلفيف التوابل، نظرا للأمية التي كانت متفشية فيهم، والجهل يفعل بالإنسان ما لا يفعل العدو بعدوه.

على أن المصادر مع ذلك، احتفظت ببعض النتف لهذا الرجل، تؤيد ما ذهبت إليه، فقد نقل صاحب الإعلام عن الرحلة الناصرية، ما كتبه مؤلفها الشيخ أحمد الناصري[4] في شأن الخطاب الذي بعث به إليه محمد بن الحسن اليوسي، أثناء رحلته الثالثة فقال:

«ويوم رحيلنا من هذه الدار، بعد الرحيل من توزر في 8 رجب سنة 1110 هـ، رجعتنا عام عشرة، التقينا بالركب المشرقي، وأميرهم الحاج الحسيني الفاسي[5] رحمه الله وأتونا بكتب من أهالينا ومن أهل محبتنا، وبعث الأخ سيدي محمد بن الحسن اليوسي كتابا فيه قصيدة نصها:

كتبت ودمعي واكف العبرات ❖ وقلبي حزين دائم الزفرات

وقد فتكت أيدي النوى بجوانحي ❖ وجسمي، فهل من عودة لحياتي

1– ومن حفدته السادة: شرف محمد، أستاذ بكلية الحقوق بوجدة حاليا. شرف المجاهد، أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان.

2– يعني خلال الأربعينات والخمسينات.

3– من خلال اللقاءات التي أجريتها مع ذوي الفضل والدين منهم.

4– أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، عالم باللغة والتاريخ (ت: 1129هـ). التقاط الدرر: 312.

5– الحاج بن العربي العراقي الحسيني، اشتهر بفاس بالجذب(ت: 1116 هـ). التقاط الدرر: 293.

وهل يا نس المهجور بعد بعاده ❖ ويشهد جمع الشمل بعد شتات
وقد سار قلبي تابعا لمسيرهم ❖ وخلف جسم الصب بين عداتي
إلى الله أشكو ما ألاقي وأنه ❖ بحالي بصير عالم الخفيات
فواحزني ماذا أجد من الأسى ❖ ومن مضض الأحزان و الحسرات[1]

ويمكن القول إن محمدا العياشي هذا، كان أمتن أسلوبا وأطول نفسا في الشعر، وأكثر إلماما باللغة والأدب، من أخيه السابق الذكر، كما يتجلى من خلال هذه الأبيات المستدل بها، من أصل القصيدة الطويلة.

ونفس الاستنتاج ينسحب على ما جاء في رسالة بعث بها محمد العياشي هذا، إلى التستاوتي جوابا على كتابه، الذي حرره في أعقاب خروجه من السجن، معزيا في شقيقه محمد الأكبر رحمه الله، إذ قال ما نصه: «وادع سيدي لغلامك بالإعانة على أداء الحقوق المفروضة والمحبوبة والمبغوضة، وأن يجيرنا من خداع النفس، وأن يلطف بنا في الحياة وبعد حلول الرمس، وقد تنفست مع مولاي في هذه البطاقة، وإلا فلست من هذه الساقة، وأنا على محبتكم ومودتكم...

ياموقضي من غفلتي ❖ ومنبهي من رقدتي
أوقد لنا من نوركم ❖ قبسا يضيء جذوتي
كيفما نفوز بقربة ❖ وبعطفة و بمنحة
وارحم بفضلك غربتي ❖ وتفردي، هم وحدتي[2]

1- انظر القصيدة كاملة في الإعلام/6: 7.

2- نزهة الناظر/1: الورقة: 71 ص: 114.

ونشير أخيرا إلى نسخه لكتاب "القانون" موضوع تحقيقنا، ومما وجد بخطه: «بلغت المقابلة إملاء على الشيخ الوالد، وسردا عليه رحمه ا لله حرفا حرفا... صبيحة يوم الأحد آخر شهر صفر عام أحد ومائة بعد ألف تقبل ا لله... في الدارين آمين».

3- عبد ا لله بن الحسن اليوسي:

في عداد الفقهاء، كان حيا سنة 1113 هـ، لم تتحدث عنه المصادر بالمرة وله عقب يقطنون اليوم بمداشر "ظهر الخروب"، و"دار بن علا"[1].

4- عبد الكريم بن الحسن اليوسي:

هذا هو الابن الرابع لليوسي، ظفر بحظ من العلم، وامتد به الأجل إلى ما بعد سنة 1126هـ، حسبما وجد مكتوبا بخطه في أسفل كتاب "شفاء السائل" لابن خلدون، الذي قدم له المرحوم الأستاذ ابن تاويت «ثم صار إلى أحوج العباد إلى ا لله تعالى عبد الكريم بن الحسن اليوسي، كان ا لله له آمين، عام ستة وعشرين ومائة وألف»[2]، والمنتسبون إليه من الأحفاد يقطنون اليوم بمداشر "مشكة[3] ولقليعة" على بعد أربعة كلم من ضريح الإمام اليوسي.

1- من حفدته السادة: الدكتور أحمد الدويري أستاذ بكلية الآداب بمكناس. والدكتور علال الدويري، أستاذ بكلية العلوم بالقنيطرة.

2- مخطوط الخزانة الملكية. رقم: 3396 ص: 1.

3- من حفدته السادة: الدكتور محيي الدين أمزازي الأستاذ بكلية الحقوق بالرباط سابقا، العامل الملحق بوزارة الداخلية، مدير وحدة التنسيق لمكافحة المخدرات، من أعماله الفكرية في القانون الجنائي المغربي: "العقوبة ؟". محمد صفوان، أستاذ بكلية الآداب ببني ملال.

5- العربي بن الحسن اليوسي:

يعرف بأبي محمد العربي، أصغر إخوته جميعا، مات في سفرة إلى الصحراء، قصد تعزية أهل الشيخ أحمد ابن ناصر المتوفى سنة 1129 هـ، ودفن "بزاوية البركة" للشريف سيدي الغازي السجلماسي[1] بنواحي زاكورة.

ولما توفي سيدي العربي المذكور، ورثه أمه السيدة الطالبة زهرة الصميلية، وأزواجه الثلاث: صفية بنت محمد أيت هدى، والسيدة فاطمة بنت يحيى اليوسي، والسيدة فاطمة بنت أحمد النسب، وأولاده، فمن صفية: سيدتان فاطمة وزهرة. ومن فاطمة بنت يحيى اليوسي: سيدي أحمد وسيدي محمد الراضي، والسيدة نفيسة والسيدة حفصة. ومن فاطمة بنت أحمد: سيدي عبد السلام.

وينقسم المنتسبون إليه حاليا إلى ثلاثة فروع هم : "آل بن العربي"[2] و"آل بن الشاذلي"[3]، و"آل الغازي بن علال"[4] ويقيمون جميعا بجوار ضريح جدهم الأكبر الحسن اليوسي "بتمززيت".

1- هو أبو القاسم بن محمد بن عمر بن أحمد السوسي الأرغني قبيلة معروفة بسوس، (901- 962 هـ)، من كناشة الغازي الحاج أحمد بن علي، نقيب الشرفاء الغازيين بسلا. ومما اتفق لي خلال زيارتي للزاوية الناصرية في شهر يوليوز 1987 أني التقيت أحد حفدته بنظارة الأوقاف بزاكورة.

2- ومن حفدته: عبد ربه حميد بن عبد القادر بن (حماني: تصغير محمد في عرفهم) بن أحمد، بن العربي، بن عبد الرحمن، بن إدريس، بن أحمد، بن العربي، بن أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي.

3- من حفدته السادة: الأستاذ محمد بن العربي نبيل. وشقيقه إدريس نبيل، مهندس الدولة بوزارة الطاقة والمعادن. ومحمد نبيل العقيد بالبحرية الملكية. وعبد الله نبيل مدير تشييد الخطوط الهاتفية.

4- ومن حفدته السادة: حسن مهليل الإطار السامي بإدارة الدفاع الوطني. وشقيقه عبد الرفيع مهليل العضو في مجلس المستشارين حاليا. والدكتور العربي رضوان أستاذ بكلية العلوم بفاس. وشقيقه محمد رضوان المستشار بمحكمة الإستئناف بفاس. والدكتور عبد اللطيف المقدم، أستاذ بكلية الحقوق بفاس.

وأقول كلمة أخيرة عن بنات اليوسي الثلاث: أم كلثوم، وعائشة، وفاطمة البغدادية. أما أم كلثوم فقد توفيت قبل سنة 1113 هـ، بينما عمرت عائشة طويلا، امتد بها الأجل إلى ما بعد سنة 1151 هـ، وهي زوجة الأستاذ الفقيه سيدي سعيد بن محمد اليوسي، بقيت الثالثة، أي فاطمة البغدادية، فهي زوجة أحمد بن يعقوب الولالي[1]، كما جاء في قوله: «وقد كنت خطبت بنت الشيخ العلامة ابن مسعود اليوسي، وكانت بعض العوارض تعرض في زواجها، فكنت أتردد هل يكمل أمرها أم لا، ثم توفي بعض أقاربها، فأرسلت ولد أخينا لينوب عني في تعزيتهم، وأمرته أن يلقى بعد التعزية الشيخ أحمد[2] ﷺ، فلما عزاهم لقيه، فقال له مبتسما: قل لعمك لم لا يأتي لتعزية أصهاره، فلما رجع ولد أخي قلت له، وما قال لك الشيخ ﷺ، فأخبرني بأنه قال: لِمَ لم يأت لتعزية أصهاره؟ فقلت سيكونون أصهارا إذا قال الشيخ أحمد ذلك، فكان الأمر كذلك بإذن الله[3].

وهؤلاء الأحفاد، هم الذين يسهرون اليوم مناوبة على شؤون الزاوية اليوسية، بنواحي مدينة صفرو، كامتداد للزاوية الناصرية، التي لم يقتصر تأسيسها على القطر السوسي، بل عمت أنحاء المغرب، فهي في الدار البيضاء وسطات، والرباط وسلا، ومراكش، حيث أسس الشيخ اليوسي فرعها برياض العروس «حسبما حدث به سيدي الأمين الناصري، وكان يشتري بها كتب الدلائيين التي تباع بها»[4].



1- سأفرده بترجمة خاصة كتلميذ لليوسي لاحقا.

2- أحمد بن محمد بن الولي العارف با لله، أبي العلاء إدريس اليمني الشريف، شيخ صوفي، قادري الطريقة، (1040-1113 هـ). التقاط الدرر: 281.

3- مباحث الأنوار مخطوط الخزانة العامة. رقم: 2305. ص: 358.

4- الإعلام/3: 163.

أموال اليوسـي

جاء في فهرسة اليوسي ما نصه : «... ثم ذهبنا لزيارة الشيخ أبي يعـزى، ووقـع في سمعي أن الناس يطلبون الحوائج عنده، فحضر في عقلي ثلاث حوائـج، وهـي العلـم والمـال والحج، وذلك مبلغ عقلي في صغري، فأما اثنتان فقد حصل منهما ما لا ننكـره مـن فضـل الله تعالى له الحمـد والمنـة، وأمـا الثالثـة فـنرجو مـن فضـل الله أن يمـن بهـا علينـا مـبرورة مستقبلة، وسببا للفوز برضاه ونعماه في الدارين»[1].

وقد تحقق لليوسي فعلا، ما كان يراود نفسه من أحلام، وهو لايزال صبيا ساذجا، فأنعم الله عليه بالعلم الغزير والمال الوفير، وإن كان ذلك المال قـد جـر عليـه نقمـة بعـض معاصريه فاتهمه قاضي سجلماسة عبد الملك التجموعـتي، باستغلاله للطريقـة الناصرية في جمع الأموال والتكالب على حطام الدنيا، فقال: «وكانت طريقتـه[2] ﷺ أويسـية[3] وهمتـه قدسية بيضاء بلجاء، ولما تعلقت بها أنت وأمثالك، من الواردين من ضـواحي أطـراف الغـرب، تـدنست وتكـدرت، وصارت بين عوجاء وعرجاء، قد اتخذتموهـا لجمـع حطـام الدنيا وسيلة ومكيـدة، ونصبتم على كل ثنية حبالة ومصيدة...»[4].

غير أن هذه الفرية، مردودة على التجموعتي ولا أساس لها من الصحة، ولا تنال من ورع اليوسي وزهده في الدنيا بحال من الأحوال، فقد نص في أكثر من موضـع، ولاسـيما في رسائله الصوفية الموجهة للمقدمين، على ترك بعض العوائـد السيئة كجمـع الزيـارات، وتكليف الناس ما لا يطيقـون، بقوله: «وصورة ذلك الفعل أنكـم إذا نهضتـم إلى الزيـارة،

1- الفهرست. مخطوط الخزانة العامة. رقم: 1418ك. ص: 49.

2- المقصود به الشيخ ابن ناصر الدرعي، شيخ اليوسي.

3- نسبة إلى أويس القرني الصوفي الشهير، المتوفى سنة 37 هـ. الأعلام/1: 375.

4- خلع الأطمار البوسية عن الأسطار اليوسية. مخطوط الخزانة العامة. رقم: 115ج. ص: 388.

تتقدمون إلى كل من ينتسب نسبتكم، فتقولون له أعطنا حقك من الزيارة، وتدقـون عليـه باب داره ليخرج، أو تطرقونه في حانوته... ونحو هذا.

فهذا كله قبيح إن وقع منكم، فـاتركوه ولا تعـودوا إليـه، فـإني أبـرأ مـن كـل مـن يشتغل بذلك أو مثله، فإن هذا يدخل حرجا في قلوب الفـقراء، ويضيـق صدورهـم ويكـره لهم طريق الله تعالى، فاتركوا هذه الطرقات، ولا تظنوا أن المقدم يكون بمنزلـة الوالي علـى بلد يأخذ جبايته، ويجمعها إلى من ولاه، معاذ الله أن تكون طريقة الصالحين هكذا، فليـس مقدم الفقراء متقدما لقبـض الصدقات، وجمع حطـام الدنيا، بل لإرشاد الإخـوان والسـعي في مصالحهم في دينهم»[1].

ومن هنا يتضح بجلاء موقف اليوسي من هذه العادات السـيئة وشـبيهاتها، و أن مـا رمـاه بـه عبـد المـالك التجمـوعتي سامـحه الله، إنما كان صادرا عنـه في ظـروف خاصـة، وذلك في أعقاب رد اليوسي عليه في مسألة العلم النبوي.

فهـو مـع إيمانـه بضـرورة وجـود الخطـط الشـرعية، وإسنادها لأولي العلـم والملكـة الفقهية، لم يكن ليتولاها اتقاء لما ذكر، رغم العروض التي قدمت لـه مـن طـرف السـلطان المولى الرشيد، فقد جاء في رسالة جواب الكتاب ما نصه: «وأما قول الكُتّـــاب: وعــرض عليك القضاء فأبيت وهربت لتدريس العــلم، فاشـترط عليك بفاس، فأقول ليـس كذلـك وقع، والخائضون في القيل والقال يكذبون... وإنمـا صـورة القضيـة، أن وقـع تشـاجر بـين القاضي والمفتي بين يديه، فعزلهما معا وأنا غائب عن ذلك المجلس، فلما وقع ذلك تكلم في شأني، وسأل الحاضرين هل أقبل الفتوى والقضاء، فقال الحاضرون كسيدي عبـد المـالك، أما القضاء فلا يقبله بوجه ولا بحال، وأما الفتوى فليس فيها مضرة، إنما فيهـا زيـادة علـم، فلما حضرت في الغد خاطبني بكلام لطيف، قــال يـا فـلان هـل تقـوم لنـا بهـذه الفتـوى؟

1- رسائل اليوسي/2: 389-390.

فاعتذرت له بنوازل قد ألقت برأسي، تمنعني من كثرة السهر والمطالعة، فأمسك و لم يزد»[1].

بل عرض عليه مدخول جزية ملاح، أو قبيلة يقبض زكاتها، فامتنع وقال: « أما الملاح فمن لي به ومن يتركه لي، و لم أسلم من ألسنة المتعرضين للجزية، وأنا في قعر عريشي أستف الرماد، فكيف لو رأوا في يدي ما يطلبون، وأما القبيلة فلا تليق بي، فإن المراد أن أتفرغ للعلم، فإن اشتغلت بالخروج إلى القبائل ضاع العلم وجاءت الفتنة تترا. وإن اتخذت أعوانا يكفوني مؤونة ذلك، لم يقم ما يحصلون بواجب حقهم، فماذا يحصل لي أنا، وهبني حصلت لي معهم صحيفات من الزرع، فأين كيت و كيت»[2].

أما ما جاء على لسان اليوسي في شأن العطاء السلطاني الذي كان يصله به بقوله: «وكنت مرة بمدينة فاس أيام رشيد بن الشريف، فكنت أُدرِّس وآخذ الجوائز، وأركب إليه، وآكل من طعامه، وألبس كغيري»[3]، أقول صنيعه في قبول ذلك العطاء، التأسي بالحديث الشريف الذي يقول فيه النبي ﷺ: (خُذْهُ وَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَا لاَ، فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ)[4].

نستنتج إذن من هذه النصوص وغيرها، أن اليوسي لم يكن كما وصفه خصومه يحب المال حبا جما، ويسلك في سبيله طرق الشعوذة والتظاهر بالصلاح، كما هو معروف في زمنه، بل الثابت أنه عانى الأمرين من جراء الفقر المدقع، حتى استف الرماد من الاملاق في قعر عريشه، كما يظهر من هذه الأبيات، التي قالها على سبيل الشكوى، مخاطبا بها المولى إدريس عند زيارته له:

1- رسائل اليوسي/1: 219-220.

2- نفسه/1: 205.

3- القانون طبعة حجرية.

4- أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة.

أمولاي إدريس يا ملجأ الورى ❖ ويا غوث أهل الجود والمجد والفخر

أتيت كسير القلب مما أصابني ❖ من الذل والهوان والضيم والفقر

أغثني أغثني إن فقري أضر بي ❖ فمن فيض جودكم ندى البر والبحر

و جد لي بما أرجوه منك تكرما ❖ وفضلا وأبدل حالة العسر باليسر[1]

وأنتقل بعد هذا التحقيق اللازم، للكلام عن أموال اليوسي بعد أن بدل الله عسره يسرا، وفقره غنى، وأعالج بشيء من التفصيل هذا الجانب من شخصيته، الذي أشار إليه الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، إشارة خفيفة، مكتفيا بالقول: «ذلك أنه كان فيما بعد موسرا»[2].

وأعتمد في ذلك رسم الشراء المؤرخ في شهر ربيع الأول عام1151 هـ، وعقد المفاصلة المؤرخ في شهر شعبان عام1113 هـ، وذلك بالجمع بين الوثيقتين معا، واستغلالهما في ضبط أمواله العقارية والمنقولة.

جاء في الرسم الأول ما نصه: «الحمد لله كان على ملك الشيخ الإمام العلامة الهمام، أبي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي، نفعنا الله تعالى ببركاته :(انظر الجرد).

1- كناشة عبد الرحمن المدغري. مخطوط الخزانة العامة 3634. ص: 312.

2- الفقيه أبو علي اليوسي: 125.

جرد بأهم أملاك الحسن اليوسي بالمناطق التي استوطنها

الدرر	الأراضي	الماشية	الدواب	البقر	الإماء
- دار كائنة بحومة المواسين بمدينة مراكش	- فدان الونغيلي بتمزريت - سهب "بامو" بتمزريت - جميع البلاد المجاورة لضريح الولي سيدي أبي علي (بلقليعة) - أراضي "تيجيت" - جميع البلاد بحوز عين اللوح	ما يفوق 1500 رأسا من الغنم	لم أتمكن من الوقوف على عدد: - البغال - الجمال وغيرها	ما يفوق 80 رأسا من البقر	لم يتيسر لي الوقوف على عددهن.
- دار فاس كانت توجد بالطالعة	المسماة "القليت" - جميع الأراضي المسماة "خلفون" المجاورة لوادي أم الربيع - أراضي "الرياض" بتمزريت - "عين داود" بتمزريت				
- دار سكناه بتمزريت حيث ضريحه اليوم	- "تاغدة يردن" بتمزريت - أرض تسمى "دوز تجاور الكَرر" بالحياينة - أراضي "ازردان" المجاورة لتاهلة - أراضي "ارزمن" بالحياينة - أراضي "تامسنا"				
- دور "تقليت" بحوز عين اللوح بخنيفرة	- أراضي "لكسير" قرب جنان الكبير بتمزريت - سريحة "بالمرس" بتمزريت				

والسؤال الذي يطرح، هو معرفة مصدر هذه الأموال، وكيف يتم التوفيق بين النصوص المتعارضة، التي يوحي بعضها بالحرمان والبؤس، ونصوص تفوح بشذى الشكر والإقرار بنعم الله.

والجواب هو ما اهتدى إليه الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، حين قال: «وليس هناك تناقض بين هذه النصوص، فاليوسي في الفهرست يعترف بأن الله حقق أمنيته في حصول العلم والمال، ويذكر في بعض كتبه أنه كان يتعاطى أعمال الحرث، وكان ينال الراتب والجوائز من عند السلطان، وذلك من أسباب التمول، ثم إنه في وصيته يقول إنه فقير حتى إنه لولا النظر إلى ظاهر الشرع لما أخرج الزكاة.

والظاهر أن تلك الأموال، تحصلت لديه من الزاوية اليوسية وعن طريق الصدقات، وليس بعيدا أن يكون قد أنفق أمواله الخاصة في بادئ الأمر، لإقامة الزاوية، حتى إذا اشتد عودها، ضم أمواله إلى الصدقات التي ترد عليه، وأنفق الكل في سبيل الله، ضاربا المثل بنفسه في التصدق والانفاق، من غير شح أو تقتير»[1].

جاء في وصيته لأبنائه في كيفية إنفاق أموال الزاوية ما نصه: «وليجتهدوا في طاعة الله تعالى والاحسان إلى عباد الله وإطعام الطعام، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق التي يجدونها في الكتاب والسنة وأقوال الحكماء... وليشكروا الله تعالى إن كان ذلك على أيديهم، وليأكلوا من ذلك بقدر الحاجة، معتقدين أنهم في ذلك والواردين سواء، فهم عبيد يطعمهم مولاهم، ولا مزية لأحد على التحقيق، بل يعتقدون أنهم في بركة الواردين يعيشون، وليتحروا الحلال جهدهم، ويجتهدوا في إصلاح النيات في الأخذ والإعطاء، مكتفين بالله تعالى مستغنين به عما سواه، معتقدين أن أحدا من الخلائق، لا ينفعهم بذرة إلا ما نفعهم الله به، فهم يأخذون عن الله ويدفعون لله تعالى، وإذا نظروا بالحقيقة وجدوا أنفسهم معزولين عن الأمر، لا مدخل لهم إلا بحسب المظاهر الاكتسابية، التي هي مناط

1- الفقيه أبو علي اليوسي: 116.

الأحكام الشرعية، وإلا فا لله هو المتصرف قبضا ودفعا، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]»[2].

وجملة القول في النقطة المتعلقة بالحياة الخاصة باليوسي، أن ثمة معلومات تتصل بهذا الجانب من شخصيته، كانت حتى كتابة هذه السطور مغلوطة أو مغمورة، وقد حاولت من جهتي رفع اللبس عنها، وكشف وجه حقيقتها، لإبطال لزوم ما لا يلزم في حق هذا الرجل، «الذي ستبقى ذكراه حية في التاريخ، وستبقى كتبه ورسائله تراثا شاهدا بعظمته وزادا للأجيال»[3].

1- التوبة: 31.

2- رسائل اليوسي/2: 367-368.

3- الفقيه أبو علي اليوسي: 154.

ثانيا: إعداده الفكري وتكوينه العلمي وآثاره

أتحدث هنا عن كل الرحلات العلمية لليوسي، منذ أن توجهت عنايته لطلب العلم، حتى دخوله الزاوية الدلائية، وأرى من المفيد أن أقرن في وصف هذه المرحلة بين الرحلات العلمية من جهة، وذكر العلوم والشيوخ الذين أخذ عنهم من جهة أخرى، باعتبـار اعتنـاء الشيوخ بالطالب أكثر، هو مـن فوائـد الرحلـة، لأن «للغريـب، والقـاصد، والراحـل، مـن أرض إلى أرض مزيد حق، لما يتصدى له من قطـع المسـافات، ومقاسـاة الجـوع والعطـش، والحر والبرد، والغربة والهوان»[1].



شيوخه وأساتذتـــه

مسيرة اليوسي العلمية طويلة ومضنية من أولها إلى آخرها، توزعتهـا مختلـف المراكـز الثقافية ذات الإشعاع عبر ربوع المغرب، من خلال رحلاته.

الرحلــة الأولى: سفر اليوسي إلى السوس الأقصى مرورا بتادلا و مراكش

استغرقت مدة هذه الرحلة العلمية سنين طـويلة، بلغت معها أحوال أسرته النفسية إلى حد اليأس من عودته، وخاصة والده الذي كان هاجس غيابـه يؤرقـه، فيعيـش أحلامـا مزعجة وكوابيس مخيفة.[2] وفي طريقه إلى السوس الأقصى، توقف اليوسي بمراكـش للأخـذ عن شيوخها، وفـي ذلك يقول: «كنـت أيـام طلـب العلـم في بـلاد القبلـة، حتـى أخـذت بطرف من العربية، فحدث لي انتقال إلى ناحية مراكـش، وذلـك في دولـة السـلطان محمـد الشيخ[3]، فأخذت من فنون أخرى كالأصول، والمنطق، والكلام، وتركت العربية»[4].

1- القانون طبعة حجرية.

2- المحاضرات/1: 85.

3- هو ابن زيدان بن المنصور السعدي، الذي حكم من سنة 1045 هـ، إلى سنة 1064 هـ.

4- المحاضرات/2: 391.

وعمدته في هذه العلوم العلامة أبو عبد الله محمد المزوار المراكشي[1]، والقاضي أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني[2]، والقاضي محمد بن إبراهيم الهشتوكي[3]، أخذ عن الأول جملة من مختصر السنوسي في المنطق، وقرأ على الثاني جملة من محصل المقاصد لابن زكري، وجملة من المختصر المنطقي، فيما قرأ على الثالث تنقيح القرافي في الأصول.

ويتابع اليوسي مسيرته قاصدا بلاد السوس، ويدخل "إيليغ" عاصمة الإمارة السملالية، وقبلة أنظار السوسيين وغيرهم من الطلبة، وهنا يلتقي بشيوخ عدة منهم عبد العزيز الرسموكي[4] الذي كان يأخذ طلبته بحفظ المتون، للاستدلال بها عند الاقتضاء وخاصة ألفية ابن مالك، مما حرك همة اليوسي لحفظها مجددا، فجمع الطلبة لمراجعتها باعتماد شرح المرادي.

ويظهر أن نبوغ اليوسي المبكر، وزعامته في المجال العلمي، بعقده لمجالس الإقراء، وتصدره للتدريس، كان من الأسباب التي دفعت بأبي حسون السملالي، لتعيينه أستاذا لمادة التفسير بقصبة تارودانت، حيث كان شيخه السكتاني يعقد جلساته العلمية المكتظة.. قبل أن تعصف به رياح السياسة، فيخرج منها خلسة ناجيا بنفسه في اتجاه مراكش.

الرحلة الثانية: التحاق اليوسي بالزاوية الناصرية (تمكروت)

إذا كانت المصادر لم تجد علينا بتواريخ رحلات اليوسي السابقة على وجه التحديد، مما اضطرنا إلى ركوب مطية الاجتهاد في الترتيب الزمني، لالتحاقه بالمراكز العلمية السابقة، مسترشدين في ذلك بإشارات النصوص المتفرقة في بطون مؤلفاته، فإن الرحلة للزاوية الناصرية بدرعة كانت سنة 1060 هـ.

1- قاضي مراكش، الماهر في فنون العلم، (ت: 1065 هـ). الإعلام/2: 292.

2- قاضي قضاة مراكش، له: "حاشية على صغرى السنوسي" (ت:1062هـ). التقاط الدرر: 131.

3- فقيه علامة تولى قضاء مراكش مدة يسيرة، (ت: 1098 هـ).

4- من كبار علماء سوس، تولى القضاء بإيليغ توفي غرقا سنة 1065 هـ. المعسول/5: 20.

والعجيب أن هذه السنة من حياة اليوسي، كانت حافلة بالحركة الدائبة، وكأني بـه يسابق الزمن للظفر بمبتغاه، فقـد صعد خلالها إلى جبال "هسكورة"[1] وزار بلاد دكالـة[2]، ودخل بلاد مراكش[3]، و رحل إلى الزاوية البـكرية[4]، وفي غضون نفس السنة يرحل ليـلازم ابن ناصر كما يقول: «أما أبـو علـي، وهـو كنيـة الحسـن المشـهورة، فكنـاني بهـا شيـخ الإسلام... أبـو عبـد الله سيدي محمد بن نـاصر الدرعـي، ﷺ وعنـا بـه، وكنـت وردت عليه في أعوام الستين والألف بقصد أخذ العلم»[5].

ويذكر اليوسي أن أول هدية قدمها لشيخه نجوى بين يديـه، قصيـدة شـعرية مدحـه فيها، فكان لها أطيب الأثر في نفس الشـيخ، الـذي أقبـل عليـه وتـولاه بـالحدب والرعايـة، فدرس عليه في البداية كتاب التسهيل لابن مالك، وجملة من مختصر خليل، ومادة التفسـير، والمدخل لابـن الحـاج، والإحياء للغزالي، وجزءا من الشفـا عرضا عليـه، وطبقـات الشـيخ عبد الوهاب الشعراني، وغير ذلك، وأخذ عليه عهد الشاذلية تبركا[6].

وقبل أن نرافق اليوسي في سفره إلى الزاوية الدلائية، أريـد قـول كلمـة عـن نشـاطه المكثف الملاحظ خلال سنة 1060 هـ، والتوفيق بين النصوص والتواريخ، التي تفيـد وجـوده بعدة مناطق من المغرب، حيث أزهار العلم ببعض مراكزها يانعة، رغم بعد المسافات، ومـا يتطلبه الإلمام بالعلوم، من سعة في الوقت، وطاقة في الجهد.

ولرفع هذا اللبس إن كان ثمـة لبـس، أقـول إن اليوسـي ذكـر تلـك المراكـز العلميـة وشيوخها جملة واحدة، لأنها كـانت تصادفـه في طريقـه إلى الوجهـة الـتي يقصدهـا، كمـا

1- المحاضرات/1: 106.

2- نفسه/1: 134.

3- نفسه/1: 202.

4- نفسه/2: 389.

5- نفسه/1: 80.

6- الفهرست: 54.

يستفاد من هذا النص وإن كان ساقه في معرض الأدواء التي تتميز بها المناطق المغربية، بحكم طبيعة المناخ «ومن غريب ما اتفق لي في هذا البلد ـ تادلة ـ أني مررت به حين سافرت إلى ناحية مراكش في طلب العلم فأصابتني الحمى منه...»[1].

فلم يكن المقام ليطول به إذن في تلك المراكز، خاصة إذا لم تكن ذات مستوى علمي رفيع، فيكتفي بحضور الدرس أو الدرسين أو طلب الإجازة من شيوخها، ثم ينصرف ليواصل مسيرته في إصرار، وهاجسه الاستفادة من كل شيء جهد المستطاع، بهدف تنويع مشارب ثقافته الواعدة بعطاء فكري غزير فيما بعد.

الرحلة الثالثة: رحيل اليوسي إلى الزاوية الدلائية

هذه الزاوية هي المحطة الأخيرة، التي سيلقي بها اليوسي عصا التسيار، وقد التحق بها وهو في عنفوان الشباب، كغيره من الطلبة الذين كانت تزخر بهم حلقاتها العلمية، على يد فرسان علوم اللغة خاصة، وباقي العلوم عامة، لما كان يطرق أسماعهم من تكريمها للعلم والعلماء والطلبة على السواء.

وتنقسم هذه المرحلة في مسيرة اليوسي العلمية إلى شقين: شق التلمذة وشق المشيخة والنبوغ الفكري، في علاقة وثيقة بما سيحمله المستقبل من مفاجآت، يكون في مقدمتها حادث إخلاء الزاوية الدلائية.

وتعتبر هذه المرحلة بما لها وما عليها، أخصب مرحلة وأهنأها في حياة اليوسي، تربع خلالها على كرسي التدريس بزاوية أهل الدلاء، فساهم في إعداد جيل من العلماء، وتزوج فرزقه الله البنين والبنات، وأصبح لحياته طعم آخر، بعد حرمان طال أمده، مما هيأ له أسباب التأليف، فترك لنا مؤلفات رصينة تشهد على ثقافته الواسعة.

1- المحاضرات/1: 340.

وقد درس اليوسي على شيوخ كثيرين بهذه الزاوية، أذكر منهم محمدا بن محمد بن أبي بكر الدلائي المعروف بالمرابط[1]، الذي اشتهر بتبحره في علوم العربية و آدابها، فذاعت شهرته بالمشرق و المغرب.

لقن محمد المرابط الدلائي هذا لليوسي تلخيص المفتاح[2] بمختصر سعد الدين التفتازاني، ومواضع من الخلاصة، وصدرا من تفسير القرآن بتفسير الجلالين، وأجازه[3] في فنون العلم كلها.

ومن شيوخ اليوسي أيضا "أبو العباس سيدي أحمد بن علي بن عمران الفاسي"[4] العلامة المحدث الحافظ الأديب البليغ، مفتي فاس والمدرس بجامع القرويين، أخذ عليه علم التوحيد، ولاسيما كبرى السنوسي.

ولن أضرب صفحا عن الشيخ محمد بن سعيد المرغيثي السوسبي[5]، المفتي الحيسوبي أستاذ كرسي بجامع "المواسين" بمراكش، ثم أستاذ بالزاوية الدلائية في مرحلة تالية، حيث التقى به اليوسي وأخذ عليه بعض العلوم، وخصه بإجازة[6] عامة.

هذه لمحة موجزة عن شيوخ اليوسي، قصدت من بسطها إلى إبراز مستواهم العلمي، وأنواع الفنون التي بلغوا فيها غاية الإتقان، وما قرأه اليوسي عليهم، فكان له أثره الإيجابي في نفسه، مع الإشارة إلى مختلف الإجازات التي حظي بها من قبلهم.

وأنصرف فيما يلي إلى استعراض تلاميذ اليوسي، والتعريف بهم بإيجاز، لأقف على إخلاص اليوسي وتفانيه، في أداء رسالة العالم الواعي بدوره ومسؤوليته.

1- رحل حاجا إلى المشرق سنة 1069 هـ. (1021-1089هـ) أخذ عن المشارقة. التقاط الدرر: 207.

2- كتاب في البلاغة مشهور، مؤلفه هو الخطيب جمال الدين القزويني (ت: 739 هـ) بدمشق.

3- انظر نص الإجازة كاملا في الزاوية الدلائية: 280. ملحق رقم: 7.

4- إمام القرويين ومفتيها، (ت: 1065 هـ) بفاس. الزاوية الدلائية: 90.

5- من رجال الفكر في القرن 11 هـ، اشتهر بالتصوف، (1007-1089 هـ). التقاط الدرر: 206.

6- انظر الإجازة كاملة في فهرست اليوسي: 138.

تلامذته المتخرجون من مدرسته

ظل اليوسي مقيما بالزاوية الدلائية ما يربو على خمسة عشر عاما، استفاد خلالها العلم تلميذا، واستوى على السوق العلمية ليؤتي أكله أستاذا، فساهم في إعداد رعيل من العلماء الأجلاء، حملوا راية العرفان من بعده، كامتداد طبيعي للمدرسة الإسلامية في ربوع المغرب المعطاء.

I- تلاميذ اليوسي بالزاوية الدلائية

ومنهم: أبو يعقوب الولالي، ومحمد بن عبد الرحمن الصومعي، وعلي العكاري، وشقيقه محمد العكاري، وأحمد القادري، وأعرف بهم بإيجاز.

1- أبو يعقوب أحمد الولالي[1]

أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي، نسبة إلى بني ولال، إحدى بطون قبيلة آيت عطا الصنهاجية، المشهورة بأقصى جبال ملوية، أحد الأعلام دينا وعلما، درس بالزاوية البكرية على اليوسي، وغيره من العلماء، الفقه والأصول والنحو والمنطق، ومن مؤلفاته شرحه على السلم المنطقي للأخضري، ورسالة السيد الجرجاني، وشرح تلخيص المفتاح، وحاشية على المحلي، ومباحث الأنوار في سلسلة الأخيار[2]، وصفاء الاعتقاد من شبه الزيغ والعناد، وغيرها، وكانت وفاته بمكناس سنة 1128 هـ.

2- محمد بن عبد الرحمن الصومعي[3]

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن، الزمراني التادلي الصومعي، نسبة إلى قرية الصومعة الشهيرة بتادلا، العلامة الصالح العابد، كان من أنجب تلاميذ الحسن اليوسي بالزاوية البكرية، من تآليفه شرح على سينية ابن باديس، وشرح على همزية البوصيري،

1- انظر ترجمته بتفصيل في الإتحاف/1: 340 - الزاوية الدلائية: 122.

2- يوجد مخطوطا بخزانة الرباط العامة. تحت رقم: 2305ك.

3- تراجع ترجمته مفصلة في الإعلام/6: 47.

ولما اخليت الزاوية البكرية عاد إلى مسقط رأسه بتادلا، حيث ظل ينشر العلم حتى وافته المنية سنة 1123 هـ.

3- أحمد القادري[1]

أبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري، الفقيه الأديب، أخذ العلم عن اليوسي وغيره، ومن تآليفه "نسمة الآس في حجة سيدنا أبي العباس" وهو عبارة عن رحلة حجازية مفيدة، ألفها عند حجته الثانية سنة 1100 هـ، ونظم فيمن هاجر إلى الحبشة من الصحابة، اقتصر على صحبة أحمد بن عبد الله معن[2] ولزم زاويته إلى أن توفي سنة 1133هـ بفاس.

4- العكاري المراكشي[3]

أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي الشريف الحسني، الأديب والخطيب، حضر مجالس الدلائيين في مختلف الفنون، ولازم دروس الحسن اليوسي، فأخذ عليه النحو والبيان، والمنطق والفقه، والأصول، والتوحيد، وأجازه إجازة عامة. استدعاه من مراكش السلطان إسماعيل، ليكون إمامه في الصلاة بمكناسة الزيتون، فأعفاه السلطان بعد مرض عضال، وسمح له بالعودة إلى مراكش، بعد أن كتب له ظهيرا بالتوقير والاحترام، وكانت وفاته سنة 1092 هـ.

5- العكاري الرباطي[3]

أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسني، العلامة المشارك المدرس، أخذ علم التصوف على الشيخ محمد بن عبد الله السوسي، فورد على الزاوية الدلائية طالبا للعلم،

1- انظر سلوة الأنفاس/2: 353 - الزاوية الدلائية: 124.

2- له قدم راسخ في الطريقة (ت: 1120هـ)، كثير الإنفاق في سبيل الله، خصه الإمام أبو عبد الله المهدي بن أحمد الفاسي بتأليف سماه "الالماع بمن لم يذكر في ممتع الأسماع". التقاط الدرر: 300.

3- الزاوية الدلائية: 115 و ما بعدها. - الإتحاف/1: 340.

أخذ على الشيخ اليوسي، البيان، والمنطق، والأصول، والفقه، وغيرها، وأجازه أيضا كصنيعه مع أخيه السابق الترجمة، رحل بعد ذلك إلى فاس واشتغل بالتدريس بجامعة القرويين.

استدعاه الأمير عبد الواحد بن السلطان إسماعيل العلوي للرباط، ونزل معه بداره، وأثنى عليه خيرا لدى السلطان، فأغدق عليه هذا الأخير أموالا طائلة، واتخذه إماما للصلاة، إلى أن توفي سنة 1118 هـ.

6- أبو العباس أحمد الهشتوكي[1]

أحمد بن يوسف الجزولي لقبا، الهشتوكي شهرة، عالم مشارك، لازم اليوسي سنين طويلة، كما قال: «لازمته ما ينيف على العشرين عاما، ومنه استفدت وفتح ا لله علي على يديه، ببركة الشيخ القطب ابن ناصر، الذي وجهني إليه»[2].

ومن تآليفه: شرحه على السلم للأخضري في المنطق، و"فتح العلام في شرح قواعد الإسلام" شرح فيه "كتاب قواعد الإسلام من مضمون حديث النبي عليه السلام"[3] لشيخه اليوسي، وفهرس سماه "قرى العجلان على إجازة الأحبة والإخوان" وغير هذا من التآليف، وكانت وفاته سنة 1127 هـ.

II- تلاميذ اليوسي بمدينة فاس

قدم اليوسي إلى فاس ضمن القادمين إليها من العلماء، في ركاب حاشية المولى الرشيد، وذلك سنة 1079 هـ، إثر قضائه على إمارة الدلائيين، وظل اليوسي مقيما بفاس حتى سنة 1083 هـ، ولم يسبق له أن زار قط هذه المدينة، ولا كان له علم بحالها، ولا بطبائع سكانها، فاعتبر غريبا عنها بحكم أصوله البدوية، كما يحكي هو نفسه: «... فبت خارج

1- صوفي كبير، ألف فيه تلميذه الولالي "مباحث الأنوار" (ت: 1079 هـ) بمكة. التقاط الدرر: 174.

2- الدرر المرصعة: 25.

3- يوجد مخطوطا بالخزانة العامة تحت رقم: 612ج..

فاس نحو ليلتين والطلبة يترددون إلي، فلم أدخل المدينة حتى لم تبق لي نية من كثرة القيل والقال، ثم بدأنا القراءة، فاصطفت علينا الطلبة أهل البلاد والغرباء، وكان المجلس حافلا، وذلك في غيبة السلطان إلى السوس، فتحرك الحسد والوسواس، وكثرة القيل والقال، وجعل كل من يحبني يحذرني من الناس ومن أكل طعامهم، فما يمكنني أن أشرب ماء ولا آكل طعاما من يد أحد، ولا أجلس على سليخة الكرسي حتى يقلبها أصحابي، ولا تفريط، فصرنا في فتنة وبلاء»[1].

هكذا إذن كان حال اليوسي بفاس، صراع نفسي حاد، وجو مشحون بالدسائس، وتنافس شرس بينه وبين فقهائها، وستزداد أزمته النفسية حدة يوم يفر عنه طلبة فاس، الذين ـكما وصفهم ـ كانوا يقتنصون الجوائز، ويتشوفون إلى الحظوظ الدنيوية، فيفرغ مجلسه العلمي إلا من الطلبة الغرباء، وقليل من أهل البلد، إلا أنه رغم ذلك، استطاع خلال مدة الخمس سنين التي قضاها بفاس، أن يفرض نفسه، و يبرهن بالملموس على تضلعه في العلوم النقلية والعقلية، فأسس مدرسة تخرج منها جيل من العلماء، أخلصوا له الحب والتقدير من الفاسيين أنفسهم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾[2] ومن أعلام المدرسة اليوسية بفاس:

1- محمد المسناوي الدلائي[3]

عبد الله محمد المسناوي، بن أحمد بن محمد المسناوي، بن محمد بن أبي بكر الدلائي، ولد سنة 1072 هـ، فأخذ العلم عن شيخيه: اليوسي، ومحمد بن عبد القادر الفاسي، الذي أجازه إجازة عامة. من مؤلفاته: "نصرة القبض في الرد على من أنكر مشروعيته في صلاتي النفل والفرض"، وجواب على سؤال عن معنى قول القائل «الله

1- رسائل اليوسي/1: 169.

2- الرعد: 19.

3- نشر المثاني/2: 204 - الزاوية الدلائية: 243 - الحياة الأدبية: 196.

في كل مكان» وغيرها. تولى الخطابة والإمامة بالمدرسة البوعنانية، ومشيخة الجماعة بفاس، حيث توفي سنة 1136 هـ.

2- سعيد ابن أبي القاسم العميري[1]

العلامة الفقيه، ولي قضاء الحضرة السلطانية بمكناس، قرأ على عدة شيوخ منهم: محمد بن سعيد المرغيثي السوسي، والشيخ محمد العطار، والشيخ اليوسي الذي قال فيه: «جلست إليه بمجلس درسه مختبرا، وباحثته في مسائل عدة، فلم يقنعني حاله ولا استقرت به رحاله، وعدت إليه ثانيا ولعنان السر ثانيا، فإذا هو بحر زاخر، ما له أول من آخر، فاغتبطت به وقرأت عليه جميع كتبي، وشددت عليه يدي، فانتفعت عليه انتفاعا، ضممته إلى ما عندي من مدخر عددي:

من فاته الحسن البصري يصحبه ❖ فليصحب الحسن اليوسي يكفيه[2]

وكانت وفاته سنة 1131 هـ.

3- عبد السلام القادري[3]

أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادري الحسني، من أكبر رواد المدرسة التاريخية المغربية، ولد بفاس سنة 1058 هـ، وأخذ العلم عن شيوخ عدة منهم: عبد القادر الفاسي، وابنه محمد، والحسن اليوسي الذي قرأ عليه «تلخيص المفتاح للقزويني مرة، وشرحه للسعد مرة، وجمع الجوامع لابن السبكي مرة، ومختصر السنوسي في المنطق مرتين، وكبرى الشيخ السنوسي، وغير ذلك، مع ختمة لمختصر الشيخ خليل...»[4].

1- الزاوية الدلائية: 117 هامش: 108.

2- فهرست ابنه أبي القاسم العميري: 187. مخطوط الجزانة العامة. رقم: 91ج.

3- سلوة الأنفاس/2: 348 - الحياة الأدبية: 142.

4- التقاط الدرر: 277.

ومن مؤلفاته "خبرة الاكتساب في من يدخل الجنة بغير حساب"، و"الدرة الخطيرة في مهم السيرة"، و"الدر السني فيمن بفاس من أهل النسب الحسني". توفي سنة 1110 هـ.

4- محمد ابن زاكور[1]

أبو عبد الله محمد بن قاسم، بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور، له إلمام بالعلوم الشرعية والأدب... نشأ بفاس، ودرس على أعلامها، أمثال الشيخ عبد القادر الفاسي، والقاضي بردلة، وعبد السلام القادري، والحسن اليوسي وغيرهم.

تأثر ابن زاكور باليوسي في الجانب الأدبي خاصة، كما أكد على ذلك العلامة عبد الله كَنون رحمه الله «... هذا العامل هو اتصاله بأبي علي اليوسي، وأخذه عنه، وكرعه من حياض معارفه الأدبية واللغوية، ونسجه على منواله في شعره...»[2].

من آثار ابن زاكور الفكرية: "نشر أزاهير البستان، فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، من فضلاء الأكابر والأعيان"، ونظم ورقات إمام الحرمين بعنوان "معراج الوصول إلى سماوات الأصول". وكانت وفاته في يوم 20 محرم سنة 1120 هـ.

5- الحاج علي بركة التطواني[3]

أبو الحسن علي بن محمد بركة الأندلسي التطواني، عالم تطوان وأديبها، أخذ العلم عن أكابر شيوخ مدينة فاس، كعبد القادر الفاسي، وأبي سالم العياشي، والعربي بردلة والحسن اليوسي، الذي قال فيه: «ثم إنه لما أراد الله سبحانه أن يتوجنا بتاج المعالم العلمية، ويروجنا برواج المكارم البهية السنية، ألقينا إلى من ألقت إليه العلوم القياد،

1- الأعلام/7: 230 - الأنيس المطرب: 19.

2- المنتخب من شعر ابن زاكور: 19.

3- تاريخ تطوان/1: 347.

وانجابت عنه سحب شموسها بما خرج عن محل الاعتياد،... الشيخ الإمام أبو علي سيدنا الحسن بن مسعود اليوسي»[1].

وقد قرأ عليه الفقه، والأصول، والمنطق، والتوحيد من صغرى السنوسي وكبراه، والتسهيل في اللغة الخ... ومن آثار المترجم له: منظومة في الفقه، وشرح لتآليف ابن ناصر في الصلاة على النبي ﷺ. توفي بتطوان سنة 1120 هـ.

6- محمد عبد السلام بناني[2]

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن حمدون بناني (أو البناني) النفري الفاسي، مفتي فاس. أخذ عن كبار أعلامها كالقاضي بردلة، وعبد السلام القادري، والحاج علي بركة...

قال المترجم له في إجازته للعلامة محمد بن الحسن البناني، عند تعداده لمشايخه: «الخامس شيخنا الإمام الماهر الهمام العلامة... سيدنا ومولانا أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، حضرت بمجلسه الحفيل في جميع صحيح البخاري من أوله إلى آخره، وحضرت مجلس درسه لحاشيته على المختصر المنطقي، وشرحه على داليته، ولقنني الذكر، وأضافني بالأسودين: التمر والماء، وأجازني»[3].

من تآليفه: "شرح لامية الزقاق في أحكام القضاء"، و"شرح الحزب الكبير للشاذلي"، و غيرهما، رحل إلى تطوان في زمن المسغبة العظمى عام 1150 هـ، حيث بقي ينشر العلم، إلى أن رجع إلى فاس، وبها توفي سنة 1163 هـ.

1- تاريخ تطوان/1: 395.

2- فهرس الفهارس/2: 160-162 - الفكر السامي/4: 122-123.

3- مشرب العام والخاص الطبعة الحجرية.

7- محمد بن أبي مدين السوسي[1]

قاضي الحضرة الإسماعلية وخطيبها، كـان إماما في المنقـول والمعقـول، لـه براعـة في الفتوى، تتلمذ للحسن اليوسي بفاس، فأخذ عنه جل علومه، له شرح جيد على السلم في المنطق للأخضري، توفي سنة 1120 هـ.

8- عبد الوهاب أدراق[2]

أبو محمد عبد الوهاب بـن أحمـد أدراق، الفاسـي، اللغـوي والفقيـه، طبيـب القصـر الملكـي عـلى عهد مولاي إسماعيل، أخذ العلم عن الشيخ اليوسـي وعبـد السلام القـادري وغيرهم، ومن مصنفاته في الطب: "ذيل لأرجوزة ابن سينا"، و"هز السـمهري فيمـن نفـى عيب الجذري" ردا على من يقول إنـه ليـس مـن عيـوب الرقيـق... وتـوفي الطبيـب أدراق بفاس أواخر صفر عام 1159 هـ.

9- العربي القادري[3]

أبو عبد الله محمد العربي بن الطيب بن محمد القـادري الحسـني، النحـوي، البيـاني، الفقيه، المحدث، المؤرخ، الصوفي، أخذ عن جماعة من شيوخ العلم بفاس منهم عبـد القـادر الفاسي، الحسن اليوسي وطبقتهم، انتفع بالشيخ أحمد بن محمد اليمني الشريف.

من تآليفه: "الطرفة في اختصار التحفـة" في أسانيـد الطائفـة الجزوليـة والزروقيـة، وكانت وفاته في أواخر شهر المحرم من عام 1106 هـ بفاس.

1- الاتحاف/4: 398 - جامع القرويين/3: 802.

2- الحياة الأدبية: 239 - جامع القرويين/3: 802.

3- السلوة/2: 345.

10- الحسن بن رحال المعداني[1]

أبو علي الحسن بن رحال بن أحمد بن علي التدلاوي المعداني المكناسي، قال عنه العميري في فهرسته: «تفرد رحمه الله في وقته بالرجوع إليه في مسالك الفقه، وتفقه على والدي وعلى الشيخ الحسن اليوسي وغيرهما»[2].

ومن تآليفه "حاشية علي شرح الخرشي على مختصر خليل إلى البيوع"، و" حاشية مفيدة على شرح الشيخ ميارة على تحفة ابن عاصم"، و"الإرفاق بمسائل الاستحقاق"، وكانت وفاته يوم 3 رجب عام 1140 هـ بمكناسة الزيتون.

11- العربي بن أحمد الفشتالي[3]

فقيه ورع صالح، من أكابر العلماء العاملين، سئل عن خطة القضاء فأجاب: «الذي يظهر لي أنها صداع في الرأس، وسم قاتل في الجوف، وسلسلة في العنق، وسنارة في الحلق، وقد علمت أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»[4].

أخذ عن شيوخ العلم في زمنه، كابن ناصر الدرعي، والحسن اليوسي، وعبد القادر الفاسي... وكانت وفاته يوم 11 جمادى الأولى سنة 1092 هـ بفاس.

5- أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس[5]

أحد فقهاء فاس وأعلامها البارزين، أخذ العلم عن الشيخ عبد القادر الفاسي، والشيخ ميارة الأكبر، والشيخ اليوسي، له تأليف جمع فيه أدعية نبوية، توفي قتيلا يوم 15 ربيع النبوي عام 1121 هـ في سجن فاس.

1- الاتحاف/3: 7 - ليل مؤرخ المغرب: 268 - الحياة الأدبية: 205.

2- فهرست العميري نقلا عن كناشة العربي الدكالي. مخطوط بالخزانة العامة. رقم: 91ك.

3- الصفوة: 190 - السلوة/2: 228.

4- التقاط الدرر: 223.

5- الإستقصا/7: 94 - لاتحاف/4: 100.

13- علي بن منصور[1]

فقيه علامة درس على الشيخ عبد القادر الفاسي، والشيخ ميارة الأكبر، والشيخ اليوسي، واتفق ذات يوم أن دخل عليه «أحد المجاذيب وهو بمجلس درس الشيخ الحسن اليوسي فقال له: أعطني عشرين موزونة وأعطيك بها مائة مثقال، فأمره الشيخ اليوسي بالقيام ليأتي بها، فجاء بها وأعطاها إياه، فانفصل بها عنه، وأخذ اليوسي يحث أهل المجلس على حسن الظن بعباد الله، فلم يبرح المجلس والسلطان المولى الرشيد دخل فاسا، وسلك من القرويين، وخرج منها للمدرسة المصباحية، حيث مجلس الشيخ اليوسي، وتعرض له الشيخ اليوسي مع جماعة من الفقهاء، وفيهم ابن منصور المذكور، فأعطى السلطان مائة مثقال للشيخ اليوسي، ومائة مثقال لابن منصور المذكور، فقال الشيخ اليوسي إن هذا الرجل أدى دينه و لم يماطل»[2]. توفي يوم 27 رجب عام 1107 هـ.

14- محمد بن عبد الكريم الجزائري[3]

عالم جزائري، أخذ العلم عن الشيخ سعيد قدورة الجزائري ببلده، ثم رحل إلى المغرب فتتلمذ للشيخ عبد القادر الفاسي وأبي علي اليوسي، الذي ترجم له في محاضراته، كما رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة، وكانت وفاته بفاس سنة 1102 هـ.

III- تلاميذ اليوسي بمدينة مراكش

عاش اليوسي بمراكش طالبا للعلم، وأستاذا وهو في منفاه في أعقاب الأوامر السلطانية بالانتقال إليها، واستطاع خلال هذه المدة التي استغرفت ما يقرب من أربع سنوات، أن يؤدي على وجه التمام رسالته العلمية، رغم شظف العيش ومرارة المنفى.

1- السلوة/1: 109.

2- التقاط الدرر: 170

3- المحاضرات/1: 196.

1- محمد الصالح بن المعطي[1]

هو المدعو بالصالح ابن الشيخ أبي عبد الله محمد، المدعو المعطي بن المرابط عبد الخالق بن عبد القادر، بن القطب الشهير صاحب زاوية أبي الجعد من بلاد تادلة، سيدي محمد الشرقي التادلي، أخذ العلم عن الحسن اليوسي وأحمد العطار، ومحمد بن عبد القادر الفاسي.

وقد خصه الحسن بن محمد الهداجي المعداني المتوفى سنة 1180 هـ، بترجمة مطولة في كتاب سماه "الروض اليانع الفائح، في مناقب أبي عبد الله محمد المدعو بالصالح"[2]، وكانت وفاته سنة 1139 هـ.

2- أحمد بن عاشر الحافي[3]

هو الفقيه العلامة الصوفي الشهير، السيد بن عاشر بن عبد الرحمن الحافي السلاوي، أخذ عن اليوسي ومن في طبقته من العلماء، كما جاء على لسانه في فهرسته «وقد أخذت عن شيوخ عدة من أهل تلمسان، وفاس، ومراكش، وسجلماسة،... والإمام الكبير العلامة الشهير، أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي»[4].

هكذا أكون قد أتيت على إنهاء الكلام على عطاء المدرسة اليوسية، وتعدادي لأعلامها لم يكن حصريا، بقدر ما كان متعلقا بمن صادفته في طريقي أثناء البحث، وخاصة المغمورين منهم، وإلا فهناك من لم أوفق في الاهتداء إليه، إما لتقصيري، وإما لعدم اكتراث أصحاب التراجم به.



1- الأعلام/5: 41 - سلوة الأنفاس/1: 193.

2- انظر الدراسة التحليلية لهذا الكتاب في مقال بالمناهل. عدد: 36. ص: 243. سنة 1987.

3- فهرسته ضمن مجموع مخطوط بالخزانة العامة رقم: 1421ك.

4- فهرست الحافي السلاوي ضمن مجموع مخطوط بخزانة الرباط العامة. رقم: 1421ك. ص: 257.

كتبه ومؤلفاته

إنتاج اليوسي الفكري متنوع وغزير، شارك به في معظم حقول المعرفة من أدب وشعر كما في كتابيه "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، و"الديوان" الشعري، الذي اشتمل على 182 قصيدة، وفي المنطق وضع حاشية على شرح المختصر... وفي العلوم الإسلامية فلسف الفقه، وصار مشهودا له بالمساهمة في فن التوحيد والمجالات الروحية...

وقد جمع الأستاذ عباس الجراري في كتابه "عبقرية اليوسي" بيبليوغرافيا اليوسي، وأحال على أماكن وجود قسم هام منها، مقتفيا أثر من سبقوه إلى ذلك من أمثال الأستاذ "جاك بيرك" في كتابه "اليوسي"، والأستاذ محمد حجي في كتابه "الزاوية الدلائية"، وغير هؤلاء ممن تعرضوا لليوسي في كتاباتهم.

وأسطر من جهتي لائحتين لقسم من ذلك الإنتاج، الموجود بكل من خزانة تطوان العامة، وخزانة بن يوسف بمراكش.

مخطوطات اليوسي بخزانة ابن يوسف بمراكش:

وهي ملحقة بوزارة الثقافة، يوجد مقرها بدار "الكَلاوي"، تشتمل على تسع مخطوطات لليوسي.

عناوين المخطوطات	أرقامها	تواريخ نسخها	الملاحظات
- حاشية اليوسي على كبرى السنوسي.	736	نسخ ليلة الأحد فاتح ربيع الأول سنة 1128 هـ	- تحبيس مولاي عبد العزيز العلوي.
-حاشية على كبرى السنوسي	58		- تحبيس مولاي عبد العزيز العلوي على خزانة المواسين، بتاريخ 13 صفر 1321 هـ.

- رسـالة اليوسـي للسـلطان مولاي إسماعيل العلوي (عمارة الزاوية)	310		- جواب منه إلى المرجان ابــن المـواق وفتاوي أخرى. - تحبيس مولاي عبد الحفيظ العلـوي على المواسين بتاريخ 24 رجب 1330
- نفـــائس الـــدرر علــــى حواشي المختصر	1/201		- تحبيس مولاي عبـد العزيـز العلوي على ابن يوسف بتاريخ 8 محرم 1321
- نسـخة ثانيـة مـن نفـائس الدرر	1/201		- تحبيس مولاي عبد الحفيظ العلـوي علـى ابـن يوسـف بتـاريخ 24 رجـب 1330.
- دالية اليوسي			- موجـودة بخزانـة ابـن يوسـف ص: 521.
- قصيـــدة في الشـــوق إلى الديار المقدسة: جد في سيرها فلست تلام هذه طيبة وهذا المقام			- تحبيس مولاي عبد الحفيظ العلـوي على المواسين بتاريخ 24 رجب 1330
- قصيدة ميمية اليوسي	ضمن قصائد الملحق من 1 إلى 9		- تحبيس الباعمراني
- الوثائق اليوسية	ضمن مجموع رقم 361	جمـادى الأولى 1184 هـ	- تحبيس مولاي عبد الحفيظ العلـوي على المواسين.

ما اشتملت عليه خزانة تطوان العامة من مخطوطات لليوسي"

يعود تـاريخ زيـارتي لمدينـة تطـوان إلى يوم 30-10-1986، قمـت خلالها بإحصاء مخطوطات اليوسي الموجودة بخزانتها العامة فألفيتها عشرين مخطوطة كالتالي:

عناوين المخطوطات	أرقامهـا		الملاحظات
	أرقامها الترتيبية	أرقام المخطوطات	
- تأليف في العبادات	1215	532	
- تأليف في العبادات	1216	550	
- تقييد على الفدية	1280	345/3	
- منظومـة حـول الـرد علـى مـن قـال للرحمن بابا فقد كفر	1621	49	
- نفائس الدرر في حواشي المختصر	1644	276	
- نفائس الدرر في حواشي المختصر	1644	276	
- حواشي على شرح كبرى السنوسي	1674	569	
- سينية في الوعظ	2380	659	
- رسالة وعظ إلى المولى إسماعيل	2376	600	
- وصية	2407	485	
- دالية رب أنت المولى إليك استنادي	23	657	
- رائية أكلف جفن العين أن ينثر الدرا	31	656	
- قصيدة استنجاد: إغاثة ملهوف	56	518	
- منظومـة في التوسـل: يـاربي اهدينـا وارزقنا	162	600	
- دالية مدح ابن ناصر	241	656	

- قصيدة في الاستغاثة	307	855	
- دالية في مدح ابن مشيش	427	656	
- دالية في مدح ابن ناصر	428	656	
- أبيات في الرد على من يهجـو البربر	ع ص	656م	مجموع الأبيات 20 بيتا
ويكفرهم	327		
- تقييد منقول عن الشيخ اليوسي فيمـا		656م	
هو القديم والمحدث في القرآن الكريم	ع ص		
- حاشية اليوسي على الكبرى	56-57	569	خط مغربي رديئ

وبالنظر لما تكتسيه هـذه المؤلفات من قيمة تراثية، تتطلب مزيدا مـن بـدل الجهـد واستفراغ الوسع لتحقيقها، فقد قمت باستعراض وتحليل بعض ما تعلق منها بعلـم الكـلام والعقيدة، في بحث دبلوم الدراسات العليا[1].

1- لا زال مرقونا بدار الحديث الحسنية.

ثالثا: مكانة اليوسي العلمية وثناء العلماء عليه

شهد القرن الحادي عشر الهجري في المغرب، تحولا هاما في قضية اعتناء المغاربة بالأخبار، والوقائع، والنوادر، والتواريخ والمسانيد، إذ المعروف عنهم أنهم ما كانوا يعيرون هذا الجانب كبير اهتمام، لما كانوا عليه من قلة الميل إلى التسجيل والتدوين، فانعكس ذلك على الرواية عندهم، وهي حقيقة لم يفت اليوسي التنصيص عليها بقوله: «وقد سألت شيخنا أبا عبد الله ابن ناصر رحمه الله، ورضي عنه يوما عن السند، في بعض ما كنت آخذه عنه فقال لي: إنا لم تكن لنا رواية في هذا، وما كنا نعتني بذلك»[1].

وكان من آثار ذلك الإهمال ضياع العديد من الرجال وما أنتجوه، حتى إن العربي الفاسي رحمه الله، كان «متى لقي إنسانا يسأله من أي بلد هو؟ فإذا اخبره قال: من عندكم من أهل الصلاح؟ و من الأعيان؟ فإذا أخبره بشيء من ذلك سجله»[2].

فهذه الظاهرة السلبية من بخس العلماء حقوقهم، هي التي كانت وراء ذلك الكم النسبي من كتب التراجيم، وتخليد محاسن ومناقب علماء السلف، إذ تضمنت بين ثناياها نعوتا وألقابا في حق اليوسي، تكاد تخرج عند بعض المعجبين به، حدود المألوف في الإطراء والمدح، بل هناك من أفرد ترجمته بتآليف مستقلة ككتاب "قرى العجلان على إجازة الأحبة والإخوان: الذي نقل عنه الكتاني في "فهرس الفهارس" حيث ذكر أن الهشتوكي في قرى العجلان، فصل أخذ اليوسي للعلم عن علماء الأقاليم التي جال فيها، وإن لم يذكر هو ذلك في فهرسته، وكتاب "الجواهر الصفية من المحاسن اليوسية" لأبي عيسى المهدي الفاسي وهو مفقود.

1- المحاضرات/1: 75.

2- نفسه/1: 174.

ولما كان استعراض كل المصادر التي ترجمت لليوسي، ونوهت به و بمكانته العلمية، كقطب من أقطاب الفكر المغربي أمرا متعذرا لكثرتها، فإنني أكتفي بتصنيف بعض النماذج منها، والإحالة عليها:

1- كتب ترجم فيها اليوسي لنفسه: كالمحاضرات، الفهرست[1]، الرحلة[2]، الرسالة الكبرى للمولى إسماعيل، وصية اليوسي لأبنائه.

2- كتب تضمنت إجازات شيوخ اليوسي تشيد كلها بكفاءته العلمية، كإجازة شيخه المرابط الدلائي[3]، وإجازة شيخه عبد القادر الفاسي[4]، وإجازة شيخه محمد بن سعيد المرغيثي السوسي[5] وغيرهم.

3- كتب تضمنت شهادات تلاميذ اليوسي فيه، و الاعتراف بأفضاله، كنشر أزاهير البستان لابن زاكور، ومباحث الأنوار[6] للولالي و غيرهم...

4- شهادات أقرانه من العلماء، الذين كانت تربطهم به صلات المحبة والطريقة الصوفية، كأحمد بن عبد القادر التستاوتي في كتابه نزهة الناظر[7]، وأبي سالم العياشي وغيرهم.

5- شهادات أصحاب كتب التراجم والتاريخ، كاليفرني في صفوة من انتشر، ومحمد المكي بن موسى الدرعي في الدرر المرصعة[8] ومحمد بن الطيب القادري في التقاط الدرر وغيرهم.

1- مخطوط الخزانة الملكية. رقم: 1138 - مخطوط الخزانة العامة. رقم: 1418 ك.

2- مخطوط الخزانة الملكية. رقم: 2343 - مخطوط الخزانة العامة. رقم: 1418 ك.

3- انظر نص الإجازة في الزاوية الدلائية: 280.

4- انظر نص الإجازة في الفهرست.

5- نفسه.

6- مخطوط الخزانة العامة. رقم: 342 ق.

7- مخطوط الخزانة العامة. رقم: 1669 ك.

8- مخطوط الخزانة العامة. رقم: 265 ك.

والملاحظ في هذه الفئة الأخيرة من الكتب، أنها تكاد تجمع على إدراج اليوسي في سلك المجددين للدين، كالإفراني الذي قال فيه: «وبالجملة فهو آخر العلماء بل خاتمة الفحول من الرجال حتى كان بعض أشياخنا يقول: هو المجدد على رأس هذه المائة، لما اجتمع فيه من العلم والعمل، بحيث صار إمام وقته وعابد زمانه»[1].

وجاء في سلوة الأنفاس للكتاني ما نصه: «... وعد من المجددين على رأس القرن الحادي عشر»[2]، وقال فيه العباس بن إبراهيم صاحب الأعلام رواية عن «إفادة النبيه، فيمن ادعى الإجتهاد أو ادعى فيه، ومنهم عالم المغرب ونادرة الدنيا في وقته، الحسن بن مسعود اليوسي ﷺ، سمعت من يقول من وعاة التاريخ من بلدنا: لو كان له مذهب لاتبع»[3].

ويكفي للتدليل على صدق هذه الآراء بالملموس، والقاضية بالفكر التجديدي عند اليوسي، تجديده لفهم كثير من القضايا الفكرية، التي تشعبت آراء العلماء فيها، كنزاعهم في كيفية تقرير مدلول الكلمة المشرفة، من حيث التركيب والوضع، إلى غير ذلك مما يتعلق بها من مباحث شائكة، لا تطرق أبوابها إلا بشفاعة الإلمام بناصية العلوم، والفنون النقلية والعقلية، فجاء اليوسي رحمه الله تعالى وقرر الكلمة المشرفة أحسن تقرير، وكشف عنها القناع، ورفع شغب النزاع، وبين الأصول التي يجب أن تعتقد، ووفق بين آراء العلماء الخائضين فيها، سواء في ذلك القدامى أو المحدثين، من غير تجريح أو تشديد النكير على أحد منهم.

1- الصفوة: 208.

2- السلوة/3: 82.

3- الأعلام/3: 162.

يشهد لذلك قول العلامة إدريس الوزاني[1]، «وخالفه ـ أي الهبطي ـ الجم الغفير منهم اليسيتني وتلميذه أبو العباس المنجور، وسيدي العربي الفاسي، وسيدي عبد القادر الفاسي، في جواب له، وقد كنت تبعت هؤلاء العلماء المحققين رضي الله عنهم، في تأليفنا في كلمة الشهادة، ولم نطلع على تأليف[2] اليوسي، لقلته جدا قبل طبعه، فلما اطلعت عليه، رجعت عن الاعتراض على الهبطي إلى تأويل كلامه، وكتبت بهامش النسخة أني رجعت عن ذلك»[3].

ويظهر من هذا النص الذي يفوح بشذى الموضوعية العلمية، المكانة التجديدية لليوسي علما وعملا، والتي لا ينازع فيها إلا معاند أو مكابر[4]، وبذلك استطاع أن يخلق منهجا متميزا في التفكير، بتصحيح كثير من المفاهيم، وصياغتها صياغة جديدة، وفق منظور يذم التقليد، ويفتح المجال لركوب مطية الاجتهاد والخلق والابتكار، وهو ما جعل أمثال إدريس الوزاني، يعدل عن رأيه فيما كان يواخذ به الهبطي في تقريراته للكلمة المشرفة، منتصرا في ذلك لطائفة من العلماء المعاصرين لليوسي.

ولو لم يكن لليوسي من مقومات التجديد، التي تشهد على عبقريته ونبوغه، إلا ما ضمنه في كتابه "مشرب العام والخاص" من مناقشات رفيعة وتقريرات عجيبة في كلمة التوحيد لكان عندي كافيا، لما يتضمنه هذا الأصل العقدي من الأسرار واللطائف، باعتباره شعار الدخول في دين الإسلام، ولما ينتج عن الجهل وعدم التصديق به من السقوط في مهوات الكفر، نعوذ با لله من الخذلان.

1- بو العلاء إدريس بن الشيخ حمد الخضر التهامي الوزاني (1275- بعد 1348هـ). من تآليفه: "أهل الإيمان والسعادة فيما يتعلق بكلمة الشهادة". مقدمة النشر الطيب.

2- المقصود به: "مشرب العام و الخاص"

3- النشر الطيب بشرح الشيخ الطيب/2: 226.

4- انظر مقال عبد الرحمن الفاسي، في مجلة المناهل العدد: 15 ص: والذي حاول فيه التنقيص من المكانة التجديدية عند الرجل.

وفاته

وفي يوم الإثنين الثالث والعشرين[1] من ذي الحجة متم عام 1102 هـ 1692 م، أسلم اليوسي الروح إلى بارئها، بعد حياة حافلة بحميد المآثر، وجليل الأعمال الفكرية من خلال جهاده الصادق باللسان والقلم، عن عقيدة الإسلام وشريعته، إيمانا واحتسابا لله تعالى، ومما يعد من مناقبه «أن قوما ذهبوا لزيارته، فبينما هم في الطريق رأى رجل منهم في نومه، أن الشمس قد غربت، فقصها على أصحابه، فقالوا له: لعل الشيخ قبض الليلة، فلما بلغوه وجدوه قد توفى تلك الليلة»[2].

وكان مدفن اليوسي أول الأمر بمكان يسمى "اجنان مشكة" حيث لاتزال آثاره شاخصة إلى اليوم، وإن كان الزمان قد عَفّى عن غالبيتها، ببلدة "تمزريت" التي تبعد عن مدينة "صفرو" بحوالي إثنين وعشرين كلم، وبعد مضي عشرين عاما نقل جثمانه ـ الذي لم يتسنه ـ إلى حيث يوجد ضريحه ومسجده، اللذان تم بناؤهما سنة 1122 هـ، من قبل الباشا العموري الذي امتدت باشويته على مدينة صفرو وأحوازها من سنة 1912م إلى سنة 1928م. وفي سنة 1344 هـ جدد بناء ضريحه على الطراز المعماري الأصيل، وهو في قبة رفيعة أنيقة، عليه "دربوز" يزار به اليوم، ومما يطالعك مكتوبا على باب الضريح قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[3] صدق الله العظيم.

1- التقاط الدرر: 258 - طبقات الحضيكي. مخطوط الخزانة العامة. ص : 123 - تذكرة المحسنين. مخطوط الخزانة العامة. رقم: 270ك.

2- صفوة من انتشر: 210.

3- فصلت: 30-31.

رابعا: الزاوية اليوسية

لما تكامل البناء الصوفي في شخصية اليوسي الغنية، في السنين الأخيرة من حياته، بعد خروجه من مدينة فاس سنة 1083 هـ، توجه إلى "خلفون" حيث أسس زاويته البسيطة، واستقر بها زاهدا في الدنيا، عاكفا على العبادة، ونشر العلم بين طلبة جبل ملوية، كما عبر عن ذلك بلسان المقال: «ونزلت في الشعب الذي كنت فيه، وبنيت دويرات بغير مؤونة واتسعت، وجعلت لنفسي موضعا وبابا لا أرى فيه قط امرأة من غير عيالي، وبنيت بيتا ملتصقا بالمسجد، فإن رأيت في الخارج خلطة لا تعجبني نقرت لهم، فأقاموا الصلاة وصليت معهم، وأنا أسمع قراءة الإمام، وأبقى على ذلك إن شئت الشهر والشهرين، لا أرى أحدا ولا يراني أحد، أنظر في كتبي حتى تقام الصلاة، ولا يضيع علي شيء من أوقاتي... وجاءت الطلبة وكنا ندرس العلم لله، لا يتشوف أحد منا لمراتب، ولا يرائي أحدنا أحدا»[1].

لولا أن هذه الزاوية عرفت بعض الكدر، نتيجة وباء ضرب طلبتها «ومات من مات يقول اليوسي من مماليكنا، ومن تعلق بنا ممن بلغكم، ومات من طلبتنا جماعة رحمة الله على الجميع. وقد عظم وجدي على الطلبة. ثم خف الوجد، بل أوجب السرور والطرب، ما شهدنا فيهم من الخير بحمد الله. فما ظنك بجماعة شباب اجتمعوا على غير قرابة ولا نسب، فيقيمون الدين: من مات منهم ومن جيرانهم، جهزوه أحسن جهاز، وصبروا حتى إذا مات آخر جهزوه، ولا فرار، بل صابرون محتسبون، مدعنون لأمر الله»[2].

1- رسائل اليوسي/1: 171-172.

2- نزهة الناظر/1 ورقة: 70. ص: 138.

سند طريقة الزاوية اليوسية

يذكر التستاوتي في نزهته، المناقشة التي دارت بينه وبين الشيخ ابن نـاصر، في شأن اليوسي بقوله: «وذكرت له السيد الهمام القدوة، الإمام أبي علي اليوسي فقـال لي: قضينـا حاجته هاهنا»[1].

وفي المقابل بقي اليوسي وفيا لذلك التفويض، الذي خصه به ابن ناصر، كخلف لـه في الطريقة، التي هي امتداد للطريقة الشاذلية، المنبنية على أصـول الشـرع المستقيم، الثابتـة بالكتاب والسنـة، وتحقيـق الإنابـة، والإلتجـاء إلى ا لله تعـالى في كـل حـال، والتفويـض والتسليم، وهو ما يستفاد من كلام التستاوتي الحديث العهد بها، حين استفسر ابن نـاصر كتابة عن بعض الأمور، فأجابه قائلا: «وسيدي الحسن اليوسي يبين لـك، وكتـب محمـد ابن ناصر»[2].

وقد خصها اليوسي بشروح مستفيضة، في حل كتبه ورسائله، وبخاصة كتابـه "نيـل الأماني في شرح التهاني" الذي ألفـه في شـرح قـصيدتـه الـداليـة[3]، وذكـر أن طـريـقـة الشاذلية متصلـة السنـد بسلسلتيـن: سلسلة العلماء[4] وسلسـلة الأقطـاب[5]، وقـد جمـع ابـن

1- نزهة الناظر/1: ورقة: 27. ص: 51.

2- نزهة الناظر/1. ورقة: 17. ص: 32.

3- شرحها أيضا علي بن سليمان الدمناتي. يوجد شرحه مخطوطا بخزانة الزاوية الناصريـة تحـت رقـم: 3083، كما يقسمها السوسيون على عدد أيام الأسبوع. ويقرأون جزءا منها بعد الحزب الراتـب كـل مساء، على غرار ما يفعلون ببردة الإمام البوصيري في المساء كذلك، وبهمزيته في الصباح.

4- قال اليوسي في تعداد شيوخها: «أخذ الشيخ ابن ناصر، عن الشيخ عبد ا لله بن حسين الرقي، عن الشيخ أحمد بن علي الحاجي، عن شيخ المشايخ أبـي القاسـم الغـازي، عـن الشـيخ علـي بـن عبـد ا لله السجلماسي، عن الشيخ أحمد ابن يوسف الراشدي الملياني دارا، عن الشيخ أحمد زروق البرنسي، عن الشيخ أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي، عن الشيخ الشريف القادري، عن الشـيخ علـي بـن وفـا، عـن الشيخ محمد وفا والده، عن الشيخ داوود الباخلي، عــن الشـيخ أحمـد بـن عطـاء ا لله، =

ناصر بين سنديهما في أخذه عن شيوخهما، فهو واسطة اليوسي المباشرة، كما قال: «وقد رأيت والحمد لله الإمام ابن ناصر، وأشهدته على ذلك، حققه الله لنا وللإخوان آمين»[1].

في كيفية الدخول في الطريق

عملا بالقول المأثور عند الصوفية «إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول» ينبغي للمريد المبتدئ في نظر اليوسي، إن هو أراد الانتساب إلى طريق القوم أن يبدأ في "التخلية والتحلية"، ومعناها تصفية القلب حتى تذهب الأخلاق المذمومة، ويتصف بالأخلاق المحمودة. وبتعبير آخر، أن يلتزم بمجموعة من القيود والشرائط تتمثل فيما يلي:

1- تصحيح العقيدة:

وذلك باعتقاد الحق على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، في:

= عن الشيخ أبي العباس المرسي، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي، عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، عن الشيخ عبد الرحمن المزني، عن الشيخ أبي مدين، عن الشيخ علي بن حرزهم، عن الشيخ أبي يعزى يلنور، عن الإمام أبي بكر بن العربي المعافري، عن الإمام أبي حامد الغزالي، عن الإمام أبي محمد الجويني، عن الشيخ أبي طالب المكي، عن الشيخ الجويري، عن الشيخ أبي القاسم الجنيد، عن الشيخ السرى قسطى، عن الشيخ معروف ابن فيروز الكرخي، عن الشيخ داوود الطائي، عن الشيخ حبيب العجمي، عن الإمام الحسن بن أبي الحسن البصري، عن أمير المؤمنين باب مدينة العلم أبي الحسن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه». نيل الأماني في شرح التهاني: 99.

5- قال اليوسي في شأنها: «أما السلسلة التي أشرنا إليها عن الإمام الثعالبي، فإن شيخنا الإمام ابن ناصر رضي الله عنه يحدث بها عن شيخه الفقيه الصالح سيدي علي ابن يوسف الدرعي، عن شيخه سيدي عبد الرحمن بن محمد من بني مهرة، عن سيدي محمد بن محمد بن ناصر من أهل الرقيبة، عن سيدي عبد الكبير، وهو جد سيدي عبد الرحمن المذكور، عن القطب الكبير سيدي عبد الرحمن الثعالبي». المحاضرات/1: 232.

1- المحاضرات/1: 233.

1- عقيدة أن الله تعالى موجود غير معدوم

2- عقيدة أن الله قديم غير مخلوق

3- عقيدة أن الله باق غير فان.

4- عقيدة مخالفة الله لخلقه.

5- عقيدة تنزيه الله عن أي شيء.

6- عقيدة أن الله غني لا يفتقر.

7- عقيدة أن الله واحد في ملكه لا شريك له ولا معين.

8- عقيدة أن الله قادر ومريد، بقدرة وإرادة يتعلقان بكل ممكن...

9- عقيدة أن الله عالم بعلم محيط.

10- عقيدة أن الله حي سميع بصير.

11- عقيدة أن الله له التصرف في الممكنات، بكل ما شاء من إيجاد وإعدام...

12- عقيدة أنه لا يجب على الله شيئ لعبيده، إلا ما جعل لهم تفضلا وامتنانا.

13- عقيدة رؤية المؤمنين الله في الآخرة من غير جهة ولا مقابلة.

14- عقيدة أن الله يرحم المؤمنين بدخول الجنة، ويعذب الكفار ومن شاء من العصاة بالنار.

15- عقيدة أن الله خلق الملائكة وجعلهم عبادا مكرمين.

16- عقيدة أن الله أوحى إلى الأنبياء من البشر وجعلهم معصومين.

17- عقيدة أن ما جاء به القرآن والشريعة حق.

18- عقيدة قيام الساعة، وسؤال الملكين في القبر، والحشر والنشر، والميزان والصراط.

إلى غير ذلك من العقائد الدينية المفصلة في المطولات[1].

2- أن يتوب التوبة النصوح، فيصححها بأركانها الأربعة: الأول: الإقلاع. الثاني: الندم. الثالث: العزم على عدم مقارفة المخالفة. الرابع: رد المظالم.

3- الاجتهاد في طاعة الله مع إلتزام التقوى.

1- رسائل اليوسي/2: 339-340.

4- إن كانت همة المريد إنما تتطلع إلى العبادة، وطلب الجنة فله الكفاية، فيما يسمع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والعلماء فيما ياتيه ويدعه، وإن هفت نفسه إلى طلب معرفة الله والوصول إليه، فعليه بالتربية على يد الشيخ.

5- الرجوع إلى الله والاحتكام إليه بالافتقار والاضطرار.

6- الحرص من الوقوع في حبائل المتلاعبين وصحبتهم من أهل البدع، الذين لا يستندون إلى أصل صحيح، ولا ظاهر مستقيم، ويرفضون المعاملات الشرعية، ويدعون منازل الخصوصية.

7- طريقة اليوسي كلها مبنية على العلم ثم العمل، ثم الفتوحات والمواهب من الله تعالى.

8- ليس في يد الشيخ جنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، بل هو عبد مملوك كباقي العباد، وإنما هو دال على الله بالتربية و الهمة[1] .

واقع الزاوية اليوسية اليوم

تبعد هذه الزاوية عن عمالة إقليم صفرو بحوالي عشرين كلم، شرقا، وهي امتداد لزاوية "خلفون" التي تركها اليوسي، حين رحل إلى حيث ضريحه وزاويته اليوم بتمززيت، وذلك بسبب الوباء الذي ضربها من جهة، والأمر السلطاني بالرحيل سنة 1085 هـ من جهة أخرى.

وإذ لم تسعفن المظان، بما يكشف عن طبيعة الأوراد التي كانت تلقن بها في حياة مؤسسها الأول، فإنه مع ذلك يمكن القول بأن أوراد الشيخ ابن ناصر، هي التي كان المعول عليها في هذا الشأن، وإن كانت السمة الغالبة عليها حتى عهد قريب، هي الاعتناء بتدريس العلم وتحفيظ القرآن، والتمسك بالسنة بعيدا عن أي سماع أو رقص أو جذب،

1- رسائل اليوسي/2: 341 و ما بعدها.

إلى جانب العبادات والأذكار[1]، وبخاصة تلاوة قصيدة "سيف النصر على كل ذي بغي ومكر" التي مطلعها:

يا من إلى رحمته المفر ❖ ومن إليه يلجأ المضطر

وكذا القصيدة الميمية لليوسي، والتي مطلعها:

جد في سيرها فلست تلام ❖ هذه طيبة وهذا المقام

كما يعكف أهل هذه الزاوية، على قراءة الحزب الراتب مساء كل يوم[2]، وضمن ذلك قراءة حزب الشيخ، نسبة إلى الشيخ ابن ناصر مؤسسه، وهو الحزب الشهري الذي يقرأ جماعة صباحا ومساء في جميع المساجد، غير أن هذا الشيخ كان يحذف حزب مساء الخميس ويعوضه بسورة الكهف، التي ورد فيها حديث[3] أن من قرأها مساء الخميس حفظه الله إلى تمام الأسبوع، كما كان يحذف حزب صبيحة الجمعة ويعوضه بسور يس، والدخان، والواقعة، والملك، والإنسان، والبروج.

وكان هاجس مآل الزاوية اليوسية، بعد وفاة مؤسسها، العلامة اليوسي، من بين اهتمامات هذا الأخير، أملا في أن تبقى هذه الزاوية محافظة على إشعاعها العلمي ودورها

1- كتلك المضمنة في "دليل الخيرات"، التي كان يعكف على قراءتها أحد حفدته المدعو عبد الرحمن بن الحسن بن الشاذلي.

2- من الحفاظ الفرسان الذين كانت تعج بهم الزاوية حتى عهد قريب، المشمولون برحمة الله السادة: محمد بن الغازي، إدريس بن المجاهد. عبد السلام بن حماني. أحمد بن حماني ومحمد بن حماني. امحمد بن لحسن. عبد الهادي بن العربي بن ناصر. علال بن الشاذلي. عبد الكريم بن عمر. والهبوب العمريوي. وغيرهم. و لم يبق من هذه الطبقة من الحفاظ سوى السيد عمر بن الغازي فقيه وخطيب مسجد الزاوية، الذي نرجو له طول العمر، وييسره الله لتكوين جيل جديد من الحفاظ بتعاون مع عمالة إقليم صفرو ونظارة الأوقاف.

3- أخرجه الدارمي عن أبي سعيد الخذري موقوفا عن علي: (من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه و بين البيت العتيق). وقال الإمام الشافعي: «أستحب قراءتها ليلة الجمعة».

الديني والإجتماعي بخاصة، تلقن العلم وتطعم الطعام. ومع مرور الزمان اتسع نطاق نشاطها، ليمتد إلى ممارسة أدوار الوساطة والصلح سابقا، بين العشائر والقبائل المتاخمة لها، فيما ينشأ عادة بينها من النزاعات حول مراعي العشب، وعلاقات حسن الجوار الخ...

ولأجل هذه الغاية، خلف اليوسي وصية لأبنائه وحفدته يحثهم فيها، على الالتزام بالسلوك القويم المتمثل في الثوابت التالية:

- الاقتداء بكتاب ا لله، والمحافظة على سنة رسول ا لله ﷺ.
- التراحم والتعاون على البر والتقوى، وأن لا يتدابروا ولا يتباغضوا.
- تقديم الأكبر فالأكبر في الأمور، ما لم تظهر خصوصية من ا لله تعالى وفضيلة في الأصغر.
- الاعتقاد بأنهم مسخرون في خدمة الفقراء والمساكين.
- دفع الأموال لأهل البيت أو العلماء، لكونهم أصحاب حظوظ في ذلك.
- القيام بالأسباب الشرعية، والضرب في الأرض طلبا للرزق، في حق من لم تستقم أمور الزاوية على يده من الأبناء.
- صرف جميع الصدقات المتوفرة حالا ومآلا في سبيل ا لله.
- التحذير من مغبة الوقوع فيما يتعاطاه أبناء المنتسبين، من الطمع في أموال الناس، مع الطوفان على المحلات والقبائل، فالعياذ با لله من هذه الحرفة.
- رد ما كان من الكتب عارية أو وديعة عند الغير إلى ربه، وإن لم يوجد ربه حفظ له حتى يوجد، وما كان منها بالشراء أو عطية، والغالب أن ذلك مكتوب[1] عليه فهو كله حبس على الأولاد...

1- كما هو الحال في كتاب "إعراب القرآن" لأحمد بن يوسف السمين المتوفى عام 756 هـ، الذي نبه فيه اليوسي بخط يده على ملكيته له، وهو في ثلاثة مجلدات يوجد بالخزانة الملكية تحت رقم: 230. وكتاب "شفاء السائل" لابن خلدون، وكتاب" الشفا" للقاضي عياض، وغيرها.

خامسا: التعريف بكتاب "القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم"

كتاب "القانون" هذا، من أجود مؤلفات اليوسي النثرية، لما اشتمل عليه من علم غزير، وفوائد جمة في كافة العلوم الإسلامية، وكيفية نشرها وتلقينها، وما هو الأولى بذلك منها، مما أضفى على الكتاب صفة الموسوعية، رفعته إلى مصاف المصادر الرفيعة المستوى في مجال العلم والتعليم والتعلم، فأثر بذلك تأثيرا بينا فيمن أتى بعده من علماء المغرب، من أمثال محمد بن أحمد الحضيكي[1] (ت: 1189 هـ). والشيخ الطيب بن كيران[2] (ت: 1227هـ). والعربي بن عبد الله المساري[3] (ت: 1240هـ. ومحمد كَنون (ت: 1302هـ). وأحمد بن المامون البلغيثي[4] (ت: 1348هـ). وإدريس الوزاني[5] (ت: بعد 1348هـ).

1- اسم الكتاب وموضوعه.

ذكره البغدادي باسم "قانون العلوم"[6]، وليفي بروفنسال ب"كتاب القانون"[7]، وكَنون "القانون في ابتداء العلوم"[8]، وأطلق عليه جورجي زيدان "قانون على أحكام العلم

1- في رسالته "آداب المعلم والمتعلم". الأعلام/6: 15.

2- في "شرحه على كتاب العلم" من إحياء علوم الدين. النبوغ/1: 313 - الحياة الأدبية: 367. يوجد مخطوطا بالخزانة العامة تحت رقم: 81ك.

3- في منظومته "سراج طلاب العلوم في آداب طلب العلم والتعلم والتعليم". مخطوط الخزانة العامة رقم: 2817د - الحياة الأدبية: 378

4- في شرحه على منظومة "السراج" وسماه: "شرح الإبتهاج بنور السراج". شجرة النور: 438 - الحياة الأدبية: 378 - المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية: 80-81.

5- في مواضع من "النشر الطيب بشرح الشيخ الطيب."

6- هدية العارفين/1: 296 - إيضاح المكنون/1: 220.

7- مؤرخو الشرفاء: 191.

8- النبوغ المغربي/1: 320.

وأحكام العالم وأحكام المتعلمين"[1]، وهي كلها عناوين تختزل مضمون الكتاب، ولكنها لا تنطبق عليه انطباقا تاما، كما أراد له مؤلفه الذي قال فيه: «فهذا بعون الله قانون يشتمل على أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم»، فهو يتجاوز باستقصائه لهذا الجانب مبادئ العلوم التي تقدم بين يدي كل فن من: اسمه ورسمه، وموضوعه وفائدته، ورتبته وحكمه، وواضعه ونسبته، ومسائله واستمداده، أو ما يعبر عنه عادة بالمبادئ العامة.

أما موضوعه فقد لخصه اليوسي في عدة مواضع متفرقة في الكتاب بقوله: «فهذا بعون الله قانون، يشتمل على أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، وما يتعلق بشيء من ذلك على وجه الإشارة، والاختصار في العبارة»، ونفس المعنى يردده في موضع أخرى بقوله: «هذا الكتاب إنما وضع لضبط القانون في الجملة، ليكون الطالب على بصيرة منها علما وأخذا وتركا»، ويضيف قائلا في موضع ثالث: «لم نقصد في هذا الكتاب استيفاء كل فن من الفنون، فإن ذلك لا يسعه موضوع عادة، بل ضبطها والإشارة إلى جملة منها، تنبه على ما وراءها، ونوثر في ذلك القوانين على الجزئيات».

2- منهج المؤلف في الكتاب وموارده فيه.

يسير اليوسي في كتاب القانون، وفق منهج دقيق في ترتيب موضوعاته وفي تناولها، فهو يدرج تحت كل باب عددا من الفصول، وينهيه بخاتمة جامعة لأشتات من الفوائد، لها وثيق الارتباط بالباب المطروق، وهكذا نهج في سائر الأبواب إلى نهاية الكتاب.

وقد استقصى اليوسي في مجال الاستشهاد عددا من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، والأبيات الشعرية، والحكم والأمثال الجارية.

والكتاب إلى جانب هذا، شديد الصلة بالأحوال النفسية لمؤلفه، بما طبعها من استقرار يوم كان مقيما بزاويته "بخلفون" ثم بزاويته "بتمززيت" حيث ضريحه اليوم، وهو

1- تاريخ آداب اللغة العربية/3: 285.

ما يفسر ذلك الكم من النقول، التي اقتبسها على سبيل الاستدلال والاستشهاد من أمهات كتب التفسير، والحديث، والكلام، والفقه، واللغة، والطب، والحساب، والمنطق...

واليوسي يصرح بمصادره أحيانا، ويكتفي بالإشارة إليها أحيانا أخرى، وهو بذلك يسير على سنن المتقدمين، الذين سبقوه إلى التصنيف في العلوم الإسلامية، كما يتضح من هذا الجرد الذي استخلصناه من المظان:

وصية يحيى بن يحيى الليثي (ت: 234هـ) لطلبة العلم[1]. و "الورع في العلم"[2]، لعبد الملك بن حبيب (ت: 238هـ). و"فضائل العلم"[3] ليحيى بن إبراهيم بن مزين (ت: 259هـ). و"فضل طلب العلم"[4] لأحمد بن خالد ابن الجباب (ت: 323هـ).و"العلم"[5] لأحمد بن سعيد بن حزم الصدفي (ت: 350هـ). و "آداب الإسلام" و"قدوة القارئ"[6] لمحمد بن عبد الله ابن أبي زمنين (ت: 399هـ). و"آداب المعلمين"[7] لأحمد بن عفيف بن عبد الله أبي عمر (ت: 420هـ). و"أصول العلم"[8] لعبد الملك بن أحمد المعروف بابن المش (ت:433هـ). و"فضل العلم"[9] لأبي محمد ابن الصابوني (ت: 446هـ). و"مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض"[10] لابن حزم الظاهري (ت: 456هـ). و"جامع بيان

1- الغنية: 120- ترتيب المدارك/6: 108

2 - ترتيب المدارك/4: 127- الديباج: 155.

3 - نفسه/4: 239- فهرسة ابن خير: 303- الديباج: 354.

4 - بغية الملتمس: 448- الديباج: 35.

5 - تاريخ علماء الأندلس/2: 44.

6 - الديباج: 270

7 - ترتيب المدارك/8: 9- الصلة رقم: 75- الديباج: 38-39.

8 - الصلة رقم: 772- الديباج: 157.

9 - الصلة رقم: 1015.

10 - رسائل ابن حزم/4: 61- صلة الخلف: 207.

العلم وفضله"[1] لابن عبد البر أبي عمر (ت: 463هـ). و"أعز مايطلب"[2] للمهدي ابن تومرت (ت: 524هـ). و"الكافي في بيان العلم"[3] لمحمد بن أحمد بن خلف المعروف بابن الحاج (ت: 529هـ). و"رسالة في التربية والتعليم"[4] لأحمد بن العريف أبي العباس (ت: 536هـ). و"تنبيه المتعلمين على المقدمات والفصول وشرح المبهمات منها والأصول"[5] لعلي بن محمد بن إبراهيم الفزاري (ت: 553هـ).وفهرسة[6] ما رواه محمد ابن خير الإشبيلي عن شيوخه في العلم (ت: 575هـ). و"نظم في ترتيب العلوم"[7] لأحمد بن خليل السكوني (ت: 581هـ). و"الفيصل الجامع في فضيلة العلم والعالم"[8] ، في مراتب العلوم، لمحمد بن عبد الحق الندرومي (ت: 625 هـ).و"بيان المنن على قارئ الكتاب والسنن" لمحمد بن أحمد ابن الطيلسان (ت: 642هـ).و"الأقنوم في مبادئ العلوم"[9] لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت: 1096هـ).

والممعن للنظر في هذه المصنفات، يتبين له أنها توزعتها المحاور التالية:

1- مؤلفات عالجت فضل العلم، وما ورد فيه من نصوص قرآنية وحديثية، ترغب طالب العلم فيه والإقبال عليه، وما ادخره له المولى سبحانه من عظيم الأجر وجزيل الثواب.

---

1 – مطبوع متداول.

2 – طبع محققا بعناية الدكتور: عبد الغني أبو العزم.

3 – فهرسة ابن خير: 216- شجرة النور الزكية: 132.

4 – كتابه السعادة وتحقيق الإرادة. مخطوط الخزانة الملكية رقم: 589.

5 – الديباج: 211

6 – مطبوعة متداولة. وهي من الدواوين الهامة المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف.

7 – الذيل والتكملة، س: 1، ص: 111.

8 – نفسه/1/8: 320.

9 – مخطوط الخزانة العامة رقم: 15ك.

2- مؤلفات تطرقت إلى تنظيم العلاقة بين التلميذ والأستاذ، ومـا ينبغـي أن تتمـيز بـه مـن أخلاق إسلامية رفيعة.

3- مؤلفات منثورة ومنظومة في ترتيب العلوم تتصل اتصالا وثيقـا بالمنهجيـة الإسـلامية في زمن التعاطي للعلوم، وما ينبغي الشروع فيه منها أولا، والأعلى والأدنى والكلي والجزئي، والمقصود لذاته، وما هو كالآلة...

وميزة قانون اليوسي أنه جاء مستوعبا لكل ما كتب في الموضوع، وجامعا لما تفـرق عند غيره، فكان بذلك حلقة وسطى بين السابقين واللاحقين من أعلام الغرب الإسـلامي، وهو في استقصائه يعقب ويناقش ويضيف، مما يدل دلالة قاطعة على سعة اطلاعه، الشـيء الذي يتعين معه إخراج كتابه هذا محققا حتى تعم به الفـائدة، وتحصـل الغايـة المرجـوة مـن تأليفه.

3- الدراسات التي شملت كتاب القانون

كتاب القانون هذا من أكبر مؤلفات اليوسي النثرية في العلـوم الإسـلامية، الشـرعية منها والعقلية والكونية، على غرار كتاب المحاضرات في اللغة والأدب، سبق وحظي بعنايـة بعض الباحثين إما قصدا وإما بكيفية عرضية، وهم حسب علمي:

- AL YOUSSI PROBLEME DE LA CULTURE MAROCAINE AU 17ème SIECLE.

للمستشرق الفرنسي الراحل "جاك بيرك" والذي لأهميته نقتطف منه تحليله الأدبي لكتاب "القانون"[1].

---

[1]- **UN ENCYCLOPEDISTE MAROCAIN AU XVII ème S. Le QÂNÛN**

Ces recueils à vérification mnémotechnique, étaient, on le sait à la mode. Le plus célèbre qui nous soi parvenu est le « AMAL » de Abd-Al Rahmân Al Fassi. Ce dernier également l'auteur d'un poème didactique sur l'ensemble des sciences, « L'UQNÛM », dont le sujet a été repris par AL YOUSSI dans son « QANÛN »: l'on devine une rivalité entre les deux savants.

Le nom de « QANÛN » n'est peut-être pas le titre d'origine du recueil publié sous ce titre, et qu'a popularisé une édition lithographiée à Fes en 1327 hég. Si l'oeuvre n'est pas posthume, elle est en tout cas très tardive. Elle se réfère en effet aux .../...

« MUHÂDARAT », livre de vieillesse, et le manuscrit initial aurait porté, de la main de l'auteur, une citation de son élève, de beaucoup son Cadet Al Madani. En tout cas, production de fin de carrière.

C'est une encyclopédie sur science, l'enseignement et l'étude. Après une première partie sur la définition, la dignité, et le contenu des diverses branches du ilm, viennent deux traités sur les règlements de corps, si l'on peut ainsi traduire le pluriel adab, auquel doivent obéir l'enseignant mu'alim et l'étudiant muta'alim.

Seule une recherche comparative pourrait démêler ce qu'il y a ou non de neuf dans cette classification des ulûm. Mais l'ordre dans lequel sont énumérés plusieurs de ces « sciences intéressant particulièrement notre étude, doit nous retenir un instant. Appelons-les sciences morales. C'est d'abord le naqd.

Contrôle comparable à celui des monnaies, et qui porte sur la véracité de la poésie, les difficultés de la langue suscitent la science du terme rare ou garib. Les autres espèces d'informations font l'objet du ilm al-Arab « sciences des grandes journées des Arabes ».

De là découle l'histoire au sens large.

Parfois elle étudie le gouvernement du monde à partir du premier royaume humain. Parfois elle se spécialise sur tel peuple, telle dynastie, ville ou climat, et parfois, sur l'état musulman, sur les vies illustres ou la description des pays, des mosquées, des monastères, etc...

Parmi ces matières certaines sont appelées par la mise en oeuvre de la loi: Ex. l'histoire de telle monnaie, de tels poids et mesures, de tel antique sanctuaire, la rencontre entre tel et tel transmetteur, ou sa vraisemblance, le classement de tel ou tel parmi les anciens, les modernes ou les compagnons. Tout cela fait partie des sciences légales valables. Le reste non. Pourtant si l'on trouve dans ce reste une utilité d'un autre genre, par exemple de l'expérience, l'analyse ou la discrimination du bien par la mention de ceux qui en offrent la qualification, ou du mal par la mention de ceux qui en encoururent l'opprobre, ou encore qu'elle serve l'enseignement d'un art ou utile stratagème, cela mérite l'éloge dans la mesure ou cela ne détourne pas d'objets plus valables.

Après l'histoire viennent l' «anecdotique » 'ilm zm-qisas', puis l' «homélistique » 'ilm al-wa'z', et enfin la fiction romanesque, du genre de « Kalila et Dimna ».

De ces écrits,
l'utilité parait générale à tous. Mais il ne s'y agit que de faire montrer de virtuosité verbale, en vers et prose, et d'exploiter toutes les ressources du langage en finesses et valeurs. C'est le cas des « Maqâmats» de Hariri, de Hammadâni et de leurs émules. Au fond, on cherche à charmer l'ouïe par des curiosités ou l'originalité dans causeries ou conférences « Muhâdarât wa Musâmarât ». Ce n'est qu'une science de désoeuvré, gens de désordre, de plaisanterie et de bavardage, ou des plus vains parmi les princes.

De ces deux jugements, sur l'histoire et sur les belles lettres, le premier, s'il émane d'un moraliste et d'un censeur religieux, frappe par son souci d'information diversifié. Il n'est pas jusqu'à la spécialisation tahassus qui n'y soit en germe. Il soutient avantageusement la comparaison avec la définition lapidaire de l'Ugnum, dont l'insuffisance à déjà frappé E. Lévi-provençal. Quant au jugement sur les belles lettres, sa vérité n'est pas sans rapports vers la faiblesse de la production littéraire du temps. Nous reviendrons sur ce point. Notons pour le moment l'emploi qui est fait du terme de « muhâdarât».

.../...

Ce qui frappe en tout cas dans le « QANÛN », comme dans « Zahr Al-Akam», c'est que toute la matière est nettement ordonnée, divisée et subdivisée, dans un esprit d'inventaire logique et l'insouci total de l'érudition d'emprunt.

C'est là, on le sait, un trait habituel d'Al-Yousi. Ce qui lui semble propre, c'est l'aisance avec laquelle il disserte de toutes les techniques musulmanes de son temps, soit qu'il se targe d'avoir atteint à « l'omniscience» mucharaka, soit plutôt qu'il s'inspire d'une synthèse supérieure, à laquelle ses études de mantiq et de soufisme ne seraient pas étrangères. On trouve aussi dans ces pages un petit traité d'arithmétique, et plusieurs curieux chapitres sur la médecine.

Certes, sur ce plan, « L'uqnûm» de Ab Al-Rahman Al-Fassi offre une masse encore plus impressionnante de données. Deux manuscrits de format moyen, l'un de 386 pages, l'autre de 442, totalisent près de quinze mille vers l'érudition marocaine s'émerveille de cette débauche de nomenclature. Elle évalue complaisamment le sombre des sciences ainsi passées en revue, trois cent selon les uns, cent cinquante selon d'autres, cent douze seulement selon le comput plus précis du Cadi TAARJI Abbès B. Ibrahim. Les redites, il est vrai, sont nombreuses, la même discipline revient deux, trois et même plus souvent encore. La vraie différence toutefois entre la « QANÛN » est à chercher dans la méthode, le second nous paraît beaucoup plus archaïque, ne fût ce que par l'imperfection du rajaz comme outil de définition. La prose d'AL-YOUSSI, avec ses énumérations analytiques, et ses lourdes périodes, s'avère un meilleur instrument, la doctrine opposait aussi les deux maîtres, et ce serait un travail fastidieux, mais, je crois, fécond de confronter leurs positions sur chacune des matières traités.

Il est pour nous d'un intérêt plus immédiat qu'AL-YOUSSI expose ce que nous appellerions les environnements sociaux des ulûm. La deuxième et la troisième sections du « QANÛN » offrent de l'oeuvre de science telle que la concevait un esprit du siècle de Mawlay Ismaïl, une systématisation qu'il faudrait éclairer à l'aide de données historiques. Entre tant d'autres passages substantiels, il en est un par exemple, où l'auteur, désireux de réformer la marche des vielles «médarsas», dénonce des abus qui, semble-t-il, n'en ont pas encore été éliminés aujourd'hui. Eternel débat! il a été repris, en vers, par le Cadi Al-Arabi B. Abd Al-Mastari dans son « Sirâj tâlib al-ulum», et ce poème a lui même été commenté par le Cadi Ahmed B. Al-Ma'mûn Al-Balgiti dans un ouvrage édité en deux tomes, « L'Ibtihaj bi-nur al-siraj».

L'économie de l'enseignement supérieur maghrébin a donc suscité des essais nombreux, de critiques, des tentatives de réforme. Un tel aspect est loin d'être négligeable. Il vient de compléter les trop rares éléments historiques que nous possédions sur l'évolution de la culture traditionnelle au Maroc.

Pour en revenir au « QANÛN », outre aperçus nouveaux qu'il offre ainsi sur l'histoire intellectuelle du pays, il permet de substantiels recoupement avec les « Muhâdarât». De celles-ci constitue à beaucoup d'égard une sorte de commentaire dans le genre sérieux: doublet encyclopédique de l'oeuvre d'âdâb.

SOURCE: L'article publié par le Matin du Sahara sous le N° 5430 le lundi 22 septembre 1986, intitulé: « L'OEUVRE DE SIDI LAHCEN LYOUSSI, TEMOIGNAGE PRECIEUX SUR LA CULTURE MAROCAINE » par Jacques Berque Professeur au Collège de France, et ce, en marge de la célébration du Moussem de Sidi Lahcen LYOUSSI.

-الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، في كتابه "الفقيه اليوسي" في معرض تحليل آثاره.

- محمد الفاطمي الصقلي الحسيني، الذي قام بتصحيحه بمناسبة طبعه على ذمة العربي الأزرق سنة 1310هـ/1892م في عهد المولى الحسن الأول. فكان بذلك أول كتاب لليوسي يحظى بالطبع على الإطلاق، في نطاق المرحلة الانتقالية للمغرب من طور التقليد إلى مرحلة الطباعة العصرية.

- طالبة من كلية الآداب بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، قامت بتحقيق الباب الأول من كتاب القانون، المتعلق بأحكام العلم، في إطار نيل دبلوم الدراسات العليا، تحت إشراف الدكتور عبد السلام الهراس، الذي أخبرني بذلك بمناسبة الندوة الفكرية، التي عقدتها نظارة أوقاف مدينة صفرو، على هامش موسم اليوسي المنظم في 30 شتنبر 1994.

4- مخطوطات كتاب القانون بالخزانات الوطنية.

تحمل النسخ الخطية من كتاب القانون التي تيسر لي الاطلاع عليها بالخزانات الوطنية الأرقام التالية: 931ق - 1304ج - 2382د - 2359د - 6643 - 1610 - 4251 - 1923، وفيما يلي فكرة موجزة عن كل هذه النسخ:

- نسخة الخزانة العامة رقم: 931ق

لا توجد من النسخة سوى الورقة الأولى، كتب عليها «تحبيس الكتاب على مكتبة الزاوية الناصرية» بخط محمد العياشي ابن اليوسي، ولا وجود للكتاب بين الدفتين.

- نسخة الخزانة العامة رقم: 1304ج

استهلها الناسخ بقوله: «قال الشيخ العالم العلامة، شيخنا واعتمادنا ووسيلتنا إلى ربنا أبو علي سيدنا ومولانا الحسن بن مسعود اليوسي، تغمده الله برحمته ومتعنا والمسلمين بعلومه، وبعلوم أمثاله في الدارين آمين، بجاه النبي ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم».

وأنهى المخطوطة بقوله: «وهذا آخر ما وجدنا من هذا الكتاب المبارك جعله الله عونا لكاتبه وناظره وكاسبه، ورحمة لمؤلفه. وقد انتهى وكمل بحمد الله تعالى.وحسن عونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما».

- نسخة الخزانة العامة رقم: 2382د، ميكروفيلم رقم: 2738.

جاء في آخرها قول الناسخ بعد البسملة والتصلية «وهذا آخر ما وجدنا من هذا الكتاب جعله الله تعالى لمؤلفه كنزا مدخرا ليوم المعاد، ونفع به الجميع أولا وآخرا إلى يوم التناد، والحمد لله رب العالمين».

- نسخة الخزانة العامة رقم: 2359د

تبتدئ هذه النسخة كسابقاتها بالبسملة والتصلية، وتنتهي بقول الناسخ «وهذا آخر ما وجدنا من هذا الكتاب المبارك، جعله الله لمؤلفه كنزا مدخرا ليوم المعاد، ونفع به الجميع أولا وآخرا إلى يوم التناد، والحمد لله رب العالمين».

- نسخة الخزانة الملكية رقم: 6643

جاء في بدايتها بعد البسملة والتصلية ما نصه: «قال الشيخ الإمام الأوحد الهمام، وحيد دهره وفريد عصره، أبو علي سيدنا ومولانا الحسن بن مسعود اليوسي قدس الله روحه آمين». وأنهاها الناسخ بقوله: «وهذا آخر ما وجدناه من هذا الكتاب المبارك، جعله الله لمؤلفه كنزا مدخرا ليوم المعاد، ونفع به الجميع أولا وآخرا إلى يوم التناد، والحمد لله رب العالمين». وهي ضمن مجموع يشتمل على كتاب "الحبائك في أخبار الملائك" للإمام السيوطي (من ص:1 إلى 110).

ويظهر أن هذه النسخة والتي قبلها منقولتان عن نسخة رقم: 2382د.

- نسخة الخزانة الملكية رقم: 1610

استهلها الناسخ بالبسملة والتصلية، وأنهاها بقوله: «انتهى القانون المبارك بحمد الله وحسن عونه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد... ؟ بعده آمين».

- **نسخة الخزانة الملكية رقم: 4251**

هي كذلك مبدوءة بالبسملة والتصلية، ومنتهية بقول الناسخ: «نجز القانون المبارك بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل ويمنه، فنسأل الله العظيم أن يغفر لكاتبه وكاسبه وناظره وقارئه وسامعه، إنه على ذلك قدير، وبالإجابة جدير. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما».

- **نسخة خزانة الزاوية الناصرية رقم: 1323**

وهي التي ذكرها الأستاذ المنوني في كتابه "دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية" في ص: 123، وذكر أن خطها مغربي، جمعها ابنه محمد العياشي، وهو مبثور الأول. وقد اطلعت عليها خلال زيارتي للخزانة المذكورة بتاريخ 6 يوليوز 1987.

5- عملي في تحقيق كتاب "القانون".

لتحقيق هذا الكتاب سلكت الخطوات المنهجية التالية:

أ- وصف النسخ المعتمدة في تحقيق متن كتاب "القانون"

اقتصرت فيما ذكرت من النسخ، على نسختين خطيتين، كتبت الأولى بتاريخ 14 رجب الفرد عام 1114 هـ، بينما نسخت الثانية بتاريخ يوم الأحد 10 شوال سنة 1131 هـ، وجعلت من نسخة الطبعة الحجرية الفاسية رافدا في المقابلة والتصحيح، ودونكم وصف المخطوطتين.

مخطوطة الخزانة العامة رقم: 1304ج

يظهر أن ناسخ هذه المخطوطة تلميذ لليوسي، تأثر به في الجانب الصوفي، آية ذلك قوله: « قال شيخنا واعتمادنا ووسيلتنا إلى ربنا»، و«مولانا الشيخ»، وهي أقدم نسخة، مؤرخة في 14 من شهر رجب الفرد سنة 1114هـ، بالمدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، وعلى وجه التحديد بالروضة الشريفة مقابل الحجرة الشريفة، على يد عبد الواحد بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد المراكشي ثم السوسي، ولعله من ذرية

الشيخ محمد ين سليمان الروداني (1037–1094هـ) صاحب "صلة الخلف بموصول السلف" الذي جاور الحرمين الشريفين، نوع خطها مغربي مقروء، بجدول بالألوان: الأحمر والأزرق والمزخرف في كتابة بعض العناوين. عدد أوراقها 91 من الحجم الكبير، بمتوسط 36 سطرا في كل صفحة، داخل ملف.

مخطوطة الخزانة العامة رقم: 2382د

هي أجود النسخ، من حيث خطها المغربي الجميل، وسلامة متنها من الأخطاء النحوية واللغوية والتصحيفية إلا فيما ندر، مما يفيد بالمستوى العلمي الرفيع لكاتبها الذي لم يذكر اسمه، واكتفى بإثبات تاريخ النسخ، وهو يوم الأحد العاشر من شوال عام إحدى وثلاثين ومائة وألف أي بعد وفاة الإمام اليوسي بتسعة وعشرين عاما.

عدد أوراقها مائة وستون ورقة من الحجم المتوسط، بمعدل واحد وعشرين سطرا في اللوحة، كتبت بالحبر الأسود المحلى بالأحمر والأزرق والأخضر، في سفر مجلد، قوبلت على ما وجد من كتاب القانون، وضعت بهامش بعض صفحاتها طرر ، وتحمل ختم الخزانة العامة.

ولخلوها من الأخطاء بالمقارنة مع نظيرتها السابقة، وخطها الواضح، فقد اعتمدتها كأصل. وقد رمزت إليها بحرف "د".

نسخة الطبعة الفاسية:

حظي كتاب القانون بعناية أهل العلم، شأنه في ذلك شأن كتبه برمتها، فوصف أحدهم[1] كتاب "مشرب العام والخاص" «بالكبريت الأحمر» لقلته جدا قبل طبعه، وكذا كان شأن "القانون"، قبل أن تمتد إليه بالتصحيح اليراعة الحانية للعلامة محمد الفاطمي الصقلي الحسيني، المتوفى سنة 1310هـ/1892م.

---

1 ـ هو عبد الرحمن بن جعفر الكتاني مصححه المتوفى سنة 1915م.

وقد كتبه من أصل بخط تلميذ مؤلفه الحسن بن رحال المعداني المتوفي سنة 1140هـ، وعلى نسخته اعتمد أيضا المستشرق الفرنسي "جاك بيرك" في التحليل الأدبي الذي خص به كتاب القانون.

ومما جادت به قريحته من القريض مادحا، حين ازدهى الوضع وكمل الطبع:

فاشدد علـى هذا الكتاب يـد ❖ الضنين فإنه من أنفس المنفوس

فالله يسـره بطبـع بعد مـا ❖ قد كان نجما ليس بالملمـوس

هذا وحسن كماله يشدو لنا ❖ بمقاله المجهـور لا المهمـوس.

وقد اعتبرت نسخة الطبعة الحجرية هذه رافدا في المقابلة والتصحيح، ورمزت إليها بحرف "ح".

ثم الساقط من الأصل يعني من نسخة "د" أضفته من نسخة "ج" و نسخة "ح"، ووضعته بين معقوفتين هكذا [....]. والثابت في الأصل إذا سقط من نسخة "ج"، أو نسخة "ح" جعلته بين حاصرتين هكذا <.....>. والعناوين التي أضفتها لمزيد البيان من غير أن يرد ذكرها في المتن وضعتها بين كماشتين هكذا {.....}.

ب- قمت بكتابة النسخة رقم: 2382د وفق ما تمليه قواعد الكتابة، من بيان معالم النص بيانا شافيا، بالنقطة والفاصلة، وتقسيم الفقرات...

ج- حرصت قدر طاقتي على أن يكون النص خلوا من الأخطاء النحوية واللغوية، مع ضبط الكلمات الغريبة شيئا ما بالشكل التام.

د- نقل اليوسي كثيرا من النصوص عن الإمام الغزالي، والرازي، والإيجي، والتفتزاني، والطوسي، وابن سينا، والأرموي، وغيرهم دون أن يذكر موارد نقوله مكتفيا بإيراد ذلك إما بالمعنى أو بالنص أو مع التصرف فيها، فجهدت نفسي في عزوها إلى أصحابها بذكر الكتب والصفحات.

هـ- قمت بتخريج الأيات القرآنية التي ورد ذكرها في المتن مع العمل على تشكيل كلماتها وترقيمها والدلالة على سورها.

و- عمدت كذلك إلى تخريج الأحاديث النبوية تخريجا وافيا، مع ضبط كلماتها بالشكل. وكذا الآثار الواردة في المتن.

ي- ترجمت للأعلام المذكورة في النص، وعرفت كذلك بفرق الملل والنحل، والكتب التي ذكرها اليوسي بحسب مؤلفيها من فقهاء المذاهب.

5- نسبت الأشعار التي ساقها المؤلف على سبيل الاستشهاد بها إلى قائليها، مع الإرشاد إلى بعض المراجع الواردة فيها.

6- ذيلت لكل ذلك بفهارس تمثلت فيما يلي:

1- مسرد أوائل الأيات القرآنية
2- مسرد أوائل الأحاديث النبوية
3- مسرد أوائل الموقوفات والمأثورات
4- فهرس الشواهد الشعرية
5- فهرس الفرق والملل والمذاهب
6- فهرس الأجناس و الأماكن والبلدان والقبائل والصنائع
7- فهرس الأعلام
8- فهرس الكتب الواردة في المتن
9- فهرس للمصادر والمراجع
10- فهرس للموضوعات.

هذا، وإنني لأرجو أن يكون التوفيق قد حالفني فيما قصدت إليه، من إخراج كتاب "القانون" في ثوب جديد، كواحدٍ من أهم المراجع المعتمدة في مضمار العلوم الإسلامية، ينضاف إلى ما تزخر به الخزانة الإسلامية من دخائر، ويبرز بحق أصالة الموروث الفكري

لأمتنا، مع علمي بقصور الباع وقلة الاطلاع، فإن وفى صنيعي هذا بالمراد، وأدى الحق المفترض -فبما رحمة من الملك الوهاب أصبت الصواب-، وإن زاغ القلم ووقع ما هو محظور من الخطأ والنسيان، فهو جهد المقل.

والله أسأل أن يتقبل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، ويجعله عملا مقبولا بين يدي يوم العرض الأكبر، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكان الفراغ منه:

يوم الجمعة 17 جمادى الثانية 1419 هـ.

الموافق 9 أكتوبر 1998م.

وكتبه: حميد حماني

بالدار البيضاء.

1- الشعراء: 88-89.

قانـــون اليوســـي

محـــرر محقـــق

بسم الله الرحمن الرحيم

1

وصلى ا لله على سيدنا [ومولانا][1] محمد < وعلى> [2] آله وصحبه وسلم < تسليما> [3]

[قال الشيخ العالم العلامة، شيخنا واعتمادنا ووسيلتنا إلى ربنا، أبا[4] علي سيدنا ومولانا الحسن بن المسعود اليوسي تغمده ا لله برحمته، ومتعنا والمسلمين بعلومه، وبعلوم أمثاله في الدارين آمين، بجاه النبي صلى ا لله عليه وعلى آله وصحبه وسلم] [5].

الحمد لله ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[6]، والشكر له على ما أفهم وألهم، وأولى وأنعم. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد، المبعوث إلى خير

1- سقطت من د.

2- سقطت من ح.

3- سقطت من ح.

4- الصواب: أبو علي.

5- ساقط من د و ح.

6- تضمين للآتين:4-5 من سورة العلق.

الأمم بالهدى[1] والدين الأقوم، وبيان الأحكام والحكم، وصحابته نجوم الظلم[2]، وكل من تبعهم على كرائم الشيم، ما انهمرت سواجم[3] الديم على الوهاد والأكم. نسأله سبحانه أن يسبل علينا سوابغ النعم، ويعصمنا في القول والفعل من الزلل والوصم[4]، إنه ذو الجود والفضل الأعم، وذو القدرة والحول الأتم.

أما بعد ، فهذا بعون الله قانون[5] يشتمل على أحكام العلم، وأحكام العالم، وأحكام المتعلم، وما يتعلق بشيء من ذلك، على وجه الإشارة والاختصار في العبارة.

فهذه ثلاثة أبواب:

1- في ج: بالهدي.

2- تضمين لحديث (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم). جامع الأصول/9: 410. وفي هذا الحديث مقال من حيث طرق روايته الضعيفة، ولذلك لم يسلم ابن عبد البر بصحته، فقال: "هذا إسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول". جامع بيان العلم وفضله/2: 90-91.

3- ورد في ح "سداجم". وهي من سجم سُجوماً وسِجاماً الدمع: سال قليلا أو كثيرا، وانصب فهو ساجم. وسجمت السحابة الماء: أسالته وصبته.

4- الوصم: العيب والعار.

5- القانون: جمع قوانين، وهو في الأصل مقياس كل شيء.

الباب الأول

في أحكام العلم

ويشتمل على فصول:

الفصل الأول: في شرح ماهية العلم لغة وعرفا

ويشتمل على تمهيد، قبل الاشتغال بالتحديد:

فاعلم أنه قد دلت الصنعة[1] من جهة إمكانها أو حدوثها أو كليهما، على ما سيجيئ في محله، على وجود الصانع الحق تعالى، وقد علم من حدوث العالم كله على ما سيتقرر، أنه تعالى كان في أزله ولا شيء معه[2]، إذ لا قديم عندنا ولا واجب وجود، إلا ذاته تعالى وصفاته القائمة بذاته، وقد علم من الاختلافات الواقعة في الصنعة الموجبة للتخصيص، أنه تعالى مختار في فعله، إذ لو فعل بمناسبة ذاتية على طريق التعليل[3] أو الطبع[4]، لما خصص مِثْلاً عَنْ مِثْلٍ بإيجاد ولا إعدام، ولا مقدار ولا صفة، ولا زمان ولا مكان، ولا جهة.

وقد اقتضى الاختيار الظاهر، أن له تعالى إرادة وقدرة عامة، وعلما محيطا، وحياة دائمة، فكان له النفع والضرر، وقد وجب أن يكون تعالى قائما بنفسه، إذ / لو احتاج لم

1- الصنعة من الصناعة، وهي تختلف عن العلم، لأنها خبرة وتطبيق، لهذا أطلقوها على الطب، والمنطق وعلم الكلام، وغيرهما من العلوم الفرعية. المعين/1: 229.

2- تضمين لحديثه ﷺ الذي جاء فيه: (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء). صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. الروم: 27.

3- الذين يقولون بالتعليل هم الفلاسفة، المخالفين في انفراده تعالى بالتأثير، أي الاختراع والتكوين.

4- ينسب القول بالطبع إلى فرقة الطبائعيين، الذين يقولون بتأثير الطبيعة في مطبوعها، وبذلك يدرجون ضمن الطوائف المخالفة في انفراده تعالى بالتأثير.

يستبد بالملك، فهو حاكم غير محكوم عليه، قاهر غير مقهور، آمر غير مأمور، فَعُلِمَ أن النفع منه فضل، والضرر عدل[1].

فكان من اختياره إيجاد هذا العالم، وكان من الحكمة في إيجاده أن يكون مظهرا لفضله، بالانشاء والاعطاء، والاغناء والانعام والاكرام، ونحو ذلك، ومظهرا لعدله، بالافناء والاشقاء، والافقار والاضرار، والحساب والعقاب، ونحو ذلك. وكان من اختياره سبحانه، أن يجعل منه من يعقل ذلك ويعلمه فيشهد به، لا ليزداد بذلك سبحانه كمالا، ولا ليدفع [به] [2] نقصا، كيف وهو القائم بنفسه الغني القاهر[3]، ولكن لمنفعة تعود على الشاهد، بالانتفاع بما علم والاهتداء، فيظهر له وعليه فضل الله تعالى، أو مضرة تعود عليه بالإباية والاستكبار، فيظهر له وعليه عدله تعالى، يفعل تعالى ما يشاء ويحكم ما يريد.

{الكلام على ذوي العلم وهم الملائكة والإنس والجن}

فخلق تعالى ذوي العلم أصنافا أربعة، وقيل ثلاثة: الأول من النور المحض[4]، فجعله مستعدا للانتفاع وظهور الفضل، وهو الملك. والثاني من النار[5]، فجعله مستعدا

---

1 – وهي عقيدة أهل السنة، خلافا للمعتزلة الذين يوجبون على الله فعل الصلاح والأصلح.

2– سقطت من د و ح.

3 – مصداقا لقوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. فاطر: 15. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. الأنعام: 18.

4– قال السعد التفتازاني في تعريفهم: « الملائكة أجسام لطيفة نورانية، قادرة على التشكلات بأشكال مختلفة، كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة، شأنها الطاعات، ومسكنها السماوات». شرح المقاصد /3: 368.

5– تابع اليوسي الإمام سعد الدين التفتازاني في كون العنصر الغالب على تركيب الجن وهو الهواء، كما ذكر في شرح المقاصد/3: 368. وإلا فقد جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾. الرحمن: 14–15.

للإباية[1] وظهور العدل، وهو الشيطان[2]. الثالث من الهواء، فجعله قابلا للأمرين، وهو الجن. ولذا يكون فيهم كافر ومؤمن[3]، وقيل إنهم من الصنف الثاني، وا لله يهدي من يشاء. الرابع من أخلاط أربعة: تراب ونار وماء وهواء، فجعله أيضا قابلا للأمرين، وهو الإنسان.

أما الصنف الثاني، فهو أَخَسُّ الأصناف، بل أخس المخلوقات، لخبثه وعيبه وسوء كسبه[4]. نعم له مرتبة من الشرف الوصفي، بالحياة والعلم والإرادة والتصرف، فاق بها الجمادات والحيوانات العجماوات، ولكن خالف الحكمة في استعمالها، في غير ما هو من شأنها أن تستعمل فيه، من معرفة ا لله تعالى، ومعرفة حكمه وحكمته وعبادته، وما يعين على ذلك، فبطل شرفه، وصارت المذكورات أشرف منه، لسلامتها عن تلك المخالفة.

وأما الصنف الأول والأخير، فلهما أيضا الشرف الوصفي المذكور، وامتاز الملك بفضيلة الدُّؤوب[5] على طاعة ا لله تعالى، والنزاهة عن معصيته. وامتاز الإنسان بفضيلة الاختيار، ومقاساة الشهوة، ومجاهدة النفس والشيطان، وانقسم إلى ثلاثة أصناف: صنف ابتلي بمخالفة الحكمة، فالتحق بالشيطان[6] كما مر، وهم الكفار. وصنف خصص بالطهارة والنزاهة، فالتحق بالملائكة، وهم الأنبياء. وصنف في وسط المجال، والحرب بينه

1– ورد في ح "للأبية".

2– الشيطان يكون فعلان من شاط يشيط بقلب ابن آدم، وأشاطه أي أهلكه، ومن شاط بقلبه أي مال به، ويكون فيعالا من شطن أي بعد، كأنه بعد عن الخير، كما أنه سمي إبليس، لأنه يبلس من رحمة ا لله أي ييئس، وكان اسمه عزازيل. إعراب ثلاثين سورة من القرآن: 7.

3– إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾. الجن: 11.

4 – قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. البقرة: 268.

5 – قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾. الأنبياء: 20.

6– ورد في ح بالشياطين.

3 وبين / الشيطان سجال[1]. ثم من هذا الصنف صنف يقارب الأول، وهم عوام العصاة الغافلين، أديلوا على الشيطان في الإيمان، وأديم[2] عليهم في أكثر الأعمال. وصنف يقارب الثاني، وهم خواص الصديقين والأولياء[3]. وصنف[4] وسط وهم سائر المتوجهين من المومنين.

ثم الصنف الملتحق بالملك، يكون أفضل من الملك على الصحيح، لاستحصاله الفضيلتين، وإنما النظر في الذي يليه لاختلاف الجهتين، والجن يكون كالإنسان، باعتبار الصنف الأول منه، والثالث بخلاف الثاني، فإن النبوءة لم تكن في الجن على الصحيح المشهور، فالإنسان أشرف كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[5].

{الكلام في حقيقة العقل}

واعلم أن ا لله تعالى لما اختار هذه الأصناف لاستفادة العلم، خصهم بآلته وهي العقل[6]، وهي مناط التكليف الشرعي، ففاقده من المخلوقات وهي: الجمادات، والعجماوات، لا تكليف عليه، وكذا فاقده من هؤلاء كالصبيان، والمجانين[7]. والعقل مشترك بين معان، واختلف في معناه هنا.

1- ورد في ج السجال.

2- ورد في ج و ح أديل، ومعنى ما بتناه أي صار لهم إسوة.

3 - قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. يونس: 62.

4- ورد في ح وقسم.

5- سورة الإسراء 70.

6-العقل في اللغة هو الحجر، والنهى، وقد سمي بذلك تشبيها بعقل الناقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود.

7- تضمين للحديث الذي رواه علي وغيره عن النبي ﷺ: (رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ). جامع الأصول /4: 349.

فقال الشيخ أبو الحسن الأشعري[1]: هو «العلم ببعض الضروريات»[2] أي ببعض القضايا الكلية البديهية، إذ لا يكون هو العلم بجميعها، وإلا لم يسم عاقلا من فاته شيء منها، ولا بالنظريات لتوقفها على النظر، المتوقف على العقل. واعترض بأن كون العاقل لا ينفك عن هذا القدر، لا يوجب كون العقل هو ذاك، لجواز تلازم المتغايرين.

وقال القاضي[3]: هو «العلم بوجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، ومجاري العادات»[4] وهو كالأول، وهو تفسيره.

وقال الإمام الظاهري[5]: إنه «غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات»[6] فمن ذهب تمييزه لعارض نوم أو سكر أو جزع عاقل، لوجود الغريزة.

وقيل هو: «قوة حاصلة عند العلم بالضروريات، يتمكن بها من اكتساب النظريات»[7]، وقيل: «قوة نميز بها بين الأمور الحسنة والقبيحة»[8] وقيل: «نور روحاني به تدرك النفس

1- هو علي بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة (ت: 324). من تصانيفه: "الرد على المجسمة"، و"مقالات الإسلاميين". الأعلام/4: 263.

2- نص منقول بأمانة من شرح المقاصد /2: 332.

3- المقصود به: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: 403هـ)، المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث، وطريق الأشعرية. من تصانيفه "الإبانة"، و"شرح اللمع"، و"الإمامة الكبيرة والصغيرة". ترتيب المدارك/ 5: 25 - وفيات الأعيان/ 2: 278.

4- أورد هذا التعريف العلامة نصير الدين الطوسي، في التلخيص بذيل كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين. للفخر الرازي. ص: 151.

5- هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني، الظاهري (201-270هـ). من تآليفه: "الحجة"، و"إبطال القياس"، و"خبر الواحد".وفيات الأعيان/2: 255 - شذرات الذهب/2: 258 - وغيرها.

6- شرح المقاصد. /2: 333.

7- نفسه/2: 332.

8- نفسه/ 2: 332.

العلوم الضرورية والنظرية»[1]، وهي ترجع إلى معنى واحد. وهذه الغريزة مبدأ وجودها عند اجتنان الولد، ثم لا تزال تنمو حتى تكمل عند البلوغ.

{تقسيم قوة العقل من حيث هي إلى عقل نظري وعقل عملي}

تقسيم هذه القوة من حيث هي على طرفين: لأنها إما أن تُلاَحَظ من حيث «تأثرها عما فوقها من المبادئ، بالاستكمال بالعلوم والادراكات، فتُسَمى عقلا نظريا»[2]، أو من حيث «تأثرها فيما تعلقت به[3] بالتكميل، فتُسَمى عقلا عمليا»[4].

4 والأول أربع مراتب، لأنه إما استعداد محض للادراك، وهو العقل الهيولاني[5] / كما في الأطفال. وإما استعداد لتحصيل[6] النظريات بعد حصول الضروريات، وهو العقل بالملكة[7]. وإما استعداد لتحصيل النظريات متى أريد، من غير افتقار إلى كسب لكونها

1- شرح المقاصد. /2: 333.

2 - منقول بتصرف من شرح المقاصد/3: 339.

3- ورد في ح فيه.

4- منقول بتصرف من شرح المقاصد/3: 339.

5- ورد في د الهُيُولي. و العقل الهيولاني، هو الاستعداد المحض لادراك المعقولات، وإنما نسب إلى الهيولى، لأن النفس في هذه المرتبة تشبه الهيولى الأولى الخالية في حد ذاتها من الصور كلها، وهو مرادف للعقل بالقوة. التعريفات: 85.

6- ورد في ج لحصول.

7- العقل بالملكة هو العلم بالضروريات، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات.

مخزونة تحضر بأدنى التفات، وهو العقل بالفعل[1]. وإما حصول النظريات مشاهدة بالفعل، وهو العقل المستفاد[2].

والثاني عبارة عن قوة يتمكن بها الإنسان من استنباط الصناعات، وسائر التصرفات الجزئية، وتمييز المصالح والمفاسد في ذلك، لينتظم معاشه ومعاده[3]، ولها ارتباط بالأولى، لأن حاصلها أنها استعمال القوة النظرية في موادها، وتصريفها في جزئياتها، والعمل على مقتضى الأحكام الجزئية الثابتة عن الأحكام الكلية الثابتة بالنظر، كما يتصور في معنى القضاء في الفقه بالنسبة إلى فن الفقه.

وأول عمل الحركة النظرية في النفس، ثم الشوق إلى نيل المنفعة مثلا، ثم الإرادة، ثم الانبعاث، ثم الفعل. مثلا يقال النافلة قربة، وكل قربة ينبغي أن تفعل، فالنافلة ينبغي أن تفعل، فتشتاق النفس إلى فعلها فتريده، فتنهض إليه فتفعله.

وقد يلاحظ في القوتين «الكمال وهو الحكمة[4]، ففي الأولى[5] معرفة أعيان الموجودات وأحوالها وأحكامها، على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وتسمى حكمة نظرية. وفي الثانية القيام بالأمور على ما ينبغي، وتسمى حكمة عملية. وفسروا الحكمة على ما يشمل القسمين: بأنها خروج النفس من القوة إلى الفعل، في كمالها الممكن علما وعملا.

1- العقل بالفعل هو أن تصير النظريات مخزونة عند القوة العاقلة بتكرار الاكتساب، بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت، من غير تجشم كسب جديد، لكنها لا تشاهدها بالفعل.

2- العقل المستفاد هو أن تكون النظريات حاضرة عند العقل، لا تغيب عنه. المعجم الفلسفي/2: 84.

3- قارن بما ورد في شرح المقاصد/3: 342.

4- الحكمة هي العلم والتفقه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ يعني العلم والفهم، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، والحكمة العدل، والكلام الموافق للحق، وصواب الأمر وسداده، ووضع الشيء في موضعه... المعجم الفلسفي/1: 491.

5- ورد في ج: الأول.

غير أنه تعذر نيل التحقيق علما وعملا، دون التأييد بنور الشريعة، فرجعت الحكمة بالحقيقة الى الشريعة، وهي الفقه في الدين[1] الصادق[2] بمجموع العلم والعمل على ما يرضي الله تعالى»[3].

وقد تقسم الحكمة النظرية[4] المفسرة بمعرفة الأشياء على ما هي عليه، إلى العملية والعلمية[5]، لأنها إن كانت علما بالأمور المتعلقة باكتسابنا فعملية، لأن غايتها العمل واجتلاب الخير. وإلا فعلمية محضة، لأن غايتها الاطلاع على الحق في الأشياء لا غير. وكلتاهما تنقسم أولا إلى ثلاث، فالعملية إلى علم الأخلاق وعلم تدبير المنزل وعلم السياسة. والعلمية إلى الإلهي والرياضي والطبيعي. وسنشرح هذه الأقسام عند تقسيم العلوم إن شاء الله تعالى.

{حقيقة العلم وما يتعلق بذلك}

إذا علم هذا فنقول: اختلف في العلم، فقيل: «ضروري»[6] واختاره الإمام الرازي[7] لوجهين: الأول: أن العلم يمتنع اكتسابه بنفسه وهو ظاهر، وبغيره لأن الغير إنما يعلم

1- ورد في ج: بالدين.

2- ورد في ح: الصادر.

3- راجع شرح المقاصد/3: 344.

4- واليوسي مسبوق في هذا التقسيم للحكمة بابن سيناء الذي قسم الحكمة إلى قسمين: قسم نظري مجرد وقسم عملي، أما غاية القسم النظري، فهي الاعتقاد اليقيني بحال الموجودات. أما القسم العملي، فالمقصود منه حصول رأي لأجل عمل، وغايته هي الخير. المعجم الفلسفي/1: 491.

5- ورد في د و ح: النظرية والعملية.

6- أورده صاحب شرح المقاصد /1: 189.

7- محمد بن عمر الرازي المولد، الملقب بفخر الدين (544-606هـ)، الفقيه الشافعي، فاق أهل زمانه في علم الكلام، له: "تفسير القرآن الكريم"، وهو كبير جدا لم يكمله، و"نهاية العقول"، و"المحصل"، و"المعالم". وفيات الأعيان /4: 248.

بالعلم، فلو علم العلم بغيره لدار، فتعين طريق الضرورة[1]. الثاني: أن علم كل أحد بوجوده
5 ضروري، وهذا / علم خاص أخص من مطلق العلم، متركب[2] منه ومن الخصوصية الإضافية مسبوق به، وإذا كان هذا ضروريا فسابقه أولى أن يكون ضروريا، وهو العلم من حيث هو، وهو المطلوب[3].

وأجيب بأنهما مبنيان على عدم ملاحظة الفرق، بين الحصول التصوري والاتصافي، وذلك أن حصول الشيء في القلب إما بذاته وهو الاتصاف، وإما بصورته وهو التصور، وبينهما عموم وخصوص من وجه. فالكافر مثلا يحصل الكفر أي الجحود في قلبه، وقد لا يتصوره لجهله بالحقائق. والمومن قد يتصور الكفر فتحصل صورته في قلبه علما وهو ليس بكافر. والإيمان وغيره كذلك، فنقول في الوجه الأول: إن تصور العلم على تقدير كونه مكتسبا موقوف على تصور الغير الذي يكتسب به، وتصور ذلك الغير غير موقوف على تصور العلم ليلزم الدور، بل على حصول العلم، وفي الثاني أنه لم يحصل لكل أحد تصور العلم بوجوده، ليكون ضروري الحقيقة، بل العلم بوجوده على وجه الاتصاف. وقيل: «نظري عسير لعسر الاطلاع على ذاتيات الأشياء، من جنس وفصل»، وإليه ذهب إمام الحرمين[4] والغزالي[5]، قالا: «ويعرف بالقسمة والمثال».

1- ورد في ح: الضروري.

2- ورد في ح: فتركب.

3- نص منقول من شرح المقاصد مع بعض التصرف. /1: 190.

4- هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي (419-478هـ)، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين، من مصنفاته: "غياث الأمم"، و"الإرشاد في أصول الدين"، وغيرها. أعلام الزركلي/4: 160.

5- هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، الفقيه الشافعي، (450-505هـ)، صنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها: "الوسيط"، و"البسيط"، و"الوجيز"، و"إحياء علوم الدين"، و"معيار العلم"، و" المقاصد"، وغيرها. وفيات الأعيان /4: 216.

أما أولا فبأن الاعتقاد إما جازم أو لا، مطابق أو لا، ثابت أو لا، فيمتاز العلم بالجزم عن الشك والظن والوهم، وبالمطابقة عن الجهل المركب[1] والاعتقاد الفاسد، وبالثبات أي الناشئ عن ضرورة أو برهان عن التقليد المطابق فهو اعتقاد جازم مطابق ثابت. وأما ثانيا فبأن إدراك البصيرة المسمى علما، هو مثل إدراك الباصرة المسمى رؤية، في أن الكل انطباع، ففي العلم انطباع صورة المعقول في نفس المدرك، كانطباع الشكل في المرآة. وقيل غير عسير.

وعرف بتعريفات أقربها بناء، على أن المراد به «إدراك العقل أنه هو حصول صورة الشيء في النفس أو في العقل»[2] كما مر. والمراد بالشيء اللغوي لا خصوص الموجود، والمراد بالحصول الانتقاش كما مر. وزعم الأطباء أن الانتقاش وزواله قد يسهلان لإفراط الرطوبة، وقد يسهل أحدهما دون الآخر، لإفراط الحرارة أو[3] غيرها.

والمراد بالزوال الذهول[4] والنسيان، فيختلف على الإنسان باعتبار طبعه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[5]. وقد يضاف إلى النفس، فيقال هو: «وصول <النفس>[6] إلى المعنى»[7]، وقالوا: «أول[8] مراتب وصول النفس إلى المعنى شعور، فإذا وصلت إلى تمامه

1- الجهل قسمان: الجهل البسيط، وهو عدم العلم عما من شأنه أن يكون علما. والجهل المركب، وهو عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع. التعريفات: 80.

2- قارن بما ورد عند صاحب شرح المقاصد/1: 194.

3- ورد في ح: وغيرها.

4- الذهول من ذهل عن الشيء، نسيه وغفل عنه، وهو تشتت الذهن، أي توزع الانتباه بين موضوعات مختلفة، بحيث يؤدي ذلك إلى العجز عن تركيز في أحدها. المعجم الفلسفي/1: 597.

5- الأنعام: 96 - يس: 38 - فصلت: 12.

6- سقطت من ح.

7- قارن بشرح المقاصد/1: 194.

8- ورد في ج: وأصل.

فتصور، فبإذا بقي بحيث لو أريد استرجاعه أمكن فهو حفظ، ويقال لذلك الطلب تَذَكُّر، ولذلك / الوجدان ذِكر»[1]. 6

وبناء على أن المراد به أحد أقسام التصديق ما مر في القسمة، وعلى أنه يشمل التصور والتصديق اليقيني، <هو «صفة>[2] ينجلي بها المذكور لمن قامت به»[3]. والمذكور شامل للموجود والمعدوم، المكن والمستحيل، والمفرد والمركب، والكلي والجزئي، أي ما من شأنه أن يذكر، والتجلي الانكشاف التام، فيخرج الجهل والظن والشك، والاعتقاد المطابق أيضا، فإنه عقدة[4] على القلب وليس فيه انكشاف، فإن جرينا على ما مر في الذكر، من أنه رجوع المعلوم إلى الحافظة[5]، ورد عليه أن الذي من شأنه أن يذكر هو ما يكون معلوما أولا، ولا معنى للعلم به ثانيا، ويخرج العلم بالشيء ابتداء، وإن أريد المعلوم، أي ما من شأنه أن يعلم فينسى فيذكر، فالواجب عليه أن يقتصر عليه، ولا فائدة فيما وراءها وحينئذ يرد الدور، ويرد عليه أيضا إدراك الحواس عند من لا يجعله علما.

وقيل: هو «صفة توجب تمييزا بين المعاني لا يحتمل النقيض»[6]، فخرجت القدرة ونحوها مما لا يوجب ذلك. وخرجت إدراكات الحواس لأنها من الأعيان لا المعاني. وخرج

1- هذا التعريف للإمام الرازي، حسبما أفاد به صاحب شرح المقاصد/1: 195.

2- ساقط من ج.

3- قارن بما ورد في شرح المقاصد/1: 195.

4- جملة من التصورات والانفعالات المكبوتة الناشئة عن خبرات صراعية ذات شحنة وجدانية كبيرة، وهي وإن كانت لا شعورية، إلا أنها تؤثر في تفكير الشخص، وتطبع سلوكه بطابع الانحراف والشذوذ. المعجم الفلسفي/2: 83.

5- هي عند الفلاسفة العرب، قوة تحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني الجزئية، فهي خزانة الوهم، كالخيال للحس المشترك، وتسمى أيضا ذاكرة. المعجم الفلسفي/1: 219.

6- نص منقول بأمانة من شرح المقاصد/1: 195.

الجهل والظن والاعتقاد، لاحتمال النقيض إما في الحال أو المآل. والعلوم العادية داخلة، لأن القطع فيها مستند إلى موجب وهو العادة، والاحتمال فيها على معنى أنها لو لم تقع لم يلزم محال بالنظر إلى ذاتها، لا أنها مشكوكة بعد إذ وقعت. ومن يجعل إدراك[1] الحواس علما يسقط لفظ المعاني، ومن يخص العلم بالكليات[2] والمعرفة بالجزئيات[3]، يزيد فيقول بين المعاني الكلية.

والظاهر أن هذا هو العلم[4] عندهم اصطلاحا ولغة، والظاهر من إطلاقات العرب استعمال لفظ العلم في أعم من ذلك، وهو الاعتقاد الجازم المطابق مطلقا، كما لو أخبرك إنسان تثق به بموت زيد وصدقته، فإنك تقول علمت أن زيدا مات، أي بهذا الخبر، وهو من التقليد، وبهذا يقول الفقهاء يجوز أداء الشهادة، إن حصل العلم ولو بصبي أو امرأة. ودعوى كون هذا الاطلاق مجازا كما قال بعضهم لا يسلم، فإن الأصل في الاطلاق الحقيقة[5].

1- الإدراك في اللغة هو اللحاق والوصول. وله في الفلسفة العربية عدة معان، منها أنه يدل على حصول صورة الشيء عند العقل، سواء كان ذلك الشيء مجردا أو ماديا، حاضرا أو غائبا، حاصلا في ذات المدرك أو آلته. المعجم الفلسفي/1: 53.

2- الكلي هو المنسوب إلى الكل، ويرادفه العام، كقولك العلم الكلي، أي العلم الشامل لكل شيء. والكليات الخمس هي: الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام. المعجم الفلسفي/2: 283.

3 - الجزئي هو المنسوب إلى الجزء، ويطلق على معنيين: الأول هو الجزئي الحقيقي، وهو كون المفهوم، بحيث يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه. والثاني هو الجزئي الإضافي، وهو كون المفهوم مندرجا في كلي أعم منه، كالإنسان بالنسبة إلى الحيوان. المعجم الفلسفي/2: 400.

4- العلم هو الإدراك مطلقا تصورا كان أو تصديقا، يقينا أو غير يقيني، وقد يطلق على التعقل، أو على حصول صورة الشيء في الذهن، أو على الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو على إدراك الشيء على ما هو به، أو على إدراك حقائق الأشياء وعللها، أو على إدراك المسائل عن دليل، أو على الملكة الحاصلة عن إدراك تلك المسائل. المعجم الفلسفي/2: 99.

5- ورد في ج: حقيقة.

{إطلاق العلم على مسائل الفقه}

وهاهنا صنف آخر من الأمور الظنية قد أطلق عليه اسم العلم، وهي الأحكام الاجتهادية في عرف الفقهاء ، والاجماع أن المطلوب من العبد العلم والعمل، فما من حكم اعتقده وعمل به ، إلا ويسمى فيه صاحب علم وعمل، وقد يتعذر عنه بأنه في علم المستفتي علم للقطع به عن موجب، وهو قول المفتي في حقه، وأما في حق المفتي فإنما يطلق عليه أنه من مسائل العلم، أي من جملة ما ينتسب[1] إلى العلم، بمعنى الفن على ما سيجيئ بيانه ، أو أنه لقربه من القطع ، أو لكون العمل به معلوما من / الدين، فيكون الاطلاق مجازا بالاعتبارين. 7

الفصل الثاني: أن العلم بمعنى الادراك على ما مر، يسمى تصورا

تقول تصورت الشيء، إذا حصلت منه صورة في عقلك، وتصور الشيء أي حصلت له صورة، ثم اشتهر تقسيمه إلى تصور وتصديق، فقيل: «معناه إلى تصور ساذج»، أي لم يعتبر معه حكم، وإلى تصور مقرون بحكم، كتصور العالم والحادث، مع الحكم بأن العالم حادث، فتصور العالم في نفسه، وكذا الحادث في نفسه، وكذا النسبة بينهما من غير حكم، فإنها تعقل في ذاتها، بدليل أنه قد يشك في وقوعها ولا وقوعها، ولا يكون الشك إلا بعد تصورها، فهذا كله تصور ساذج، فإذا وقع الحكم بالنسبة إثباتا أو نفيا، فالتصور المقيد بالحكم تصديق، وهذا مبني على أن الحكم أي إيقاع النسبة أو انتزاعها ليس من الادراك، بل فعلا من أفعال النفس، ولا يصح في هذا التقسيم مع هذا البناء أن يراد بالتصديق الحكم نفسه، أو مجموع التصور[2] والحكم، وإلا لزم انقسام الشيء إلى نفسه وإلى غيره كما لا يخفى.

1- ورد في ح: ينسب.

2- ورد في ح: المتصور.

أما من جعل الحكم إدراكا، وهو أنه إذعان النفس وقبولها[1] لوقوع النسبة[2] أو لا وقوعها، فالواجب أن يقال[3]: العلم إن كان إدراكا للنسبة الحكمية فتصديق، وإلا فتصور، ويصح على هذا أن يعتبر التصديق هو الحكم نفسه، والتصورات الثلاث شرط فيه، وأن يعتبر هو المجموع، ولا يصح أن يكون هو التصور المقرون بالحكم على ما في الأول، وإلا كان التقسيم غير حاصر، لخروج الحكم فافهم.

الفصل الثالث: {انقسام العلم إلى قديم وحادث والحادث إلى ضروري ونظري وتصوري وتصديقي}

العلم إما قديم[4] وإما حادث[5]، الأول علم الله تعالى، والصحيح أنه صفة وجودية قائمة بذاته تعالى، واحدة متعلقة بكل معلوم، موجود ومعدوم، قديمة بقدم ذاته، باقية ببقائها، مخالفة لعلمنا، كسائر صفاته[6] تعالى، موجبة له تعالى كونه عالما.

والثاني علم الحادث، وينقسم سواء كان تصورا أو تصديقا إلى ضروري ونظري. وقد يقال ضروري وكسبي، أو بديهي وكسبي. أما الضروري فيفسر بما يحصل للنفس بلا اختيار، ويقابله الكسبي، وهو العلم الحاصل عن كسب العبد استدلال أو غيره، كالتصفية

1- ورد في ج: بقبولها.

2 – النسبة عند الفلاسفة هي: إيقاع التعلق بين الشيئين، وهي أحد مفاهيم العقل الأساسية، وقد تكون نسبة توافق أو تشابه، أو تماثل أو تعلق. المعجم الفلسفي/2: 464.

3- ورد في ح: يقول.

4 – القديم في اللغة ما مضى على وجوده زمان طويل، ويطلق في الفلسفة العربية على الموجود الذي ليس لوجوده ابتداء، ويرادفه الأول. المعجم الفلسفي/2: 189.

5 – هو ما يكون مسبوقا بالعدم، ويسمى حادثا زمانيا. المعجم الفلسفي/1: 433.

6- ورد في ج: صفته.

والرياضة، وبما يحصل بمجرد التفات العقل، ويقال له <أيضا>[1] البديهي، ويقابله النظري، وهو ما يحصل عن نظر[2]، فالكسب أعم من النظري. ومن يرى أن العلم لا يحصل إلا بالنظر لم يجعله أعم، ولو جعلنا النظري ما يتضمنه النظر، أي سواء أحتيج إليه أو لا، كان أعم من وجه، لدخول نحو الفطريات[3] فيه، ولا مشاحة في الاصطلاح.

8 والدليل على انقسام العلم مطلقا إلى الضروري والنظري، / الوجدان، فإنا نشاهد بعض التصورات، كتصور الوجود والعدم[4]، وبعض التصديقات، كالتصديق بأن الأربعة زوج يحصل بغير استحصال، وبعض التصور، كتصور الروح والملك، وبعض التصديقات، كالتصديق بأن العَالَم حَادِث، غير حاصلة إلا باستحصال. وأيضا لو لم يكن العلم البعض ضروريا ،لم يحصل شيء منها، إلا عن آخر متوقف إما على الأول أو على آخر، وهكذا فيلزم الدَّوْر[5] أو التَّسَلْسُل[6].

وزعم قوم أن الكل ضروري، لأنه بقدرة ا لله ولا قدرة لنا فيه، وهو صحيح حقيقة، ومدخول بإهمال الاكتساب، ثم ذلك إما مع تسليم وجود النظر، فيكون النزاع في التسمية، أو مع منعه، فإن كان المراد أنه لا يتوقف على النظر عقلا بل عادة، وأنه ليس واقعا بالنظر ولا بقدرتنا، بل بقدرة ا لله تعالى فهو صحيح، وإن أريد أنه لا يتوقف عليه بوجه فهو مكابرة.

1- سقطت من ح.

2- ورد في ج: لمن نظر.

3 - الفطريات قسم من المقدمات اليقينية، وهي قريبة من الأوليات. المعجم الفلسفي/2: 151.

4- ورد في ح: بعض الوجود والعدم.

5- الدور هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه. التعريفات: 105.

6- التسلسل هو ترتيب أمور غير متناهية. نفسه: 57.

وذهب الإمام الفخر إلى أن التصورات كلها ضرورية[1]، بمعنى أن ما حصل منها حصل ضرورة، ويمتنع النظر فيه من وجهين: أحدهما المطلوب، وهو أنه إما معلوم، فممتنع طلبه لامتناع استحصال الحاصل، وإما مجهول، فيمتنع أيضا طلبه، لأن التوجه إلى ما لم يحضر محال. واعترض بوجهين: أحدهما أن القسمة غير حاصرة، لجواز أن يكون معلوما من وجه دون وجه. الثاني أنه لو صح هذا الدليل، لزم مثله في التصديقات فلا تكتسب، وهو باطل اتفاقا.

فأجاب عن الأول: بأنه إن طلب من الوجه الذي علم كان ممتنعا كالأول، أو من الوجه المجهول كان أيضا ممتنعا، وعن الثاني بأن التصديق يكون مسبوقا بالتصور المعلوم، فلا يكون مجهولا على الاطلاق. ثانيهما من جهة ما يعرف به، وهو أنه إن كان نفس الماهية[2] امتنع وهو ظاهر، وإن كان جميع أجزائها امتنع أيضا، لأنها هي، وإن كان جزءا منها امتنع، لأنه يعرف نفسه وهو محال، ويعرف غيره وهو خارج عنه، وسيتبين بطلانه، وإن كان خارجا عنها امتنع، لأنه يتوقف على معرفة كونه خاصة شاملة، أي ثابتة لجميعها، منتفية عن كل ما عداها، والأول يتوقف على معرفتها لتعرف خواصها وهو دور، والثاني متوقف على معرفة كل ما عداها على التفصيل، ليعرف انتفاؤها عنه وهو متعذر، فتعريف الماهية حينئذ ممتنع.

والجواب عن الأول، أنا نختار كونه معلوما من وجه مجهولا من وجه، فيطلب ما جُهِل بمعونة ما عُلِم، وذلك أن يُعْلم مثلا إجمالا فيُطلب تفصيلا، أو يعلم عرضا فيطلب

1- وهو ما نص عليه صاحب شرح المقاصد/1: 203.

2- الماهية لفظ منسوب إلى ما، والأصل المائية، وقلبت الهمزة هاء لئلا يشتبه بالمصدر المأخوذ من لفظ ما، والأظهر أنه نسبة إلى ما هو، جعلت الكلمتان ككلمة واحدة. والماهية عند أرسطو، هي مطلب ما هو، كسؤالك: ما الخلاء؟ فمعناه بحسب الاسم، ما المراد بالخلاء. المعجم الفلسفي/2: 314.

ذاتا، مثلا إذا علمنا أن الملائكة عباد مكرمون ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ﴾[1] / أمكننا أن نطلب حقيقتهم. 9

وعن الثاني أن الماهية تعرف بأجزائها، وهي الماهية بحسب الذات، ولذا كان التعريف صحيحا، وهي غيرها بحسب الإجمال والتفصيل، ولذا كان مفيدا أو بالخارج، ولا يتوقف التعريف على معرفة اختصاصه، بل على اختصاصه في نفس الأمر، لينتقل الذهن به إليها، سلمنا ولكن لا يتوقف معرفة الاختصاص على تصورها بالكُنه، بل مجرد الشعور، ولا على معرفة غيرها تفصيلا بل يكفي الإجمال، كما لو رأينا مثلا جِرْما[2] في حَيِّز أو عَرَضا[3] في محل، فإنا نعلم اختصاصه به بالمشاهدة، وانتفاؤه عما عداه عقلا[4].

وذهب الجاحظ[5] إلى أن ما لابد من معرفته، قبل معرفة ثبوت التكليف ضروري، كعلم وجود ا لله تعالى وصفاته. ورد بأن معرفة ا لله تعالى واجبة إجماعا، أما عندنا فبالشرع، وأما عندهم فبالعقل، ولو كانت ضرورية لم توصف بوجوب، ولم يتصور عليها تكليف.

1- التحريم: 6.

2- الجرم كل شيء مادي، يكون موضوعا لإدراك الحواس، يعني كل مجموعة من الصفات التي نتصورها قارة ومستقلة عنا، وتشغل حيزا، فالثقل والامتداد ذو الأبعاد الثلاث (الطول والعرض والعمق) هما صفتاه الأساسيتان. المعين/1: 570

3- يقال عرض الشيء ظهر، وبدأ و لم يدم، وهو عند المتكلمين والفلاسفة يدل على ما لا يقوم بذاته، وهو الحال في موضوع.

4- كلام مقتبس مع بعض الاختصار والتصرف من كتاب شرح المقاصد/1: 203-204.

5- هو عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ البصري، العالم المشهور، له مقالة في أصول الدين، وإليه تنتسب فرقة الجاحظية من المعتزلة، من أحسن تصانيفه "الحيوان". وفيات الأعيان/3: 470.

واحتج بأنه لو كان هذا القدر غير ضروري، لَأمر العبد بتحصيله أولا ليعرف ثبوت الشرع، لكن لا يصح الأمر إلا بعد ثبوت الشرع، لامتناع تكليف الغافل، فيلزم الدور.

وأجيب بأن الغافل من لا يفهم الخطاب، كالصبي والمجنون، أو لم يسمع الخطاب، كمن لم تبلغه الدعوة، لا من لا يعلم أنه مكلف، فإنه يسمعه ويتصوره، فيلزمه وإن لم يصدق به كما يلزم الكافر. وفي المسألة بحث بسطناه في محل آخر[1].

وذهب قوم من الجهمية[2] إلى أن الكل نظري، وهو باطل بالوجدان[3] كما مر، قالوا: إن الضروري لا تخلو عنه النفس، وما من علم تصوري أو تصديقي إلا والنفس عنه خالية في مبدإ[4] الفطرة، ثم يوجد بعد ذلك شيئا فشيئا، بواسطة الاحساس والتجربة فهو نظري. وأجيب بأن الضروري يجوز خلو النفس عنه. أما عند من ينوطه بشرط واستعداد، فعند عدم ذلك تخلو عنه. وأما على أنه بخلق الله تعالى كما عندنا، فعندما لا يخلقه الله تعالى فيها تخلو عنه.

قلت والحاصل أن مبدأ الفطرة، وهو العقل الهيولائي، ليس محلا في عادة الله تعالى لحصول العلم نظريا ولا ضروريا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

1- يراجع لمزيد البيان والتفصيل كلام اليوسي حاشيته على الكبرى: مخطوط.

2- هم أصحاب جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء منها قوله: لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يفضي إلى التشبيه. الملل والنحل: 86.

3- ورد في ج: بالوجداني.

4- المبدأ اسم ظرف من البدء، ويطلق على السبب ماديا كان أو غائيا، ومبدأ الشيء أوله ومادته التي يتكون منها، والحروف مبادئ الكلام، ولكل علم مبادئ ومسائل، والمبادئ هي الحدود والمقدمات، التي منها تؤلف قياساته. المعجم الفلسفي/2: 320

شَيْئًا﴾[1]. وإنما حدث الضروري والنظري بعد حصول الملكة للنفس، فاعتبار ما قبل ذلك غلط.

الفصل الرابع: {المشاهدات والفطريات والبديهيات، وكون المحسوسات حجة، والوجدانيات ليست بحجة}

لما كان النظر المفضي إلى العلم على ما سيجيء، مأخوذا من علوم ضرورية أو منتهية إلى الضرورة، احتيج إلى إثبات الضروريات والرد على منكريها. أعني الأولى[2]، وأما الثواني، وهي ما يكون نظريا / ثم يصير ضروريا بالممارسة، فكثير لايُحْصَر. 10

ثم التصوريات[3] منها لم يحصروها، وزعم بعض المتأخرين أنها ترجع إلى «البديهيات والمشاهدات، والفطريات والمجربات، والمتواترات والحدسيات، لأن القضية[4] إما أن يكون تصور طرفيها بعد شرائط الادراك، من التفات النفس، وسلامة الآلات كافيا في حكم العقل بها أو لا، فإن كان كافيا فمن[5] البديهيات، وإلا فلابد أن يحتاج إلى أمر ينضم إلى العقل ويعينه على الحكم، أو إلى القضية، أو إليهما معا. الأول المشاهدات لاحتياجها إلى الاحساس، والثاني إما أن يكون ذلك الأمر لازما عند العقل وهي الفطريات، أو غير لازم، فإن كان يحصل بسهولة فالحدسيات، وإلا فليست من الضروريات، والثالث إن كان إخبارا فالمتواترات، وإلا فالمجربات.

1- سورة النحل: 78

2- ورد في ج: الأول.

3- ورد في ج: التصورات.

4- القضية في المنطق قول يصح أن يقال لقائله أنه صادق، أو هي كل قول فيه نسبة بين شيئين، بحيث يتبعه حكم صدق أو كذب. وفي كل قضية عند الذهن أربعة أشياء وهي: المحكوم عليه، والمحكوم به، والنسبة الحكمية، والحكم، وإدراك هذه الأربعة تصديقا. المعجم الفلسفي/2: 195.

5- ورد في ج: فهي.

أما البديهيات فهي قضايا يَحْكم بها العقل بمجرد تصور طرفيها، كالحكم بأن الواحد نصف الاثنين، وقد يتوقف العقل في شيء منها لعارض، إما عدم تصور الطرفين، كقولنا الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية، أو نقصان في الغريزة كالبُلْه والصبيان، أو تدنُّس في الفطرة بما يضاد ذلك، ويجوز أن لا يخلق الله تعالى ذلك في النفس، فإنه تعالى الفاعل المختار.

وأما المشاهدات فهي قضايا يحكم بها العقل، بواسطة الاحساس إما ظاهرا، كقولنا الشمس مشرقة والنار محرقة، وتسمى حِسِّيات. وإما باطنا، كالحكم بأن لنا خوفا ومحبة وغضبا ولذة، وتسمى وجدانيات. والحُكْم الحِسِّي جزئي، إذ غاية ما يدرك مثلا أن هذه النار حارة، أما الحكم الكلي، بأن كل نار حارة بحكم عقلي، يحصل بمعونة الاحساس للجزئيات، وتتبع العقل ذلك.

وأما الفطريات فقضايا يحكم بها العقل، مع دليل لها لازم لها في النفس، ويقال لها قضايا قِياساتُها معها، كالحكم بأن الأربعة زوج، لأنها منقسمة بمتساويين، وكل منقسم كذلك زوج.

وأما المجربات فقضايا يحكم بها العقل، بسبب انضمام تكرر المشاهدة إليه، والقياس الخفي إليها، وهو أن هذا الأمر متكرر على وتيرة واحدة، وكل ما كان كذلك، فلابد له من سبب يوجد عند وجوده قطعا، كالحكم بأن "السَّقمونِيا"[1] تسهل الصفراء[2].

1- اسم يوناني نقل إلى الافرنجية والعربية لمادة صمغية واتيجية مسهلة، سميت بالعربية: محمودة، ونباتها يسمى باللاتينية بما معناه المتسلقة السقمونية، فهو نبات من الفصيلة المتسلقة. دائرة المعارف/9: 643. - القاموس المحيط.

2- اسم خلط وهي قسمان: طبيعية كرغوة الدم الطبيعي، وغير طبيعية وهي أربعة أصناف: المرة الصفراء، المرة المخية، الصفراء الكراسية، والزنجارية. كشاف اصطلاحات الفنون/4: 228.

وأما المتواترات فقضايا يحكم بها العقل، عند سماع خبر بأمر ممكن محسوس، من جمع يمتنع تواطؤهم على الكذب، بواسطة انضمام سماع الأخبار إلى العقل، وانضمام قياس

11 / خفي إلى القضية، وهو أن هذا الأمر لو لم يكن حقا، لما أخبر به هؤلاء، كالحكم بأن بئر[1] زمزم بمكة، والبقيع في المدينة.

وأما الحدسيات فقضايا يحكم بها العقل، بسبب حَدْسٍ قوي في النفس، يزول معه الشك ويثبت اليقين، كالحكم بأن نور القمر مستفاد من نور الشمس، لما يُرَى من اختلاف نوره بحسب اختلاف أوضاعه من الشمس، فيقوم للنفس قياس خفي[2] فيه، وهو أنه لو لم يكن نوره منه، لما اختلف بسببه كما في المجربات، غير أن السبب هنا معلوم الماهية والسببية[3]، ولكنه بمجرد الحدس[4]، وفي المجربات معلوم السببية مجهول الماهية»[5].

ومنهم[6] من يحصر الضروريات في قسمين: البديهيات والمشاهدات، إما لاعتبار أن البواقي داخلة فيها، فالفطريات في البديهيات، لأن لزوم القياس يقتضي الاستغناء عنه.

1- ورد في د و ج: بير.

2- هو ما يكون بخلاف القياس الجلي، الذي تسبق إليه الأفهام، لكنه أعم من القياس الخفي، فإن كل قياس خفي استحسان، وليس كل استحسان قياسا خفيا. التعريفات: 181.

3- هي العلاقة بين السبب والمسبب، ومبدأ السببية أحد مبادئ العقل، ويعبرون عنه بقولهم: لكل ظاهرة سبب أو علة، أي مبدأ يفسر وجوده. المعجم الفلسفي/1: 649.

4- ورد في ج: الحدسي.

5- نص مقتبس مع بعض التصرف فيه بالزيادة والنقصان من شرح المقاصد/1: 211-213.

6- من بينهم سعد الدين التفتازاني كما نص على ذلك في كتابه شرح المقاصد فليراجع كلامه هناك/1: 213.

والمجربات والمتواترات والحدسيات في المشاهدات، لاستناد كل منها إلى الحس[1]. وإما أنها غير ضروريات[2] لاشتمال كل منها على قياس.

وقيل[3]: المجربات والحدسيات ليست من اليقينيات فضلا عن أن تكون ضرورية، ونسب كون الحدسيات من قبيل الظنيات إلى كثير من العلماء. ثم الوجدانيات لا تقوم حجة على الغير، لعدم وجوب الاشتراك، وأما باقي الحسيات فتقوم حجة على الغير، عند حصول الاشتراك في الموجب، من تجربة أو مشاهدة أو حدس، وإلا فلا.

والبديهيات حجة مطلقا، فالعمدة في العلوم البديهيات والحسيات، والناس فيهما أربع فرق: المثبتون لهما معا، وهم أهل الحق.

{المنكرون للحسيات والجواب عنهم}

الفرقة الثانية: المنكرون للحسيات، قالوا اعتبار حكم الحسي إما في الكليات أو في الجزئيات، وكلاهما باطل، أما الأول فإن الحس لا يدرك أمرا كليا كما مر، وأما الثاني فلأن حكم الحس[4] قد شوهد غلطه كثيرا، كما نرى البعيد صغيرا، والشخص شخصين، والألوان المختلفة عند دوران الرحى[5] بها سريعا لونا واحدا، والمتحرك ساكنا كالسفينة، والساكن متحركا كالشط، إلى غير ذلك[6].

1- ورد في ج: الحسي.

2- ورد في ح: ضرورية.

3- نسب صاحب شرح المقاصد هذا الكلام إلى الإمام الغزالي/1: 214-215.

4- ورد في ج: الحسي.

5- ورد في ج: الرحا.

6- كلام متصرف فيه ببعض الاختصار نقلا عن كتابي محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين: 30. وشرح المقاصد/1: 216.

والجواب أن الغلط في أشياء مخصوصة، لأسباب عارضة، لا يوجب القدح في سائر المحسوسات المحققة، مثل قولنا الشمس مشرقة، والنار محرقة، كما أن وجود الشبه في الاستدلالات، لايقدح في وجود البراهين. وقد نسب هذا القول إلى أكبر الفلاسفة أفلاطون[1] وأرسطو[2] وبطليموس[3] وجالينوس[4].

12 واستبعد ذلك لأن علومهم، كالعلم الإلهي والعلم الطبيعي، وعلم الهيئة وعلم الطب[5]، / أكثرها مبني على الحس[6] استمدادا واستعانة، فالقدح فيه قدح فيها. قيل: ولعلهم أرادوا أن جزم العقل ليس بمجرد الحس، بل لابد من أمور تنضم إليه، فتفيد الجزم، وإن لم يعلم ما هي، ولا متى حصلت[7].

{القادحون في البديهيات والرد عليهم}

الثالثة: القادحون في البديهيات فقط، قالوا هي أضعف من الحسيات، لأنها فرعها[8]، وذلك أن الصبي لا يحصل له الجزم بالقضايا البديهيات، حتى يشاهد

1- أعظم فيلسوف في العصور القديمة (427 ق.م- 347 ق.م)، صار تلميذا لسقراط، من مؤلفاته: "الجمهورية"، و"السياسي"، و"المحاورات"، و"الوليمة"، والشرائع"، وغيرها. الملل والنحل: 342.

2- نابغة في تاريخ الفكر اليوناني (384 ق.م-322 ق.م)، تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه التي نقلها إلى العربية النقلة السريان. من مؤلفاته: "المقولات"، و"الجدل"، وغيرها. معجم الفلاسفة: 47.

3- فلكي وجغرافي يوناني (نحو 90-168) نشأ في الاسكندرية، أشهر مؤلفاته: "جغرافية بطليموس".

4- طبيب وفيلسوف يوناني (129 -199 ق.م)، كتب في المنطق واللاهوت والفلسفة، وجميع فروع الطب:" منهج الطب"، و"الشفاء"، وكتاب "القصد"، وغير ذلك. المعجم الفلسفي/1: 231.

5- سيرد التعريف بهذه العلوم لاحقا.

6- ورد في ج: الحسي.

7- قارن بما ورد في كتاب شرح المقاصد/1: 216.

8- تصرف اليوسي في هذا النص المنقول من شرح المقاصد/1: 219-222.

المحسوسات، ويتنبه لما بينها من اتفاق واختلاف ونحو ذلك، ثم لا تلازم بينهما، حتى يكون القدح في الفرع قدحا في الأصل. ولهم في القدح شبه لا تقوم على ساق، ولولا أن يعثر عليها ضال مثلهم، فيتوهمها مسلمة[1]، كان الاعراض عنها أحق، فإن تقرير الأباطيل يصيرها مسائل، وما كثرت الفنون، ولا تشعبت العلوم، إلا من الأوهام الفاسدة والآراء الباطلة[2]، فلا حول ولا قوة إلا با لله.

منها أن قولنا الشيء إما أن يكون أو لا يكون، هو أجلى البديهيات وأولها عندكم، وليس بينا، فما بالك بما هو أبعد. أما أنه أجلى فظاهر، وأما أنه أول فلأنه إليه ترجع البديهيات التي تذكر، كقولنا الكل أعظم من الجزء، أي وإلا فالجزء الزائد كائن وليس بكائن وأنه محال. وقولنا الشيء الواحد لايكون في آن واحد في مكانين، أي ولو وجد فيهما لكان الواحد اثنين، فما زاد على الواحد كائن[3] وليس بكائن. وقولنا الأشياء المساوية للشيء الواحد متساوية فيما بينها، أي وإلا كانت تلك المساواة كافية وليست بكافية[4]، والبديهي وإن استغنى عن الاستدلال، لكنه ملحوظ فيه عند المتنبه له.

وأما كونه ليس بينا فمن أوجه: الأول: أنه يستدعي تصور العدم[5] وهو ألا كون، وتصوره ممتنع، وإلا كان متميزا فيكون ثابتا. لا يقال هو ثابت في الذهن، لأنا نقول الكلام في العدم المطلق، ويستحيل أن يكون له ثبوت بوجه من الوجوه. والجواب أنه متصور ثابت

1- جمعها مسلمات وهي قضايا تسلم من الخصم، ويبني عليها الكلام لدفعه، سواء كانت مسلمة فيما بينهما، أو بين أهل العلم. التعريفات: 213.

2- ورد في ج و ح: الفطيرة.

3- الكائن شيء من الأشياء، أو موضوع من موضوعات الفكر غير المحددة الصفات. المعجم الفلسفي/2: 219.

4- ورد في ح: كائية وليست بكائنة.

5- ورد في ج: العلم.

في الذهن، ولذا صح الحكم عليه، وقولنا العدم المطلق لا ثبوت له بوجه من الوجوه صحيح، وهذا الحكم واقع على مصدوق هذا المفهوم، كما هو شأن الحمل[1]، أما هذا المفهوم فثابت متصور، وهو معنى المحمول.

الثاني: أنه يستدعي تميز المعدوم عن الموجود[2] بماهية، وإلا لم تصح المقابلة، وإذا كانت له ماهية فلابد من صحة سلبها / يوما، وذلك السلب يكون مضافا للعدم المطلق، 13 فيكون قسما منه لأنه أخص، لكنه أيضا قسيم، لأنه مقابل وهو تهافت.

والجواب أن هذا السلب[3] من حيث ذاته الاضافية، قسم من مطلق العدم، ومن حيث مفهومه قسيم، ولا استحالة[4] في ذلك، وهذا كما تقول المفرد جزء من المركب[5] من حيث ذاته، وهو مقابل له من حيث الحقيقة.

الثالث: أن قولنا إما أن يكون أو لا يكون، ومعناه إما موجود أو لا، أما أن يكون الوجود فيه محمولا حمل مواطأة، كما في قولنا الإنسان حيوان، أو حمل اشتقاق، كما في قولنا الإنسان كاتب، والجسم أسود، وعلى الأول إما أن يعتبر الوجود نفس الموجود، فلا

1- حمل الشيء إلحاقه: إلحاقه به في حكمه، أو هو نسبة أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا، فإذا حكمنا بشيء فقلنا مثلا: إن الإنسان حيوان، فالمحكوم به يقال له الموضوع، وليس من شرط المحمول، أن يكون معناه معنى ما حمل عليه. المعجم الفلسفي/1: 498.

2- الموجود هو الثابت في الذهن أو في الخارج، وهو من المعاني الأولية، أو البديهية التي يصعب تعريفها. المعجم الفلسفي/2: 442.

3- ورد في ج: الشاني.

4- هي التحول من حالة إلى أخرى، وهي عند أرسطو تغير في الكيف، أي صيرورة الشيء شيئا آخر، وتستعمل في نظرية المعرفة بمعنى التبدل في الأعراض، لا في الجواهر، وفي العلم بمعنى الانتقال في حالة سوية إلى حالة شاذة. المعجم الفلسفي/1: 65.

5- هو المؤلف من أجزاء كثيرة، ويقابله البسيط، كالجسم، فإنه إن كان مؤلفا من أجزاء كثيرة كان مركبا، وإذا لم يكن كذلك كان بسيطا. المعجم الفلسفي/2: 326.

يفيد الحمل، كما لو قيل السواد سواد ، أو غيره فلا يصح، كما لو قيل السواد بياض، هذا إن أُخِذَ الموضوع خاليا عن الوجود[1]، وإن أُخِذَ موجودا كان وصفا بالوجود ثانيا فيتسلسل، هذا في الايجاب، وأما في السلب، فيلزم على الأول التهافت، كما لو قيل السواد ليس بسواد، وعلى الثاني أنه لابد من تصور المحكوم عليه، ليصح الحكم فيكون ثابتا ولو في الذهن، فلا يصح سلب الثبوت عنه.

والجواب أن لابد في صحة الحمل من الاتحاد في الذات، ولابد من التغاير، إما في المفهوم كقولنا الإنسان ناطق، أو في اللفظ كقولنا البُرُّ هو الحنطة، فيصح الحكم بأن هذا هو هذا، لأجل الاتحاد في الهوية، ويفيد من أجل التغاير فيما ذكر، وهذا واضح، والماهية المردد فيها والمحكوم عليها مأخوذة من حيث هي لا بقيد وجود ولا عدم، فلا إشكال. ثم تصور[2] الشيء وثبوته في الذهن لا ينافي سلبه بحسب الخارج، كما لا يخفى، وعلى الثاني يلزم وحدة الاثنين وهو باطل.

والجواب ما مر آنفا، من أن التغاير في المفهوم لا ينافي وحدة الهوية[3]، كما إذا قلنا الإنسان كاتب، فمعناه إنما يصدق عليه مفهوم الإنسان، وهو الحيوان الناطق كاتب. قالوا وأيضا إذا كان المحمول مغايرا كما نحن فيه، يلزم أن يكون المعتبر هو موصوفية الموضوع به، والموصوفية لاحاصل لها، لأنها ليست عدمية، إذ هي نَقِيض ألاَّ مَوْصُوفِيَة، فيلزم ارتفاع النقيضين ولا وجودية، وإلا فإما أن تكون نفس الطرفين، وهو واضح البطلان، أو

1- ورد في ج: والوجود.

2- ورد في ج: التصور.

3- اسم الهوية ليس عربيا في أصله، وإنما اضطر إليه بعض المترجمين، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط، أعني الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره، وهو حرف هو في قولهم: زيد هو حيوان أو إنسان. المعجم الفلسفي/2: 529.

غيرهما فلابد أن تقوم بهما موصوفية بالموصوفية، فينتقل إلى الثانية ويلزم التسلسل، وإذا لم يكن لها حاصل لم يستقم[1] إلا السلب أبدا، ولا معنى للترديدين أن يكون أو لا يكون.

14 والجواب أن صورة السلب نحو أن لا موصوفية، / لا يلزم أن يكون عدميا، ولو سلم فلا يلزم أن يكون نقيض العدمي وجوديا. ثم صحة الأحكام وصدقها، لا يتوقف على أن يكون لها وجود خارجي، أي عيني[2]، بل أن تتحقق في الخارج، أي في نفس الأمر، سواء كانت <هي>[3] عينية أو ذهنية، حقيقية أو اعتبارية، وهذا كله واضح. ثم القضية البديهية لا يتوقف فهمها على شيء من هذه التخيلات والتعسفات، لحصولها لمن لا يتأتى منهم النظر من البله والصبيان.

الرابع: أنا لا نسلم عدم الواسطة بين الوجود والعدم، فلا يحصل الجزم بالمفهوم المردد فضلا عن البداهة. والجواب أن ما يدعى فيه البداهة، كقولنا زيد إما أن يكون في الدار أو لا يكون، والدين المدعى على فلان، إما أن يكون عليه أو لا يكون عليه، ونحوذلك، لا مدخل فيه لمبحث الواسطة، ولا تتصور فيه أصلا، وما يتطرق إليه احتمال الواسطة، كقولنا العالمية[4] إما موجودة أو معدومة، أي أو واسطة، وذلك بالنظر إلى تعقل هذا المعنى لا يدعى فيه البداهة، بل هو من أغمض النظريات.

ومنها أن مجرد الجزم بالأمر لا يعول عليه، ألا يرى أنا نجزم بالأمور العادية، ككون هذا الشيخ لم يتولد من أمه دفعة، بل كان صبيا ثم شابا، ثم كهلا ثم شيخا، وكون زيد

1- ورد في ج: لم يستلم.

2- العيني هو المنسوب للعين، وهو المشخص الذي يدل على الظواهر الجزئية مرئية كانت أو مسموعة، ويقابله المجرد. المعجم الفلسفي/2: 114.

3- سقطت من ج.

4- العالمية مذهب من يقدمون حب الإنسانية على حب الوطن، كالفلاسفة الرواقيين الذين يسمون أنفسهم مواطنين عالميين. المعجم الفلسفي/2: 47.

الذي رأيته <اليوم>[1] هو الذي رأيناه بالأمس، وكون هذا الذي أخاطبه ويجيبني هو فلان، إلى غير ذلك، ومع ذلك فالاحتمال في الكل قائم، أما عندكم فلأن الأمر مستند إلى الفاعل المختار، وقدرته عامة التعلق[2] بكل ما نقدر، لأن الكل ممكن، فلعل الشيخ تولد دفعة وهكذا. وأما عند الحكماء فالاستناد عندهم إلى الأوضاع الفلكية، فيقال لعله وجد وضع غريب، لا يتحرك إلا في أزمان بعيدة، لا يأتي عليها التاريخ، فيحدث شكلا غريبا كما ذكرنا. والجواب أن مجرد الامكان لا يعارض المشاهدة، ولا ينافي الجزم الحاصل[3] .

{تقسيم السفسطائية إلى ثلاث فرق}

الرابعة المنكرون للجميع، أعني الحسيات والبديهيات، وهم السُّوفسْطائية، واشتهر تقسيمهم إلى ثلاث فرق[4]: ألا أدرية[5] وهم القائلون نحن شاكون وشاكون في أنا شاكون، وهلم جرا.

والعنادية[6] وهم القائلون ما من قضية ضرورية ولا نظرية، إلا يوجد لها ما يعارضها. والعندية[7] وهم القائلون مذهب كل قوم عندهم حق ، وعند خصمهم باطل وبالعكس، 15 / ولا شيء في نفس الأمر يكون حقا. وهم كلهم مشتركون في أن العقل لا يصل إلى

1- سقطت من ح.

2- ورد في ج: للتعلق.

3- قارن بما ورد في شرح المقاصد/1: 221-222.

4- قارن بما ورد في تلخيص المحصل: 55. وشرح المقاصد/1: 223.

5- هم القائلون بالتوقف في وجود كل شيء وعلمه. ويزعمون أنهم شاكون، وشاكون في أنهم شاكون. التعريفات: 191.

6- هم الذين يعاندون، ويدعون أنهم جازمون بأن لا موجود أصلا، كأن الحقائق عندهم "سراب يحسبه الظمآن ماء"، وليس له ثبوت. المعجم الفلسفي/1: 658.

7- هم القائلون أن حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات دون العكس. التعريفات: 158.

شيء، يكون حقا في نفس الأمر لا ضروري ولا نظري، فقد خرجوا عن طور العقلاء، ولذا أنكر بعض العلماء أن تكون السفسطة مذهبا يُنْتَحَل، قال لأن السفسطة معناها علم الغلط، ولا يمكن أن يكون في العالم من يتفق على هذا، بل كل غالط فهو سوفسطائي في موضع غلطه.

ثم هؤلاء لا سبيل إلى البحث والمناظرة معهم، لأنها لافادة مجهول بمعلوم، وهم لا يعترفون بمعلوم أصلا، بل يصرون على إنكار[1] ما هو ضروري، وفي الاشتغال بإثباته بالدليل وقوع في مذهبهم من أنه ليس ضروريا. قال المحققون[2] فالطريق معهم التعذيب ولو بالنار، فإما أن يعترفوا بالألم، وهو من الحسيات، وبالفرق بينه وبين اللذة، وهو من العقليات، فيسلموا بطلان نحلتهم، وإما أن يصروا حتى يحترقوا فتذهب فتنتهم وتضمحل شوكتهم.

والحق أن هؤلاء في حكم المجانين، فحقهم أن يعتقلوا حتى لا يفسدوا على العوام عقائدهم، ولا يدخلوا عليهم الوساوس[3] في دينهم ودنياهم.

الفصل الخامس: مدارك العلم ثلاثة الاحساس والخبر والنظر

أما الاحساس فيكون من جهة الحواس، وهي عشر، خمس ظاهرة، وهي: البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وخمس باطنة: وهي الحس المشترك والخيال والوهمية والحافظة والمفكرة. وزعم الحكماء أن «البصر قوة في ملتقى العضلتين المدودتين إلى العين، يدرك بها الألوان والأضواء ونحو ذلك»[4]، و«السمع قوة في عصب باطن الصماخ يدرك بها

1- ورد في ج: إنكاري.

2- المقصود بالمحققين عند اليوسي الإمام فخر الدين الرازي، الذي انتحى هذا المنحى في الرأي، في كتابه المحصل: 55.

3- ورد في ح: الوساويس.

4- قارن بما ورد في شرح المقاصد/3: 278.

الأصوات»[1]، و«الشم قوة في زائدتي مقدم الدماغ يدرك بها الروائح»[2]، و«الذوق قـوة منبثـة في العصب المفروش على جرح اللسان يدرك بها الطعوم»[3]، و«اللمس قوة سارية في البدن تـدرك بها الحرارة والبرودة والملاسة والخشونة»[4]، و«الحس المشترك قوة في البطن المقدم من الدمـاغ تجتمع فيها صور المحسوسات عند تأديها عن الحواس المذكورة»[5]، و«الخيال قوة تحفظ مـا يغيب عن الحس المشترك من الصور»[6]، و«الوهمية قوة تدرك بها المعاني الجزئية، كـالعداوة في زيـد لعمـرو أو الصداقـة فيـه»[7]، و«الحافظـة قـوة تحفـظ أحكـام الوهـم، وتسـمى عنـد استرجاعها ذاكرة»[8] كما مر، و«المفكرة قوة تتصرف في المعاني بالتركيب والتفصيل»[9].

{مذهب أهل الحق في الحواس الظاهرة والباطنة}

16 ومذهب أهل الحق أن ذلك كله / إدراك، يخلقه الله تعالى متى شاء، ويخصـه عـادة بأي محل شاء، ولو شاء لجعله في محل آخر، لأن الكل ممكن، والفاعل تعـالى مختـار، ولا تأثير لقوة ولا مـزاج، ولا توقـف علـى بنيـة مخصوصـة، وهـل الادراك للحـواس أو للنفـس بواسطته[10] خلاف.

1–قارن بما ورد في شرح المقاصد/3: 276.

2–نفسه/3: 274.

3– نفسه/3: 272. ورد في د: المطعوم.

4– نفسه/3: 268.

5– نفسه/3: 286.

6– نفسه/3: 289.

7– نفسه/3: 292.

8– نفسه/3: 293.

9– نفسه/3: 239.

10– ورد في ح: بواسطتها.

وأما الخبر فهو ما له نسبة في الخارج بدونه، فإن طابقها إثباتا ونفيا فهو صدق، وإلا فكذب، ولا واسطة بينهما عندنا. وهو إما متواتر: وهو خبر جمع من الناس يمتنع عادة تواطؤهم[1] على الكذب في أمر محسوس، ويفيد العلم الضروري كما مر على الصحيح، وإما مستفيض: وهو الشائع دون الأول، وإما آحاد: وهو ما سوى ذلك، ولا يفيدان القطع بذاتهما، لكن بمعونة القرائن، والعمل بهما في الأحكام الفرعية متعين.

{حقيقة النظر}

وأما النظر فهو المقصود بالذات من هذا الفصل، وقد عرفوه بتعريفات، وإنما يتضح معناه بأن تعلم أن للنفس تشوفا إلى المعقولات، كما للعين تشوف إلى المرئيات، فإذا وقعت النفس على معنى، فإن انكشف لها ضرورة، أو ثبت حكمه ضرورة، لكونه وجدانيا أو تجريبيا، أو نحو ذلك مما مر في الضروريات، استقلت بتحصيله ولم تحتج إلى محصل، وإن لم يكن من ذلك، احتاجت إلى محصل له، إما كاشف له وبه يحصل التصور، وإما مثبت له ليحصل اليقين به، أو الظن وبه يحصل التصديق.

فقد علمت أن للنفس أولا حركة إلى المطلوب، [في][2] التصوري أو التصديقي، يقع بها الشعور به من وجه، إذ لو لم تشعر به أصلا ما طلبته. وثانيا حركة إلى ما يحصله ويكمل الشعور، وليس كل شيء يقع به التحصيل، بل لابد على مذهب أرباب التعاليم[3] وهو المستعمل، أن تبحث النفس حتى تقع على ما يناسب بخصوصه.

1- ورد في ج: تواطيهم.

2- سقطت من د و ج.

3- هم الحكماء السبعة: طاليس، أنكساغورس، أنكسيمانس، أبنادقليس، فيثاغورس، سقراط وأفلاطون. راجع آراءهم وحكمهم في كتاب الملل والنحل: 315.

ثم ليس يحصل كيفما اتفق، بل لابد من هيئة مخصوصة، كترتيب الجنس والفصل في الأول، وترتيب المقدمتين في الثاني، بما يحتاج كل من ذلك من الشروط والكيفيات، ثم عند ذلك تقع للنفس حركة ثالثة إلى المطلوب، وذلك حصوله المعتبر.

فتارة يقال النظر هو مجموع الحركتين المذكورتين، وتارة يقتصر على البعض أو اللازم، فيقال هو حركة النفس إلى المطالب، أو حركة النفس إلى المبادئ، أو ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول، وكل ذلك واضح مما شرحنا.

غير أن الترتيب موجود في الدليل وفي التعريف المركب، وأما الحد الناقص والرسم الناقص مع إسقاط الجنس / فقيل داخل، لأن الفصل والخاصة يراعى فيهما من الاشتقاق، ما يوجد فيه التركيب بين الموصوف والصفة. وقيل لغو لندرة التعريف بهما، وقد قررنا ذلك في فنه[1]، ثم هذا على مذهب الجمهور، أما الإمام الرازي فإنه يجعل مكان المعلومات التصديقات، لأن التصورات عنده لا تكتسب كما مر[2]. 17

الفصل السادس: النظر إما صحيح وإما فاسد

وذلك أنه قد علم مما مر، أن حاصله طلب المجهول التصوري أو التصديقي بما يُوصِل إليه، والموصل في الأول يسمى[3] المعرف، والموصل في الثاني الدليل، وقد علم أنه لابد فيه من أمور مناسبة، وتسمى المادة، وهيئة مناسبة حاصلة من ترتيبها، وتسمى الصورة، فما صحت مادته وصورته معا فهو صحيح، وما لا فهو فاسد، فمادة المعرف الجنس[4]

1- أي في كتابي "الحاشية على المختصر المنطقي"، و"القول الفصل في تمييز الخاصة عن الفصل".

2- قارن بما ساقه صاحب شرح المقاصد من تعريفات للنظر/1: 228-229.

3- ورد في ج: سمي.

4- الجنس في اللغة الضرب من كل شيء، وهو أعم من النوع، يقال مثلا الحيوان جنس والإنسان نوع، وفي الإصطلاح هو اسم دال على كثيرين مختلفين بالأنواع. التعريفات: 78.

والفصل والخاصة الشاملة اللازمة، وصورته الهيئة الحاصلة من ضم الفصل إلى الجنس، أو الخاصة إلى الجنس لإرادة شرح الماهية أو تميزها.

ومادة الدليل التصديقات الحمليات، أو الشرطيات اليقينيات، أو الظنيات، أو التخييليات، فيما تراد فيه على ما تقرر في الصناعات الخمس. وصورته الهيئة الحاصلة من ترتيبها في القياس اقترانيا أو استثنائيا، بما له من الشروط كيفا وكما وجهة المقررة في محلها، ولابد أن يكون الموصل في الطرفين بينا[1] بنفسه، واضحا أو منتهيا إلى ما هو بين.

الفصل السابع: {الخلاف في سبب حصول النتيجة عقب النظر}

اختلف في إفادة النظر للعلم، وظاهر كلام أكثر المتكلمين، أن المراد في هذا المبحث النظر التصديقي، فنقول النظر المقرون بشرائطه، إذا كانت مقدماته يقينية يفيد العلم، لأن[2] نتيجته لازمة له، ولازم[3] الحق حق، وهل لزومها بمجرى العادة؟ بمعنى أن الله تعالى جرت عادته بخلقها[4] عقب النظر، فكان واجبا عادة وجائزا عقلا أن لا يخلقها كسائر الممكنات أو بالعقل، بمعنى أنه عند صحة النظر يستحيل عقلا أن لا تكون النتيجة، لاستحالة انفكاك اللازم عن الملزوم، وهي مع ذلك بخلق الله تعالى، ولا يلزم جواز تركها،

1- ورد ف ج: مبنيا.

2- ورد في ح: بأن.

3- اللازم أو الملازم ما يمتنع انفكاكه عن الشيء، وهو إما لازم للماهية وإما للوجود، الأول: ما يمتنع انفكاكه عن الماهية من حيث هي هي، مع قطع النظر عن العوارض، كالزوجية للأربعة، فإن تصور ماهية الأربعة يمنع انفكاك الزوجية عنها. الثاني: هو ما يمتنع انفكاكه عن الشيء باعتبار وجوده الخارجي، كاللونية للجسم، فهي لازمة له، باعتبار وجوده المشخص. المعجم الفلسفي/2: 262.

4- ورد في ج: فخلقها.

لثبوت اختيار الله تعالى في أن يُوجِد الملزوم ولازمه، أو لا يوجدهما، أما انفكاكهما فممتنع، لا تتعلق به القدرة كسائر المتلازمات، وهاذان المذهبان معا لأصحابنا[1]، وعلى الثاني الأكثر.

18 وهل / للناظر في ذلك اكتساب في حصول النتيجة؟ أو منتهى اكتسابه حضور المقدمتين، قولان، أو بالتوليد[2]، بمعنى أن النظر أثر للناظر يولد أثرا آخر، هو حصول المطلوب، كحركة اليد تولد حركة العصا، وهو للقدرية على أصلهم، أو بالتعليل، بمعنى أن النظر علة موجبة، وهو رأي الحكماء، وهما باطلان ببطلان التولد وبطلان العلل.

{الخلاف في إفادة النظر العلم}

وخالف في إفادة النظر اليقين جمع من الأوائل، إما مطلقا أي في الإلهيات وغيرها، وينسب للسُّمَنِية[3]، وإما في الإلهيات فقط، وينسب للمهندسين. واحتجوا بأن النظر إن كانت إفادته للعلم ضرورية، لم يختلف فيها العقلاء، أو نظرية لزم إثبات ذلك بالنظر، وهو دور[4].

وأجيب باختيار أنه ضروري، والاختلاف لا يضر، لأنه قد يكون لعدم العلم بالطرفين، أو لعدم المشاركة في السبب، وهو العثور على النظر الصحيح بتوفيق الله تعالى وإلهامه، كحلاوة هذا الطعام يدركها ضرورة من اختص بذوقه، مع سلامة إحساسه دون غيره، أو نظري فيثبت بنظر مخصوص، ضروري لا يتوقف على النظر ليلزم الدور، مثل أن

1- قارن بما ورد في شرح المقاصد/1: 228-229-247-248-249-250.

2- هو أن يحصل الفعل عن فاعله بتوسط فعل آخر، كحركة المفتاح بحركة اليد. التعريفات: 68.

3- تنطق بضم السين وفتح الميم، منسوب إلى سومنات، وهم قوم من عبدة الأوثان، قائلون بالتناسخ، وبأنه لا طريق للعلم سوى الحس. كشاف اصطلاحات الفنون/4: 52.

4- هو في اللغة عود الشيء إلى ما كان عليه، وفي المنطق علاقة بين حدين، يمكن تعريف كل منهما بالآخر، أو علاقة بين قضيتين، يمكن استنتاج كل منهما من الأخرى، فهو إذن توقف كل واحد من الشيئين على الآخر. المعجم الفلسفي/1: 566.

نقول العالم [حادث][1] متغير، وكل متغير حادث نظر، وفاقا العالم متغير، وكل متغبر حادث، يفيد العلم بأن العالم حادث ضرورة.

فالنظر يفيد العلم في الجملة، وهو نقيض قولهم لا شيء من النظر يفيد العلم، وإن أردنا أن نثبت كلية لأنفسنا، قلنا لا شك أن هذا القياس المخصوص، لم يفد العلم لخصوص ذاته، بل لكونه صحيح المادة والصورة، وهذا وصف مشترك بينه وبين غيره، فكل نظر كذلك يفيد العلم وهو المطلوب.

{مناقشة حجج المنكرين لافادة النظر للعلم}

واحتج المنكرون[2] أيضا بأوجه منها: أن العلم بكون ما يحصل عقب النظر علما، إن كان ضروريا لزم أن لا يظهر بعد ذلك خلافه، وهو باطل، وإن كان نظريا توقف على نظر آخر، يفيد أنه علم ويتسلسل.

والجواب أنه ضروري، وظهور الخطإ بعد ذلك ممنوع في النظر الصحيح الذي البحث فيه، أو نظري ولا يتوقف على نظر آخر، بل هذا النظر نفسه يفيد العلم بالنتيجة، ويفيد أن ذلك علم لا جهل ولا ظن، ويجب أن يكون معناه، أنه متى لاحظ كون ذلك علما لم يشك فيه، لا أنه يجب خطوره.

ومنها أن حصول العلم عن النظر متوقف على العلم بعدم المعارض، ولا يصح أيضا لا ضرورة ولا نظرا لما مر.

19 والجواب كالجواب، والشبهتان قريبتان / من السابقة، وقد عورض بمثل ذلك، وهو أن كون النظر لا يفيد العلم، إما ضروري وهو باطل، لما ذكرتم من اختلاف العقلاء، وإما نظري فيفيد كون النظر مفيدا، وهو نقيض قولكم. فإن قلتم مرادنا مقابلة الفاسد

1- ساقط من د و ح.

2- قارن بما ورد في المحصل للرازي: 58. وفي المواقف لعضد الدين الإيجي: 24.

بالفاسد، قلنا إن أفادكم الفساد فهو مفيد، وإلا فلعب، وقد يقولون نحن إنما ننكر إفادة الدليل العلم، ولم نطلب بدليلنا علما بل التشكيك، فنقول إن كان تشكيكا عليكم، فأنتم فيه بلا دليل فاستدلالكم لعب، وإن كان علينا فنحن على يقين، ولا يقاربه[1] الشك ولا الظن.

ومنها أنه لو كان النظر مفيدا للعلم، لم يشترط فيه عدمه كما سيأتي. والجواب أنه يفيده استعقابا، والمشترط[2] أن لا يكون حاصلا وقت النظر.

ومنها أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، وفيها من الاختلاف ما لا يتحصل، فكيف بما هو أبعد وأبعد من الإلهيات. والجواب أن هذا لا يقتضي الامتناع، بل العسر وهو مسلم.

ومنها أن الحقائق الإلهية لا تتصور، فلا يمكن الحكم فيها لانتفاء شرطه. والجواب أنا لا نسلم امتناع تصورها لمن خصه الله تعالى بذلك، ولو سلم تعذر الكنه، فمجرد الشعور الحاصل بالأوصاف كاف في الحكم. وأما كون النظر يفيد الظن[3] فمسلم.

وقد اختلف في الفاسد هل يستلزم الجهل؟ والصواب أنه لا يستلزم شيئا، أما عند فساد صورته فظاهر، إذ لا نتيجة له، وأما عند فساد المادة فقط، فهو منتج بالصورة، ولكن قد تكون الصورة باطلة، نحو العالم واجب، وكل واجب مستحيل، أو غني عن الفاعل، أو العالم حادث، وكل حادث غني عن الفاعل، وقد تكون صادقة، نحو العالم قديم، وكل قديم مفتقر إلى الفاعل، وكل إنسان فرس، وكل فرس حيوان، وكل إنسان حيوان ناطق، فلا يوثق به.

1– ورد في ح: لا يقاومه.

2– ورد في ج: والمشروط.

3– ورد في ج: النظر.

وبالجملة النتيجة لازمة لكل قياس صحيح الصورة، إذا اعتبرت حيثية التسليم فيه على ما هو اعتبار أهل المنطق، لا التسليم بالفعل. أما العلم والجهل واليقين والظن في الحكم، فتابع للمادة، وقد علمت أن اللزوم[1] المنضبط، هو ما يكون عن الصورة. فالواجب أن يقال النظر الصحيح الصورة، مستلزم للنتيجة لا محالة، ثم إن كانت مادته كلها صادقة يقينية، استلزم علما كما مر، أو ظنية استلزم ظنا، أو كاذبة لم يستلزم شيئا في المعنى، لجواز صدق اللازم[2] مع كذب الملزوم كما مر في الأمثلة، واللازم هو الذي لاينخرم فافهم[3].

الفصل الثامن: {في شرائط النظر}

20 / يشترط لوجود مطلق النظر العقل، وانتفاء أضداد العلم، من موت وجنون ونوم وغفلة ، حالا ودواما إلى حصول النتيجة، وأن لا يجزم بالمنظور فيه ولا نقيضه، إذ لا نظر مع ذلك، والنظر في دليل آخر يكون لزيادة الاطمئنان، أو اختياره أو التمرين أو نحو ذلك، والصحيح[4] أن يكون في اليقينيات عند طلب اليقين، وفي الظنيات عند إرادة الاقناع. والدليل عند المتكلمين هو الحد[5] الأصغر، كالعالم لوجود الله تعالى، فلذا

1- نقول لزم الشيء عن الشيء: نشأ منه وحصل عنه، واللزوم ذهني وخارجي، فاللزوم الذهني، كون الشيء بحيث يلزم من تصوره في الذهن، تصور شيء آخر كالزوجية، واللزوم الخارجي: كون الشيء بحيث يلزم من تحققه في الخارج، تحقق شيء آخر معه، كوجود النهار بطلوع الشمس، فهو إذن علاقة منطقية بين المبادئ والنتائج. المعجم الفلسفي/2: 283.

2- ورد في ج: اللازمة.

3- نص منقول بالمعنى والتصرف بالإختصار فيه من شرح المقاصد/1: 248-249-250-251.

4- ورد في ح: وللصحيح.

5- الحد في اللغة المنع والفصل بين الشيئين، ومنتهى كل شيء حده، والحد في اصطلاح الفلاسفة، هو القول الدال على ماهية الشيء، وهو تعريف كامل، أو تحليل تام لمفهوم اللفظ المراد تعريفه، كتعريف الإنسان بالحيوان الناطق. المعجم الفلسفي/1: 446.

يشترطون أن يكون <من>[1] الوجه الذي يدل به، كالحدوث والامكان في هذا المثال وهو الحد الوسط، ولا يشترط في معرفة الله تعالى المعلم[2]، خلافا للملاحدة، نعم هو فاتح والتحصيل بدونه عسير.

الفصل التاسع : {الدليل إما عقلي أو مركب وما يتبع ذلك}

قد علمت من ذكر الخبر والنظر، أن الدليل يكون عقليا ونقليا، وقال المتكلمون إنه إما عقلي، أي بجميع مقدماته، أو نقلي أي بجميعها، أو مركب، والثاني باطل، إذ لابد من ثبوت صدق المخبر، ولا يكون إلا بالعقل، فانحصر في العقلي[3]، والمركب وهو المراد بالنقلي[4]، وفيه نظر، إذ المعتبر في الدليل مقدماته القريبة، المنتظم هو منها، وصدق المخبر خارج عنها، ثم لزوم افتقار صدقه إلى العقل لا يسلم، فإن كل خبر متواتر بشروطه[5] في غير الشرعيات، لا يتوقف عليه، والظني كله يصح أن يثبت فيه صدق المخبر بنقل آخر.

والظاهر أن الدليل إن كان على اصطلاح المنطقيين، فهو إما عقلي محض، وإما مركب، والنقلي المحض لا يصح، لأن المقدمات وإن كانت نقلية، لابد من ملاحظة استلزام المطلوب فيها، وهو عقلي. نعم إن لوحظت المادة فقط، صح التثليث، وإن كان على اصطلاح غيرهم، وهو أنه ما يمكن التوصل بصحيح النظر إلى علم أو ظن، وهو الحد الأصغر كما مر، فهو إما عقلي محض، أو نقلي كذلك، ولا معنى للمركب.

1- سقطت من ج.

2- قارن بما ورد في المحصل:59. وشرح المقاصد/1: 259 وما بعدها.

3- ورد في ج: العقل.

4- ورد في ج ود: وبالنقلي.

5- ورد في ح: بشروط.

{المطالب منها ما يتوقف عليه ثبوت النقل}

المطالب[1] منها ما يتوقف عليه ثبوت النقل، كوجود الباري تعالى، واتصافه بالقدرة والمشيئة، وصدق الرسول عليه السلام، فدليله العقل لا غير، وما يُجَوِّزُ العقل وجوده ولا وجوده بلا تعيين، كموت إنسان في بلد كذا في زمن كذا، فدليله النقل لا غير، ومنه الأحكام الشرعية الفرعية، والثواب والعقاب عندنا، وما سوى ذلك يدل عليه 21 كل منهما، كحدوث العالم، إذ يصح إثبات الصانع / بطريق الامكان، وكوحدة الصانع تعالى في أحد الاحتمالين القولين.

ثم العقلي تقدم الكلام فيما يفيد، وأما النقلي فيفيد الظن، وما دونه فلا شبهة. وأما اليقين فأنكر قوم إفادته إياه، لتوقفه على تحقق وضع اللفظ للمعنى المدعى، <المتوقف على عصمة الرواة، وعلى تحقق إرادة ذلك المعنى باللفظ>[2]، المتوقف على نفي احتمال المجاز والنقل والاشتراك والاضمار والنسخ، وعلى تحقق انتفاء المعارض العقلي، إذ هو المقدم لأنه الأصل.[3]

والحق أنه قد يكون الوضع ضروريا لتواتره، كالسماء والأرض والخيل والبغال، في معانيها اللغوية، وينتفي الاحتمال والمعارض بالقرائن الشرعية والعقلية، كالصلاة والزكاة والإيمان، في معانيها الشرعية، فيفيد اليقين.

1- قارن بما ورد في المواقف:39.

2- ساقط من ج.

3- قارن بما ورد في المواقف: 40.

الفصل العاشر: {تعريف العلم بحسب المعلوم}

تعريف العلم بحصول الصورة كما مر، جار عليه بحسب الأصل، وهو أنه مصدر، وقد يراد به المعلوم، أي فعلا أو قوة، فيعرف بحسب ذلك، وعلى هذا قد يراد به قواعد مقررة يجمعها موضوع وغاية، وكلما لوحظ من ذلك بخصوصه، سمي فنا من فنون العلم، كالفقه والنحو والأصول.

فالفقه مثلا علم[1]، أي معلوم، وهو اسم لمجموع قواعد، أي كليات تنطبق على جزئيات، يجمعها موضوع واحد، وهو الحكم الشرعي الفرعي، وغاية واحدة، هي معرفة ما يُدَان ا لله تعالى به بعد العقيدة، ويطلق الفقه مثلا على الملكة الحاصلة للناظر فيه، وهي الكيفية الراسخة في نفسه بتلك القواعد، من طول ممارسته لها، يقتدر بها على استحضارها، وتطبيق كل منها على جزئياتها، ورد المجهول من ذلك إلى المعلوم بحسب الطاقة البشرية، فيطلق عليه عند حصولها له فقيه، كمالك[2] والشافعي[3].

فالفقه حينئذ هو «القواعد المقررة المدونة، أو الملكة[4] الحاصلة لمتعاطيه»[5] وكذا في كل فن، والأمران متلازمان باعتبار الانتفاع، فإن القواعد علم وفن نظر فيها ناظر أو لا، ولكن لا يحصل بها الاستعمال والانتفاع إلا بوجود الملكة، وكذا الملكة تعطي الوصف صاحبها في نفسه، ولكن لا مظهر لها إلا في القواعد .واعلم أن العلم بهذا التفسير، أعني كونه فنا

1- سيرد تفصيل قول اليوسي في الفقه كعلم مستقل بأنواعه، وكيفية ترتيبه، وأقسامه.

2- هو أبو عبد ا لله مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأعلام (95-179هـ).

3- هو محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، صاحب المذهب المعروف باسمه (150-204هـ).

4- هي صفة راسخة في النفس، او استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة، مثل الملكة العددية والملكة اللغوية، ويرادفها القوة، والقدرة والإستعداد الدائم. المعجم الفلسفي/2: 460.

5- ورد في ج: المتعاطية.

وصنعة به جرى إطلاق اسم العلماء، وأهل العلم اصطلاحا، وجرى إطلاق العلوم قديما وحديثا. وقد آن أن نشرع في تفصيلها.

22 فنقول / العلوم على الجملة، إما قديمة وإما حادثة، وإن شئت قلت إما فلسفية وإما مِلِّيَة، أو إما قديمة وإما إسلامية، وهو أضبط، لأن من القديم ما ليس بفلسفي كعلوم العرب، غير أن هذه لما لم تكن علوما مهمة، صح أن لا يبالى بها في التقسيم، بل يقتصر على ذكر الفلسفية والإسلامية، وما سوى ذلك يذكر تبعا.

{العلوم الفلسفية وأقسامها}

فنقول أما الفلسفية، فمنها مقبول في المِلّة ومنها مردود، والمقبول[1] منه مأخوذ ومنه متروك، ولنبدأ بتقسيم الفلسفيات جريا مع عباراتهم فيها، مع الإلمام بما يقبل وما لا.

فنقول العلم إما مقصود لذاته أو لغيره، أما الأول فهو الفلسفة الأولى، المقصود بها تكميل النفس الناطقة، والاطلاع على حقائق الأشياء بقدر الطاقة. وهو إما نظري وإما عملي[2]، والأول إما مجرد عن المادة مطلقا، وهو العلم الإلهي، أو في الذهن فقط، وهو العلم الرياضي، أو مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي.

والثاني إما متعلق بنفس الشخص من حيث هي، ويسمى سياسة النفس، وعلم الأخلاق، أو بها وبما يحتاج إليه من شهوات قواها وهم: علم تدبير المنزل، أو بما يعم وهو الملكية[3] والسلطنة، فإن كان الحافظ لنظامها، والقائم بأحكامها الظاهرة والباطنة شخصا دلت عليه القرانات الكبار، وتميز عن البشر بما أفيض عليه من قوى المجردات[4]، فهو

1- ورد في ج: المنقول.

2- ورد في ج: أو عملي.

3- ورد في ج: الملكية.

4- المجرد ما لايكون محلا لجوهر ولا حالا في جوهر آخر، ولا مركبا منهما على اصطلاح أهل الحكمة. التعريفات: 202.

النبي وهو دولة النبوءة، وإن كان قائما بتدبير ظواهرها فقط، ودلت عليه القرانات المتوسطة فهي السلطنة وهو السلطان، وقد يعم حكمه وقد يخص.

قلت أما دلالات القرانات[1] الكبار والمتوسطة فلا مانع منه، إذ لامانع أن يجري الله تعالى عادته بخلق شيء، أو إنزال شيء، أو تخصيص شيء ما بشيء، عند طلوع كوكب أو غروبه، أو اجتماعه بكوكب آخر، أو بينونته عنه، أو قربه منه أو بعده، ثم يلهم الله من يشاء من عباده علم ذلك، فيعلمه[2] ويحكم به اتباعا لتلك العادة، ولا تأثير في شيء من ذلك لشيء، بل التأثير كله لله تعالى الواحد القهار.

{بطلان ما يثبته الفلاسفة من المجردات والعقل الفياض}

وأما الفيض[3] من قوى المجردات فهو وهم باطل، لا حاصل له، فكلما يثبتونه من المجردات والعقل الفياض باطل، وإنما الله تعالى واحد، موجود واجب الوجود، وكل موجود من هذه العوالم حادث أثر عنه، خلقه بقدرته ومشيئته عن عدم، وهو تعالى المُخَصِّص للنبي بما اختص به من النبوءة / والكرامة، وهو المد له ولغيره، لا إله ولا فاعل ولا معطي ولا مانع غيره سبحانه. 23

وأما الثاني أعني المقصود لغيره، فإما للذهن وما يناط به من المعاني، وهو المنطق، وإما للسان ومايناط به من الألفاظ، وهو الأدب[4]، وهذا محدث.

1- ورد في ج: القران.

2- ورد في ح: فيعلم.

3- الفيض كثرة الماء، وفي اصطلاح الفلاسفة، هو فعل فاعل يفعل دائما لا لعوض ولا لغرض، والمقصود بالفيض أن جميع الموجودات، التي يتألف منها العالم، تفيض عن مبدإ واحد أو جوهر واحد. المعجم الفلسفي/2: 172.

4- تحدث اليوسي عن علم الأدب في كتابه "زهر الأكم في الأمثال والحكم".

ثم الشريعة المطهرة على القيم بها أفضل الصلاة والسلام، جاءت بما يغني عن العلوم العملية المذكورة فتركت، وذلك أن مدارها إما على حفظ النفس، وهو في الشريعة بالقصاص ونحوه، وإما على العقل، وهو فيها بتحريم ما يزيله والحد عليه، وإما المال، وهو فيها بالتنمية بالتجارات وسائر المعاملات، وحد الحرابة[1] والسرقة[2]، وتحريم الربا[3] والغش[4] <والزنا>[5] ونحو ذلك، أو العرض وهو فيها بحد القذف[6] مثلا، أو النسب وهو فيها بتحليل النكاح وتحريم السفاح، وحد الزنا[7]، أو تهذيب النفس بالتخلية والتحلية، والقيام بالتعبد ومعرفة المعبود، والاعتراف بالشرع ومن جاء به، وهو مبسوط فيها على أكمل وجه. وكذا سياسة العباد بالنبوءة و الخلافة، فأسقط المتأخرون هذا القسم من علوم القدماء استغناء عنه، واقتصروا على الأقسام الباقية، <أعني العلم الإلهي والرياضي والطبيعي والمنطقي>[8].

1- وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية. المائدة: 33.

2- وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ المائدة: 38.

3- ورد في ج: الزنا. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: 130.

4- وهو ما يشير إليه قوله ﷺ (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) .

5- سقطت من ج.

6- وهو ما يشير إليه قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ النور:4.

7- وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية. النور: 2.

8- ما بين العلامتين ساقط من ج.

{العلم الإلهي}

أما العلم الإلهي : فهو العلم الباحث على الموجود، من حيث ثبوته وما يعرض له، أو عن[1] المعلوم من حيث هو، على الخلاف في موضوعه على ما سيذكر، ومنفعته تبيين[2] المعتقد الحق من الباطل، وسمي إلهيا لأن فيه أحكام الربوبية، وهذا العلم هو المقصود بالذات للإنسان في كماله، وفوزه في الدارين، وكل ما سواه من العلوم تبع له، فما كان منها دينيا فوسيلة إليه، وما كان دنيويا فبمثابة الخديم، ولهذا توفرت رغبات العقلاء على طلبه.

{اختلاف الطرق إلى معرفة ا لله واختلاف الأمم وطرقهم}

ثم اختلفت الطرق إليه، فمن العقلاء من رام إدراكه بالنظر وهم الحكماء. ومنهم من رام إدراكه بالرياضة بالجوع والعزلة والخلوة، كالنُسّاك وهم الصوفية في مِلَّتِنا. ومنهم من رامه بالنظر وليس من أهله، فأخطأ الحق وضل وأضل، كالثَّنْوِية[3] والمُعَطِّلَة[4] وسائر المنكرين للشرائع. ومنهم من عجز ورام التعلق بالمولى تعالى، على ما هو شأن العبودية أو غفل، فأمدهم ا لله تعالى فضلا منه وَمِنَّة ببعث الرسل، مع التأييد بالعقل الصائب، وهم

24 ثلاث فرق: اليهود والنصارى / والمسلمون، وقد اختلف كل منهم وافترق.

1- ورد في ح: على.

2- ورد في ج: تبين.

3- الفرقة التي يزعم أصحابها أن النور والظلمة أزليان قديمان، متساويان في القدم، ومختلفان في الجوهر والطبع والفعل، والحيز والمكان، والأجناس والأبدان والأرواح. الملل والنحل: 245.

4- المعطلة يعرفون أيضا باسم الدهريين، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع. المنقذ من الضلال:18.

أما اليهود فعلى فرق أشهرها ثلاث: الرَّبَّانِيُون[1] والقَرَّاءُون[2] والسَّامِرِيُون[3]. وأما النصارى فعلى فرق أيضا،[أشهرها أيضا ثلاث:][4] المَلَكَانِيَة[5] واليَعْقُوبِيَة[6] والنُّسْطُورِية[7]. وأما المسلمون فعلى ثلاث وسبعين فرقة[8]، كما أخبر به الصادق المصدوق، وهي معلومة في كتب أئمتنا[9]، فلا حاجة إلى التطويل ولا بشرح[10] مذاهب هذه الفرق، لأن الكتاب معقود لذكر العلم، لا لذكر الملل والنحل.

1- وردت عند ابن حزم باسم الربانية، وهم الأشعنية القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم، وهم جمهور اليهود. الفصل/1: 178.

2- القراءون هم نظراء المجبرة والمشبهة في القول بالقدر في الإسلام. الملل والنحل: 213.

3- نسبة إلى فرقة السامرية، ولهم توراة غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود، ويبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى ويوشع عليهما السلام. الفصل/1: 178- الملل والنحل: 219.

4- ما بين العلامتين ساقط من ج.

5- هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم. ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن. الفصل/1 : 111.

6- وهم أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما سبق ذكره، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المائدة: 72. الملل والنحل: 226.

7- وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام. الملل والنحل: 225.

8- تضمين للحديث المأثور في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة الذي رواه أبو هريرة، وأخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب افتراق هذه الأمة. جامع الأصول/10: 408.

9- راجع بشأنها مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري.

10- ورد في ح: لشرح.

ثم إن اليهود والنصارى سلبوا ما أعطوا، ما لم يتمسكوا بالإسلام، فانحصر الخير والحق والهدى اليوم في الملة المحمدية، والمتكفل بهذا الأمر يسمى علم النواميس، والسياسة السماوية. والناموس هو الوحي أو صاحبه، وسيأتي تفصيله وتنقيحه، عند ذكر الكلام في العلوم الإسلامية، إن شاء ا لله.

{العلم الرياضي وأنواعه أربعة}

وأما العلم الرياضي[1]: فهو العلم الباحث عما تجرد عن المادة في الذهن فقط كما مر، وأنواعه أربعة: علم الهندسة، وعلم الهيئة، وعلم العدد، وعلم الموسيقى. وذلك أن نظره في الكم، وهو إما متصل بأن يفرض بين أجزائه، حد مشترك تتلاقى عنده أولا، وكلاهما إما قار الذات، بأن يكون مجتمع الأجزاء في الوجود أولا.

{علم الهندسة وما يتفرع عنه}

فالأول علم الهندسة[2]، وموضوعه الكم المتصل القار الذات، وهو المقدار، فهو علم يعرف به أحوال المقادير ولواحقها، وأوضاعها وأشكالها، ومنفعته اكتساب الحدة، وارتياض الفكر، مع ما يستتبع ذلك من المصالح في الأبنية والمنازل وغير ذلك، ويتفرع عنه عشرة علوم:

الأول: علم عقود الأبنية، وهو ما يعرف به وضع البناء، وشق النهر، وسد البَثْقُ ونحو ذلك، ومنفعته ظاهرة في ذلك.

1- يطلق هذا الاسم على الحساب والجبر، والهندسة ونحوها، وموضوعه الكم.

2- الهندسة كلمة فارسية معربة أصلها " اندازة" أي المقادير، وتسمى باليونانية " جومطريا "، وهي صناعة المساحة. المعجم الفلسفي/2: 523.

الثاني: علم المُنَاظِر، وهو ما يعرف به أحوال المبصرات، في كميتها وكيفيتها وقربها وبعدها عن المناظر، ومنفعته إدراك البعيد، ومعرفة ما يغلط فيه البصر، ويستعان به على مساحة الأجرام البعيدة.

الثالث: علم المرايا المحرقة، وهو ما يعرف به أحوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة، ومواقعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس أشعة الشمس عنها، ومنفعته عظيمة في مُحَاصَرة المدن والقلاع.

25 الرابع: علم مراكز الأثقال، وهوما يعرف به استخراج ثقل الجسم المحمول، ومنفعته معرفة كيفية معادلة الأجسام عند الحمل مثلا.

الخامس: علم المساحة، وهو ما يعرف به مقادير الخطوط والسطوح، ومنفعته عظيمة في أمر الخراج[1] وقسمة الأرضين، ويقال له أيضا علم التكسير.

السادس: علم إنباط المياه، وهو ما يعرف به استنباط المياه الكامنة في الأرض، ومنفعته ظاهرة، ويقال لمقدر مجاريها ومقدر الأبنية "هنداز ومهندز"، فعرب بجعل الزاي سينا، إذ ليس في العربية زاي بعد دال فقالوا مهندس، وصنعته الهندسة، فهذا أصلها.

السابع: علم جر الأثقال، وهو ما يعرف به كيفية إيجاد الآلات الثقيلة، ومنفعته نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة، وقد استدل بعض أهل <هذا>[2] العلم على صحة نقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة رطل.

الثامن: علم البنكامات، وهو ما يعرف به إيجاد الآلات المقدرة للزمان، ومنفعته معرفة أوقات العبادات، واستخراج الطوالع من الكواكب.

التاسع: علم الآلات الحربية، وهو ما يعرف بإيجاد الآلات الحربية، كالمجانيق وغيرها، ومنفعته ظاهرة في بابها.

1- جمع أخراج: الإتاوة وأصله ما يخرج من غلة الأرض والماء. أو الجزية .

2- ساقط من ج.

العاشر: علم الآلات الروحانية، ومنفعته ارتياض النفس بالغرائب.

{علم الهيئة وما يتفرع عنه}

الثاني علم الهيئة: وهو العلم الباحث عن الأجرام البسيطة، فلكية أو عنصرية، من حيث الكم والكيف والحركة والسكون، وموضوعه الأجرام المذكورة من تلك الحيثية، فمرجع مبحثه الزمان، وهو الكم المتصل غير القار الذات، وهو محتاج إلى علم الهندسة، لأن مقدمات براهينه منها، والعلوم المتفرعة عليه خمسة: الأول: علم الزيجات[1]، وبه تعرف أوضاع الكواكب ورجوعها واستقامتها، وظهورها واختفاؤها، وتشريقها وتغريبها ونحو ذلك. الثاني: علم المواقيت، وبه تعرف أوقات العبادات. الثالث: علم كيفية الأرصاد، وبه يقع تحصيل مقادير الحركات، ويحصل التعديلُ. الرابع: علم تسطيح الكرة، وبه يعرف إيجاد الآلات الشعاعية. الخامس: علم الآلات الظلية، وبه يعرف مقادير الظلال، ومعرفة الساعات بآلات ذلك.

{علم العدد وأنواعه}

الثالث علم العدد[2]: وهو العلم الباحث عن العدد من حيث انقسامه إلى الزوج والفرد، وإلى الصحيح والكسر، وغير ذلك، / وما يعتبر به من الأحوال، كالضرب والجمع والقسمة، ونحو ذلك. وموضوعه العدد من حيث تلك الحيثية، وهو الكم المنفصل، 26

1- الزيج في اصطلاح علماء الهيئة، عبارة عن جدول يستدل به على حركة السيارات، لأجل تقويم مواقعها. وأما الزيجات المذكورة لعلماء العرب، فأشهرها ما ذكره حاجي خليفة، وهي زيج السمح الغرناطي، وزيج ابن الشاطر، وزيج أبي معشر المنجم، وزيج أبي حنيفة الدينوري..الخ. دائرة المعارف الإسلامية/9: 333.

2- هو العلم الرياضي المحض، وينقسم إلى علم الكم المنفصل، كالحساب والجبر، وعلم الكم المتصل، كعلم الهندسة وحساب اللانهايات. المعجم الفلسفي/2: 61.

ومنفعته ارتياض الذهن، وضبط الأموال والمعاملات، ويتفرع إلى ستة أنواع: علم الحساب المفتوح، وحساب التخت والميل، وحساب الجبر والمقابلة، وحساب الخطاين، وحساب الدور والوصايا، وحساب الدرهم والدينار، وسنذكره إن شاء الله في العلوم الإسلامية، لأنه مأخوذ في الملة مشهور.

{علم الموسيقى وأنواعه}

الرابع علم الموسيقى[1]: وهو العلم الباحث عن النغم[2]، وما يعتريها من الايقاعات، وانتظام اللحون المختلفة، وإيجاد الآلات الصالحة[3] لذلك. فموضوعه الصوت من حيث ذلك، ومنفعته التأثير في النفوس بسطا وقبضا[4]، وما ينشأ عن ذلك من الالتذاذ والاهتزاز، إلى أقوال وأفعال.

{العلم الطبيعي والعلوم المتفرعة عنه عشرة}

وأما العلم الطبيعي[5]: فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي، أي المادي وهو المحسوس، من حيث هو معرض للتغير والانفعال والثبات في أحواله. وموضوعه الجسم من

1- وهو قسمين: نظري وعملي، وهو كل أصناف الألحان، وما منه تولف، وما له ألفت، وكيف تولف، وبأي أحوال يجب أن تكون، حتى يصير فعلها أنفذ وأبلغ. المعين/1: 427.

2- الصواب أن يقال: نَغَمات، جمع نَغَمَة ونَغْمَة.

3- ورد في ج: الصالحات.

4- هما حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، والفرق بينهما: أن الخوف والرجاء يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت. التعريفات: 171-172.

5- هو العلم الذي ينظر في الأجسام الطبيعية، وفي الأعراض التي قوامها هذه الأجسام، ويعرف الأشياء التي عنها والتي بها، وهو ينقسم إلى أجزاء: السماع الطبيعي، السماء والعالم، الآثار العلوية، المعادن، النبات، الحيوان، النفس. المعين/1: 427.

تلك الحيثية، وفائدته معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك[1] والعناصر[2] المولدات، والاطلاع على موادها وصورها، وعللها وغايتها، وأعراضها اللازمة والمفارقة، وسائر خواصها وأسرارها الغريبة. ويتفرع منه عشرة علوم: علم الطب، وعلم البيطرة، علم الفِراسة الحكمية، وعلم تعبير الرِؤيا، وعلم الأحكام النجومية، وعلم السحر، وعلم الطِّلسْمَات، وعلم السِّيمياء، وعلم الكيمياء، وعلم الفلاحة.

ووجه الحصر فيها بحسب الاستقراء[3]، أن النظر إما أن يكون فيما يرجع إلى الجسم البسيط، أو المركب، أو كليهما. والبسيط إما الفلكي، فأحكام النجوم، وإما العنصري، فالطلسمات، والمركب إما ما ليس <له> [4] مزاج وهو السيمياء، وإما ما له مزاج[5]، فإما ما لا نفس له، وهو الكيمياء، وإما ذو نفس، فإما غير مدركة، وهو الفلاحة، وإما مدركة، فإما غير ناطقة، وهو علم البيطرة، وإما ناطقة، فإما في حفظ الصحة واسترجاعها، وهو الطب، وإما في النظر في الأحوال الظاهرة، من حيث دلالاتها على الأخلاق، وهو علم الفِراسة، وإما في أحوال نفسه حال غيبته عن حسه بالنوم، وهو تعبير الرُّؤيا. فهذه عشرة علوم:

27 الأول علم الطب: وهو العلم / الباحث عن بدن الإنسان، من حيث ما يكون به حفظ الصحة عليه، أو إزالة المرض عنه. وموضوعه بدن الإنسان من حيث ذلك، ومنفعته

1- جسم كروي، يحيط به سطحان ظاهري وباطني، متوازيان، مركزهما واحد. التعريفات: 169.

2- العنصر في اللغة الأصل والجنس، وجمعه عناصر، وهي مرادفة للأمهات والمواد، والأركان والأسطقسات. وهو في المنطق أحد أفراد النوع أو الصنف. والعناصر عند القدماء أربعة هي: النار والهواء والماء والتراب. المعجم الفلسفي/2: 111.

3- هو الحكم على كلي لوجوده في أكثر جزئياته، وإنما قال في أكثر جزئياته، لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته، لم يكن استقراءا بل قياس مقسم، ويسمى هذا استقراء، لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الجزئيات. التعريفات: 18.

4- ساقط من ح.

5- جمع أمزجة، ما يمزج به كالماء في الشراب. أو ما أسس عليه البدن من الطبائع.

حفظ البدن الذي هو مركب النفس، لتتفرغ النفس لطلب كمالها النظري والعملي، عاجلا وآجلا، وسنعيد القول فيه عند ذكر العلوم الإسلامية إن شاء ا لله.

الثاني علم البيطرة: وهو في الحيوانات العجماوات كالطب في الإنسان، فالبيطار هو معالج الحيوان كما أن الطبيب هو معالج <الإنسان> [1]، فمعناه واضح. ومنفعته أيضا عظيمة بالتبع.

الثالث علم الفراسة: وهو علم يعرف به الاستدلال بِخَلْق الإنسان على خُلُقِه. وموضوعه أحوال الإنسان الظاهرة من تلك الحيثية، ومنفعته تعرف طباع الشخص عندما تراد صحبته أو تزوجه، أو اشتراؤه واستعماله في عمل، ونحو ذلك، وهي عظيمة، وقد قيل إن الحكيم أرسطاطاليس صور شخصه، فأتي بصورته إليه وهو لا يدري، فنظر فيها فقال «هذا رجل يحب الزنا»، فقيل له أنت ذاك، فقال: «نعم، وأنا كذلك إلا أني أستعف وأصون نفسي». وقال محي الدين ابن العربي[2] في "التدبيرات الإلهية" اتفقوا على أن خِلْقَة[3] نبينا محمد ﷺ هي أشرف الخلق الدالة على أكرم الأخلاق، ومن ثم كان ﷺ على الخُلُق العظيم، كما شهد المولى تعالى به[4] في كتابه».

1– ساقط من ح.

2– المشهور هو ابن عربي بدون تعريف تمييزا له عن أبي بكر ابن العربي المعافري. وهو أبو بكر محي الدين بن عبد ا لله الطائي الحاتمي الأندلسي (560–638هـ)، الصوفي والشاعر، والأديب البارع، الرفيع المنزلة، من تآليفه: "الفتوحات المكية"، و"التدبيرات الإلهية"، وغيرها كثير.

3– راجع لمزيد البيان والتفصيل كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للعلامة عياض: القسم الأول المعقود لتعظيم العلي الأعلى لقدر هذا النبي قولا وعملا. الباب الثاني تكميل ا لله تعالى له المحاسن خلقا وخلقا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقا.

4 – وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. القلم: 4.

الرابع علم التعبير: فهو علم يُعْرف به تفسير ما يقع في النوم[1]. ومنفعته البشرى بما يرد من خير، والانذار بما يُتَوَقَّع من شر، والاطلاع على ما غاب.

الخامس علم النجوم: ويقال له علم الأحكام، وعلم الأحكام النجومية، وهو علم يعرف به الاستدلال بالتشكلات الفلكية على الحوادث السفلية، وهو علم عظيم، والناس فيه بين مومن وكافر، كما أخبر الصادق المصدوق سيد الخَلْق ﷺ لما أصبح في أثر السماء فقال: (أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[2].

{تحريم الاعتقاد في الكوكب والنجم وإسناد التأثير إليهما}

فمن أسند هذه الآثار الواقعة في عالم الكون والفساد[3]، وذلك كنزول مطر أو وقوع رخاء، أو صحة أو استقامة ملك، أو شمول عافية، أو أضداد ذلك، إلى هذه القرانات / بوجه التأثير، فهو مشرك با لله تعالى، كمن أسندها إلى العقل الفياض، ومن أثبت هذه الآثار عند شيء من القرانات، على وجه الاقتران العادي، وهو يعلم أن ا لله تعالى هو خالق العلويات وخالق تلك الآثار، عند وجودها لا بها، فليس ثم أثر لغير المولى تعالى، ولا

28

1– راجع بشأن تأصيله قرآنا وسنة: فتح الباري شرح صحيح البخاري/12: 436– صحيح مسلم بشرح النووي/15: 16 –موطأ مالك، كتاب الرؤيا، باب ما جاء في الرؤيا– القوانين الفقهية: 290.

2– أخرجه البخاري في كتاب الآذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم. وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كفر من قال مطرنا بالنوء. والنوء هي منازل القمر.

3– يطلق بالجملة على الحادثة التي يبلغ فيها تغير الشيء درجة تمنع من تسميته بالاسم نفسه، والفساد مقابل للكون، فإذا دل الكون على حصول الصورة النوعية، دل الفساد على زوالها، وإذا دل الكون على الوجود بعد العدم، دل الفساد على العدم بعد الوجود، وهذا المعنى الثاني أعم من الأول. المعجم الفلسفي/2: 146.

ارتباط عقلي، بل أمر عادي بخلق ا لله تعالى الشيء عند الشيء، في مجرى عادته اختيارا، ولو شاء لم يخلقه كما يشاهد انخرام ذلك أحيانا، فهذا مومن ولا بأس عليه إذا نظر في القرانات، مع الاعتماد على ا لله تعالى، والعلم بأن (مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)[1].

وقد قال رجل لأمير المومنين علي كرم ا لله وجهه، عندما هم بالخروج إلى الخوارج[2] «يا أمير المومنين هذا وقت ليس لك» أو نحو هذا [3]، فأنكر على القائل وقال: «إني توكلت على ا لله» وخرج ولم يلتفت إلى ذلك. ولما حاصر المعتصم[4] "عمورية"[5] من أرض الروم أمسك عن القتال، وكان بالعسكر رجل من أهل الدين والخير، فقال ما لأمير المومنين لا يقاتل؟ فقيل له إن بعض المنجمين أمره بالتأخير[6]، وقال إن الوقت ليس لك، فجاء الرجل إلى المعتصم فوقف بين يديه وقال:

دَعِ النُّجوم لطُرُقي يعيشُ بها ❖ وقُم[7] لوقْتِك وانْهَض أَيُّها المَلِك

إنَّ النَّبي وأَصْحاب النَّبي نَهَوا ❖ عَنِ النُّجُوم وَقَد أَبْصَرتَ مَا مَلَكُوا

فقام إلى القتال ففتح <ا لله> [8] له.

1- أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح.

2- الفرقة التي انشقت عن علي كرم ا لله وجهه، عندما رضي بالتحكيم في معركة صفين بينه وبين معاوية. الفرق بين الفرق: 49.

3- ورد في ج: ذلك.

4- هو المعتصم با لله أبو إسحاق، محمد بن الرشيد (178-227هـ)، كان ذا شجاعة، بويع بالخلافة بعد المأمون، سنة 218 هـ، فسلك ما كان المأمون عليه، وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن. له كتاب "الحماسة"، و"فحول الشعراء".وفيات الأعيان/2: 23.

5- مدينة بيزنطية، غزاها المعتصم في شهر رمضان سنة 223 هـ، فأنكى الروم أهلها نكاية عظيمة.

6- ورد في ح: بالتأخر.

7- ورد في ج: ثم قم.

8- سقطت من ح.

وعلى ذلك قال أبو تمام[1] في مدحه:

السَّيْـف أَصْدَق أَنْبـاءً مِن الكُتُــب ❖ في حَدِّه الحَدُّ بَيْن الجدِّ واللَّعِــب

بيضُ الصَّفائِح لاَ سُود الصَّحَائِف فِي ❖ مُتُونِهن جَلاَء الشَّك والرِّيَـــب[2]

واعلم أن عـادة الله تعالى جارية لا تنخرم إلا لأمر، فما يقـع مــن نحـو مـا ذكـر مـن إخلاف قـول المنجم، إما أن يكـون غلطا منه، وإما أن يكون انخـراق عـادة في تلك الصورة، ويكون ذلك معجـزة[3] لنبــي، أو كرامــة[4] لولــي[5]، أو إعانـة لـمومن، أو استدراجـا[6] لمفتون، أو نحو ذلك.

1– هو حبيب بن أوس الطائي، نسبة إلى قبيلـة طـيء، (188–231 هـ). رحـل إلى مصـر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فقدمه على شعراء عصره، فأقام في العراق. الأعلام/2: 165.

2– البيتان من قصيدة طويلة بلغت71بيتا، نظمها الشاعر أبو تمام في مدح المعتصم، بمناسبة فتحه مدينـة عمورية، بعد أن كان المنجمون قد حكموا أن المعتصم لا يفتحها، وراسلته الروم بأنا نجد في كتبنا أنـه لا تفتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين والعنب، وبيننا وبين ذلك الوقت شهور يمنعك مـن المقـام بهـا البرد والثلج. فأبى أن ينصرف وأكب عليها ففتحها، فأبطل ما قالوا. شرح ديوانَ أبي تمام: 22.

3– هي أمر خارق للعادة، داعية إلى الخير والسعادة، مقرونة بدعوى النبوة، قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله. التعريفات: 219.

4 – هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة. التعريفات: 184.

5 – الولي هو العارف بالله تعالى وصفاته، المواظب على الطاعـات، المتجنب المعـاصي، المعـرض عـن الانهماك في اللذات والشهوات.

6 – هو مـا يظهـر علـى يـد الشـقي، لـيزداد بـه غـرورا وضـلالا، كالمبتدعـة والفراعنـة، قـال تعـالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. الأعراف: 182 – القلم: 44.

وإما أن يكون تبدل الوقت بحركة الفلك فيما بين حكمه وبين بروز ما وقع. كما جرى ذلك للمعتمد بن عباد[1]، فإنه حين حضر مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[2] في غزوته، أمر الأمير بالانتهاض إلى العدو، فنظر المعتمد وكان من أهل هذا العلم، فرأى الوقت غير لائق للقتال، ولم يقدر أن يذكر ذلك لأمير المسلمين خوف أن يرمى بهذه الاعتقادات، فتحير وأمسك، واشتغل السلطان بتهيئة / الجيش والتعبئة للقتال، ولم يفرغوا من ذلك حتى تبدل الوقت بإذن الله، وجاء الوقت الصالح موافقا لنهوضهم، فعجب المعتمد من ذلك، وعلم أن السلطان ممدود[3] مظفر. 29

السادس علم السحر: وهو علم تستحصل به ملكة، يقدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفية، وعمله حرام بلا نزاع، وأما مجرد معرفته فلا إشكال في جوازه[4]، وما نقل عن الإمام مالك من أن تعلمه كفر مستشكل. وفائدته أن يعلم ليحذر منه لا ليعمل، وأن يعرف فاعله لينفذ عليه الحكم، فإن قتل الساحر مثلا موقوف على العلم بأنه ساحر، وذلك فرع معرفة السحر، حتى ذهب بعض الأئمة إلى أنه فرض كفاية، قال لجواز ظهور ساحر يدعي النبوءة فيكون في الأمة من يكشفه.

---

1 – هو المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله أبو عمر عباد (431-488هـ)، صاحب إشبيلية، وما والاها من جزيرة الأندلس، ملك طليطلة، فهدده الفونس ملك الإسبان، فاستنجد بيوسف بن تاشفين، وقد التقا الجيشان في معركة الزلاقة سنة 479هـ وانتصر المسلمون. وفيات الأعيان/5: 21.

2 – يوسف بن تاشفين اللمتوني (.../500هـ) ، أمير المسلمين وملك الملثمين، وهو الذي اختط مدينة مراكش، ولاه ابن عمه أبو بكر اللمتوني الإمارة في المغرب، فاستولى على فاس، ومد سيطرته على أنحاء المغرب، وعدوة الأندلس. وفيات الأعيان/7: 112.

3– ورد في ح: مجدود.

4– جواز تعلم السحر دون ممارسته وتعاطيه في رأي اليوسي، ينسجم مع مذهبه في العلوم وموقفه منها، ألا وهو الدعوة الصريحة إلى تعلم كل العلوم من غير استثناء لعظيم فائدتها، كعلم المنطق مثلا.

قلت: أما اليوم فقد كفينا هذا، إذ لا نظر لنا في مدعي النبوءة بعد نبينا خاتم النبيئين ﷺ، ولا فيما يأتي به من الخوارق، ولكن الوجه ما ذكرنا من الاحتياج إليه عند الأحكام، ولهذا يشتغل الفقهاء بتعريفه، وذلك من جملة تعلمه وتعليمه.

واختلف في كون السحر حقيقيا أو وهميا فقط. ذهب أهل الحق[1] إلى الأول، وخالف المعتزلة. لنا وقوعه حسا، وسحر لبيد بن الأعصم[2] نبينا ﷺ[3] ومثله كثير مشاهد. قالوا قوله تعالى﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[4] دليل أنه مجرد تخييل.

قلنا يجوز أن يكون ذلك في بعض الصور حيلة، ليس من السحر المبحوث فيه، كما قيل في هذه الصورة أنهم حشوا العصي والحبال بالزِّئْبَق[5]، ونصبوها للشمس، فتحرك الزئبق بحرارة الشمس، وحرك ما هو فيه. وقيل السحر قسمان: حقيقي وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[6]، وغير حقيقي وهو الأخذ بالعيون، وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾.

---

1 – هم الذين أضافوا أنفسهم إلى ما هو الحق عند ربهم بالحجج والبراهين، ويعني أهل السنة.

2 – رجل من بني زريق حليف اليهود.

3 – روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: « سُحِرَ حَتَّى كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَأْتِي النِّسَاءَ وَلَا يَأْتِيهِنَّ قَالَ سُفْيَانُ وَهَذَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ السِّحْرِ»كتاب: الطب. باب: هل يستخرج السحر.

4– طه: 66.

5– معدن سائل يستعمل في موازين الحرارة وغيرها، ولا يجمد إلا في درجة 40 تحت الصفر.

6– الأعراف: 116 ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

{الخلاف في طرق السحر عند الطوائف}

وقد اختلفت[1] طرق أهل السحر فيه، حيث كانت أسبابه مجهولة لخفائها، فطريق الهند وطائفة من الفلاسفة والترك، تصفية النفس وتجريدها عن الشواغل، زعما منهم أن النفس عنها تصدر هذه التأثيرات، وطريق النبط[2] عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب، منضمة إلى رقية[3] بعزيمة مخصوصة في وقت مخصوص، وتلك الأشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات، وتارة تصاوير كالشعابذ[4]، وتارة عقودا تعقد وينفث[5] عليها، وتارة كتبا 30 تكتب أو نحو ذلك، وتدفن في الأرض، أو تطرح في الماء، أو / تعلق في الهواء، أو تحرق في النار.

والرقية تكون تضرعا إلى الكوكب، مع دُخْنَة بعقاقير[6] تنسب إليه، زعما منهم أن التأثير يصدر عن الكواكب. وطريق اليونان تسخير الروحانية المنسوبة إلى الأفلاك[7] والكواكب، واستنزال قواها بالوقوف والتضرع إليها، زعما منهم أن هذه الآثار عن روحانية الأفلاك والكواكب تصدر، لا عن أَجْرَامها، وبهذا فارقوا غيرهم. وهذا المذهب أيضا ينسب إلى قدماء الفلاسفة.

1- ورد في ج: اختلف.

2- قوم ينزلون بالبطائح بين العراقين، وإنما سموا نبطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، وفي حديث عمر رضي الله عنه: « تمعددوا ولا تستنبطوا»، أي تشبهوا بمعد ولا تشبهوا بالنبط. لسان العرب/7: 411.

3- من الرقى التي يعزم بها على الجن والأرواح. لسان العرب/16: 400.

4- يقال فلان شعوذي ومشعوذ ومشعبذ، وعمله الشعوذة والشعبذة، وهي خفة في اليد كالسحر، وقيل للبريد الشعوذي لخفته، وتقول: رأيته يعود ويشعوذ. أساس البلاغة: 236.

5- وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ الفلق: 4.

6- العقار والعقير ما يداوى به من النبات والشجر، والعقاقير أصول الأدوية. لسان العرب/4: 599.

7- المفرد فلك، والجمع فُلْك وفُلُك وأَفْلاَك: مدار النجوم .

وطريق العبرانيين والقبط والعرب، الاعتماد في ذلك على أسماء مجهولة المعاني، كأنها أقسام وعزائم يستعملونها بترتيب خاص، وكأنهم يخاطبون بها حاضرا، زعما منهم أن هذه الآثار عن الجن تصدر، وأن تلك الأقسام تسخر ملائكة قاهرة للجن، ويتوصلون إلى تسخير الروحانية بثلاثة أشياء: أحدها الاستخدام، وهو أقوى، وأعم تصرفا، والاستجابة تقع فيه بعد حين. ثانيها: الاستنزال، والاستجابة تكون على الفور، ولكن نفعه قاصر مخصوص، بكشف غيب أو[1] علاج مصاب مثلا. ثالثها: الاستحضار، وهو أضعفها، وغايته إخبار بغيب.

السابع علم الطِلّسْمات: وهو علم يعرف به كيفية تمزيج القوى العالية الفعالة، بالقوى السافلة المنفعلة، لتحدث عن ذلك آثار غريبة في عالم الكون والفساد. ومنفعته عظيمة ظاهرة إن ظفر بها، وذلك أصعب ما يكون. ثم مهما يقع من أثر في ذلك فإنما هو من فضل الله تعالى، ولا تأثير للقوى العالية ولا السافلة، ولا لشيء سوى الله تعالى، الواحد الفعال، تعالى الله عما يقول الفلسفيون، وسائر الضالين علوا كبيرا.

الثامن علم السيمياء: وهو في الأشهر مطلق على غير الحقيقي من السحر، وحاصله إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الخارج. وله منفعة ظاهرة إن ظفر به.

التاسع علم الكيمياء[2]: وهو علم يتوصل به إلى سلب الجواهر المعدنية خواصها، وإعطائها خواص جواهر أخرى، كجعل الرصاص مثلا فضة أو ذهبا. ومنفعته ظاهرة إن ثبت. واعلم أن ذلك مبني على أن الجواهر المعدنية كلها متفقة في الحقيقة، وإنما اختلفت بعوارض يمكن زوالها، ولهم تردد في إمكان ذلك، وبعد الامكان في الوقوع، وصدق القائل:

كَافُ الكُنُوز وكَافُ الكِيمِيَاء مَعا ❖ لم يُدْرِكان[3] فَدَع عَن نَفْسِك الطَّمَعَا

1- ورد في ج: و.

2- قارن بما ورد في المقدمة: 504.

3- ورد في ح: لا يوجدان.

وقَد تَحدَّث أَقْـوام بِكوْنِهما ❖ ولاَ أظنُّهُما كَانا وَلا وَقَعا

31 العاشر علم الفلاحة[1]: وهو علم يعرف به كيفية تدبير النبات، وتنميته إلى أن يكمل. ومنفعته حصول المعاش، والفوائد الدينية والدنيوية، وذلك ظاهر.

فهذه العلوم الطبيعية، وألحق بها علم الرَّمْل، وهو الاستدلال بالأشكال على استخراج المسألة، ويقال إن هذا من العلوم الإلهية على ما ورد في الخبر من أنه علم نبي.

{علم المنطق}

وأما المنطق[2] فهو العلم الباحث عن المعلومات التصورية والتصديقية، من حيث التأدي بها إلى مجهول تصوري أو تصديقي. وموضوعه المعلومات من تلك الحيثية. ومنفعته تقويم الفكر عن الزيغ، وحراسته عن الخطإ في المدارك[3]، وناهيك بها، فهو المعيار[4] على العلوم كلها، ولذا قيل: «من لا معرفة له به لا وثوق بعلمه»[5]. والعلم هو وصول النفس إلى المعنى، إما ضَرُورَة أي بغير احتياج إلى نظر، كالعلم بحلاوة العسل المذوق، وبأن الواحد نصفُ الإثنين. وإما نَظَرًا أي مع الاحتياج، كالعلم بحقيقة الإنسان وبأنه حادث، فإن كان المعلوم مفردا، أي غير حكم بين شيئين سمي العلم تصورا، وإن كان نسبة وحكما سمي تصديقا. ثم ما كان منهما ضروريا لا يَحتاج إلى مُوَصِّل، وما كان نظريا منهما فهو محتاج.

1- قارن بما ورد في المقدمة: 494.

2- وكتب المنطق ثمانية: المقولات، العبارة، القياس، البرهان، الجدل، السفسطة، الخطابة والشعر. عن المقدمة بتصرف: 490-491.

3- بهذا عرفه الكاتبي في الشمسية. قارن بما ورد في حاشية اليوسي على شرح المختصر المخطوطة.

4- عند الأصوليين هو الظرف المساوي للمظروف، كالوقت للصلاة، وعند المنطقيين نموذج مشخص، أو مقياس مجرد لما ينبغي أن يكون عليه الشيء. المعجم الفلسفي/2: 399.

5- ينسب هذا القول إلى الإمام الغزالي، وهو ما نص عليه الشيخ زكرياء في شرح إيساغوجي.

والموصل إلى التصور النظري يسمى معرفا[1]، والموصل إلى التصديق النظري يسمى حجة وقياسا، ويسمى الأول أيضا تصورا لتوصيله إلى التصور، والثاني تصديقا لتوصيله إلى التصديق. فانقسم علم المنطق إلى قسمين: تصورات وتصديقات.

{قسم التصورات ومباحثه}

والأول يشتمل على مبحث الدلالة، ومبحث الألفاظ، ومبحث المعرف.

{مبحث الدلالة}

أما الدِّلاَلَة فهي "فهم أمر من أمر"[2]، كفهم الحيوان الناطق من لفظ الإنسان إذا سمع، فإن دل اللفظ على تمام ما وضع له، فدلالة مُطَابَقة، كالمثال المذكور، وإن دل على جزء منه، فدلالة تَضَمُّن، كدلالة الإنسان على الناطق أو على الحيوان، وإن دل على لازم لما وضع له لُزُوما بَيِّنا، بحيث يكون كلما فُهِمَ المَلْزُوم فُهِم لازمه، فدلالة الْتِزَام، كدلالة لفظ الإنسان على الضاحك أو الكاتب بالقوة.

{مبحث الألفاظ}

ثم اللفظ الدال إما مفرد، بأن لايدل جزؤه على جزء معناه كزيد، وإما مركب وهو بخلافه، كضارب زيد، وقام زيد. والمفرد إما كلي بأن لا تمتنع الشركة فيه بحسب تصور مفهومه كالإنسان، وإما جزئي بأن يتشخص ولا يقبل الشركة، إما خارجا ويسمى عَلَم شخص كزيد، أو ذهنا ويسمى عَلَم جنس كأسامة.

والكلي خمسة أقسام: لأنه إما أن يكون داخلا في الحقيقة، أو خارجا عنها، أو يكون تمامها. والأول إما أن يكون أعم كالحيوان بحسب حقيقة الإنسان، ويسمى

1- ما يستلزم تصوره اكتساب تصور الشيء بكنهه أو بامتيازه عن كل ما عداه. التعريفات: 220.

2- هو التعريف الذي عرفه به الشيخ زكرياء في كتابه شرح إيساغوجي في المنطق.

32 الجنس[1]، أو مساويا / لها كالناطق بحسبها، ويسمى الفصل، وجنس الشيء يكون قريبا إليه، بأن لا يكون بينه وبينه جنس آخر، كالحيوان للإنسان، ويكون بعيدا عنه كالنامي[2] والجسم.

والثاني إما أن يختص بالحقيقة كالضاحك للإنسان، ويسمى الخاصة، إما لازمة[3] كالضاحك بالقوة، وإما مفارقة كالضاحك بالفعل، وإما أن يتعدى إلى غيرها كالمتنفس للإنسان، ويسمى العرض العام. والثالث هو النوع[4] كالإنسان. ويقال في الجنس والفصل والنوع ذَاتِيَات، لرجوعها إلى الذات، أي إلى الحقيقة، وفي غيرها عَرَضِيات.

{مبحث المعرف}

وأما المعرف فإن كان من جنس وفصل قريبين، فهو حَدٌّ تام، كالحيوان الناطق في تعريف الإنسان، وإن كان من الفصل فقط، أو مع الجنس البعيد، فحَدٌّ ناقص، وإن كان من الخاصة مع الجنس القريب، فرسم[5] تام، كالحيوان الضاحك، وإن كان منها وحدها، أو مع الجنس البعيد، فرسم ناقص.

1- ورد في ج: الجنسي.

2 - أي الذي يتعرض لعملية النمو. المعجم الفلسفي/2: 508.

3- اللازمة هي القضية التي تتبع مباشرة قضية أخرى مبرهن عليها، بمقتضى قواعد المنطق، وهي مقابلة للنظرية. المعجم الفلسفي/2: 262.

4- هو في اللغة الصنف من كل شيء، وفي اصطلاح المناطقة، هو الكلي المقول على كثيرين مختلفين بالعدد في الجواب " ما هو" كالانسان لزيد. المعجم الفلسفي/2: 196.

5- هو عند المنطقيين مقابل للحد، وهو قسمان: تام وهو ما يتركب من الجنس القريب والخاصة، كتعريف الإنسان بالحيوان الضاحك. والناقص ما يكون بالخاصة وحدها، أو بها وبالجنس البعيد، كتعريف الإنسان بالضاحك، أو بالجسم الضاحك. المعجم الفلسفي/1: 615.

{قسم التصديقات ومباحثه}

والثاني: يشتمل على مباحث القضية ، ومباحث أحكامها من تناقض وعكس، واستلزام، ومبحث القياس بحسب صورته، وبحسب مادته، وهي الصناعات الخمس[1].

{مبحث القضية}

أما القضية، فهي الكلام الخبري المُحْتَمَل بحسب ذاته الصدق والكذب، وهي إما محكوم فيها بإثبات شيء لشيء، أو سلبه عنه، وهي الحَمْلِية، نحو زيد إنسان، زيد ليس بحمار. وأما تعليق شيء على شيء، وهي الشَّرْطِية[2]، إما متصلة، نحو إن طلعت الشمس خفيت الكواكب، وإما منفصلة، نحو إما أن يكون الموجود قديما أو حادثا.

ثم الحملية المحكوم به فيها يسمى مَحْمُولا، والمحكوم عليه يسمى مَوْضوعا، فإن كان جزئيا فهي شَخْصِية، نحو زيد قائم، وإن كان كليا وقُرِن بما يدل على تعميم الحكم في أفراده أو تبعيضها، فهي مسورة كلية أو جزئية موجبة أو سالبة نحو: كل إنسان حيوان، بعض الحيوان إنسان، لا شيء من الحيوان بحجر، بعض الحيوان ليس بإنسان. وإن لم يُقْرن فَمُهْمَلة، نحو: الإنسان عاقل، فإن أريد في الكلية جميع ما وجد وما قدر أن يوجد، سميت حقيقية، وإن أريد الموجود فقط سميت خارجية، وإن لم يصح وجود شيء منها فهي ذهنية.

---

1 – هي عند المناطقة: البرهان، والجدل، والخطابة، والشعر، والمغالطة.

2– الشرطية ما تتركب من قضيتين، وقيل: الشرطية هو الذي يتوقف عليه الشيء، و لم يدخل في ماهية الشيء، و لم يؤثر فيه، ويسمى الموقوف بالمشروط، والموقوف عليه بالشرط، كالوضوء للصلاة، فإن الوضوء شرط موقوف عليه للصلاة، وليس بداخل فيها ولا يؤثر فيها. التعريفات: 126.

ثم نسبتها الحكمية، إن أطلقت فهي مطلقة، وإن قيدت بكيف من وجوب أو إمكان، فهي موجهة وجهتها. إما ضرورة <و>[1] إما ذاتية، نحو: كل إنسان حيوان بالضرورة، وتسمى ضرورية مُطْلَقة. وإما مُعَلَّقة على خارج عن الذات، إما وصف، نحو كل كاتب متحرك الأصابع بالضرورة ما دام كاتبا، وتسمى المشروطة / العامة، وقد تقيد بأن لاَ دَوَام عند مفارقة الوصف، وتسمى المشروطة الخاصة، وإما وقت معين، نحو كل كاتب متحرك الأصابع بالضرورة وقت الكتابة، وتسمى وقتية مطلقة، وقد تقيد بـألاَّ دَوَام عند مفارقة الوقت، فتسمى وقتية، وإما وقت غير معين، بأن يقال في ذلك المثال مثلا وقتا ما، <أو وقتا ما لا>[2] دائما، وتسمى المنتشرة مطلقة أو غير مطلقة كما قبلها. وإما دوام، إما بحسب الذات، نحو كل إنسان حيوان دائما، وتسمى الدائمة، وإما مقيد بوصف، نحو كل كاتب متحرك الأصابع ما دام كاتبا، وتسمى العرفية العامة.

33

وقد تقيد بألاَّ دَوَام عند مفارقة الوصف وهي الخاصة، وإما إطلاق بمعنى وقوع النسبة بالفعل، نحو كل إنسان نائم بالفعل أو بالإطلاق، وتسمى مطلقة عامة، وقد ينفى عنه الدوام وهي الوجودية ألا دائمة ، أو تنفي الضرورية وهي الوجودية ألا ضرورة، أو يقيد بالحين، نحو كل إنسان مستغرق الحواس بالإطلاق حين النوم، وتسمى مطلقة حينية. وإما إمكان نحو كل إنسان ميت بالامكان العام، وتسمى الممكنة العامة، وقد يقيد الامكان بالوقت، وهي الممكنة الوقتية، أو بالحين وهي الممكنة الحِينيَّة، أو بالدوام وهي الممكنة الدائمة، أو بالخصوص وهو صحة الوجود والعدم، وهي الممكنة الخاصة، والمركبة منها وهي التي تعرضت للنسبة ولنقيضها، هي ما قيدت بنفي الدوام أو بنفي الضرورة أو خصوص الامكان، ومجموعها سبع، وما سواها بسيط ليس فيه[3] إلا حكم واحد.

1- سقطت من ح.

2- ساقط من ج.

3- ورد في ج: فيها.

والحَمْلية إما محصلة الطرفين، بأن يثبت الشيء للشيء أو يسلب عنه، نحو كل إنسان حيوان ولا شيء من الإنسان بحجر، أو معدولتهما[1]، بأن يثبت عدم الشيء لعدم الشيء، أو يسلب عنه، نحو ألاّ حيوان لا إنسان، أو معدولة الموضوع، نحو ألاّ حيوان جماد، أو معدولة المحمول، <نحو>[2] كل إنسان لا حجر، وهو المعتبر في الاصطلاح، فإن تقدم السلب على النسبة، نحو زيد ليس هو بقائم، فهي محصلة سالبة، وإن تأخر نحو زيد ليس هو بقائم، فهي معدولة موجبة.

ثم القضية السلبية تصدق عند عدم اتصاف الموضوع بالمحمول، نحو الحجر ليس بمتنفس، أو عند عدم الموضوع، نحو الشريك ليس بإله، لأنه إذا عدم لم يتصف، والموجبة لا تصدق إلا عند وجود الموضوع مع / اتصافه بالمحمول، نحو الإنسان حيوان، ولهذا نقول إن الموجبة تقتضي وجود الموضوع، والسالبة لا تقتضيه. 34

وأما الشَّرْطِية فإن كانت متصلة، بأن وقعت الصحبة بين طرفيها، سمي الطرف المعلق عليه فيها مقدما، وسمي الآخر تاليا، فإن كان الأول سببا في الثاني، نحو إن وقع المطر ظهر النبات، أو مسببا كعكسه، أو كانا مسببين عن سبب واحد، نحو إن غلا الماء فقد سخن، أو متضايفين، نحو إن كان زيد أبا لعمرو فعمرو ابنه، سميت لزومية للزوم الاتصال فيها، وإلا فهي اتفاقية ، نحو إن كان الإنسان ناطقا كان الحمار ناهقا.

وإن كانت منفصلة، بأن وقع التنافر بين طرفيها، فإما في الصدق والكذب معا، بأن كانا نقيضين أو ما في حكمهما، نحو دائما إما أن يكون الموجود قديما أو ليس قديما، أو إما أن يكون قديما أو حادثا، وهي الحقيقية المانعة الجَمْع والخُلُو. وأما في الصدق فقط بأن يكون كل منهما أَخَصُّ من نقيض الآخر، نحو إما أن يكون هذا الجِرْم أسود أو أبيض، وهي

1- ورد في ح: معدولهما.

2- سقطت من ج.

مانعة الجمع، أو في الكذب فقط، بأن يكون كل منهما أعم من نقيض الآخر، نحو إما أن يكون لا أسود أو لا أبيض، وهي مانعة الخلو.

وكل من المتصلة والمنفصلة تكون كلية، إذا اعتبر عموم الأوضاع فيها، نحو كلما كان هذا إنسانا كان حيوانا، ودائما إما أن يكون الموجود قديما أو حادثا، وليس البتة إذا كان الشيء إنسانا كان حجرا، وليس البتة إما أن يكون إنسانا، وإما أن يكون ناطقا.

وتكون جزئية إذا اعتبر بعضها، نحو قد يكون إذا كان الشيء حيوانا كان إنسانا، وقد لا يكون، <وقد يكون>[1]، إما أن يكون حيوانا، وإما أن يكون إنسانا، وقد لا يكون.

<وتكون مهملة، نحو إذا كان الشيء حيوانا كان إنسانا، وإما أن يكون حيوانا، وإما أن يكون إنسانا>[2].

وتكون مخصوصة عند اختصاص اللزوم، أو العناد بحالة معينة، أو زمان معين، وغير مخصوصة.

{مبحث نقيض القضية}

وأما نقيض القضية، فهو قضية أخرى، فإن كانت حملية فنقيضها حملية تخالفها، في كيفها وكمها وجهتها، وتوافقها فيما سوى ذلك، من الطرفين والنسبة وسائر الأحوال. فنقيض الشخصية شخصية، ونقيض الكلية موجبة وسالبة جزئية مخالفة في الكيف وبالعكس، ونقيض المهملة كالجزئية، لأنها في قوتها، ونقيض الضرورية ممكنة عامة، ونقيض المشروطة العامة ممكنة وقتية، ونقيض الوقتية ممكنة وقتية، ونقيض المنتشرة ممكنة دائمة، ونقيض / الدائمة مطلقة عامة، ونقيض العرفية العامة مطلقة حينية. 35

1- ساقط من ج.

2- ساقط من ج.

مثلا قولك كل إنسان حيوان بالضرورة، نقيضها بعض الإنسان ليس بحيوان بالامكان العام، وقولك كل كاتب متحرك الأصابع بالضرورة ما دام كاتبا، نقيضه ليس بعض الكاتب متحرك الأصابع بالامكان حين هو كاتب، وهكذا البواقي، فإن كانت مركبة فلابد في النقض أن يؤتى بجزئيها، وتركب منهما منفصلة مانعة خلو، مع تقييد موضوع الثانية من الطرفين بحكم المحمول من الأولى.

مثلا قولك كل إنسان نائم لا بالضرورة، نقيضه هكذا دائما، إما بعض الإنسان ليس بنائم دائما، وإما بعض الإنسان الذي هو نائم بالامكان العام، ونفي الدوام إطلاق عام، ونفي الضرورة إمكان عام، والامكان الخاص إمكانان عامان. وإن كانت شرطية فنقيضها شرطية أخرى، تخالفها في كيفها[1] وكمها، وتوافقها في جنسها من الاتصال والانفصال، وفي نوعها من اللزوم والعناد والاتفاق، وذلك ظاهر.

{مبحث العكس}

أما العكس، فإنما يكون في الحملية والمتصلة، وهو تبديل طرفها الأول بالثاني، والثاني بالأول، مع بقاء الصدق والكيف لزوما، ويسمى العكس المستوي، أو تبديل النقيض بالنقيض كذلك، ويسمى عكس النقيض الموافق، أو تبديل عين الأول بنقيض الثاني، مع بقاء الصدق دون الكيف لزوما، ويسمى عكس النقيض المخالف، فأما المستوي فتنعكس به الموجبات كلها، حملية أو شرطية متصلة إلى جزئية، تقول كل إنسان حيوان، فعكسه بعض الحيوان إنسان، وكلما كان هذا إنسانا كان حيوانا، فعكسه قد يكون إذا كان حيوانا كان إنسانا، وكذا البواقي.

والكلية السالبة تنعكس كنفسها، وكذا الشخصية السالبة، لأنها في قوتها، والجزئية السالبة لا عكس لها، إذ يصدق بعض الحيوان ليس بإنسان، ولا يصدق عكسه، وكذا المهملة السالبة، فإن كانت الحملية موجهة فالموجبة منها، إن كانت ممكنة عامة أو خاصة

1- ورد في ج: كيفيها.

تنعكس ممكنة عامة، وقيل لا عكس لها، وإن كانت غيرها انعكست مطلقة عامة، وفي انعكاس بعضها إلى أخص من ذلك نزاع لا نطيل به، وإن كانت سالبة <لم>[1] تنعكس، 36 إلا أن تكون إحدى الدوائم[2] الست وهي: / الضرورية، والمشروطة العامة، والخاصة، والدائمة، والعرفية العامة، والخاصة. وهذه الست إن كانت كلية أو جزئية خاصة، انعكست كنفسها، وإلا لم تنعكس أيضا. وأما عكس النقيض، فعلى العكس من المستوي في الجميع.

{مبحث الاستلزام}

وأما الاستلزامات، فالشرطية المتصلة اللزومية الكلية، إن تعدد تاليها تعددت به، تقول: كلما كان هذا إنسانا كان جسما <ناميا حساسا، فيصدق كل ما كان إنسانا كان جسما،>[3] كلما كان إنسانا كان ناميا وهكذا. والمنفصلة الحقيقية تستلزم متصلات أربعا، تتركب من عين أحد طرفيها ونقيض الآخر، وبالعكس فإذا صدق دائما، إما أن يكون الموجود قديما أو حادثا على العناد الحقيقي، صدق كلما كان قديما لم يكن حادثا وهكذا، ومانعة الجمع تستلزم مانعة الخلو، مركبة من نقيضي جزئيها وبالعكس.

{مبحث القياس بحسب الصورة}

وأما القياس بحسب صورته، فهو تصديقان يلزم عنهما لذاتهما تصديق ثالث، هو النتيجة، ويكون اقترانيا[4]، والنتيجة فيه مبثوثة غير مجتمعة بصورتها، واستثنائيا وهو بخلافه.

1- سقطت من ج.

2- ورد في ح: ألا دائم.

3- ساقط من ج.

4- هو القياس الحملي، وهو الذي يكون ما يلزمه ليس هو ولا نقيضه، مقولا فيه بالفعل بوجه ما، بل بالقوة، كقوله: كل جسم مؤلف، وكل مؤلف محدث، فكل جسم محدث. النجاة: 48.

فأما الأول فينقسم قسمين: أحدهما أن يتألف من حمليتين أو من متصلتين، ويشتمل على موضوع المطلوب، ويسمى الأصغر، والمقدمة التي هو فيها تسمى صُغْرى، وعلى محمول المطلوب ويسمى الأكبر، والمقدمة المحتوية عليه تسمى الكبرى، وعلى وسط يتكرر بينهما ليجمع بينهما، فإن كان محمولا في الصغرى موضوعا في الكُبْرى فهو الشكل الأول، وإن كان محمولا فيهما فهو الشكل الثاني، أو عكسه فهو الشكل الثالث، أو عكس الأول فهو الشكل الرابع.

ويشترط لإنتاج الأول بحسب الكيف إيجاب الصغرى، وبحسب الكم كلية الكبرى، فلا ينتج منه إلا أربعة أضرب، كليتان موجبتان، نحو كل إنسان حيوان، وكل حيوان جسم، فكل إنسان جسم، وكليتان والثانية سالبة، نحو كل إنسان حيوان ولا شيء من الحيوان حجر، فلا شيء من الإنسان حجر، وجزئية موجبة مع كلية موجبة، نحو بعض الحيوان إنسان، وكل إنسان كاتب بالقوة، فبعض الحيوان كاتب بالقوة، أو مع سالبة نحو بعض الحيوان إنسان، ولا شيء من الإنسان بفرس، فبعض الحيوان ليس بفرس. وبحسب الجهة أن تكون الصغرى فعلية، بأن تكون / ضرورية أو دائمة أو مطلقة، ولا تكون ممكنة. 37

ويشترط للثاني بحسب الكيف أن تكون إحدى المقدمتين موجبة، وبحسب الكم كلية الكبرى كالأول، والمنتج له أيضا أربعة: كلية موجبة مع كلية سالبة، نحو كل إنسان حيوان، ولا شيء من الحجر حيوان، فلا شيء من الإنسان حجر، وعكسه نحو لا شيء من الحيوان جماد، وكل حجر جماد، وجزئية موجبة مع كلية سالبة، نحو بعض الحيوان إنسان، ولا شيء من الحمار بإنسان، وجزئية سالبة مع كلية موجبة، نحو بعض الحيوان ليس بإنسان، وكل ناطق إنسان. وبحسب الجهة أن تكون الصغرى إحدى الدائمتين، أعني الضرورية المطلقة والدائمة المطلقة، وتكون الكبرى إحدى الست الدوائم، وأحدهما يكفي.

ويشترط للثالث[1]، أن تكون الصغرى موجبة كالأول، وأن تكونا كليتين أو إحداهما، والمنتج فيه ستة: كليتان موجبتان، نحو كل إنسان حيوان، وكل إنسان ناطق، فبعض الحيوان ناطق، وكلية موجبة مع كلية سالبة، نحو كل إنسان حيوان، ولا شيء من الإنسان بفرس، أو مع جزئية موجبة، نحو كل حيوان جسم، وبعض الحيوان فرس، أو سالبة نحو كل حيوان جسم وبعض الحيوان ليس بفرس، وجزئية موجبة مع كلية موجبة، نحو بعض الحيوان إنسان، وكل حيوان جسم، أو سالبة نحو بعض الحيوان إنسان، ولا شيء من الحيوان بحجر. وبحسب الجهة أن تكون صغراه فعلية كالأول.

ويشترط للرابع، بحسب الكيف والكم في المشهور، إن كانت صغراه جزئية موجبة، أن تكون كبراه كلية سالبة، وإلا بأن لا تجتمع فيه خستان وهما الجزء والسلب، والمنتج فيه خمسة أضرب: كلية موجبة مع مثلها، نحو كل إنسان حيوان، وكل ناطق إنسان، فبعض الحيوان ناطق، ومع سالبة نحو كل إنسان حيوان، ولا شيء من الفرس إنسان، ومع جزئية موجبة، نحو كل إنسان ناطق، وبعض الحيوان إنسان، وكلية سالبة مع كلية موجبة، نحو لا شيء من الإنسان بفرس، وكل ناطق إنسان، وجزئية موجبة مع كلية سالبة، نحو بعض الحيوان إنسان، ولا شيء من الحجر حيوان.

وبحسب الجهة، أن يكون من الفعليات فلا تنتج فيه ممكنة، وأن تكون السالبة المأخوذة مما ينعكس، وأن تكون في الضرب الثالث الصغرى / إحدى الدائمتين، أو الكبرى إحدى الست الدوائم. ومن يستنتج له ثمانية أضرب، كالكاتبي[2] يزيد في الشروط، أن تكون صغرى الضرب السادس والثامن إحدى الخاصتين، والكبرى إحدى

38

1- ورد في ح: للثالثة.

2- هو علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني نجم الدين (ت:675هـ)، حكيم منطقي. تتلمذ لنصير الدين الطوسي. من تصانيفه: "الشمسية"، و"رسالة في قواعد المنطق"، و"المفصل شرح المحصل لفخر الدين الرازي" في علم الكلام، و"جامع الدقائق في كشف الحقائق" في المنطق. فوات الوفيات/2: 66.

الدوائم الست، وأن تكون كبرى السابع، إحدى الخاصتين، مع كون الصغرى فعلية <كما مر>[1].

الثاني أن يكون من حملية وشرطية، وهو ذو الجزء غير التام، وذلك أن الوسط يكون تاما في الحملية محمولا أو موضوعا، وجزءا من المقدم، أو التالي في الشرطية فلا يكون تاما في الطرفين، نحو كل إنسان حيوان، وكلما كان الشيء حيوانا كان جسما، فكل إنسان جسم، وكلما كان الشيء إنسانا كان حيوانا، وكل حيوان جسم. وله أقسام وشرائط لا نطيل بها، فإن تركب من منفصلتين، أو متصلة ومنفصلة[2] فليس بمطبوع لا نتيجة له من ذاته، إلا أن تعتبر لوازم الشرطيات حمليات، ويؤلف منها قياس على شكل منتج، فيكون ذلك نتيجته، لأن لازم اللازم لازم.

{القياس الاستثنائي}

وأما القسم الثاني وهو الاستثنائي[3]، فإنه يتألف أبدا من شرطية مع حملية، هي استثناء أحد طرفيها أو نقيضه، لينتج عين الآخر أو نقيضه، فإن كانت الشرطية فيه متصلة، فلابد أن تكون[4] كلية موجبة لزومية، واستثناء عين مقدمها ينتج عين التالي، واستثناء نقيض التالي ينتج نقيض المقدم، تقول كلما كان هذا إنسانا كان حيوانا، لكنه إنسان فهو حيوان، أو لكنه ليس بحيوان فليس بإنسان، وإن كانت منفصلة حقيقية فاستثناء عين أحد طرفيها ينتج نقيض الآخر، ونقيض أحدهما ينتج عين الآخر، وإن كانت

1- ساقط من ج.

2- ورد في ح: منفصلة ومتصلة.

3 -وهو القياس المؤلف من مقدمتين: إحداهما شرطية، والأخرى وضع أو رفع لأحد جزئيها مثل قولنا: إن كان زيد يمشي فهو يحرك قدميه، لكنه يمشي، فهو يحرك إذن قدميه، أو لكنه ليس يحرك رجليه، فينتج أنه لا يمشي، وسمي بذلك لاشتماله على الإستثناء. المعجم الفلسفي/2: 207.

4- ورد في ح: يكون.

مانعة جمع، فاستثناء عين أحد طرفيها ينتج نقيض الآخر، وإن كانت مانعة خلو فبالعكس.

{أقسام القياس بحسب المادة}

وأما القياس بحسب المادة فخمسة أقسام، لأنه إن تألف من اليقينيات، وهي الضروريات السابقة، أو ما انتهى إليها، فبرهان، ويستعمل حيث يراد القطع. وإن كان من مظنونات لإلزام الخصم، أو إقناع القاصر، فجدل. وإن كان منها للتنبيه على المصالح والمضار، ونحو ذلك، فخطابة، أو للتخييل والتزيين، وتحريك النفوس، فشعر. وإن كانت من الوهمية الكاذبة لمغالطة أهل العقول، وإيهام العلم، ونحو ذلك، فمشاغبة، ويقال المغالطة والسفسطة.

وهذه الأقسام كما ترى كثيرا ما تتمايز بالحيثية، مع الاشتراك في المادة والاعتناء بها مهم، لأن اكتساب العلم من صورة / القياس، إنما يكون بصدق المادة. 39

وهذا آخر العلوم الفلسفية، وقد تواطأ على بعضها الملة والفلسفة، كالعلم الإلهي على ما يجيء، والطب والعبارة والتوقيت، فهي موجودة في لسان الشرع، وأدخل منها في الملة ما عمت منفعته وعظمت فائدته، مع هذه المذكورة كالمنطق والحساب، وما يحتاج إليه من علم الهيئة ومن علم الهندسة، كالتكسير، وكثير منها متروك إلا في الخصوص، لعدم الحاجة إليه، أو لقصور الهمم[1] عنه، وجملة منها دنيوية بقيت في أيدي العامة، من الفلاحين والبنّائين، ورؤساء البحر، وأهل السحر، وخطاط الرمل، ونحو هؤلاء.

1– ورد د و ج: العلم.

{موقف اليوسي من العلوم الفلسفية}

ولا بأس بجميعها، فنحن لا نلتفت إلى من يحرم علم شيء منها، فإن العلم في نفسه هو غذاء العقل، ونزهة الروح، وصفة الكمال، وإنما تختلف ثمراته في الشرف، بحسب الموضوع والغاية، وتختلف الأحكام بحسب النية.

حتى إن علم السحر الذي يحرم استعماله بإجماع، لو تعلمه أحد ليوذي به مَعْصُوم الدَّم، كان تعَلُّمه حراما، كَعِلْمه، ولو تعلمه لمجرد أن يعرفه، فيميز بينه وبين المعجزة مع ما تقدم من الفوائد، كان تعلمه جائزا أو واجبا كما مر. وعلم الأدب الذي هو جائز بإجماع، لو تعلمه أحد لقصد أن ينبغ في الشعر، فيهجو من لا يجوز هجوه، أو يمدح من لا يجوز مدحه، كان تعلمه حراما في حقه، و(إِنَّمَا الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ)[1]، والمردود منها إنما هو جمل من العلم الإلـهيّ، أو من علم الطب، أو من علم الهيئة ونحوها، سننبه عليها، والله الموفق.

فصل: {العلوم الإسلامية ومنها أربعة عشر علما}

وأما العلوم الإسلامية فمنها المقصود لذاته، وهو أصول الدين وفروعه، وهي: الفقه، ومنه علم المواريث، والتصوف. ومنه الوسيلة: كعلم التفسير، وعلم الحديث، وكعلم الحساب وعلم التوقيت من علوم الأوائل. ومنه وسيلة الوسيلة، كعلم القراءات، وعلم الرسم، وعلم العربية بأنواعه، وعلم المنطق ونحوه، وهي كلها على العموم إسلامية، بمعنى أنها تتعاطى في ملة الإسلام، أو أنها يُنْتَفع بها في دين الإسلام، إما مباشرة أو بواسطة، وهي أيضا شرعية كذلك، والمشهور إطلاق الشرعية على المقصود[2] لذاته وما قرب منه.

1- أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. وفي كتاب الإيمان، باب ما جاء إن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوى.

2- ورد في ج: المقصد.

والمهم منها ستة: علم أصول الدين، وعلـم الفقـه، وعلـم التصـوف، وعلـم التفسـير، وعلم الحديث، وعلم أصول الفقه. والمستعان به غير ذلك، والمهم منه في الجملة ثمانية: علم 40 اللغة، وعلم / الإعراب، وعلم التصريف، وعلم المعاني، وعلـم البيـان، وعلـم الطـب، وعلـم الحساب، وعلم المنطق. فهذه أربعة عشر علما نشير إلى جمل منها باختصـار خصوصـا، ثـم نلم بإحصاء ما بقي من العلوم عموما، والله المستعان.

علم أصول الدين {وحده}

سمي به لإنبناء الدين عليه، فإن التعبد فرع وجـود الإيمـان، حتـى إن مضمونـه مـن معرفة الله تعالى، هو المقصود بالذات على التحقيق، ويسـمى علـم التوحيـد، لأنـه مقصـوده الأعظم، كما قيل: (الحَجُّ عَرَفَات)[1]، وعلم الكلام لكثرته فيه، أو لأنه هو الكلام، أو لوقـوع الخوض في مسألة الكلام، ويسمى الإلهـي لما مر.

{أنواع أصول الدين عند الأقدمين}

وجعله الأقدمـون خمسـة أنـواع. الأول: الأمـور العامـة[2]: كـالوحدة والكـثرة والعلـة والتقدم والوجود ونحو ذلك. الثاني: مبادئ الموجودات[3]. الثـالث: إثبـات الصـانع[4]، ومـا يصح له وما يمتنع عليه. الرابع: تقسيم المجردات. الخامس: أحوال النفس بعد المفارقـة[5]،

1- تضمين لحديث أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة.

2- لمزيد التفصيل راجع المواقف في علم الكلام: 41-95. وشرح المقاصد/1: 293 وما بعدها.

3- راجع شرح المقاصد/2: 75 وما بعدها.

4- لمزيد التوسع راجع الإرشاد: 28 وما بعدها، والمواقف: 266، وشرح المقاصد/4: 27 ومـا بعدهـا. وفي حاشية اليوسي على شرح الكبرى، مخطوط الخزانة الملكية. ص: 82.

5- وهو المصطلح على تسميته بالمعاد، أو ما يسمى بأحكام الآخرة، راجع الإرشاد:375 ومـا بعدهـا، والمواقف: 371-384، وشرح المقاصد/5: 82-171. وحاشية اليوسي على الكبرى.

وزاد أهل الإسلام نوعا سادسا: وهو النبـوات[1]. وسـابعا: هـو السـمعيات[2]. وزادت المعتزلـة مبحث العدل[3]، وهو المعروف عند الأشاعرة بالأفعال، وهو الجبر والقدر. وزادت الإمامية من الشيعة مبحث الإمامة[4]، فتبعتهم السنية. ثم توسعوا أحيانا فضموا إليه التصوف، ومبـاحث الآجال والأرزاق[5].

ثم إن القسم الأول أثبتـه المتكلمـون للانتفـاع والاتسـاع، ونبهـوا فيـه علـى الصحيـح والباطل. وأما القسم الثاني فلا حاصل له عندنا، إذ العالم كله حادث بخلق ا لله تعالى أصلا وفرعا، ولا هيولا ولا قدماء ولا علة ولا معلـول. وأمـا الثـالث فهـو المقصـود، وأثبتـوه علـى الوجه الصحيح، من كونه تعالى واجب الوجود، متنزها عن مشابهة خلقه، فاعلا مختارا إلى غير ذلك، لا على ما يعتقده الفلسفيون أبعدهم ا لله.

وأما الرابع فلا حاصل له أيضا عند الجمهـور، إذ المجـرد إن أريـد بـه الزائـد علـى الجوهر والعرض، فلا يثبته الجمهور من المتكلمين، وعلى ثبوته فهو حادث مخلوق مثلهما، وإن أريد به العقول العشرة التي يذكرون، فهي باطلة ما خلا الأول، وهـو الواجـب الحـق، ولا نسميه عقلا، لأن أسماءه تعالى توقيفية[6].

1- راجعهـا مفصلـة بالإرشـاد: 302 ومـا يليهـا، والمواقـف: 337-370. وشـرح المقـاصد/5: 5-79. وحاشية اليوسي على شرح الكبرى: 383 وما بعدها.

2- راجعها في الإرشاد: 358 وما بعدها. والمواقف: 337-430. وشرح المقاصد/5: 5-290.

3- العدل على مذهب أهل الإعتزال: ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهـو إصـدار الفعـل علـى وجـه الصواب والمصلحة. راجعه في إرشاد الجويني: 257. وحاشية اليوسي على شرح الكبرى: 372.

4- للتوسع راجعها في الفصل في الملل والأهواء والنحل/5: 5-13. والمواقف: 395-414.

5- انظر الإرشاد: 364 وما بعدها. وشرح المقاصد/4: 318 وما بعدها.

6- أي موقوفة على ما ورد به الشرع الحكيم.

وأما الخامس فهو داخل في مبحث السمعيات، والمعاد عندنا جسماني فقط، أو جسماني روحاني، على الخلاف في بقاء الروح، لا روحاني فقط، كما يقولون أبعدهم ا لله. وقد أدرج المتأخرون[1] فيه كثيرا من الرياضيات والطبيعيات.

{تعريف اليوسي الخاص لعلم الكلام}

41 فالحاصل من علم الكلام عندنا اليوم، / أنه «العلم الباحث عن الكائنات، من حيث إثبات موجدها وصفاته وأفعاله، وخطابه لخلقه، وأحوال الخطاب، وما يتوقف عليه شيء من ذلك خاصا به»[2]. فأدخلنا في الحد موضوع العلم، لأن ذلك سنة الحد، خلاف ما فعلوا[3] في تعاريفهم، ودخل في أحوال الخطاب النبوات والسمعيات، ولا حاجة إلى زيادة تقرير الأدلة الواقع في تعريف ابن عرفة[4]، لأن العلم هو ذاك، ولا حاجة عندي لزيادة كون

1- منهم عضد الدين الإيجي في كتابه المواقف في علم الكلام، وتلميذه الشهير بسعد الدين التفتازاني في كتابه المقاصد وشرحه. وغرهما.

2- هذا التعريف الذي أعطاه اليوسي لعلم أصول الدين، بقدر ما يستجيب لتطور هذا العلم على زمنه وانطباقه عليه، بقدر ما يترجم بصدق أصالة تفكيره، وتجديده لعلوم الدين، وذلك بالإقتصار على ما هو ضروري منه، والإستغناء عما لا حاجة إليه، وانتقاد التعريف الذي أعطاه إياه الإمام ابن عرفة، وهو أمر يفيد التوجه السلفي لليوسي في هذا العلم، حين عرفه في موضع آخر من كتابه القانون هذا، كما سيرد لاحقا بتعريف آخر أقرب إلى هذا المذهب.

3- ورد في ج: فعلوه.

4- هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي (716-803هـ)، إمام تونس وعالمها وخطيبها ومفتيها، من تصانيفه: "المبسوط" في الفقه، "الحدود" في التعريفات الفقهية. شجرة النور الزكية: 227.

البحث جاريا على القوانين الشرعية، لأن المراد شمول الفن لكلام الموافق والمخالف، ولذلك دخل كلام أهل الأهواء[1] من المليين في حده، ولا يمنع ذلك كونه علما شرعيا، بل هو خيار العلوم الشرعية، ورأسها وأصلها وأساسها. وقد أدرج فيه المتأخرون جملا من الرياضيات والطبيعيات، ومباحث كثيرة فلسفيات، للاتساع والانتفاع كما مر، فاشتمل على أقسام.

القسم الأول المبادئ وهي على قسمين:

الأول المبادئ العامة: التي تذكر بين يدي كل فن، وهي عشرة: اسمه ورسمه، وموضوعه وفائدته، ورتبته وحكمه، وواضعه ونسبته، ومسائله واستمداده. وقد يطلق عليها أو على بعضها أنه يتوقف الشروع عليه، وليس على ظاهره، إذ لا خفاء أن إدراك العلم وفهم مسائله، لا يتوقف على شيء منها. نعم يحصل بها مَزِيد تبصرة ومَزِيد رغبة، ومنها ما يتوقف عليه أمر ما كالست الأول.

فأما اسم هذا العلم وحَدُّه، فقد مر. وأما موضوعه، فماهيات المكنات، من حيث دلالتها على وجود موجدها وصفاته وأفعاله، وعليه جرى الحد السابق، وقيل المعلوم من حيث هو، وقيل الموجود، وقيل ذات الله تعالى.

وأما فائدته، وهي الغرض والغاية، وإنما تختلف الأسامي بالاعتبار، فما حصل عن الشيء من حيث حصوله عنده فائدة وثمرة، ومن حيث كونه مطلوبا منه غرض وباعث وعلة، ومن حيث الانتهاء إليه غاية وعلة غائية، فهي في الدنيا حصول اليقين، والارتفاع عن حضيض التقليد، وإرشاد المسترشد، وإفحام المعاند، وحفظ قواعد الدين عن شبه المبطلين، وصحة النية والاخلاص، وغير ذلك. وفي الاخرة الفوز بالسعادة، وناهيك بهذا كله.

1- أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم معتقد أهل السنة، وهم الجبرية، والقدرية، والروافض، والخوارج، والمعطلة، والمشبهة، وكل منهم إثنا عشر فرقة، فصاروا اثنين وسبعين. التعريفات: 40.

وأما رتبته، أي منزلته من الشرف وهي الفضل، فتابعة لشرف الغاية مع الموضوع والمعلوم والدليل، ولا شك أن غاية هذا العلم أشرف الغايات، وموضوعه أعلى الموضوعات، ومعلومه / أجل المعلومات، وأدلته براهين تطابق عليها[1] العقل والنقل، فهذا غاية الشرف والفضل، فتبين أنه أشرف العلوم. 42

وأما حكمه، ففرض كفاية، واختلف في الدليل الجملي، هل يجب على الأعيان أم لا؟ وعلى وجوبه فهل شرط في الإيمان؟ فيكون الخالي عنه وهو المقلد كافرا أم لا؟، فيكون عاصيا أقوال، والأظهر الثاني، إلا من عرضت له شبهة، فلابد من طلب التقصي عنها، وإلا من كانت فيه قابلية، فينبغي له أن يتبصر، والاعتماد على ا لله تعالى في الفتح والثبات.

وأما واضعه، فقيل هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ولا شك أنه هو الذي دون هذا العلم، وهذب مطالبه، ونقح مشاربه، فهو إمام أهل السنة غير مدافع، ولكن عده واضعا غير بين، فإن هذا العلم كان قبله، وكانت له علماء يخوضون فيه، كالقلانسي، وعبد ا لله بن كلاب[2]، وكانوا قبل الشيخ يسمون بالمثبتة، لإثباتهم ما نفته المعتزلة، وأيضا علم الكلام كما مر صادق بقول الموافق والمخالف، والشيخ كان يدرس على أبي علي الجبائي[3]، وقصته معلومة، فكيف يكون واضعا؟.

والأولى أنه علم قرآني، لأنه مبسوط في كلام ا لله تعالى، بذكر العقائد، وذكر النبوءات، وذكر السمعيات، وذلك مجموعه، مع ذكر ما يتوقف عليه وجود الصانع تعالى من حدوث العالم، المشار إليه بخلق السماوات والأرض والنفوس وغيرها، والإشارة إلى

1- ورد في ج ود: عليه.

2- هو عبد ا لله بن كلاب القطان (...)، له من الكتب: كتاب الصفات، كتاب خلق الأفعال، كتاب الرد على المعتزلة. ابن النديم: 255.

3- محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي (235-303هـ)، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، وإليه تنسب الطائفة " الجبائية"، له "تفسير" حافل مطول. الأعلام/6: 256.

مذاهب المبطلين، كالمثلثة، والمثنية[1]، والطبائعيين، وإنكار ذلك عليهم، والجواب عن شبه المبطلين المنكرين لشيء من ذلك، إمكانا[2] أو وجودا، كقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾[5] وذكر حجج إبراهيم وغيره من الأنبياء إقرارا لها، وحكم لقمان وغير ذلك مما يطول، وتكلم فيه النبي ﷺ كإبطاله اعتقاد الأعراب في الأنواء، وفي العدوى[6] وغير ذلك، وهلم جرا.

وهذا إذا اعتبر الكلام معزولا عن العلم الإلهي، وأما إن اعتبر الإلهي، وأنه المأخوذ في الملة بعد تنقيحه، بإبطال الباطل، وتصحيح الصحيح، فلا إشكال أن وضعه قديم.

وأما نسبته من العلوم، فلا شك أن نسبة كل علم تابعة لموضوعه إن عاما وإن خاصا. وموضوع هذا العلم أعم الموضوعات، ما خلا موضوع علم المنطق فهو أعم، إذ يبحث فيه عن أعم مما يبحث عنه فيها، وأما بحسب التوقف / فالعلوم الدينية كلها أعني: الفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والسيرة، موقوفة عليه وجودا وعملا، إذ لا يصح ثبوت علم شرعي قبل ثبوت الشرع، الموقوف على صدق الرسول ﷺ، الموقوف على ثبوت

43

1– الذين أثبتوا وجود إلهين، حتى أثبتوا أصلين اثنين، مدبرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، يسمون أحدهما النور، والآخر الظلمة، وبالفارسية: يزدان وأهرمن. الملل والنحل: 220.

2– ورد في ج: مكانا.

3– الأنبياء: 104.

4– يس: 79.

5– يس: 80.

6– إشارة إلى قوله ﷺ: (لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ). صحيح البخاري: كتاب الطب. باب الجذام.

المعجزة، الموقوف على وجود إله فاعل مختار، الموقوف عادة على النظر في علم الكلام، فهو كلي للعلوم الشرعية، وهو مبناها.

وأما علم اللغة وعلوم العقل، فيمكن إدراكها بلا هو، ولكن أخذها تعبدا بها، وتوصلا إلى تحقيق العلوم الشرعية موقوف عليه، فالعلوم كلها موقوفة عليه وقفا ما.

وأما مسائله، فهي القضايا النظرية[1] المبحوث عنها فيه، إما من مقاصده وهو الأصل، ككون الله تعالى واحدا، أو ككون المعاد حقا، أو من الوسائل، ككون المعدوم ليس بشيء، وكون العالم حادثا، وقد يذكر البديهي في الفن، إما لاحتياجه إلى مزيد بيان، أو لبيان كميته، فيكون غير بديهي، وقد تكون بعض المسائل مبادئ لمسائل أخرى كما أشرنا، فليس لهذا العلم مبادئ تبين في غيره، لأنه أعم العلوم وأعلاها، فهو مستقل بنفسه، وهذا على أن المحتاج إليه من المباحث المنطقية مدرج في علم الكلام.

وأما استمداداته، فهي الأحكام العقلية، أعني تصور الوجوب والاستحالة والجواز، لوقوعها محمولات في مسائله إثباتا وسلبا.

القسم الثاني: ما اعتبر في هذا العلم خاصة وفيه مباحث:

الأول: في العلم والنظر وأحكامهما، وقد ذكرناه قبل.

الثاني: في الأمور العامة، أي ما يعم الموجودات الثلاثة، أعني الواجب والجوهر والعرض، كالوجود والماهية والوحدة[2] والامكان العام[3]، أو يخص الجوهر والعرض،

1- القضية النظرية، هي التي يسأل عنها، ويطلب بالدليل إثباتها في العلم، وهي مقابلة للقضية الأولية، وهي من حيث أنها يسأل عنها مسألة، ومن حيث أنها يطلب حصولها مطلب، ومن حيث أنها تستخرج من البراهين نتيجة، ومن حيث أنها يبنى عليها الشيء أصل. المعجم الفلسفي/2: 197.

2- ضد الكثرة، لأنها كون الشيء بحيث لا ينقسم. المعجم الفلسفي/2: 567.

3- هو سلب الضرورة عن أحد الطرفين. المعجم الفلسفي/1: 136.

كالامكان الخاص[1]، والحدوث والوجوب بالغير، والكثرة والمعلولية[2]، ونحو ذلك.

الثالث: في الأعراض، وتقسيمها إلى تسعة وهي: الكم، والكيف، والأين، والمتى، والفعل، والانفعال، والملك، والوضع، والاضافة. ويقال لها النسبة المتكررة، وهي كلها نسبيات، ما خلا الأولين، وهي بمجموعها مع الجوهر، هي المقولات العشر[3]، وهي الأجناس العالية للممكنات، والحصر فيها استقرائي.

واعلم أن العرض عند المتكلمين، هو الوصف الوجودي، فما وقع في القسم الذي قبل هذا أمور عدمية أو اعتبارية، فلا تدخل في الأعراض، وكذا النسبات المذكورة في هذا، إنما هي على مذهب الفلاسفة من أنها وجودية.

الرابع: في الجواهر، وتقسيمها إلى بسيط ومركب، والبسيط إلى الفلكي والعنصري، والمركب إلى ذي المزاج وغيره، وما يتعلق بذلك[4].

{حقيقة الجوهر}

44 / واعلم أن الجوهر عند المتكلمين، هو المتحيز، ويقال له الجِرْم، فإن قبل الانقسام بأن اشتمل على جوهرين فأكثر، فهو الجسم، وإلا فهو الجَوْهَر الفَرْد، ولا نشترط في الجسم أن يقبل الأبعاد الثلاثة، وقال المعتزلة: الجسم هو «الطويل العريض العميق»، ولم يحتاجوا إلى ذكر الجوهر، لإخراج الجسمي التعليمي، فإنه أيضا كم له الأبعاد الثلاثة، إذ

1- هو سلب الضرورة عن الطرفين معا. المعجم الفلسفي/1: 136.

2- ورد في ح: المعلومية.

3- المقولة هي المحمول، ووجه إطلاقها على المحمول، كون المحمول في القضية مقولا على الموضوع، وجمعها مقولات: وهي الأجناس العالية، التي تحيط بجميع الموجودات. المعجم الفلسفي/2: 410.

4- ورد في ج: من ذلك.

لا يثبتونه، فلم يكتفوا بالجوهرين في تركبه، بل منهم من يقول بلا تناهيها، كالنَظّام[1] إذ لا يثبت الجوهر الفرد، وعند الجبائي أقله ثمانية جواهر،<وقيل ستة، وقيل أربعة، ومثل هذا للفلاسفة، وزاد أرسطو وأتباعه قيد الجوهر، للاحتراز كما مر، فقالوا: الجوهر القابل للأبعاد الثلاثة>[2].

وذهب المشاءون[3] منهم، إلى أن الجوهر خمسة أقسام: لأنه إما جسم، وإما هيولا، وإما صورة، وإما نفس، وإما عقل. لأن الجوهر إن كان حالا في جوهر آخر فهو الصورة، كالتاليف في السرير، وإن كان محلا فهو الهيولا، كالخشب والمسمار فيه، وإن كان مجموع الحال والمحل فهو الجسم، كذات السرير، وإن كان مباينا، فإن تعلق بالجسم تعلق التدبير والتصريف، فهو النفس، وإلا فالعقل.

وعندنا العقل لا ثبوت له، والنفس غير مفارقة، والصورة غير جوهر، فالجوهر هو المتحيز كائنا ما كان.

القسم الثاني في الإلهيات

وهي المقصودة بالذات في هذا العلم، مع ما بعدها من النبوءات، وأخبار المعاد، ويشتمل هذا القسم على مباحث:

الأول: في إثبات الواجب الحق تعالى وتقدس

وذلك بالنظر في طريقه، وهو عند المتكلمين حدوث العالم، فيقال العالم كله، وهو الموجود سوى الله تعالى، من أجناس الكائنات، إما جَوْهَر وإما[4] عَرَض، وكل جرم حادث،

1- هو إبراهيم بن يسار البصري النظام (.../245هـ)، من أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة، سميت بالنظامية، نسبة إليه. الأعلام/1: 43.

2- ساقط من ج.

3- المشائي هو الأرسطي، لأن أرسطو كان يعلم تلاميذه ماشيا. المعجم الفلسفي/2: 373.

4- ورد في ح: أو.

وكل عرض حادث، فالعالم حادث، وبيان الأولى[1] أن الموجود من العالم، إما متحيز وهو الجرم، أو قائم بمتحيز وهو العرض، والحصر[2] استقرائي، فمن ادعى زائدا فعليه الدليل، وعلى ثبوته فيكون حادثا بدليل السمع، إذ لا يتوقف عليه ثبوت الشرع، وبيان الثانية[3] أن العرض متغير وجودا وعدما فهو حادث، والجوهر ملازم للأعراض الحادثة، وملازم الحادث حادث، ثم يقال وكل حادث لابد له من محدث، إذ لا يصح إحداثه نفسه، ولا حدوثه لنفسه، والأرجح وجوده بلا مرجح.

المبحث الثاني: في تنزيهه

فيعلم أن مُحْدِث العالم ليس من جنس العالم ولا شبيها به، وإلا وجب له [ما وجب له][4] من الاحتياج إلى محدث، ويتسلسل الأمر، فاستحال عليه أن / يسبقه عدم أو يلحقه، أو يكون متحيزا أو قائما بمتحيز، أو متقيدا بزمان أو مكان، أو مفتقرا بوجه من الوجوه، وأن يكون له شريك في الملك، وإلا تمانعا فتعطل الصُّنْع. 45

المبحث الثالث: في صفته العلية

والمتفق عليه منها سبع: القدرة وتتعلق بكل ممكن، على وجه الإيجاد بها صلاحا في الأزل، وتنجيزا فيما لا يزال. والإرادة وتتعلق بذلك أيضا، على وجه التخصيص بها، تنجيزا فيما يقع، وصلاحا فيما يقابله. والعلم ويتعلق بكل واجب وجائز ومستحيل، على وجه الانكشاف إجمالا وتفصيلا تعلقا أزليا. والحياة ولا تتعلق بشيء، ووجودها شرط في

---

1 – أي المقدمة الأولى.

2– يكون الحصر على ثلاثة أقسام: حصر عقلي، كالعدد للزوجية والفردية. وحصر وقوعي، كحصر الكلمة في ثلاثة أقسام. وحصر جعلي، كحصر الرسالة في مقدمة وثلاث مقالات وخاتمة. التعريفات: 88.

3– أي المقدمة الثانية.

4– ساقط من د وج.

وجود هذه الصفات. والسمع والبصر ويتعلقان بكل موجود، على وجه الانكشاف أزلا. والكلام ويتعلق بكل معلوم على وجه الدلالة، ويتنوع بالاعتبار، فمتى تعلق بوقوع النسبة أو لا وقوعها فهو خبر، أو بطلب الفعل فهو أمر، أو بطلب الترك فهو نهي، وهكذا، والتعلق الخبري منه تنجيزي أزلي، والانشائي كالقدرة.

وهذه الصفات يجب لها القدم والبقاء، كالذات العلية، لاستحالة كون الذات العلية محلا للحوادث، وكذا الوحدة، ودليل وجود الأربع الأول، شواهد الآثار، فإن الفاعل تعالى لم يوجد هذه الكائنات بطريق التعليل ولا الطبع، وإلا كانت قديمة بقدمه، ولم يظهر فيها تغير ولا اختصاص، بل بالاختيار، ويشهد له اختصاص المِثْل عن المثل، ولا يكون ذلك إلا بقدرة وإرادة وعلم، ووجودها مشروط بالحياة[1].

فهذه الأربع مصححات الفعل، فدليلها العقل، ودليل البواقي العقل أيضا، فإنها كمال وضدها نقصان، بضرورات[2] العقول والسمع، فإنها وردت في الكتاب والسنة، وانعقد إجماع أهل الحق عليها، والشرع لا يتوقف عليها. ودليل زيادتها على الذات القياس على الشاهد، فإن حقيقة العَالِم منا من له علم، والباري تعالى عالم وفاقا فله علم.

ومذهب الشيخ أن لا حال، أي لا واسطة بين الوجود والعدم، فليس إلا الذات العلية، والعلم مثلا القائم بها، وأما كونه عالما مثلا فأمر اعتباري، وهو عبارة عن قيام العلم مثلا به تعالى، لا صفة ثابتة، والعالم والقادر ونحوهما، أسماء له تعالى مشتقات من صفاته.

المبحث الرابع: في الجبر والقدر

إذا علم أن ا لله تعالى واحد في ملكه، فلا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله، لاقتضاء اجتماع قدرتين وإرادتين / في الجميع التَّمَانُع، المقتضي انتفاء الحوادث، فبطل 46

1- ورد في ح: الحياة.

2- ورد في ح: بضروريات.

كل شرك مع الله تعالى، كشرك الثنوية القائلين بإلهين، وشرك النصارى القائلين بثلاثة، وشرك القدرية القائلين بتأثير الحيوان في أفعاله مباشرة أو تولدا.

ومذهب أهل الحق أن التأثير كله لله تعالى، غير أن بعض الأفعال تخلق معه قدرة لا تأثير لها فيه، ولكن تكون معها سهولته بإذن الله تعالى، حتى يكون ظاهرا في صورة مختار، وإن كان في الباطن لا اختيار له، ويسمى ذلك كَسْبا، وعليه ورد تكليف الإنسان، وما لم تخلق معه تلك القدرة يكون اضطراريا، كحركة الساقط في الهواء، ولا تكليف معه فضلا من الله تعالى.

والعبد عندنا ليس مخترعا لفعله، كما تقول القدرية مجوس هذه الأمة[1]، وليس مجبورا محضا كما تقول الجبرية[2]، بل هو مجبور باطنا مختار ظاهرا، فباطنه مقتضى الحكمة، وظاهره مقتضى الشريعة، ومن عموم اقتداره تعالى حيث وجب عموم التعلق، واستحال التخصيص بلا مخصص، بطل ما بقي من الشرك، كشرك الوثنيين والفلكيين والطبائعيين وغيرهم، من كل من يسند شيئا من التأثير لغير الله تعالى، وكل ذلك كفر فيمن يعتقده، ما خلا شرك القدرية، فالأئمة فيه اختلاف.

المبحث الخامس: فيما يستحيل في حقه تعالى

وذلك كل ما ينافي ما ثبت له من الكمال، فالكمالات كلها واجبة، والنقائص كلها مستحيلة، لأن ثبوت الكمال يستلزم انتفاء ضده أو نقيضه بالضرورة.

1- الحديث بلفظه عند أبي داود في سننه. كتاب السنة. باب في القدر.

2- الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة، وهي التي لا تثبت للعبد فعلا، ولا قدرة على الفعل أصلا. فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل، وسمى ذلك كسبا فليس بجبري، منهم الجهمية. الملل والنحل: 85-86.

المبحث السادس: فيما يجوز في حقه تعالى

وهو التصرف في العالم بالإيجاد والاعدام، والامداد والاغناء والافقار، والاعزاز والاذلال، والتقريب والابعاد، والاشقاء والاسعاد، لأن الكل ملكه، وهو فعال ما يشاء، لا يجب عليه شيء منه ولا يمتنع، إلا ما اختار ا الله تعالى أن يقع.

فمما يجب الإيمان بوقوعه، رُؤْية المولى سبحانه في الدار الآخرة، من غير جهة ولا مقابلة، بل كما يليق بحاله سبحانه، لورود ذلك في الكتاب والسنة، ومن ذلك وجود الثواب والعقاب على الأعمال في الآخرة، كما وقع الوعد به، ومن ذلك بَعْث الرسل إلى العباد، ليبلغوهم أمره، ويعلموهم بحقه، وما يريد أن يفعله بخلقه، فإن العقول قاصرة عن تحقق ذلك.

القسم الثالث في النبوءات

والنبوءة وصف عارض على العبد، وهو اختصاص المولى سبحانه من شاء من عباده 47 بسماع / وحيه، بواسطة مَلَكٍ أو دونه، والرسول نبي أمر بالتبليغ، وشاهد الرسالة والمعجزة، وهي أمر خارق للعادة مقرون بالدعوى لا تمكن معارضته، كفلق البحر وكلام الحجر والشجر وشق القمر، ويجب الإيمان بالأنبياء كلهم، وأنهم معصومون صادقون مبلغون حيث أمروا بالتبليغ، ويجب لنبينا محمد ﷺ زيادة على الإيمان به العمل بشرعه، واتباع سنته في كل ما أخبر به عن ا الله تعالى، وما أمر به وما عمل به، إلا ما اخْتُصَّ به.

القسم الرابع في السمعيات

وهي ما أخبر به الشارع، من ذلك الأحكام الشرعية والمعاد، وهو بعث الأجساد بعد الموت، إما إيجادا لها بعد الاعدام، أو جمعا لها بعد التفرق، ورد الأرواح إليها بعد المفارقة، بناء على بقاء الأرواح، أو إيجاد الكل بناء على فنائها. فالمعاد على الأول جسماني فقط، وعلى الثاني جسماني روحاني، وأما على أنه روحاني فقط فهو باطل بقواطع السمع.

ومن ذلك فتنة القبر، والعرض على الله تعالى، وأخذ الصحف، والميزان والصراط، والحوض، والشفاعة، والجنة والنار، وأنهما مخلوقتان اليوم، وأن المومن يخلد في الجنة، وإليها مصير الفاسق ولو دخل النار، والكافر يخلد في النار، ورأي المحققين التفويض في كل ما لم يرد فيه نص صريح، ككيفية الحياة في القبر، وصفة كفتي الميزان، وكون الحوض قبل الصراط أو بعده، وكون الجنة تحت العرش، والنار تحت الأرض وغير ذلك[1].

خاتمة في الإمامة[2]

وهي أمر فقهي، غير أنها لما وقعت فيها اعتقادات فاسدة لأهل الأهواء، كاعتقاد وجوبها على الله تعالى أو امتناعها، احتيج إلى ذكرها في هذا العلم لبيان الحق، وهي أنها ليست بواجبة على الله تعالى كالنبوءة أصلها، ولا واجبة عقلا بل شرعا على الكفاية، وهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا خلافة عن النبوة، فيجب على الناس نصب إمام، يحيي الدين ويحفظ نظام المعاش، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينتصف للمظلوم من الظالم، إلى غير ذلك.

ويشترط فيه أن يكون بالغا عاقلا ذكرا، حرا مسلما عدلا مجتهدا، شجاعا ذا رأي وكفاية، سميعا بصيرا متكلما، قرشيا، قيل / فإن لم يوجد في قريش من يجمع هذه 48

1- القرآن والسنة طافحان بالآيات والأحاديث المتعلقة بعقائد السمعيات، لانبنائها عليهما، كطريقين وحيدين للإيمان بها، لأن العقل عاجز عن تحقيق الحكم فيها لعجزه عن الادراك، فيبقى بعد ذلك المعول فيها على السمع الذي هو مصدر راسخ الإيقان بها، ولا عبرة بقول أهل الاعتزال وغيرهم فيما ذهبوا إليه من إنكار بعضها كفتنة القبر والشفاعة.

2- راجع بشأنها الفصول الممتعة التي عقدها اليوسي في محاضراته/2: 251 وما بعدها. وممن خصها بمؤلفات مستقلة من أعلام عدوتي المغرب والأندلس نذكر: ابن حزم الظاهري (368-456هـ) في كتابيه: "الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها والمندوب والواجب منها"، و"المفاضلة بين الصحابة". والمهدي بن تومرت (.../524هـ) في كتاب "الإمامة".

الصفات، فمن كنانة، فإن لم يوجد، فمن ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإن لم يوجد، فمن العجم، ولا يشترط أن يكون هاشميا ولا معصوما[1]، ولا أفضل ممن يولى عليهم.

وتنعقد الإمامة باستخلاف الإمام الأول وعهده، أو بيعة[2] أهل الحل والعقد من المسلمين، فإن قام إليها من يستجمع شرائطها، وقهر الناس وانتظم له الأمر، انعقدت له أيضا، وإلا فظالم، ويطاع إن أدت منازعته إلى فتنة أعظم[3].

لطيفة:

ختم المتكلمون هذا العلم، بمسألة الخلافة، المختوم بها سورة الأنعام، المبدوءة بالتوحيد، والإشارة إلى دليل حدوث العالم، بخلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وتوبيخ الكافرين، الذين هم بربهم يعدلون.

{الفقه وأنواعه وكيفية ترتيبه، وانقسامه إلى عبادات ومعاملات وإيقاعات}

وهكذا علم الفقه[4]، وعرفوه بأنه «العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسب من أدلتها التفصيلية»[5]، والأولى إن كان موضوعه هو الحكم الشرعي أن يقال: «هو العلم الباحث عن

1- العصمة في اللغة معناها المنع، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ هود:43 أي يمنعني من الغرق. والذين يقولون بعصمة الإمام هم الشيعة.

2- ورد في ج: بيتعه.

3- ورد ف ح: عظيمة.

4- راجع بشأن تراث اليوسي الفقهي عبقرية اليوسي: 113. ورسائل اليوسي/2: 523-586. وكذا كتاب البذور اللوامع في شرح جمع الجوامع، الذي تضمن عدة مباحث فقهية في غاية العمق، كما وقفت عليه من خلال النسخة التي في حوزتي. وكتاب مشرب العام والخاص. وغيرها.

5- ينسب هذا التعريف إلى الإمام الشافعي ﷺ.

الحكم الشرعي التفصيلي من حيث تعلقه بالمكلف»، وإن كان هو فعل المكلف أن يقال: «هو العلم الباحث عن فعل المكلف من حيث تعلق الأحكام الشرعية به»[1].

وغايته معرفة ما يُدان الله به بعد العقيدة، وبه تحصل سعادة الدنيا والآخرة، فليس بعد أصل الدين أشرف منه، وهو علم قرآني سني، نزل معظمه في كلام الله تعالى، وبين رسول الله ﷺ <للناس>[2] ما نزل إليهم بسنته، فحصل من مجموع ما ذكر في الكتاب والسنة منه[3]، ما هو غُنْيَة وأصل لما يذكر، مما يستنبطه العلماء الراسخون، والأئمة المجتهدون إلى آخر الدهر.

والفقه بالمعنى العام، شامل للأصل والفرع، كما هو ظاهر حديث مباني الإسلام[4]، ولكن خُصَّ الأصل بفن مستقل، لاتساع أحكامه كما مر، وانحصر الفقه اصطلاحا في الأحكام الفرعية، وجرت العادة بتقسيمه إلى قسمين: الأول العبادات، والثاني المعاملات، وقد يقال: عبادات، ومعاملات، وإيقاعات.

ويدخل في الأول مباني الإسلام بعد الشهادتين، أولها الصلاة[5]، ولها سبب وشرط مانع، فقد يقدم السبب كالمُوَطيء وهو الوقت، لأنه لا خطاب إلا معه، فيقسم إلى اختياري وضروري، والأول إلى فضيلة وتوسعة، وكل على مذهبه في الضيق والسَّعَة، وإلى

1- يلاحظ هنا كذلك منهج اليوسي القاضي بالتجديد والابتكار والأصالة، في إطلاق تعريفات خاصة به على علم الفقه، تماما كما فعل في علوم أصول الدين، وسيفعل في علم التفسير.

2- سقطت من ح.

3- ورد في ح: منها.

4- أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان، باب بني الإسلام على خمس: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ).

5- من أعلام المغرب الذين ألفوا في كتاب الصلاة: أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشارقي (.../500هـ) صاحب كتاب "مختصر أحكام الصلاة". وأبو بكر بن العربي (468-543هـ). مؤلف كتاب "ستر العورة". وعبد الحق الإشبيلي (510-581هـ) في كتاب: "الصلاة والتهجد".

49 ما يحرم فيه النّفْل أو يكره، ويلحق به حكم الأمكنة، / وقد يقدم الشرط وهو الطهارة، لأن من المحافظة إيقاعها قبل الوقت، وتكون مائية فيحتاج إلى ذكر المياه، وقد يلحق بها ما هو الطاهر والنجس[1] من غيرها، ليعلم ما ينجسها وما لا يَتَلَبَّس به في الصلاة، ثم تذكر طهارة الخبث، وما يعفى عنه منها، وطهارة الحدث بالوضوء وموجباته، وآداب الخلاء[2]، وبالغسل وموجباته، وما يُرَخَّص فيه من ذلك، كالمسح على الخفاف والجبائر. وترابية فيذكر التيمم.

ومن الشروط ستر العورة، واستقبال القبلة فيذكر ذلك، ومن الموانع الحيض والنفاس فيذكران، ويذكر الاعلام بها، والإقامة لها، ثم تذكر للصلاة فرائضها وسننها، ومندوباتها ومكروهاتها، وقضاؤها وجبرها بالسجود، والنافلة منها، وشروط الإمام، وأحكام الجماعة، وأحكام الاستخلاف، وصلاة المسافر، والجمع في السفر والمطر، وصلاة الجمعة، لانفرادها بأحكام، والسنن المؤكدة[3]، كصلاة العيد، والكسوف، والاستسقاء، وفرض الكفاية، وهي صلاة الجنائز، مع سائر ما يتعلق بأحكام الجنائز.

الثاني الزكاة[4]، ويذكر فيها المخرج منه، والقدر المخرج من كل، والأول في التحقيق يرجع إلى ثلاثة وهي: المواشي والحرث والنقود، وأما عروض الإدارة والمعدن والرِّكَاز، فلاحقة بالنقود، ويذكر مصارفها وهي الأصناف الثمانية، ويذكر زكاة الفطر لتسميته زكاة.

1- ورد في ج: الناجس.

2- ورد في ج: الخلاء.

3- ورد في ج: المذكورة.

4- من أعلام المغرب الذين كتبوا في ركن الزكاة: عبد الحق الإشبيلي (510-581هـ) صاحب مقال في الفقر والغنى. وأبو بكر بن الجد (.../586هـ) الذي ألف جزءا صغيرا في الزكاة، وتوجد نسخة مخطوطة منه بالخزانة العامة تحت رقم: 76 ضمن مجموع.

الثالث الصيام[1]، ويذكر فيه إثبات الشهر، وما يغتفر للصائم وما لا، والكفارة وشروطها ومحلها، وما يستحسن صومه من غير رمضان، وما يبيح الفطر، وقضاء الصوم ونحو ذلك، ويلحق به الاعتكاف، لأنه شرط فيه.

الرابع الحج[2]، ويذكر فيه أسبابه وشروطه، وفرائضه التي لا تَنْجَبِر، وواجباته المجبورة، وسننه ومندوباته، ومكروهاته وممنوعاته، والفِدْية والهَدْي، وجزاء الصيد ومحله، والموانع من الحج، والتحلل عند الاحصار[3]، ونحو ذلك.

ويلحق بها **الجهاد**[4]، لأنه فرض كفاية، والضحية لأنها سنة، ولا بأس أن يلحق بذلك الكلام في الذبائح والصيد، وفي الحلال والحرام من الحيوانات، لأن الهدايا والضحايا محتاج فيها إلى معرفة ذلك، والإنسان مأمور بتناول الحلال واجتناب الحرام.

ويدخل في الثاني **البيوع**، فيذكر ما يكون به العقد، وشرط العاقدين، والمعقود عليه، وقد يكون بيع نقد بنقد من غير جنسه، أو منه <وهو الصرف>[5] أو المراطلة والمبادلة، أو بيع طعام بطعام، فيذكر ما في ذلك / <من أحكام>[6] خاصة، أو بيعا إلى أجل، أو بيع خيار تَرَوٍّ، أو نقيصة، فيذكر ذلك، <ويتعرض>[7] للبيع الفاسد، وما يفسخ منه وما يمضي، 50

1- ممن كتب فيه من أعلام المغرب: محمد بن علي الهمداني (529-596هـ) في "ملتقى السبيل في فضل رمضان". ومحمد بن عبد الرحمن التجيبي (540-610هـ) في "فضائل الأشهر الثلاثة".

2- وممن كتب في هذا الركن: عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد (327- 403هـ)في" المناسك". وعبد الملك بن أحمد ابن المش (358-406هـ) في " مناسك الحج".

3- ورد في ح: عنه والاحصار.

4- وممن ألفوا في ركن الجهاد: محمد المهدي بن تومرت ضمن كتاب "أعز ما يطلب". ومحمد بن عبد الرحمن التجيبي صاحب "الترغيب في الجهاد"، في خمسين بابا.

5- ساقط من ج.

6- ساقط من ج.

7- ساقط من ج.

ولما يكون مساومة أو مرابحة، ولما يتناوله البيع بحكم الاستلزام، وما يعـرض مـن جَائِحَـة، وحكم النزاع في البيع أو المبيع أو الأجل و[1] نحو ذلك، وقد يكون المبيع في الذمة إلى أجـل، وهو السَّلَم، أو بيع شيء بمثله إلى أجل وهو السلف، فيذكر ذلك كله، ويذكر التقاضي ومـا يقع من مقَاصَّة، وقد يدفع الرهن <في>[2] هذا أو غيره، أو يفلس المديان أو يُصالح أو يُحال بالدَّيْن أو يضمن، فيذكر ذلك كله.

والشِّرْكة، فتذكر أنواعها، من مُفَاوَضة وغيرها، وقد تكون في الحرث فتذكر المزارعة، والاجارة فتذكر أحكامها، ومنها الجُعْل، وقد تكون في الغـرس وهـي المساقاة، أو في التَّجْر وهي القِرَاض، فيذكر ذلك. ويلحق بالمعاملات الوكالة، والايداع والشفعة، والقسمة والاقـرار. ويلتحق بالمال النَّسَـب وهـو الاسْتِلْحَاق، والقضـاء والشـهادة، لأن معظمهمـا في ذلـك. وأمـا الغَصْب فلاحق بها[3]، إما بمراعاة الضد، أو لأن الغاصب يشفع بـالمغصوب، ويـترتب عليـه الغُرْم[4]، وهو شبه الثمن.

وكذا النكاح، لأن الصداق كالثَّمَن، والبُضْع كالمَثْمون، ويلتحق بالنكـاح توابعـه، مـن النفقات والرضاع، والحضانـة وخَلْـع العصمـة بـالطلاق، خُلْعـا أو مجانـا، أو مـا يـؤدي إلى خلعها، كالايلاء والظِّهار، وما يعرض لها من الخيار بعيب، والوليمة والنُّشوز والنزاع فيها، وما يتبع الطلاق، من العِدَّة والرَّجْعَـة، ومـا يشـبه ذلـك مـن الاسـتبراء في الامـاء، وتداخـل العِدَد، ونحو ذلك.

1- ورد في ح: أو.

2- سقطت من ج.

3- ورد في ج: بهما.

4- ورد في ج: المغرم.

وأما التبرعات، كالعارية والصدقة والهبة، والوصية والوقف والعِتْق بأنواعه، فداخلة في المعاملة، إن أريد بها شمول ما يكون من جانب واحد، أو لوحظ ما يرجى من ثواب ا لله تعالى، وإلا فهي من الايقاعات.

ويدخل في الثالث الأَيْمان والنُّذُور، وبعض النذور داخلة في باب الصدقة، وقد يراد بالمعاملة، ما له تعلق بالغير، فيدخل أحكام اللقيط والآبق، والضالة، والقصاص والحدود، ولو أريد بالعبادة ما تعلق به حكم من الأحكام الخمسة، كانت كلها عبادات، ويدخل الصيد وإحياء الموات وغير ذلك، إذ لا يخلو شيء منها من حكم، ولو أريد بالايقاع مطلق الانشاء، كانت العقود كلها إيقاعات. وقد يفرد بالتصنيف أحكام السَّهْو ومناسك الحج، وآداب النكاح، وأحكام الرِّبا، وأحكام القضاء، لكثرة مباحث الكل.

51 وأما علم الإرث فكثيرا ما يُفْرد / لكثرة مباحثه، وشدة الاعتناء به، وناهيك بشيء تولاه ا لله في كتابه، وهو العلم الباحث عن المواريث، فيذكر فيه أسباب الإرث الأربعة وهي: النَّسَب، والنكاح، والوَلاء، والإسلام. والفروض الستة وهي: النصف ونصفه، وهو الربع، ونصفه وهو الثمن [فيذكر][1]، والثلثان ونصفهما وهو الثلث، ونصفه وهو السدس. وذوو الفروض والعَصَبة، وأحكام الحَجْب، وموانع الإرث، وما يعرض من إقرار أو مناسخات، أو وصية، وأحكام الخُنْثى، ونحو ذلك، وهذا كله فقه، وقد يعتبر كيفية القسم، وكيفية توصل كل ذي حق إلى حقه في جميع الأبواب، بعمل الحساب، وهو علم الفرائض، وهو مركب من فقه وحساب.

وهذه الاشارة الاجمالية تكفي في الفقه، ومن أراد تفصيل مسائله فعليه بدواوينه، فإن هذا الكتاب إنما وضع لضبط الفنون في الجملة، ليكون الطالب على بصيرة منها علما وأخذا وتركا.

1- سقطت من د وح.

علم التصوف

وهو فقه أيضا، غير أن الفقيه اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة، من حيث سقوط الحَرَج والذَّمِ، وحصول الأجر، وانضباط أمر المعاش. والصوفي اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة، من حيث طلب الكمال، وإقامة العبودية لِحَقِّ الرُّبُوبِيّة. ولم يظهر هذا الاسم إلا بعد مضي الصدر الأول، فإن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا على بصيرة من أمرهم، ويقين من ربهم، وثبات في دينهم، ولم يكن شيء أشرف من وصف الصُّحْبَة لهم، فوصفوا به، ثم التابعون كذلك على أثَرِهم.

فلما ذهب المشاهدون لنور النبوءة، والمشاهدون لمن شاهده، كَرَّت الدنيا على الناس بزخارفها، وأَجْلَب عليهم الشيطان بِخَيْله ورجله[1]، فداخلت القلوب الشهوات والغفلات، وكثرت الهفوات والرعونات[2]، فانفرد أقوام أحيا[3] الله قلوبهم بنور الإيمان، وعصمهم من الدنيا والشيطان، بالدُّؤُوب على سَنَن النبي ﷺ وسَنَن أصحابه من المحافظة على التقوى، ومداومة الدَّعْوَى[4] وترك الرُّعْوَى[5]، والاعراض عن الدنيا، وطلب رضا المولى، وهم الصوفية.

سموا به إما نسبة إلى الصوف، وهو زيهم غالبا، آثروه تواضعا وتقللا من الدنيا، واتباعا للسلف، أو إلى / الصُّوفَة الملقاة في الطريق، لأنهم يوثرون التواضع والذِّلة وسقوط 52

1- تضمين لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الإسرا: 64.

2- الرعونة هي الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها. التعريفات: 111.

3- ورد في د و ح: أحيى.

4- ورد في ح: الرعوى.

5- من رعا: رَعْوا ورِعْوةً ورَعْوَةً: رجع عن جهله وحسن رجوعه عنه.

القدر مثلها، أو إلى صوفة القفا لِلِينِهَا[1]، فإن المومن هين لين، أو إلى "صوفة"[2]، قبيلة كانوا يجيزون الحاج من منى لاختصاصهم بالمزية والزي، والنسبة في الكل على القياس.

وعلى الأول يقال تَصَوّف إذا لبس الصوف، كما يقال تَقَمَّص إذا لبس القميص، وقيل إلى الصُفّة بضم الأول وتشديد الثاني، وهي مظلة في المسجد النبوي، كانت مأوى الفقراء المتجردين، وهُمْ هُم، غير أنهم إذ ذاك لا يسمون بهم كما مر، والتغيير في النسب لا بأس به، غير أنه لو كان منه لقيل تصفف، كما يقال تمعدد[3]، إذا اعتزى لمعد[4]. وقيل من الصفاء لأنه مقامهم، والاشتقاق لا يساعده، ولا حِجْر في الأسامي.

وحقيقته تظهر مما قررنا في أوصاف أهله، ولكن لاختلاف مشارب أهله، وتعبير جلهم بلسان المعرفة المختصة بالجزئيات، لا بلسان العلم الضابط للقوانين[5]، عبر عنه كل بما يوافق مقامه. فقيل: «التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به»، وهو المنسوب إلى الشيخ أبي القاسم الجنيد[6] ﷺ، ومعناه استقامة العبودية[7] بأن يفنى مُرَاد العبد في مراد

---

1 –راجع القاعدة السابعة من قواعد التصوف لأحمد زروق. مخطوط خزانة القرويين ضمن مجموع رقم: 1513. ومعلوم أن هذا الكتاب طبع سنة 1318هـ بالمطبعة العلمية بمصر.

2– هي بطن من مضر من العدنانية، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية.

3– يقال تمعددوا: تشبهوا بعيش معد بن عدنان في التقشف والغلظ في المعاش. لسان العرب/3: 407.

4– ورد في ج: بالمعد.

5– سيرد لاحقا الحديث عن المعرفة والعلم والفرق بينهما.

6– هو محمد بن الجنيد البغدادي أبو القاسم (.../297هـ) تفقه على سفيان الثوري، والحارث المحاسبي، وكان يقول: "من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة". له رسالة "دواء الأرواح". شذرات الذهب/2: 229– الأعلام/2: 137.

7– ورد في ح: المعبودية.

ربه، وعِلمُه في علمه، حتى لا تبقى إلا عبودية تعلقت بربوبية، وربوبية تولت عبودية، وهذا مقام رفيع، وهو الذي طلبه أبو يزيد[1] حيث قال: «أريد أن لا أريد».

وقيل: «التصوف استرسال النفس مع الله تعالى، على ما يريد» وهو كالأول. وقيل: «التصوف أن يكون العبد في كل وقت، بما هو أولى في الوقت». وقال سهل بن عبد الله الصوفي[2]: «من صفا من الكدَر، وامتلا من الفكر، وانقطع إلى الله تعالى عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدَر». وقيل هو: «تجريد القلب إلى الله، واحتقار ما سواه». وقيل: «صدق التوجه إلى الله، بما يرضى من حيث يرضى».

فلكل من أعطي نصيبا من التوجه نصيب من التصوف، غير أنه لتعدد الوجه تعدد التوجه وتنوع، فكان لكل تصوف بحسب توجهه، وتعريف يليق به، فقد يغلب على الإنسان مباشرة الأعمال الصالحات قولا وفعلا، وهو العابد. وقد يغلب عليه ترك الدنيا وملاذها وتنظيف الذيل منها، / وهو الزاهد. وقد يغلب عليه ما مر من العبودية، والقيام بين يدي الله بلا علاقة، وهو العارف. 53

ولابد من اتصاف كل واحد، بما لابد منه من وصف الآخر، وإلا لم يعتبر، ولكل واحد مجاهدة وسلوك في بابه، وبداية ونهاية. والطريق كلها في الجملة علم وعمل ثم موهبة.

1- هو أبو يزيد البسطامي (188/261هـ)، نسبته إلى بسطام من بلاد خراسان. مما أثر عنه قوله: «لو نظرتم إلى رجل أعطي الكرامات حتى يرتفع إلى الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة». البداية والنهاية /11: 41- شذرات الذهب/2: 143.

2- من كبار الصوفية وعلماء الكلام (200/283هـ). كان يقول: «أصولنا ستة: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ. وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق». من كتبه: تفسير القرآن. مواعظ العارفين. شذرات الذهب/2: 182- شجرة النور: 66.

{الطريق في الجملة علم وعمل وموهبة}

فأما العلم فثلاث: أولها علم أصول الدين، وهو تصحيح العقيدة، على طريقة أهل السنة رضوان الله عليهم، إما بالنظر إن أمكن وهو الأكمل، ويكفي الجملي، وإما بالتقليد.

الثانية علم الفقه، بأن يعرف ما يلزمه في خاصة نفسه، من العبادات وأحكامها، ومن معاملة يتعاطاها أخذا من الكتاب والسنة، وسائر أدلة الشريعة، إن كانت له أهلية، أو من أفواه الفقهاء، الذين هم أهل القدوة، ثم كلما نزلت به نازلة لا يعرف حكمها، نظر فيها أو سأل عنها.

الثالثة علم الباطن، بأن يعرف ما يلزمه في توجهه، من الاخلاص والاتصاف بمحامد الصفات، والتخلي عن مذامها، وما يتبع ذلك من الآداب في كل حركة وسكون، وقول وفعل، ونية واعتقاد، وهي كثيرة. حتى قال أبو حفص[1]: «التصوف كله آداب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب، ولكل مقام أدب، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يظن القبول» انتهى. وقال أبو علي[2]: «ترك الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، رُدَّ إلى سياسة الدواب» انتهى.

وهذا القسم الثالث يؤخذ من الكتاب والسنة، ومعظمه في شعب الإيمان من كتب أئمة الطريق، ومن أفواه المؤدبين وحركاتهم وسيرهم، ومن ثم يحتاج من طلب ذروة الكمال إلى صحبة مؤدب، وهو شيخ ناصح، أو أخ صالح.

1- هو أبو حفص عمر النيسابوري (.../670هـ)، أحد الأخيار الصالحين، والزهاد المعروفين بالعلم والتقى، من إحدى القرى المتاخمة لمدينة نيسابور على طريق بخارى. دائرة المعارف/2: 268.

2- هو أبو علي بن عاصم، وهو أحمد بن عاصم الأنطاكي الزاهد، من طبقة بشر الحافي، والحارث المحاسبي، وكان أبو سليمان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته. دائرة المعارف/2: 268.

وأما العمل، فهو مباشرة ما اقتضاه العلم، من امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات ظاهرا وباطنا، وأول ذلك التوبة بالاقلاع عن كل مذموم شرعا، والاشتغال بكل محمود، وتدارك ما يمكن تداركه مما فات، من حقوق الله تعالى، كالصلاة[1] والصيام والنذور، وكفارة الأيمان المفرط فيها، ونحو ذلك. و[2] حقوق العباد، من المظالم المالية أو العِرْضِيَة مثلا، ثم الاكباب على طاعة الله، ومن <ها> [3] هنا تتنوع الطرق.

54 فمن كانت همته في العبادة امتثالا لأمر الله، وقياما بحق ربوبيته، / وهو الأكمل، أو رجاء لموعود الثواب، أو خوفا من العقاب، ولابد معهما أيضا من نية الامتثال المُصَحِّحة للقربة، المخرجة عن شرك الأغراض، اشتغل بها، وهي أنواع: إما الماء والسجادة، وإما الذكر[4]، وإما جهاد العدو، وإما خدمة الإخوان، وإما تعلم، وإما تعليم، أو[5] غير ذلك.

ومن كانت هِمَّته في الزهد والتقشف، وقطع حبال الدنيا، اشتغل [به][6]، ولابد له من عبادة على قدره.

ومن كانت همته في حصول المعرفة، والوصول إلى الحضرة، اشتغل به بطريقه، وهو السلوك، فإن ظفر بمن يربيه فليسلم له الإرادة، ولا يخالفه في جليل ولا حقير. وكان لهم في تسليك المريد ثلاث طرق:

1- ورد في ح: كالصلوات.

2- ورد في ح: أو.

3- سقطت من ح.

4- بخصوص طريق الذكر، راجع لمزيد البيان والتفصيل كتاب مشرب العام والخاص، حيث أفاض اليوسي فيه القول، من خلال ثلاثة فصول ممتعة: الأول في بيان حقيقة الذكر. الثاني في فضل الذكر والترغيب فيه على الجملة. الثالث في فضل لا إله إلا الله خصوصا.

5- ورد في ح: و.

6- سقطت من د وج.

الأولى: طريق من يرى القلوب كالمعادن،، فيجتهد في تمييز عيوبها، ثم يسعى في إزالتها، ليقع الاتصاف بالكمالات أضدادها. والشيخ فيها للمريد كالطبيب للمريض، لابد أن يعرف المرض أولا، ويعرف الدواء، ثم يحمله عليه ليذهب المرض بإذن ا لله، وتجيئ الصحة، وهي طريق التخلية[1] والتحلية[2] بالرياضة[3].

الثانية: طريق من يراها كالأواني، فيجتهد في غسلها إن تلوثت، وفي تفريغها مما عمرت به، إن كان لايرضى، ثم يسعى في عمارتها، وهو في معنى[4] الأول.

الثالثة: طريقة من يراها كالأرضين، منها ما يصلح للزراعة، ومنها ما يصلح لامساك الماء، ومنها ما <لا>[5] يصلح لشيء كما في الحديث[6]، فما رآه منها صالحا للزراعة، زرع فيه النوع اللائق به، من الأذكار وصنوف العبادات، ثم يراعي تنقية ذلك، مما يعرض من شوك الرياء[7] والعجب، وسائر المذمومات، ويتوجه إلى ا لله تعالى في الاصلاح والتنمية، بإنزال المطر، وهو المدد الرباني، وهذه أسهل الطرق وأقربها وأنعمها، فإن المريد فيها متنعم با لله تعالى، من أول قدم[8] لرجوعه إليه في كل حال، وهي أقرب إلى تربية السلف.

1- التخلي اختيار الخلوة، والاعراض عن كل ما يشغل عن الحق.

2- التحلي هو التلبس والتشبه بالصادقين في الأقوال والأعمال، وفي الحديث: (ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال).

3- وهي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية، وذلك بتمحيصها عن خلطات الطبع ونزعاته.

4- ورد في ج: بمعنى.

5- سقطت من ج.

6- المراد به قوله ﷺ: (... فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ الخ).

7- هو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير ا لله فيه.

8- ورد في ج: قدوم.

وإن لم يظفر به، فليتوجه إلى الله تعالى، وليعبده مخلصا له الدين[1]، وليشتغل بالمجاهدة، فقد قيل: «الإرادة استدامة الكد، والراحة من وراء الصراط». وليحذر من العوائق، فقد قيل أعداؤك أربعة: الدنيا وسلاحها لقاء الخلق، وسجنها العزلة. والنفس وسلاحها النوم، وسجنها السهر. والشيطان وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع. والهوى وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت. وهذه الأربعة، أعني العزلة والصمت والجوع والسهر، بها صار الأبدال[2] أبدالا.

وأما **الموهبة**، فهي ما يمنحه الله تعالى من العلوم اللدنية[3]، والأحوال المرضية، وفي الحديث (**من عمل بما علم / ورثه الله علم ما لم يعلم**)[4] ويجب أن يكون المطلوب هو الله تعالى في كل وجهة، والاعتماد عليه في كل حركة وسكون، والتبري من الحول والقوة في كل إيراد وإصدار، والاعراض عن الخلق في الاقبال والادبار، والتزام المحبة، والاتصاف بالرحمة، وحفظ الحرمة، ورفع الهمة، والله المبلغ. 55

1- تضمين لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ البينة: 5.

2- استنادا إلى الحديث الذي يرويه الصوفية: (في هذه الأمة ثلاثون رجلا قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا). ومن الأبدال ثلاث مائة شخص على قلب آدم، لكل واحد منهم من الأخلاق الإلهية ثلاث مائة خلق، وأربعون شخصا على قلب نوح، وسبعة على قلب الخليل، وخمسة على قلب جبريل، وثلاثة على قلب ميكائيل، وواحد على قلب إسرافيل، وعشرة على قلب داود. المصطلحات الصوفية: 8.

3- هي العلوم التي يتعلمها العبد من الله تعالى، من غير واسطة ملك أو نبي، كما كان شأن الخضر عليه السلام، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ الكهف: 65.

4- أخرجه الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" حديث رقم:422. وقال: "موضوع". وذكره الزرقاني في علوم القرآن/1: 311. قال الحافظ العراقي: «رواه أبو نعيم في الحلية بسند ضعيف» وذكره الشوكاني في "الفوائد المجموعة" تحت رقم: 43.

علم التفسير

التفسير تفعيل من الفَسْر، وهو لغة الكشف والإبانة[1]، فلا حاجة إلى جعله مقلوبا من السفر، ولا مأخوذا من تفسيرة الطبيب.

{تعريف اليوسي الخاص لعلم التفسير}

وهو «العلم الباحث عن معاني القرآن الظاهرة، إفرادا وتركيبا، وما يتوقف عليه ذلك، خاصا به أو كالخاص». وقيدنا بالظاهرة، احترازا عن فهوم أهل الاشارات[2]، فإنها ليست بالتفسير المتعارف. وقولنا ما يتوقف عليه ذلك خاصا به، أي كأسباب النزول. وقولنا أو كالخاص، أي كالناسخ والمنسوخ، فإنه وإن كان يقع في السنة أيضا، فالسنة والكتاب إخوان. بخلاف اللغة والإعراب والبيان ونحوها، فلا تدخل في التعريف، وهو التأويل[3]، لأنه بيان ما يرجع إليه اللفظ، من قولك ءال يَئُول أي رجع.

وقيل: «التفسير كشف ظاهر اللفظ، بحسب ما يحتمله لغة، والتأويل بيان المراد من ذلك، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[4] مثلا تفسيره <أنه> [5] من الرصد، وهو الانتظار. وتأويله أنه تحذير من التهاون بالأمر، والغفلة عن الاستعداد للعرض». وقيل: «التفسير فيما

1- وعرفه الزركشي بقوله: «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية». البرهان/2: 147.

2- نسبة إلى الصوفية الذين يسلكون منهجا خاصا بهم في التفسير، والمعروف بالمنهج الإشاري أو التفسير الإشاري. أو التفسير الصوفي الفيضي. كما ورد في تفسير ابن عربي (.../638هـ)، وفي تفسير القرآن العظيم للتستري (.../238هـ)، وحقائق التفسير للسلمي (.../412هـ). وغيرهم.

3- يرى كثير من العلماء أن التفسير والتأويل مترادفان ومنهم مجاهد في قوله: «إن العلماء يعلمون تأويله» ، وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط، وبعضهم يرى أن التفسير مباين للتأويل. واليوسي من الفريق الثالث كما يظهر من تعريفه. علوم القرآن/2: 4.

4- الفجر: 14.

5- سقطت من ح.

ثبت عن الله تعالى ورسوله[1]، فلم يمكن تعديه. والتأويل فيما استنبطه العلماء الراسخون». وقيل غير ذلك.

وهذا الفن لم يدونه الأقدمون فيما رأينا، على ما تقتضيه الصَّنْعة، وإنما اشتغلوا بتفسير القرآن العظيم بالفعل، وليس ذلك هو الفن المعدود في الفنون، وإنما ذلك بمثابة ما يقع من الحاكم من تنفيذ الأحكام، واستعمال الفروع الفقهية عند التداعي والخصام، وعند الإفتاء مثلا. وليس ذلك هو فن الفقه، ولا لازما له ضربة لازب، وقد قال ﷺ: (أَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ) ثم قال: (وَأَقْضَاهُمْ عَلِيٌّ)[2] وكما لا يستغني استعمال الفقه عن تدوين الفقه، والتطبب عن تدوين الطب، واستعمال الإعراب عن تدوين العربية، وكذا غيرها، كذا لا يستغني تفسير القرآن عن تدوين علم التفسير، وذكر ما يحتاج فيه، حتى يكون ذلك ملجئا لمن يريد تعاطي التفسير.

وقد تنبه لذلك المتأخرون، فذكروا معظمه، كالجلال السيوطي[3] في الاتقان، وحكى أنه سبقه إلى ذلك شيخه الكافيجي[4]، والجلال البلقيني، والبدر الزركشي[5]، غير أنهم نصبوا الحديث في القرآن وعلومه.

1- وهو المصطلح على تسميته بتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وهو النوع الأول بحسب تدرج مصادره، و تميزها بالدقة، وقوة البيان، وتحديد المعنى، وإحكام القصد.

2- أخرجه ابن ماجة في مقدمة سننه، باب في فضائل خباب ﷺ. واليوسي خالف سياق الحديث، بتقديم معاذ بن جبل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

3- عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي (849-911 هـ)، أحد أوعية العلم بلغت مصنفاته 600 مصنف في مختلف العلوم، مع بلوغه درجة الاجتهاد. شذرات الذهب/8: 51 - الأعلام/4: 71.

4 - محمد بن سليمان الرومي الحنفي (788-879هـ)، من كبار العلماء بالمعقولات، لازمه السيوطي بمصر أربعة عشرة سنة، له "أنوار السعادة في شرح كلمتي الشهادة". الأعلام/6: 150.

5- محمد بن بهادر الزركشي (745-794 ـ) فقيه شافعي، مصري المولد، له تصانيف كثيرة في عدة فنون. شذرات الذهب/6: 335 - الأعلام/6: 286.

56 وقد عُلِم أن القرآن هو موضوع / علم التفسير، والبحث في الموضوع لا من حيث الحقيقة، ليس هو عين العلم، بل قد يكون من مبادئه، وقد يكون خارجا، فمن تكلم في بدن الإنسان، الذي هو موضوع علم الطب، لا من حيث حفظ الصحة أو إعادتها[1]، الذي هو الطب، إن كان مما يعين فيه، كذكر تركبه من العناصر ومن الأخلاط، وكتشريحه، فذلك من باب الطب، وإن لم يكن من ذلك، كذكر حدوثه وفنائه، وقبوله الأبعاد، وكونه مربعا مستطيلا، وغير ذلك، فهو خارج لا مساس له بالفن.

وكذا القرآن، من تكلم فيه، فإما فيما يعين على التفسير، كأسباب النزول، أو المكي والمدني، والصريح والكناية، والناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك، فيكون من مبادئ علم التفسير، لا نفس علم التفسير، وإلا فخارج، ككونه حجة وقديما ومنزلا إلى السماء الدنيا، ونحو ذلك.

فالحق أن يدون التفسير كسائر الفنون، ويتعرض فيه لبيان حقيقته، وموضوعه واستمداده، ومسائله وغايته، ونحو ذلك كغيره.

فأما حقيقته فما مر، وقد ذكر معها الاسم واشتقاقه. وأما موضوعه فالقرآن العظيم، ولا بأس أن يذكر فيه شرف الموضوع، وهي فضائل القرآن[2]، لأن العلم يشرف بشرف موضوعه.

وأما مبادؤه فكثيرة جدا، فإن القرآن بحر زاخر، صاحبه يحتاج إلى عدة عظيمة. ولنقسمها كما قسمنا مبادئ الكلام إلى قسمين: قسم خاص به، وقسم عام له ولغيره.

فالأول كمعرفة أسباب النزول[3]، إذ بذلك يفهم الآي النازلة لأسباب، وكالمكي والمدني، ليعرف المتقدم والمتأخر، فيعرف الناسخ والمنسوخ[4]، وهذا من توسع الفن، حيث

1- ورد في ج: اعتمادها.

2- لمزيد البيان يراجع كتاب فضائل القرآن في صحيح البخاري، وسنن الترمذي، وغيرها.

3- من بين المصنفين فيها: علي بن المديني شيخ البخاري (.../223هـ).

4- من المصنفين فيه: ابن حزم الظاهري (384-456هـ)، وأبو الوليد الباجي (403-474هـ). وغيرهم.

يتعرض المفسر لبيان الحكم المعمول به، وإلا فحظه بيان مدلـول اللفـظ، ومـا وراء ذلـك فـإلى الفقيه المجتهد في الأحكام، وهكذا سائر ما ذكروا من أنواع علوم القـرآن الخاصـة بـه، وقـد أدرجوا كثيرا ممـا لا يتوقـف عليـه التفسـير، كـالليلي والنهـاري[1]، والصيفـي والشـتائي[2]، وكيفية النزول والجمع، والتحزيب والتعشير، وغير ذلك مما يذكر توسيعا، ولقصـد اسـتيفاء الأنواع والأحوال.

وهذا الجنس يصح أن يسمى علما مستقلا، هو علم القرآن، ويضـاف إليـه مـا توقـف التفسير عليه منه، فيكون مجموعه علما، يتوقف التفسير عليه في الجملة .ومن هذا القسـم، علم القراءات، فإن منها ما يحتـاج في التفسـير، لاختـلاف الدلالـة عنـد اختلافـه مـن ذات اللفظ، ومن إعرابه، ومنها ما لا يحتاج كالمد والإمَالَة، وما يرجـع إلى مجـرد الأداء، ويذكـر توسيعا كما مر.

{العلوم التي يحتاج إليها المفسر}

الثاني علوم لا يستغني مريد التفسير عن استحضارها، لاشتمال القرآن عليها، فمنها الفقه، لكون القرآن العظيم مشحونا بالأحكام الشـرعية، فلابـد / مـن تحريرهـا، وقـد قيـل «إن آيات الأحكام خمسمائة»، وقيل أزيد، وصنف الناس فيها خصوصـا، كأحكـام[3] الإمـام ابن العربي، وأحكام ابن الفرس[4]، وإسماعيل القاضي[5]، وغيرهم. 57

1- ورد في ج: والنهار.

2- ورد في ج: والشتاء. كما هو شأن الجلال السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن.

3- المقصود به أحكام القرآن، وهو مطبوع متداول.

4- هو عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الغرناطي المعروف بابن الفرس (524-597هـ)، له "الأحكام في القرآن الكريم". بغية الملتمس: 372 - الديباج/2: 133.

5- هو القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق (200-284هـ)، العلامة الفقيه المحصل الحافظ، به تفقه المالكية من أهل العراق، من تآليفه المفيدة: "الموطأ"، و"أحكام القرآن". شجرة النور: 284.

ومنها الحديث، لأن فيه تفسير كثير من القرآن، وتفسيره ﷺ مقدم على غيره، وفيه بيان الأسباب والوقائع. ومنها القصص والأخبار، لاشتمال القرآن على قصص الأولين، فلابد من مطالعتها لتحرر، غير أن منها ما يتوقف عليه البيان فهو محتاج، وما سواه إمتاع أو تطويل، وقد يذكر منها ما يعلم بالنقل والعقل[1] أنه كذب[2]، فلا يجوز التعرض له.

ومنها أصول الدين، لاشتمال القرآن على العقائد والمباحث الكلامية، وهو الكثير في السور المكية، لأن الأصل الخطاب بالتوحيد، فلابد من تحرير ذلك، ليحق الحق ويبطل الباطل.

ومنها أصول الفقه، لاحتياج الأحكام إلى الأدلة، ولبيان ما أشير إليه منها. ومنها التصوف، لاشتمال القرآن على المعارف، ومقامات[3] اليقين، فلابد من تحريرها.

ومنها متن اللغة، إذ به يعرف وضع الألفاظ فتفهم. ومنها النحو، إذ به يعرف الإعراب، فتفهم التراكيب، ويعرف ما تغير من الموضوعات اللغوية فتفهم.

ومنها البيان، إذ به يعرف ما فيه من لطائف الاعتبارات، التي بلغ بها مبلغ الاعجاز. وأما البديع على اصطلاح من يجعله خارجا عن البلاغة تابعا لها، فليس من المهم، ولكنه يزيد حسنا.

1– ورد في ج: بالعقل والنقل.

2– وهو ما يعرف بالإسرائيليات، وهو تفسير يعتمد على كتب النصارى واليهود، وقد تعامل الصحابة وكبار المفسرين مع هذا النوع من التفسير بكثير من التحفظ.

3– المقامات عند الصوفية هي: التوبة، والورع، والصبر، والرضا، والتوكل، وغير ذلك. ومعنى المقام: أن يقيم العبد بين يدي الله عز وجل مجاهدا عابدا، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى آخر، حتى يستوفي أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له مثلا، لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له، لا يصح له التسليم، وهكذا.

{ما وقع في القرآن من الاشارة إلى أنواع العلوم}

والعلوم المذكورة هي الغالبة الأكثرية، وإلا فالقرآن بحر واسع، قد وقعت فيه الاشارات إلى جميع العلوم، فالمفسر ينبغي له أن يتضلع منها، لئلا يفوته تحقيق.

فقد وقعت فيه الاشارة إلى ما في علم المنطق من الأقيسة، أما الاستثناءات كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾[2] فظاهرة، وأما الاقترانية فمفهومة، فالشكل الأول من قوله تعالى في كلام إبراهيم عليه السلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾[3] أي هو تعالى قادر على ذلك، وأنت لا تقدر عليه، ومن لا يقدر عليه فليس بإله، والثاني قوله فيه: ﴿لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[4] أي فالقمر آفل والرب تعالى ليس بآفل، والثالث في قوله تعالى ردا على اليهود حيث قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾[5] أي فموسى بشر، موسى أنزل عليه الكتاب.

وإلى الطب، فإلى ما يذكر فيه من الاعتدال، بنحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[6]، وإلى العلاج بقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[7] وإلى حفظ الصحة بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[8]. وإلى العلم الطبيعي، الذي هو مبدأ الطب، / بذكر خلق كل 58

1- الأنبياء: 22.

2- الأنبياء: 99.

3- البقرة: 258.

4- الأنعام: 76.

5- الأنعام: 91.

6- الفرقان: 67.

7- النحل: 69.

8- الأعراف: 31.

دابة من ماء، وخلق الإنسان من طين ومن صلصال ومن حمإ مسنون، وهي الأسطقسات الأربع.

وإلى الهيئة بنحو قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[2] ونحوه، وبخلق السماوات والأرض والنجوم، وغير ذلك. ففي ذكر هذه الأشياء، بيان حدوثها ودلالتها على موجدها، وهو من علم الكلام، وبيان أصنافها من علوي وسفلي، ونوراني وظلماني، وهو من علم الهيئة.

وإلى علم الحساب، بذكر الحساب، وذكر النصف والثلث، والربع ونحوها، وذكر الجمع، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[3]، وذكر القسمة نحو ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[4]، وغير ذلك. وقد قيل: «إن الحروف في أوائل السور ذكر فيها مدة بقاء هذه الأمة مضروبا بعضها في بعض» .

وإلى الهندسة بنحو قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾[5]. وإلى النجامة بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾[6]، فقد قيل فسره ابن عباس بذلك، وقيل هو خط الرمل.

وإلى علم التاريخ والقصص وهو كثير. وفيه الاشارة إلى أصول الصنائع، وأسماء الآلات الضرورية، كالنجارة في ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ﴾[7]. والخياطة في ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ

1- يونس: 5 - الإسراء: 12.

2- يس: 39.

3- البقرة: 196.

4- الحجر: 44.

5- المرسلات: 30.

6- الأحقاف: 4.

7- هود: 37.

﴿الْجَنَّةِ﴾[1]. والحدادة في ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾[2]، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[3]، والغزل في ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾[4]. والنسج في ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[5]. والفلاحة في ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[6]. والبناء والغوص في﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾[7]. والصياغة في ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾[8]. والزجاجة في ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[9]، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾[10].

والفخار في ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾[11]. والملاحة في ﴿... السَّفِينَةِ﴾[12] الآية. والكتابة في ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[13]. والخبز في ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾[14]. والطبخ في

1- الأعراف: 22 - طه: 121.

2- الكهف: 96.

3- سبإ: 10.

4- النحل: 92.

5- العنكبوت: 41.

6- الواقعة: 63.

7- ص: 37.

8- الأعراف:148.

9- النمل: 44.

10- النور: 35.

11- القصص: 38.

12- الكهف: 71-79 - العنكبوت: 15.

13- العلق: 4.

14- يوسف: 36.

﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1]. والغسل والقصارة في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2]، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾[3] وهم القصارون. والجزارة في ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[4]. والصبغ في ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾[5]. والحجارة في ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾[6]. والرمي في ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[7]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[8].

وأما الصيد والكيل والوزن، والبيع والشراء فكثير، وفيه من ضروب الآلات والمأكولات، والمشروبات والمنكوحات ما فيه غنية، وقد قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[9]. وقال الشيخ أبو مدين[10] «لا يكون المريد مريدا، حتى يجد في القرآن كل ما يريد» وهذا في المريد، فما بالك بالعارف الكامل.

وأما مسائله، فما يذكر في نفس التفسير، ومن مقدمات ذلك، أن يعلم أن كل ما في القرآن، راجع إلى الدعوة إلى معرفة الله تعالى، وإلى عبادته، والأول العقائد، بما تحتاج إليه من الأدلة، وهو أصول الدين، والثاني الأمر والنهي والإباحة، / وهي الأحكام الشرعية، 59 ويحتاج ذلك كله، إلى ما يبعث على التوجه إليه علما وعملا، وهو الترغيب والترهيب،

1- هود: 69.

2- المدثر: 4.

3- آل عمران: 52 - المائدة: 112 - الصف: 14.

4- المائدة: 3.

5- البقرة: 138.

6- الأعراف: 74.

7- الأنفال: 17.

8- الأنفال: 60.

9- الأنعام: 38.

10- ورد في ج: أبو مديان.

فإذا فصلت معاني القرآن، وجدت سبعة وهي: علم الربوبية، والنبوءة، والمعاد، والأحكام، والوعد، والوعيد، والقصص .

ثم يعلم أن التفسير، منه مأثور[1] ومستنبط، ومنه متفق عليه، ومنه مختلف فيه[2]، والثاني إما اختلاف حقيقي، وهو في المعنى، وإما لفظي، وذلك في أمرين: أحدهما العبارة، والآخر التمثيل.

وأما غايته، فمعرفة ما أنزل الله تعالى من الأحكام والحِكَم، للفوز بالسعادة في الدارين، وناهيك بذلك، وهكذا يظهر فضله وشرفه، فإن شرف الصناعة، إما من جهة كون موضوعها أشرف، وكالصياغة فإنها لكون موضوعها الذهب والفضة، أشرف <من>[3] الضِّبَاغة التي موضوعها الجلود، وإما من جهة غايتها كالطب، فإنه لكون غايته الصحة في الإنسان، أشرف من الكنافة التي غاية موضوعها تنظيف المُسْتَراح، وإما من شدة الحاجة كالفقه، فإنه لكونه أشد حاجة من الطب وأعم، هو أفضل منه.

إذا علم هذا، فالتفسير قد حاز الشرف من الجهات كلها، أما أولا، فلأن موضوعه كتاب الله تعالى، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[4]، وهو منبع كل حكمة، ومجمع كل فضيلة. وأما ثانيا، فلأن االغرض منه، الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى

1- ينقسم التفسير بحسب المنهج العلمي إلى قسمين: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي. فالتفسير بالمأثور يعتمد أساسا على الرواية والنقل والإخبار، بينما يعتمد التفسير بالرأي على كلام العرب، ودلالة الألفاظ، وأسباب النزول، ومعرفة مقاصد الشريعة، وغير ذلك من الأدوات التفسيرية.

2- للعلماء موقفان في جواز التفسير بالرأي وعدمه، ومعيار التفرقة بينهما التفصيل، بين قبول التفسير بالرأي المحمود الموافق لكلام العرب وأدلة الشرع، وبين رفض التفسير بالرأي المذموم الذي تعوزه الأدوات المطلوبة، وتفسير المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، والتفسير بدافع الهوى والتعصب والتحكم.الخ...

3- سقطت من ح.

4- فصلت: 42.

السعادة كما مر. وأما ثالثا، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي[1]، عاجل أو آجل، موقوف على العلوم الشرعية، وينبوع ذلك كله هو كتاب الله تعالى.

وأما حكمه، فهو فرض كفاية. وأما واضعه، فيصح أن ينسب إلى النبي ﷺ[2]، وناهيك به، لأنه أول من فسره، ولم يقع تدوينه إلا للتابعين، كأصحاب[3] ابن عباس وغيرهم، ويمكن أن ينسب إلى الله تعالى وجل، لأن القرآن قد فسر بعضه بعضا[4]، فهو علم قرآني، كما قررنا في علم الكلام.

علم الحديث

وهو العلم الباحث عن قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، قيل وهمه من حيث[5] السند أو المتن، وما ينضم إلى ذلك. فموضوعه الآثار من هذه الحيثية، والغرض منه بيان المقبول من ذلك والمردود، ليصح الاقتداء ويَثْبُت الاعتصام بالسنة، وهي السعادة في الدارين، ويذكر فيه

1- ورد في ج: دنياوي.

2- من تفسيره ﷺ: تفسير الظلم بالشرك كما ورد في الحديث الشريف، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: 13، تفسيرا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام: 82. وتفسيره "الحساب اليسير" في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ الإنشقاق: 7-8، وهو العرض يوم القيامة كما ورد في صحيح البخاري.

3- نذكر من بين كبار التابعين الذين رووا عنه التفسير في مكة: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح.

4- وذلك أن يبين القرآن معنى آية بآية أخرى، أو يشرح لفظا مجملا بلفظ مبين، أو يحدد المراد من اصطلاح شرعي خاص، من ذلك على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ البقرة: 37. مع قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: 23.

5- ورد في د و ج: حد.

تقسيم الخبر، فهو إما متواتر، وهو ما كثرت رواته[1]، كثرة تمنع من التواطئ على الكذب، وهو قطعي الصدق ضرورة، وقيل نظرا، وإما آحاد، وهو ما دون ذلك، وقد يكون شائعا، وهو المستفيض، وقد لا <يكون>[2]، وهو العزيز والغريب، وما نقله العدل الكامل الضبط،
60 مع اتصال السند، والسلامة من علة وشذوذ، / فهو المعروف بالصحيح، وما اختل فيه شيء من ذلك، مع القرب منه فهو الحسن، وما دونه فهو الضعيف[3].

وفي كل منها مراتب، وقد ينتهي الضعف أن يحكم بكونه موضوعا، أي مكذوبا، ثم يذكر ما يقع من نَكارة وشُذُوذ، وعِلَّة وتَدْليس، وما يعرض من زيادة راوٍ على غيره، ومتابعة وتعارض، واضطراب وإدراج وقلب، ونحو ذلك. وما يقع في السند من اتصاله إلى أن يبلغ النبي ﷺ، وهو المسند المرفوع، أو قصره على الصحابي، وهو[4] الموقوف، أو حذف الصحابي، وهو[5] المرسل، أو من دونه، وهو المنقطع أو المعضل، وهي ألقاب اصطلاحية، لا تنحصر فيما ذكرنا، وإنما أردنا الاشارة.

ثم يذكر من تقبل روايته[6]، وشروط التحمل وزمانه، ومراتب التعديل والتجريح، ثم أنواع التحمل، من السماع أوالعرض، أو الاجازة بأنواعها، وما يحسن أن يقع من التعبير في

1- ورد في ج: روايته.

2- سقطت من ج.

3 -الحديث الضعيف هو ما لم يجتمع فيه صفات الصحيح، ولا صفات الحسن، ومنه: المرسل، والمنقطع، والمعضل، والمدلس، والمعلل، والمضطرب، والمقلوب، والشاذ، والمنكر، والمتروك، والمتابع، والمدرج. علوم الحديث: 165.

4- ورد في ح: فهو.

5- ورد في ح: فهو.

6 -شروط راوي الحديث هي: العقل، والضبط، والعدالة، والإسلام، وهي شروط لابد منها لقبول الرواية، فلو فقدها الراوي، أو فقد بعضها ردت روايته، وترك حديثه. علوم الحديث: 126.

ذلـك، وصفـات[1] المحـدث وآدابـه، وآداب طـالب الحديـث، وأحكـام كتـب الحديـث، واصطلاحه[2] ومقابلته، والنقل من الكتب أو بالمعنى، ونحو ذلك، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والصحابـة والتـابعين، والسـابق واللاحـق، والعـالي والنـازل، والمشـارك والمنفـرد، والمؤتلـف والمختلف، والمعين والمبهم، والثقاة والضعفـاء، ومـن عـرض لـه الاختـلاط، وطبقـات الـرواة وبلدانهم، وغير ذلك، مما كثير منه توسيع للفن.

علمُ أصول الفقه[3]

وهو العلم الباحث عن أدلة الفقه، من حيث الاجمال، وخرج بـالقيد الأخـير الفقـه، وإنما قيد به من حيث جواز إطلاق الفقه على الأدلة التّفْصيلية، وإلا فلا حاجـة إليـه، لأن البحث عن دليل الشيء، خلاف البحث عنه.

والأدلة خمسة: الكتاب، والسنة، والاجماع، والقياس، وسائر الاستدلال، ولابد مـن بيان الترجيح فيها، إذا تعارضت عند الاجتهاد، ومن بيان صفة المجتهد القائم بذلك، ومـا يتبعه من حقيقة الاجتهاد والتقليد والفتـوى والاسـتفتاء، فصـارت الأبـواب سـبعة، وتفتتـح بمقدمة فيها رسم العلم، وطرف من مبادئه، وهي ثلاثـة: الأحكـام والعربيـة والكـلام، فهـو يستمد من هذه الثلاثة.

1- ورد في ج: وصفته.

2- ورد في ح: واصلاحه.

3- تتجلى الملكة الأصولية لليوسي، في كثير من المباحث الأصولية والفقهية، المبثوثة بين ثنايا مؤلفاته، وبخاصة شرحه القيم على كتاب جمع الجوامع لابن السبكي، والذي نتوفر على صورتين شمسيتين منـه، إحداهما مصورة عن نسخة خزانة الزاوية الناصرية بتمكروت، والثانية عن نسـخة مكتبـة ابـن سـودة بفاس. وقد شرعنا بتوفيق من الله عز وجل في تحقيق هذا الكتاب القيـم علـى النسـختين المذكورتـين، نرجو الله تعالى أن يكمل مرغوبنا، بتيسير الأسباب ورفع الموانع.

أما من الأول، فلأن الأحكام كالوجوب والتحريم مثلا، تقع محمولات لمسائل الفن، كقولنا الأمر للوجوب أو الندب، النهي للتحريم أو الكراهة، فلابد من معرفتها تصورا ليتضح الحكم. ومباحث الأحكام خمسة: الأول الحكم، أي مفهومه، وهو أنه خطاب الله المتعلق بفعل المكلف / بالاقتضاء أو التخيير، ويلتحق به الوضع. الثاني الحاكم، وهو أنه الله تعالى وحده، ولا حكم للعقل، خلافا للمعتزلة، ويلتحق به بيان مدارك العقل في التحسين والتقبيح، ليعلم المتفق عليه والمختلف، وبيان الأشياء قبل الشرع.

61

الثالث المحكوم عليه، وهو البالغ العاقل المختار، فلا حكم على غيرهم. الرابع المحكوم به، وهو الوجوب والندب والتحريم والكراهة والاباحة، ويلتحق به ذكر السبب والشرط والمانع والصحة والفساد، وكون المطلوب عزيمة أو رخصة، عينا أو كفاية، موقتا أو لا، موسعا أو مضيقا، معينا أو مُخَيَّرا[1]، إلى غير ذلك. الخامس المحكوم فيه، وهو فعل المكلف الاختياري ظاهرا، فإن استحال عقلا كاجتماع الضدين، أو عادة كطيران الإنسان في الهواء، فالأصح عندنا أنه لا يمتنع من الله تعالى التكليف به، ولكنه لم يقع.

وأما من الثاني، فلأن الأدلة المنظور فيها عربية، ولابد من معرفة ما يحتاج إليه من العربية، وذلك شامل لمتن اللغة، لمعرفة أوضاع المفردات، فلذا يذكر وضع اللغات، وإنما[2] تعرف بالنقل أو مع العقل، وهل تعرف بالقياس أم لا، وأقسام الألفاظ من منفرد ومشترك، ومترادف، وحقيقة ومجاز، وما يتعلق بذلك، وللنحو لمعرفة <أوصاف>[3] الألفاظ، ككونه أمرا أو نهيا، ومعاني أدوات بُيِّنَت في علم النحو.

وأما من الثالث، فلأن ثبوت الكتاب، موقوف على ثبوت صدق الرسول ﷺ، الموقوف على ثبوت الألوهية، المُبَيَّن في علم الكلام.

1- ورد في ج: مميزا.

2- ورد في ح: وأنها.

3- سقطت من ج.

والظاهر أن هذا القدر مستغنى عنه، لأن الفرض الثبوت، وإلا فيحتاج إليه الفقه وغيره أيضا. والأَوْلَى[1] أن يقال إنه « يذكر في هذا العلم الحدود والأدلة » فلابد من تصور الحد والدليل، وهو من علم المنطق، فيكون الاستمداد منه، ولذا يذكر طرف منه أحيانا، كما فعل ابن الحاجب[2] في مختصره[3]، ولكن هذا لا يختص بهذا الفن.

وأما الدليل الأول، وهو الكتاب، فالمراد به القرآن المنزل على النبي ﷺ للاعجاز ولا يدخل فيه الشاذ غير المتواتر، ولا ما نسخت تلاوته. وأما السنة، فالمراد بها أقوال النبي ﷺ، وأفعاله وتقاريره. ويذكر ما في الكتاب والسنة من أمر ونهي، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، ونحو ذلك، وما في السنة خصوصا من الأخبار الصحيحة، والحسان، / والمتواترة، والآحاد، والمسندة، والمرسلة، والعدالة، والجرحة، ونحو ذلك. 62

وأما الاجماع، فالمراد به إتفاق المجتهدين من هذه الأمة، بعد وفاة نبيهم ﷺ على أمر ما، ويذكر فيه صريحه ومسكوتيه، والمقبول منه والمردود، وأنه متى ينعقد، وحكم خرقه، وغير ذلك.

وأما القياس، فهو حمل معلوم تصورا، على معلوم تصورا وحكما، لمساواته له في علة حكمه، كحمل الأُرْز مثلا على البُرِّ في حرمة الربا، لمساواته له في علة ذلك، وهو الاقتيات والادخار، أو الطعم، أو الكيل. وله أربعة أركان: المحمول عليه ويسمى الأصل، والمحمول

1- ورد في ج: والأول.

2- هو أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب، المقري النحوي الأصولي النظار الفقيه المالكي (571-646هـ). شجرة النور الزكية: 167.

3- المقصود به كتاب: "منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل"، المطبوع بدار الكتب العلمية ببيروت سنة 1985.

ويسمى الفرع، وحكم الأصل، والعلة الجامعة، وتذكر أحكام كل من الأربعة، ومسالك العلة، وهي أدلتها من نص أو دليل، وما يقدح في شيء من ذلك.

وأما الاستدلال، فالمراد به ذكر دليل غير نص ولا إجماع ولا قياس، من كل ما يستدل به، فمنه الاقتراني والاستثنائي والاستقرائي، المعروفات في المنطق، ومنه الاستصحاب، والاستحسان، والعكس، ونحو ذلك.

وأما التعادل، فالمراد به التوفيق بين الأدلة إذا تعارضت، كتعارض آيتين أو حديثين، أو آية وحديث، أو حديث وقياس، ونحو ذلك، إما بترجيح أحدهما بطريقة، وإلغاء الآخر، أو تخصيصه، أو تقييده، أو بتركهما معا، والرجوع إلى غيرهما.

وأما الاجتهاد، فالمراد به ذكر حقيقته، وأنه بذل الوسع، في استخراج حكم من الأحكام، وذكر شروط المجتهد وأقسامه، من كونه مجتهدا مطلقا، أو مجتهد مذهب، أو مجتهد فتوى، وذكر التقليد، وذكر أحكام المفتي والمستفتي، ونحو ذلك.

علم اللغة

ولغة كل قوم[1]، ألفاظ يترجمون بها عن أغراضهم[2]، والمراد هنا لغة العرب، إذ بها نزل الكتاب وبُعِث الشارع، فلابد لكل من يتكلم في القرآن والحديث، وعلم السلف من معرفتها، وهي راجعة إلى النقل، وموجودة في مدوناتها[3].

واعلم أن اللغة محتاجة إلى علمين: أحدهما في بيان مدلولات الألفاظ العربية، الثاني في بيان أوصافها في المصطلح، من كون هذا اللفظ مثلا في دلالته، حقيقة أو مجازا، منفردا أو مشتركا، أو مرادفا لغيره، ونحو ذلك. وقد تصدى اللغويون للمعنى الأول، ولم يهتبلوا فيما علمنا بهذا الثاني، وهو مهم، ولا شك أنه معلوم من الأول عند أرباب الفن، لأنه إذا فسر

1- ورد في ج: منهم.

2 - تعريف مقتبس من كتاب القاموس المحيط للفيروزبادي.

3- ورد في ج: مدولاتها. كخصائص ابن جني وقد طبع محققا في ثلاثة أجزاء.

لفظ بمعنى، فهو موضوعه، فيكون حقيقة فيه، وإذا فسر لفظ بمعنيين أو أكثر، علم أنه مشترك / فيها، وإذا فسر لفظان بمعنى واحد، علم أنهما مترادفان، وهكذا. 63

ولكن الأولى التعرض له لوجهين: أحدهما تسهيل التحصيل، فإن تتبع أمهات اللغة بالنظر، ليعلم أن اللفظ له موضوع آخر، أو ليس له، يشق على الطالبين لتحقيق الفهوم، وتحصيل المهمات من العلوم. الثاني أنه قد يقع ممن[1] همته في إستيفاء اللغة، ذكر الألفاظ والتعرض لكل ما تطلق فيه، وإن لم يكن بطريق الحقيقة مثلا، وذلك تلبيس ورفع للثقة بموضوع اللفظ ما هو، كما قال القائل «أعرف للسيف خمسين اسما» فقال الآخر «ما أعرف له إلا اسما واحدا» وهو السيف يعني.

والباقي أوصاف، فيكون تحرير هذه الألقاب من المهمات، وذكر الأصوليين لها، إنما هو تعريف لحقائقها في الاصطلاح، مع الالمام بأحكامها في الجملة، من كونها موجودة مطلقا، أو في الكتاب، أو في السنة، فلابد من التعرض لأعيان الألفاظ اللغوية، حتى يعرف في كل لفظ لفظ ما هو، وهو فقه اللغة.

علم الإعراب

وهو العلم الباحث عن أواخر الكلم العربية التركيبية، من حيث الإعراب[2] والبناء، وهذا رسم بخاصة، وإلا فقد وقع البحث في هذا العلم عن غير الإعراب والبناء، كحد الكلمة وتقسيمها، وتعريف أقسامها، وكون الاسم معرفة أو نكرة، عمدة أو فضلة، مقدما أو مؤخرا، مفصولا أو موصولا، إلى غير ذلك مما يكثر.

1– ورد في ج: فمن.

2– قال ابن يعيش: «وإنما كان الإعراب بالحركات هو الأصل لوجهين: أحدهما أنا لما افتقرنا إلى الإعراب للدلالة على المعنى، كانت الحركات أولى، لأنها أقل وأخف، وبها نصل إلى الغرض. الثاني أنا لما افتقرنا إلى علامات تدل على المعاني، وتفرق بينها، وكانت الكلمة من الحروف، وجب أن تكون العلامات غير الحروف، لأن العلامة غير المعلم كالطراز في الثوب». الأشباه والنظائر/2: 31.

والكلمة قول مفرد، وتكون اسما، وهو المستقل بالمفهومية، ولم يدل على الزمان بصيغته، سواء دل على ذات جزئية كزيد، أو كلية كالإنسان، أو معنى كالبياض، أو متصف به كالقائم والمضروب. وفعلا وهو ما دل على الزمان بصيغته، ماضيا كقام، أو حاضرا كيقوم، أو مستقبلا كقم. وحرفا وهو غير المستقل، سواء اختص بالدخول على الأسماء، كحرف الجر، أو على الأفعال، كحرف الجزم، أو لم يختص، كحرف العطف أو الاستفهام، ولا عمل له.

والتركيب الاسنادي، هو تعليق الخبر، أو ما يقوم مقامه، بالمبتدإ أو الفعل، أو ما يقوم مقامه بالفاعل. والكلام اصطلاحا هو المركب المقصود للإفادة، ومنهم من لا يطلب فيه إفادة ولا قصدا، بل مجرد التركيب الاسنادي، وهو الحق، لأن غرض النحوي إنما هو في الألفاظ لاستعمال الإعراب فما[1] له وللمعاني والمقاصد.

والإعراب تغيير آخر الكلمة، لدخول العامل، إما برفع أو نصب أو جر، وذلك في الأسماء، أو برفع ونصب وجزم، وذلك في الأفعال. والبناء لزوم حالة واحدة، والحرف كله مبني، وكذا ما / يشبهه من الأسماء، <في الصورة أو في المعنى، وفي الاستعمال والماضي والأمر من الأفعال. 64

والرفع يكون بالضمة، إلا في الأسماء>[2] الستة وهي: أب، وأخ، و<فم>[3]، <وحم>[4]، ومن، وذو بمعنى صاحب، والجمع المذكر السالم فبالواو، والتثنية فبالألف، والأفعال الخمسة فالبنون ظاهرا في آخر الصحيح، ومقدرا في الألف والياء والواو من المعتل.

1- ورد في ج: فيها.

2- ساقط من ج.

3- سقطت من ج.

4- سقطت من ح.

والنصب يكون بالفتحة، إلا في الأسماء الستة فبالألف، والمثنى والمجموع على حدة فبالياء، وجمع المؤنث السالم فبالكسرة، والأفعال الخمسة فبحذف النون، ظاهرا أيضا في الصحيح، ومقدرا في الألف، والجر يكون بالكسرة، إلا في الأسماء الستة، والمثنى والمجموع فبالياء، وما لا ينصرف، وهو الاسم الشبه بالفعل، في كونه فرعا من جهتين، كأحمد وإبراهيم ومساجد، فبالفتحة ظاهرا في الصحيح، ومقدرا في الألف والياء.

والجزم يكون بسكون، <إلا في>[1] الأفعال الخمسة، فيحذف النون، والمعتل فيحذف آخره، ألفا أو واوا أو ياء.

والمعارف من الأسماء سبعة: مضمر[2]، فعلم، فإشارة، ومنادى، فموصول، فذُؤال ومضاف، وهو بحسب ما أضيف إليه. والمرفوعات: المبتدأ، والخبر، والفاعل، ونائبه، وهي العمد واسم كان وأخواتها، وخبر إن وأخواتها، والفعل المضارع العاري عن ناصب وجازم. والمنصوب الفضلة، وهو المفعول المطلق، والمفعول به، والمفعول له، والمفعول معه، والمفعول فيه، والمستثنى، والحال، والتمييز.

ويلتحق بها خبر كان وأخواتها، واسم إن وأخواتها، ومفعول ظن وأخواتها، والمضارع الداخل عليه: كي، ولن، وإذا، وأن ظاهرة أو مقدرة، والمجرور ما بينهما، وهو الداخل عليه حرف جار، أو المضاف إليه. والتوابع وهي النعت، والتوكيد، وعطف البيان في الأسماء، والبدل، وعطف النّسَق مطلقا بحسب متبوعاتها، والمستثنى إذا حذف المستثنى منه هو بحسب العوامل، وإن كان بعد نفي أو نهي، فالأولى إبداله مما قبله، والمنادى إن كان علما أو نكرة مقصودة، فمبني على الضم، وإلا فمنصوب.

1- ساقط من ج.

2- عبارة عن اسم يتضمن الاشارة إلى المتكلم أو المخاطب أو غيرهما، هذا ما سبق ذكره تحقيقا أو تقديرا. التعريفات: 217.

والعوامل الأفعال، وسائر المشتقات، والحروف فقط، إلا المبتدأ فهو راجع للخبر، والمميز فهو ناصب لتمييزه، لشدة التقاضي، وتمييز العدد القليل، والمائة والألف مجرور، وكذا ما أضيف إليه، وأدخلت عليه من غير ذلك. والجمع إن كان بواو ونون، أو ألف 65 / وتاء، فجمع سلامة، وإن كان بتغيير ظاهر أو مقدر، فجمع تكسير، وهو إما للقلة أو الكثرة، ولكل أمثلة مذكورة في الفن[1]. وكذا النسبة بإلحاق ياء مشددة آخرا، والتصغير بإلحاقها ساكنة في الوسط، والإمالة والوقف، فلتراجع في محالها.

علم التصريف

وهو العلم الباحث عن الكلمة المفردة، من حيث ما يعرض لها من صحة واعتلال، وإبدال ونحو ذلك، وهو والإعراب يسمى علم النحو، فهما كالفن الواحد، إذ لا يتم الأمر إلا بهما معا، ولذا يجمعان غالبا في الموضوعات، غير أن الكثير يصدرون بالإعراب، لأنه هو الأول وضعا، ففيه تكلم الواضع، وهو أمير المومنين علي بن أبي طالب ﷺ ثم وضع التصريف[2] بعد ذلك.

ومنهم من يبدأ بالتصريف، لأن مبحثه المفرد، وهو قبل المركب، وتذكر جملة <منه>[3] في علم الإعراب، كبناء المضارع والأمر، وأبنية المصادر، وأسماء الفاعلين والمفعولين، والصفات المشبهات بها، واسم التفضيل، واسم الزمان والمكان، والآلة والتكسير، والتصغير ونحو ذلك.

1- لمزيد البيان يراجع كتاب: "شرح ابن عقيل على ألفية مالك"، وكذا "شرح الأسنوي"، و"شرح ابن هشام"، وغيرها من الكتب العربية نحوا وصرفا.

2- أول من وضع التصريف معاذ بن مسلم (ت: 127 هـ) بعد أن عمر كثيرا. وأول من أفرد التصريف في النحو وميزه بتصنيف أبو عثمان المازني. الوسائل إلى معرفة الأوائل: 100.

3- سقطت من ج.

وذلك أن علم التصريف قسمان: قسم يرجع إلى تغيير الكلمة لمعنى، كبناء الفاعل والمفعول، وهو المذكور غالبا في فن الإعراب، وقسم يرجع إلى تغييرهما لغير معنى، بل لغرض لفظي، وهو المذكور هنا، ولا مدخل للحرف في التصريف، ولا لما يشبهه من كل اسم ناقص عن ثلاثة أحرف وضعا. والاسم يوضع على ثلاثة كرجل، وعلى أربعة كجعفر، وعلى خمسة كسفرجل، ويبلغ بالزيادة إلى ستة كمستعلم، وإلى سبعة كاستعلام. والفعل على ثلاثة كضرب، وعلى أربعة كدحرج، ويبلغ بالزيادة إلى خمسة كانطلق، وإلى ستة كاستخرج، ولكل أوزان تعرف في محالها، ويعرف الحرف الزائد بعدم اللزوم.

والحروف التي تكون منها الزيادة مجموع «سَأَلْتُمُونِيهَا»، كسين استخرج[1]، وهمزة صحراء، ولام عبدل بمعنى عبد، وتاء اشتبه، وميم مسلم، وواو عصفور، ونون غضنفر[2]، وياء قنديل، وهاء هلقم، وألف ضارب. وحروف العلة: الألف والواو والياء، وتشبهها الهمزة.

وحروف الابدال مجموع: طويت دائما، ويسمى ذلك في حروف العلة أيضا قلبا، فتبدل[3] مثلا الطاء من التاء في مصطبر، والواو من الألف في ضُوَيْرِب، والياء من الواو في استعليت، والتاء من واو اتعظ، والدال من تاء مزدجر، والألف من واو قام، والهمزة من الياء في بناء، والميم من النون في بنام، أي جنان، وتحذف همزة افعل وجوبا في مضارعه، واسم فاعله ومفعوله، وفاء نحو وعد في مضارعه وأمره[4] / ومصدره، إن كان فِعْلة، وجوازا أحد 66 مثل[5] ظل ومس وأحس مبنيا لضمير رفع بارز، ويدغم أول مثلين في الثاني من كلمة،

1- ورد في ج: استخراج.

2- الغَضَنْفَر: الأسد الغليظ الجثة. قال ابن خالويه: «للأسد خمسمائة اسم وصفة».

3- ورد في ج: فيتبدل.

4- ورد في ج: وأمر.

5- ورد في ج و ح: مثلى.

بعد تسكينه ما لم يلقه ضمير رفع فَيُفَكُّ، أو سكون في مضارع مجزوم، أو في أمر فيجوز الادغام[1] والفك.

علم المعاني

وهو العلم الباحث عن الكلام العربي، من حيث مطابقته لمقتضى الحال، ومقتضى الحال هو الاعتبار المناسب في مقام التخاطب، فإنه رب مقام يطلب فيه مثلا الاختصار في الكلام، خوف السآمة أو الاطناب للبيان، أو حذف شيء للعلم به، أو ذكره لزيادة الايضاح، أو توكيد الكلام لرفع الشك، أو نحو ذلك.

فهذا هو ما يعتبر في الكلام البليغ، ولا يعرف ذلك إلا بهذا العلم والبحث فيه، إما عن الجملة الواحدة، أو عن الجملتين، أو عن ما هو أعم. والأول البحث عن الاسناد الخبري، أو الانشائي، وعن المسند إليه، وعن المسند، وعن متعلقاته. والثاني البحث عن عطف الجمل بعضها على بعض، أو تركه وهو الفصل والوصل. والثالث البحث عن الايجاز والإطناب والمساواة[2].

فأما الاسناد فيتعلق به ثلاثة أبحاث: الأول أنه يكون حقيقيا، وذلك حيث أسند الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر، ويكون مجازيا، حيث أسند إلى ملابس له غير ما هو له.

1- هو في اللغة إدخال الشيء في الشيء. وفي الصناعة إسكان الحرف الأول وإدراجه في الثاني. ويسمى الأول مدغما، والثاني مدغما فيه. التعريفات: 14.

2- هي التعبير عن المعنى المقصود بلفظ مساو له لفائدة، وهي المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب. علوم البلاغة: 173.

الثاني: أنه يكون تارة ابتدائيا، وذلك حيث يلقى الكلام إلى <خالي الذهن، فيستغني عن التوكيد، ويكون طلبيا>[1]، حيث يلقى الكلام إلى متردد متشوف، فيحسن توكيده، ويكون إنكاريا، حيث يلقى الكلام إلى منكر، فيجب التوكيد.

الثالث: أنه يكون تارة مطلقا، وتارة بقصر، إما قصر الصفة على الموصوف، نحو ما عالم إلا زيد، أو بالعكس، نحو ما زيد إلا تاجر، ويكون مع ذلك إما قصر إفراد، لقطع الشركة، كما إذا ادعى أن زيدا وعمرا فقيهان معا، فتقول زيد هو الفقيه، أو قصر قلب، لقلب اعتقاد المخاطب، كما إذا اعتقد أن زيدا ليس بفقيه، فتقول زيد هو الفقيه.

وأدوات القصر: النفي، والاستثناء، وإنما، وتوسيط ضمير الفصل، وتقديم المعمول، والعطف، كقولك زيد فقيه لا عمرو.

وأما المسند إليه، فيذكر تارة إما لعدم العلم به، أو لزيادة الايضاح، أو التبرك، أو الالتذاذ باسمه، أو نحو ذلك. ويحذف تارة عند العلم به، إما اختصارا أو اغتناما للفرصة، أو تكرها للاسم، أو نحو ذلك، ويجعل معرفة تارة ليتقرر في ذهن السامع، أو لفائدة أخرى خاصة بطريقه كما عرف في النحو، ونكرة تارة للافراد أو التعظيم، أو التحقير أو نحو ذلك، / 67 ويتبع تارة بشيء من التوابع المعروفة، لاستحصال فوائدها المشروحة في النحو، ويوسط تارة ضمير الفصل بينه وبين الخبر، لقصد القصر، ويقدم تارة لأن ذلك هو الأصل، ولا داعي إلى غيره، أو لكونه مشوقا إلى الخبر، أو للتفاؤل[2] باسمه أو التطيُّر[3]، وقد يقدم وهو ضمير، والخبر فعل، فيفيد القصر تارة، والتقوى أخرى، ومتى كان فاعلا، فلا يقدم إلا مسلوبا عنه الفاعلية، ولا يحذف إلا نائبا عنه مفعوله أو نحوه.

1– ساقط من ج.

2– ورد في ج: التفاؤل.

3– أي التشاؤم. وقيل للشوم طائر وطير وطيرة، لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها، والتطير ببارحها ونعيق غرابها.

وأما المسند، فيحذف ويذكر أيضا لنحو ما مر، ويكون إسما لإفادة الثبوت، وفعلا لإفادة التجدد، والتقييد بزمان ما، ثم يقيد بمفعول ونحوه، لازدياد الفائدة، وقد يعرف أو يقدم لافادة القصر، أو التشويق[1]، أو التفاؤل[2]، أو نحو ذلك.

ومتعلقات الفعل تذكر لإرادة معناها، وقد تحذف إما إختصارا مع العلم بها فَتُقَدَّر، وإما لتنزيل الفعل منزلة اللازم، وتقدم لإفادة القصر كما قبله، أو الاهتمام، أو لمحافظة على وزن أو قافيه، أو فاصلة، أو نحو ذلك.

والجملة الانشائية تلتحق بالخبرية، في كل ممكن دخوله فيها، وطرق الانشاء: الأمر والنهي، والدعاء والعرض، والتحضيض والتمني، والاستفهام، ويكون الاستفهام بالهمزة لطلب التصور[3]، نحو أزيد قائم أم عمرو؟، والتصديق نحو أقام زيد؟ وبهل لطلب التصديق فقط، نحو هل قام زيد؟، وبالبواقي لطلب التصور فقط، إما ذاتا أو زمانا أو مكانا كما علم في النحو، وقد يراد التهويل، أو الاستبطاء، أو التعجب، أو الوعيد، أو الانكار، أو نحو ذلك.

وأما الفصل والوصل، فإن كان بين الجملتين انقطاع، بأن تختلفا[4] خبرا أو إنشاء، أو لا يكون بينهما جامع أو اتصال، بأن تكون الثانية بيانا للأولى، فالفصل وإلا فالوصل.

وأما الايجاز والاطناب والمساواة، فأمور نسبية، والايجاز يكون إيجاز حذف، بأن يحذف من الكلام بعضه، كالمسند إليه أو المسند، أو الشرط، أو الجزاء، أو نحو ذلك فيقل، ويكون إيجاز قصر[5]، بأن يعبر باللفظ القليل الدال على المعنى الكثير اقتدارا، كما كان ﷺ

1- ورد في د: للتشويق.

2- ورد في د: للتفاؤل.

3- ورد في ج: التصوير.

4- ورد في ج: تخلفا.

5- ورد في ج: إيجازا قصرا.

«أعطي جوامع الكلم» «واختصر له الكلام اختصارا». والاطناب يكون بالايضاح بعد الابهـام، وذكر الخاص بعد العام، ونحو ذلك. ومتى حذف من الكلام ما يتم به المعنى، أو زيد فيه ما لا حاجة إليه [من البيان][1]، فهو إخلال أو تطويل غير مقبول.

علم البيان

وهو العلم الباحث عن معنـى اللفـظ العربـي، مـن حيـث إيـراده بطـرق مختلفـة، في وضوح الدلالة، وإنما يتأتى الاختلاف في الدلالة الالتزامية، وقد مر ذكرها في المنطق، / فـإن 68 أريد اللازم، مع عدم صحة إرادة الملزوم فمجاز، وإلا فكناية. والمجاز قد يكـون بالمشـابهة، فاحتيج إلى ذكر التشبيه، وانحصر الفن في ثلاثة مباحث:

الأول التشبيه: وهو الدلالـة علـى مشـاركة أمـر لأمـر، بالكـاف ونحـوه، ولـه أربعـة أركان: المُشَبَّه، والمُشَبَّه بِه، وأداة التّشْبِيه، ووجه الشَّبَه. وكل مـن الطرفـين والوجـه يكـون حسيا وعقليا، مفردا ومركبا، والمفرد قـد يكـون مقيـدا، وهـو إمـا خفـي أو ظـاهر، بعيـد أو قريب، مقبول أو مردود. والأداة وهي الكاف ونحوها، إما مذكورة أو متروكة.

الثاني المجاز: وهو مفرد ومركب، والأول الكلمة المستعملة في غير ما وضعت لـه، في اصطلاح التخاطب، مع قرينة ما نعة عن إرادة ما وضعـت لـه، ولابـد مـن علاقـة تصحـح الإطلاق، وإلا كان كذبا أو غلطا، فإن كانت العلاقة غير المشابهة، بـأن أطلـق اسـم السـبب للمسبب، أو العكس، أو المتعلق للمتعلق، أو الجزء للكل، ونحو ذلك، سمـي مرسـلا[2]، وإن كانت مشابهة سمي استعارة، فهي مبنية على التشبيه المذكور، بحـذف أحـد طرفيـه، مـع الأداة والوجه، فإن كان المذكور لفظ المشبه به مطلقا على المشبه، كقولك رأيت أسـدا، تريـد

1- ساقط من د و ج.

2- مثال ذلك قولنا: جلت يده عندي، وكـثرت أياديـه لـدي. ومنـه قولـه ﷺ لأزواجـه: (أَسْرَعُكنَّ لُحوقاً بِي أَطْوَلُكنَّ يَداً) إذا المراد بسط اليد بالعطاء والبذل. علوم البلاغة: 230.

رجلا كالأسد شجاعة، فهي الاستعارة التصريحية، ويقال التحقيقية، فإن كان اللفظ اسم جنس عينا كما مثلنا، أو مصدرا فهي أصلية، وإن كان مشتقا، أو كانت في الحرف فهي تبعية، وإن كان لفظ المشبه مرادا به المشبه به، كقولك المنية أنشبت أظفارها بفلان، فهي الاستعارة بالكناية.

وفي تقريرها قولان: أحدهما أن المشبه كالمنية، أريد به المشبه به، وهو الأسد، ولكن لا حقيقة بل إدعاء، ثم يتخيل له شيء يشبه الأظفار، فيشبه بها، وتضاف إلى المنية، لتكون قرينة، وهي من الاستعارة التصريحية[1] السابقة، إلا أن معناها موهوم غير متحقق. ثانيهما أن كلا من المنية والأظفار حقيقة، إلا أنه لما أضمر تشبيه المنية بالأسد في النفس، أضيف إليها ما هو من خواص الأسد، وهو الأظفار، فيكون قرينة، فيسمى التشبيه المذكور إستعارة مكنية، وإضافة الأظفار إستعارة تخييلية، وهما في هذا الرأي فعلان من أفعال النفس، فالمكنية لابد لها من تخييلية على القولين، والجاري على التقسيم هو القول الأول.

الثالث الكناية: وهو لفظ أريد به لازم ما وضع له، مع جواز إرادته معه، والمطلوب بها إما ذات الشيء، على ما هو شأن التعاريف، كقولك رأيت حيا عريض الأظفار، مستوى القامة، تريد إنسانا، وإما صفة كقولك / رأيت رجلا كثير الرماد، ومهزول الفصيل، تريد مِضْيَافاً. وإما نسبة الشيء إلى الشيء، كقولك المجد بين ثوبيه، أي فيه. 69

واعلم أن هذه العلوم الخمسة[2]، هي العلوم اللغوية، وبها قوام البلاغة، المطلوب إدراكها في القرآن العظيم، ليعرف وجه إعجازه للخلق، بناء على أن إعجازه بفصاحته فيتقوى الإيمان والتصديق، وتعرف أسراره ودقائق معانيه، وكذا في كلام رسوله ﷺ. وهذه

1- ورد في ج: التحقيقية.

2- يعني: علم اللغة العربية، وعلم الإعراب، وعلم التصريف، وعلم المعاني، وعلم البيان.

فائدة البلاغة جملة في الشرع، ولكل من اللغة والنحو فائدة أخرى خاصة، هي معرفة مدلول الألفاظ، إفرادا وتركيبا.

فاعلم أن البلاغة تدرك بأمرين: أحدهما الذوق، كما تدرك الملاحة في الوجه بذلك، وهذا للعرب أهل السليقة، ثم للسماسرة من علماء اللسان المرتاضين بهذا الشأن. الثاني تعرف هذه العلوم المذكورة، فنقول البلاغة هي «مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحته» أما المطابقة المذكورة، فتعرف من فن المعاني كما تقدم، وأما الفصاحة، فهي عبارة عن كون الكلام مفرداته متناسبة الحروف.

وهذا يعرف بالذوق، ومانوسة الاستعمال، وهذا يعرف من فن اللغة، وموافقته القياس، في التصحيح والاعلال[1]، والابدال[2] ونحو ذلك، وهذا يعرف من علم التصريف وتراكيبه متناسبة الكلمات، وهذا أيضا يعرف بالذوق، وجارية على القياس، وهذا يعرف من علم الإعراب، وسالمة من التعقيد، وهو إما في اللفظ، وذلك بكثرة التقديم والتأخير، والفصل بين الأشياء المتوالية، ونحو ذلك، ويعرف من علم النحو. وإما في المعاني، بالانتقال إلى اللوازم الخفية والبعيدة، وما لا يصح لزومه، وذلك في باب الكناية والمجاز، وهذا يعرف من علم البيان.

فقد تبين[3] الاحتياج إلى هذه العلوم، في تعريف البلاغة مع الذوق، وإنما أطلق على البلاغة في الغالب على المعاني والبيان فقط، لأنه بهما تحصل بالفعل، وهي فائدتهما، بخلاف الفنون الأخرى، فلها فوائد أخرى، كما أشرنا إليه. وا لله الموفق.

1- هو تغيير حرف العلة للتخفيف.

2- هو أن يجعل حرفا موضع حرف آخر لدفع الثقل. التعريفات: 7.

3- ورد في ج: بين.

علم الطب {وما يتوقف عليه من علوم طبيعية}

وهو العلم الباحث عن بدن الإنسان، من حيث حفظ صحته حاصلة، واسترجاعها زائلة، كما مر تعريفه. فموضوعه بدن الإنسان، وغايته حفظ البدن، الذي هو مركب النفس، لتتفرغ لاستحصال كمالاتها علما وعملا، وفي ذلك طيب الحياة والممات، فله بذلك مع شرف موضوعه، باعتبار المركبات شرف عظيم، وقد ظهر وجه أخذه في الملة[1].

70 واختلف / في أصل الطب والواضع، فقيل هو إلهام من ا لله تعالى، وقيل إن شِيث[2] ابن آدم هو الذي أظهره، وقيل علمه ا لله إلياس[3] عليه السلام، وقيل حصل بمنامات، وقيل بالقياس، وقيل بالتجربة، وقيل بالإتفاق، وقيل غير ذلك، والكل محتمل.

وظهر أن البحث فيه عن أمرين: أحدهما حفظ الصحة لئلا تزول بوجود المرض، الثاني استرجاعها إذا زالت، وذلك إزالة المرض، فهو بابان: باب حفظ الصحة، وباب علاج المرض، ولابد <من>[4] جملة من العلم الطبيعي، تكون مقدمة له، يستعان بها فيه، فكانت الأبواب ثلاثة:

الباب الأول: في المقدمات الطبيعيات

وفيها ذكر الأركان، والمزاج، والأخلاط، والأعضاء، والأرواح، والقوى، والأفعال، ويدخل التشريح في الأعضاء، فهي سبعة مباحث.

1- ومن ذلك ما أخرجه البخاري في كتاب الطب: (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً).

2- معنى شيث: هبة الله. وسمي كذلك لأنه ولد بعد أن قُتل هابيل، وكان عمر أبيه آدم مائة وثلاثون سنة. تاريخ الطبري/1: 76 – البداية والنهاية/1: 109.

3- هو المذكور في قوله تعالى بعد قصة موسى وهارون ﴿وَإِنَّ إِلْيَاس لَمِنَ الْمُرْسَلِين﴾ الصافات: 123.

4- سقطت من ج.

المبحث الأول: في الأركان

وتسمى العناصر والأُسْطُقْسَات[1]، وهي أربعة: النار والهواء والماء والتراب، ولها كيفيات أربع هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، واثنان من الأركان خفيفان، وهما النار والهواء، واثنان ثقيلان، وهما الماء والأرض، واثنتان[2] من الكيفيات فعليتان، وهما الحرارة والبرودة، واثنتان[3] انفعاليتان[4]، وهما الرطوبة واليبوسة، ولكل عنصر كيفيتان، فإنه لا تستقل الواحدة، ولا يمكن إجتماع الجميع، لما بين الحرارة والبرودة، وبين الرطوبة واليبوسة من التضاد.

فالأرض طبعها البرد واليبس، وهي وسط الجميع، وليس فيها حركة، بل عليها أو إليها يتحرك الغير، وخاصتها الاستمساك، وحفظ الأشكال. والماء طبعه البرد والرطوبة، ومحله الطبيعي أن يكون محيطا بالأرض، محاطا بالهواء، وخاصته قبول التشكيل، ولكن لا يحفظه، فإذا اجتمع بالتراب، أفاده الماء قبول التشكيل، وأفاده التراب الاستمساك، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾[5]. والهواء طبعه الحرارة والرطوبة، ومحله أن يكون محيطا بالماء محاطا بالنار، وخاصته التلطيف والخلخلة. والنار طبعها الحرارة واليبوسة، ومحلها تحت مُقَعَّر فلك القمر، فهي محيطة بالعناصر كلها، وخاصتها أن تلطف وتنضج وتولج الهواء، وتكسر سورة البارد.

1- أي الأصول جمع "إسطقس" لفظ يوناني بمعنى الأصل.

2- ورد في ج ود: اثنان.

3- ورد في ج ود: اثنان.

4- ورد في ج: فعليتان.

5- يس: 38 - فصلت: 12.

وهذه العناصر أجسام بسيطة، تشرف بذلك غيرها من أجسام عالم الطبيعة، وهو ما تحت فلك القمر، ويقال له عالم الكون والفساد، لقربها من العالم الأثير وهو العلوي[1]، وأقربها النار، ثم هكذا، ومنها تركب غيرها، وهو / المولدات الثلاثة: المعدن والنبات والحيوان.

71

والدليل على كل من الحصر والتركيب، الاستقراء، وقد دل القرآن على تركيب الإنسان، الذي هو أشرف المولدات منها، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾[2] وقال أيضا ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[3] وهو التراب والماء، وقال أيضا ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[4] فالصلصال الطين اليابس، وذلك مما فيه من الحرارة، وهو الجزء الناري، والمسنون المتغير الريح، وهو الجزء الهوائي. وأيضا المشاهدة قاضية أن الماء ينزل من السماء، فيختلط بالأرض، وتمسه الشمس بحرارتها، ويخلخله الهواء، فيحدث بإذن الله النبات، ثم يتغذى به الحيوان، ثم الإنسان بالحيوان.

واستدل الحكماء على تركيبه، بأنه إذا فسد ينحل إليها، فلو[5] وضع لحم على نار، تقاطرت منه أجزاء مائية، وتصاعدت أجزاء بخارية هوائية، وتقاعدت أجزاء أرضية، ولابد من جزء ناري فيه، يعين على النضج، وهذا محتمل، ومحل تحقيق هذا منه[6]، وللطبيب أن يأخذه مسلما، وليس في شيء منه ما يضر، بعد العلم بأن الفاعل هو الله تعالى، ولا تأثير

1- ورد في ج: العلو.

2- الروم: 20 - فاطر: 11 - غافر: 67.

3- السجدة: 7.

4- الحجر: 26-28-33.

5- ورد في ج: فإذا.

6- ورد في ج: فيه.

لغيره، وإنما الأمور عادية يوجد الشيء عندها [لا بها][1]، وسنزيده تنبيها في محله إن شاء ا لله.

وهذه العناصر بحسب كيفياتها، تكون مفردة، فيقال حار يابس، رطب بارد، وقد يحدث لها بحسب التجاور والامتزاج طبع مركب، فيحدث بين الحار واليابس مركب، هو الحار اليابس، وبين الحار والرطب مركب، هو الحار الرطب، وبين اليابس والبارد مركب، هو اليابس البارد، وما بين الرطب والبارد مركب، هو الرطب البارد. فهذه أربع أخرى، منها يفهم ما بعده.

الثاني: المزاج

وهي كيفية متوسطة متشابهة، تحدث عن تفاعل العناصر عند تمازجها، واحترزنا بذكر المتوسطة، عن توابع المزاج، كاللون والسَحْنَة. وإيضاح المقصود، أنهم زعموا أن العناصر المذكورة، إذا اجتمعت أثر كل منها في الآخر، بكَسْرِ سَوْرَتِه[2]، فتنخلع[3] صورة كل من المتزجين أو المتزجات، ويحدث عن المجموع صورة أخرى، كصورة الحبر الحادث عن الزاج[4] والعفص[5] والصمغ، بعد ذهاب صورها، وكالصورة الحادثة عند امتزاج العسل واللّبَن وهكذا.

1- ساقط من د وح.

2- يقال سَوْرة الخمر: حدتها. وسورة السلطان: سطوته واعتداؤه. وسورة البرد: شدته.

3- ورد في ح: فتخلع.

4- نوع من الأحجار، وجمعه زاجات، تتولد من أجزاء مائية وأجزاء أرضية محرقة. وخاصته عند القدماء أنه إذا دخن البيت بالزاج هرب من رائحته الفأر والذباب.

5- شجرة جبلية، يقال إن شجرة البلوط تثمر سنة بلوطا وسنة عفصا، وهي بهذا الاعتبار كالخنثى.

{عقيدة اليوسي في الامتزاج}

ونحن نقول الامتزاج صحيح، والصورة صحيحة، ولكن ذلك بقدرة الفاعل المختار، وعند ذلك لا به، فلا تأثير لكيفية ولا مجاورة، بل التأثير كله للواحد المختار، وهاهنا ضل من يسند شيئا من الآثار لغير المولى جل جلاله، من الطبائعيين والفلسفيين، ومن يقفو أثرهم عن غير بصيرة، من جهال المليين[1]، وكذا من يحيص[2] عن هذه العلوم، لاحتوائها على هذا الخبث، فليس ذلك / دأب أهل الاستبصار من النُظّار، فاجن الثمار وخل العود للنار. 72

نعم، لم يزل العلماء يُقَرِّرون هذه الحقائق بعباراتهم، اكتفاءا باصطلاحاتهم عن تكلف شيء آخر، ثم لابد من التنبيه على الحق، وربما يستغنى عن ذلك إن كان واضحا.

ثم هذا المزاج، إما أن يعتبر في البدن معتدلا حقيقيا، بأن تتساوى فيه الكيفيات الأربع، وهذا لا وجود له، إذ لو تساوت لتمانعت بإذن الله، فلو كانت الحرارة مثلا المقتضية للحركة، تقاومها البرودة المقتضية للسكون، لزم أن لا يكون متحركا ولا ساكنا، فسقط البحث عنه، ولا يراد بالاطلاق، وإما أن يعتبر معتدلا بالاضافة، بأن يركب على ما يليق به في جنسه أو نوعه، أو صنفه أو بلده، وتجعل فيه الحرارة مثلا غالبة أو البرودة بقدر ما يستقيم، فيقال معتدل في الاصطلاح، كما لو زاد مركب الحِبْر في العَفْص أكثر، وفي الصمغ بحسب اللائق، فيكون حبرا معتدلا، من العدل في الصنعة لا من الاعتدال في الوزن، وكذا المزاج، فإن انحرف عن ذلك، بأن غلبت فيه كيفية أخرجته عن الاعتدال المذكور، نسب إليها، فيقال مزاج حار، لغلبة الحرارة فيه على الافراط، ومزاج بارد كذلك، ورطب ويابس، وإن غلبت فيه كيفيتان نسب إليهما، فيقال حار رطب وهكذا.

1- المنسوبون إلى ملة الإسلام من الفلاسفة وأهل الفرق.

2- حاص حَوْصا وحِياصَة حوله: حام.

وهي ثمانية أقسام: أربعة مفردة، ومثلها مركبة، وقد تقدمت في ذكر الأركان، ويعرف كل بأمارته، في السحنة واللون، وسيأتي ما يغني عنه، وفي الصنف: فالذكر فيه الحرارة واليبس، والأنثى بالضد، وفي السن: ففي الطفولية والشباب الحرارة، مع الرطوبة في الأول، واليبوسة في الثاني، وفي الكهولة: البرودة واليبوسة، وفي الشيخوخة: أكثر.

الثالث: في الأخلاط

والخلط جسم رطب سيال، يستحيل إليه الغذاء، وأنواعه أربعة: الدم والصفراء والبَلْغَم والسَّوْدَاء، وهي أصول ثوان، فالعناصر المتقدمة أركان للبدن أولية، والأخلاط ثانية، وهي متشعبة من الأولى، متحملة كيفياتها، فالدم متحمل طبع الهواء، وهو الحرارة والرطوبة، والصفراء متحملة طبع النار، وهي الحرارة واليبس، والبلغم متحمل طبع الماء، وهو البرودة والرطوبة، والسوداء متحملة طبع الأرض، وهو البرد واليبس. وسيأتي ذكر كيفية الاستحالة عند ذكر القوى إن شاء الله.

وكل منها طبيعي وغيره، فالدَّمُ الطَّبِيعِي أحمر حُلْو لاَ نَتْن له، وغيره بخلافه، والدم صنفان: دم في القلب، / رقيق أحمر قليل، وهو مطية الروح الجاري في الشريانات، وهي العروق المتحركة، ودم في الكبد أحمر غليظ كثير، منه يغتذي البدن. 73

والصفراء طعمها مر، والطبيعية[1] منها حمراء ناصعة، مسكنها المرارة، وغيرها ثلاثة: صنف يقال له المُحِيُّ، نسبة إلى مح البيضة، لشبهه به، وآخر يقال له الكراثي، شبيه بورق الكراث في اللون، وآخر يقال له الزنجاري، وزاد بعضهم رابعا أصفر اللون، ولعله يرجع إلى المحي، وزاد ابن سينا[2] آخر، يعرف بالدخاني، فيكون أسود اللون.

1- ورد في د وج: الطبيعة.

2- الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا (370-428 هـ)، الطبيب الفيلسوف، صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة. شذرات الذهب/3: 234 - وفيات الأعيان/2: 160.

والبلغم الطبيعي منه أبيض غليظ، لا طعم له، وغيره ثلاثة: زجاجي، وهو أبرد وأرطب وحامض، وهو أقل بردا ورطوبة، ومالح يابس باعتبار غيره.

والسوداء طعمها حامض، والطبيعي منها عكر الدم، ومسكنه الطحال[1]، وغيره ما يوجد عند احتراق الدم غليظا مسودا.

وهذه الأخلاط الأربعة، يختلف بها المزاج، بحسب ما غلب عليه منها، فينسب إليه، ويقال مزاج دموي، إذا غلب عليه الدم، بسبب غلبة الحرارة والرطوبة، ومزاج صفراوي وبلغمي وسوداوي، ويعرف كل بعلاماته.

فعلامة المزاج الدموي كثرة اللحم، وشدة العصب، وعظم النبض، وغلبة الضحك والنوم، وحمرة اللون، والانتفاع بإخراج الدم، ورؤية الألوان الحمر، والدماء، وطرو الأمراض الدموية.

وعلامة الصُّفْراوي النَّحَافة، ورقة الجلد والصفرة، وكثرة العطش، وقلة النوم، وحدة الخلق، وكثرة الضجر، وسرعة الحفظ والنسيان، والشجاعة، وسرعة الغضب والرضى، ورؤيا النيران، والألوان الصفر، والحركات والجدال والقتال، وطرو الأمراض الصفراوية.

وعلامة البلغمي البياض والثقل، وبرد الملمس، وكثرة النوم، وقلة الشعر، وبُطْوُ نباته، والسمن، وبلادة الفهم، والتضرر بالبارد، ورؤيا المياه والرطوبات، وكثرة النسيان، والأمراض البلغمية.

وعلامة السوداوي نحافة البدن ويبسه، وقلة النوم، وسوء الخلق والجبن، والجمود، وسوء الظن، وقلة البسط، ورؤيا الأهوال المفزعة، والأماكن الضيقة والقذرة، والسود، وكثرة الشَّبَق[2]، مع التضرر بالجماع، وطرو الأمراض السوداوية.

1- ورد في ج: الطيحال.

2- من شَبِقَ شَبَقاً: اشتدت شهوته الفاسدة، فهو شَبِق.

وربما غلب على المزاج خلطان، فتركبت العلامات بذلك، ولا تنحصر العلامات

74 فيما ذكرنا، ومرجعها إلى أثر الطبع، فكل كيفية من / الأربع، تقتضي بإذن الله أثرا يستدل <بظهوره>[1] عليها، وعلى خلطها، كما يستدل بالأثر على المؤثر. والطبيب من يكون ماهرا في تلك الآثار، حاذقا في تعرفها عند ظهورها، وكلما ازداد الخلط قوة، ازدادت العلامات ظهورا، والبدن المعتدل هو المعتدل في اللون والسحنة، والنوم وسائر الأحوال، وقد يكون له اعتدال في البعض دون البعض، وهو المعيار الذي يعرف به غيره.

الرابع: في الأعضاء البدنية

وهي متولدة من الأخلاط، كما تولدت الأخلاط من المزاج، وتولد المزاج من الأركان، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى واقتداره، ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

وتنقسم الأعضاء إلى بسيطة ومركبة، فالبسيطة المؤتلفة من أجزاء متفقة، فيسمى الجزء فيها باسم الكل، كالعظم لو أخذ بعضه سمي عظما. والمركبة المؤتلفة من أجزاء مختلفة، يكون لكل منها اسم وَحَدٌّ يخالف اسم الكل وحده، وهي الأعضاء الآلية كاليد.

فالبسيطة: العظم، والعصب، والرباط، والوتر، والعضل، والعروق، والشحم، واللحم، والغشاء، والجلد، والشعر، والظُّفْر، والدم، والبلغم، والسوداء، والصفراء، والمخ، والروح. ومنهم من يعد الغضروف مكان العضل، وهو الصواب، لأن العضل مركب كما يأتي.

أما العظام فتشد البدن كالعمد للبنيان، وطبعها البرد واليبس، قيل وفي الجسد مائتان وثمانية وأربعون عظما، سوى عظام صغار جدا تسمى السُّمْسَمِية، فمنها عظم الرأس، وهو كخشب سقف، وجعل فيه دروز وهي ألواحه، ولم يجعل عظما واحدا، لتنفذ منه الأبخرة

1- سقطت من ج.

2- الأعراف: 190 - النمل: 63.

وتلج العروق والفِقَار المتصل به، وجعل خُـرَزاً[1] منفصلة، ليتأتى معه الانعطاف، ومجوفا ليسري فيه النخاع لمصلحته الآتية، وأطبق[2] فيه الفك الأعلى على الأسفل كطبقتي الرحا، وفي الأعلى أربعة عشر عظما، وفي الأسفل عظمان، وغُرِزَت فيهما ثنتان وثلاثون سنا بعضها للقطع[3]، وبعضها للطحن بالدوران كشأن الرحا. وفي الظهر سبع عشرة فقرة، وأربع وعشرون ضلعا، لصيانة[4] أعضاء الصدر، وجعلت كذلك لامكان التنفس، وفي العنق سبعة أعظم، ومثله في الصدر، وفي التَرقُوَة[5] عظمان، ونذكر غير ذلك في القسم الآخر. والغضروف عظم رطب ينثني، يكون عند اتصال اللحم بالعظم واسطة.

75 والعصب / جسم أبيض، لين الانعطاف، صعب الانقطاع، ينشأ من الدماغ أو من النخاع نشأ حبال الخباء، ويفيد البدن كله ما يفيد النخاع من حس وحركة، لسريان الروح الحساس فيه، وهو أيضا بارد يابس، ولكن أقل من العظم. قيل وجملتها ثمانية وثلاثون زوجا وفردا، ينشأ منها الدماغ، ثمانية أزواج للحواس الخمس، والأعضاء المجاورة لها يكون بها الحس والحركة بإذن الله، وعصبتا العينين مجوفتان <والباقي كله مصمت وينشأ الأحد والثلاثون والفرد من النخاع>[6] من خلف، ولذا إذا قطع العنق من تم مات سريعا، لانعدام الحس والحركة، بانقطاع الأعصاب.

1- ورد في د: عروقا.

2- ورد في ج: أطلق.

3- ورد في د: للمضغ.

4- ورد في ح: لصيانته.

5- الترقوة جمع التراقي، وهي العظم الذي في أعلى الصدر، بين ثُغْرة النحر والعاتق. يقال: بلغت روحه التراقي: أي شارف الموت.

6- ساقط من ج.

والرِّباط عصب صغير، يصل بين أطراف العظام، فيربطها لئلا تنفك، ولا حس فيه، وهو بارد يابس أيضا، ولكن أقل مما قبله. والوَتَر عصب أيضا رقيق، والفرق بينه وبين الرباط، أن الوتر ينشأ من العضل، ويتوسط بينه وبين الأعضاء حين الحركة، بالانجذاب والانفتال، والرباط في العظام المفصلية كما مر.

والعروق قسمان: ساكنة ومتحركة، فالساكنة منشأها من الكبد، وهي سارية في البدن ومنها يغتذي، وتسمى الجداول والأوردة، وفيها يقع الفَصْد[1]. قيل وجملتها ثلاثمائة وستون عرقا، والمقصود منها عادة إثنان وأربعون. وفي البدن عروق أخرى صغار جدا مشتبكة باللحم، منها يخرج الدم عند الشرط. والمتحركة منشأها من القلب، وتسمى الشريانات، تحمل دما قليلا وروحا كثيرا إلى سائر البدن، وهي التي يُجَسُّ بها على البدن عند النبض، ويستدل بها على أحوال البدن. وجملتها أيضا ثلاثمائة وستون عرقا.

والشَّحْم دم منطبخ جدا، يبقى من فضلة الغذاء، ولذا لا يوجد إلا في كامل الغذاء، وطبعه البرد واليبس، مع ميل إلى الحرارة، ومنفعته حفظ الرطوبة والتسخين، بما يمسكه من الروح الحيواني لكثافته، ومتى أفرط أطفأ الحرارة، فيبرد الجسم ويهلك، ولذا كان الموت إلى الغليظ أسرع منه إلى النحيف، وأبخرته تلائم الروح، ولذا يكثر الفرح في السِّمَان.

واللَّحْم تُعَمَّر بها الأفضية، فمنفعته عظيمة. وقيل هو آلة حس اللمس، وطبعه يختلف باختلاف وصفه، فالأحمر منه حار رطب، وما خالطه الشحم ناقص الحرارة، والغددي منه مفرط الرطوبة، والغشاء جسم رقيق عصباني، جعله الله تبارك وتعالى تحت الجلد الظاهر، صونا لأعضاء شريفة، كالقلب والدماغ والكبد.

والجِلْد هو وعاء جميع البدن وصوانه، وهو مسكن حاسة اللمس، ولم يكس بالوبر ونحوه كالحيوانات، لئلا ينتقص حسه، ولأن صاحبه عاقل / يحتال في ستر نفسه وتدفئته، 76 ومنه لطيف شفاف، كجلد الوجه ينفذ فيه لون الدم، فيزينه ويحسنه، ومنه غليظ كجلد

1- من فصد فصدا وفِصادا المريض: شق عرقه.

باطن القدم لمباشرة الأرض، ففيه شبه ما في الحوافر، ومنه ما خص بمزيد الاحساس، كبطن الراحة[1]، لملاقاتها الأشياء، فسبحان ﴿اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾[2]. ومزاج كل من الغشاء والجلد، الحر واليبس.

والشعر نبات يتكون من الأبخرة المحترقة البارزة، وهو بارد يابس يميل إلى الحر. ومنفعته الوقاية والزِّينَة، وجعله اللطيف الحكيم لطفا، وإلا تأذى به البدن كرؤوس الإبر، وغير مؤلم بالحصد والقطع كالأعضاء، وإلا طال طولا بشيعا.

والظُّفر نبات أيضا، يتكون من مادة غليظة تدفعها الحرارة، ليكون وقاية ومعينا على الحك، وإخراج الشوك، وتنقية الجرح مثلا، والحل والربط، وقد يكون التهارش[3] به كالسلاح، وفي الحديث (الظفر مدى الخبشة)[4] وهو أيضا بارد يابس.

والمُخُّ نوعان: مخ الدماغ، وهو مسكن القوى الحساسة كما سيأتي، ومزاجه الحر والرطوبة مع الميل إلى البرد، ومخ العظام، وهو بارد رطب مائل إلى الحر، لتندية العظام وحفظ الرطوبة، ولولا هو بإذن الله لتفتت وانكسرت، كما شوهد فيها إذا خلت منه. والأخلاط تقدمت. والروح سيأتي.

وأما الأعضاء المرَكَّبة: وهي الآلية، أي التي جعلها الله آلة لأفعال خارجا وداخلا، وهي مركبة من أعضاء بسيطة، وهي الأركان الروابع للبدن، كما أن البسيطة ثوالثها، والأخلاط ثوانيها، والعناصر أوائلها، وهي: العضل، والدماغ، والنخاع، والعين، والأنف، والأذن، واللسان، والفم، واللَّهاة، والحنجرة، والقصبة، والرئة، والقلب، والحجاب،

1- جمع راحات: واحدة الراح أي الأكف، باطن اليد.

2- الأنعام: 103 - الملك: 14.

3- يقال هَارشَ فلان فلانا: أي واثبه وخاصمه.

4- لم أقف عليه.

والمري، والمعدة، والأمعاء، والثّرب، والكبد، والطحال، والمرارة، والكلية، والمثانة، والرّحم، والثدي، والقضيب، والأنثيان.

فالعَضَل جسم مركب من أعصاب ولحم <وعروق ورباطات>[1] وأوتار، قد اشتبك بعضها في بعض، وهو آلة لتحرك الأعضاء الآلية. قيل وجملة العضل خمسمائة وتسع وعشرون عضلة، وهي تستر أيضا [وتمسك الحياة][2]، تمسك الحرارة الغريزية على البدن.

والدماغ جسم رطب لين فيه تجاويف، هي بطونه، بطنان مقدمان وبطن مؤخر، يستقر فيها الروح الحيواني، وفيه خزانة الحس المشترك، والفكر والحفظ والوهم، واستقصاء لطائفه ومحال قواه، ومبادئ العروق والأعصاب منه، لا يمكن في هذا المختصر.

والنّخاع من جرم الدماغ، ينفذ في تجاويف الفقارات، ويحيط به كالدماغ غشاءان غليظ ورقيق، وكل منهما يعطي بإذن ا الله الحس والحركة، ويبطل ذلك ببطلانهما.

77 والعَيْن / طليعة البدن ومحل الابصار، وهي مركبة من سبع طبقات، وثلاث رطوبات، وتسع عضلات وأعصاب متصلة بالعضل رقاق، وعصبة مجوفة في كل عين كما مر. فالطبقة الأولى من خارج تسمى الملتحمة، وهي بياض العين. والثانية القرينة وهي صلبة. والثالثة العِنَبِيَّةُ وهي حذقة العين، ويختلف لونها في الناس، فقد تكون سوداء أو شهلاء[3] أو زرقاء، وفي داخلها الرطوبة البيضية[4]، كلون بياض البيض. والرابعة العنكبوتية تشبه نسج العنكبوت في رقتها، وفي داخلها الرطوبة الجليدية، تشبه الجليد في بياضه وصفائه، وبهذه الرطوبة يكون الابصار، وبعدها الرطوبة الزجاجية تشبه الزجاج الذائب.

1- ساقط من ج.

2- ساقط من د و ج.

3- يقال عين شهلاء: أي يخالط سوادها زرقة.

4- ورد في ج: البيضة.

والخامسة الشبكة وهي مؤلفة من عروق صغار، تشبه شبكة الصياد. والسادسة المشيمية تشبه المشيمة في كونها وعروقها. والسابعة الصليبية[1] وهي عظم العين، أو لاصقة به.

والأَنْف آلة حس الشم، ومخرج فضول الدماغ. والأذن آلة حس السمع، وهي مركبة من لحم وغُضْرُوف، وعصب حساس. واللسان آلة حس الذوق، والإبانة عما في الضمير، وتقليب الغذاء في الفم، وغير ذلك. وهو مركب من لحم رخو، وغضروف وشريان، وغشاء حساس.

والفم باب المعدة الأول، ومدخل الطعام والشراب، ومنبع اللُّعَاب المشيع له. واللَّهَاة عضو عصبي منطبق على الحنجرة من أعلى، ليكسر من برد الهواء الداخل إلى الرئة، ويحفظ من دخول الغبار، ويعين آلة الصوت. والحنجرة طرف قصبة الرئة، وهي مخرج الصوت. والرئة جسم خفيف للترويح على القلب، وتحريك آلة الصوت.

والقَلْب جسم صَنَوْبَري الشكل، مخروطه في وسط الصدر، مائلا إلى الجانب الأيسر، مركب من لحم وليف، وغشاء صلب، ومنه تنشأ الشرايين الحاملة للروح كما مر. وهو أشرف الأعضاء، وسنزيده كلاما عند ذكر القوى إن شاء ا لله تعالى.

والحجاب هو الفاصل بين الصدر والبطن، مركب من لحم وعصب حساس. والمري مجرى الطعام إلى المعدة، من لحم وعصب.

والمَعِدة وعاء الطعام، من لحم وعصب وعروق، وسنزيد فيها بيانا عند ذكر الهضم، إن شاء ا لله. والأمعاء أجسام عصبانية، منها كبار وصغار، وكل لحكمة بالغة كثيرة الليات، لينزل الغذاء بتدريج، فتتدرج التغذية والبروز. والثُّرْب[2] رقيق قشر <يغشى>[3] الكرش والأمعاء.

1- ورد في ح: الصلبية.

2- ورد في د و ج: اللزب.

3- سقطت من ح.

والكبد عُضْوٌ لَيِّنُ الجوهر، كمنعقد الدم مـن لحـم وشـريان، ووريـد وغشـاء حسـاس،

78 ومنها تنبعث الجداول كما مر. والطِّحَال[1] عضو / نحيف الجوهر، من لحم وشريان وغشاء حساس، يستقر فيه فضل السوداء، لينقي الدم ويسري منه ما يسد فم المعدة، وينبه الشـهوة بالحموضة. والمرارة صرة غشائية تتصل بمقعر الكبد، ويستقر فيها فضل الصفراء، وتطلق منه شيئا إلى المعي يغسله من الوضر، ويلدغ فينبهه على الحاجة للتبرز.

والكِلْيَة من لحم قليل وشحم كثير، ووريد وشريان، وغشاء له حس تمص مائية الدم، ولها عرقان يمصان ما تمصه في المثانة. والمثانة بناء مثلثة صـرة غشـائية، عصبيـة مـن وريـد وشريان، وموضعها بين العانة والدبر، بأسفلها عرق عصبي، يندفع منه البول إلى الاحليل.

والرحم وعاء كالمثانة عصباني، يتسع وينضم كذكـر معكـوس، لـه أنثيـان في أسـفله. والثدي مركب من لحم غددي أبيض، لمناسبة اللبن، وله عروق للحلـب والانضـاج، وحَلَمَـة ينفصل اللبن من مساسها.

والقضيب وهو الاحليل، آلة زراقـة للمـني، مركـب مـن لحـم قليـل وعصـب وعـروق وشريانات. والأنثيان اثنتان كالثديين لانضـاج المـني، مـن لحـم ووريـد وشـريان، متعلقتـان بأسفل القضيب، في فضاء متسع، لئلا يلحقهمـا انضغـاط عنـد الوِقَـاع. فسـبحان ﴿الْحَكِيـمُ الْعَلِيمُ﴾[2].

واعلم أن الأعضاء تنقسم أيضا إلى رئيسية، لكونها مبـدأ القِوَى، وهـي القلـب، وهـو مبدأ قوة الحياة. والدماغ، وهو مبدأ قوة الحس والحركة. والكبـد، وهـو مبـدأ قـوة التغذيـة. والأنثيان، للتناسل. فيحتاج إلى هذه الأربع، لبقاء النوع الإنساني، وإلى الثـلاث الأولى لبقـاء الشخص. وإلى خادمة للرئيسية، وهي الشرايين للقلب، والأعصاب للدماغ، والأوردة للكبد،

1- ورد في ج: الطيحال.

2- الزخرف: 84 – الذاريات: 30.

وأوعية المني للأنثيين. وإلى مَرْؤُوسة، وهي التي تجري إليها القوى من الرئيسة، كالكلي والمعدة، والطحال[1] والرئة[2]، وإلى غير ذلك، كالعظام والغضاريف.

الخامس: في الأرواح

واعلم أن الأطباء تكلموا على الروح، ولم يعنوا بها الروح الأمري[3]، الذي أمسك النبي ﷺ عن الكلام عنه[4]، فمن زعم أنه تركه في هذا المحل، مخالفا لهم واتباعا للسنة، فكأنه لم يقف على مرادهم. فالأطباء لما شاهدوا للإنسان أفعالا وحركات صادرة عنه، علموا أن ذلك، إنما كان بإذن الله تعالى، عن قوى فيه، وتلك القوى إنما كانت عن حياة، وتلك الحياة إنما كانت عن روح، فتكلموا أولا في الروح، وعنوا به جسما لطيفا بخاريا، فهو من الأمور المتعلقة بالمزاج..

79 وقسموه إلى ثلاثة أقسام: روح طبيعي ينبعث من الكبد، من بخار دمه النقي / من الفضلات، ويسري في العروق التي هي الأوردة، إلى جميع البدن، وبه يكون الاغتذاء والنمو، الذي يشارك الإنسان فيه سائر الحيوان والنبات. وروح حيواني يتولد في القلب، من بخار الدم الصافي، وينبعث في الشرايين إلى سائر البدن، وبه يكون الحس والحركة الإرادية، التي يشترك فيها الحيوان كله، ويمتاز به عن النبات. وروح نفساني يتولد في الدماغ، من بخار الروح الحيواني، وينبعث في الأعصاب، وفي بطون الدماغ، فما تحصل منه في البطن المقدم،

1- ورد في ج: والطيحال.

2- ورد في ج: والرية.

3- ورد في ح: الأمر.

4- وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء: 85. وللتوسع في مبحث الرح يراجع كتاب "الروح" لابن القيم الجوزية.

يكون به[1] الحس والخيال، وما تحصل منه في المؤخر، يكون به الذكر، وما تحصل منه في الوسط، يكون به الفكر، وهو النفس الناطقة، التي امتاز بها الإنسان، وسائر الحيوان. وهذا الروح، هو مركب الروح الأمر[2]، كما أن البدن مركب القوى والأرواح.

السادس: في القوى الصادرة عن الأرواح

وهي مثلها ثلاث: قوة نفسانية في الدماغ، وقوة حيوانية في القلب، وقوة طبيعية في الكبد. فأما النفسانية فتسعة أصناف: وهي أولا ثلاثة: المدبرة ويقال السياسة، والمحركة، والحساسة.

فالسياسية ثلاثة: المخيلة، وهي في مقدم الدماغ، تجتمع فيها الأمور المحسوسة بعد غيبوبتها، عن الحس المشترك. وقوة الذكر وهي في مؤخر الدماغ، تبقى فيها الأشياء المحفوظة[3]، <بحيث لو أريد استرجاعها رجعت. وقوة الفكر وهي في وسطه، وهذه هي المتصرفة في الأشياء المخزونة>[4]، بحمل المحمولات على موضوعاتها، واستخراج النتائج من محالها. وقد تعتبر الخزائن خمسا: خزانة الحس المشترك، وهي مجمع المحسوسات حالة الإدراك، وهي في أول البطن المقدم من الدماغ. وخزانة الخيال، وهي في آخر هذا البطن كما مر. وخزانة الفكر، وهي في الوسط. وخزانة الوهم، تجتمع فيها الجزئيات غير المدركة بالحس، مثل صداقة زيد، وعداوة عمرو، أما مطلق الصداقة والعداوة مثلا، فهي فكرية. وخزانة الحفظ، ويقال الحافظة، تبقى فيها هذه الأشياء كما مر.

1- ورد في ج: له.

2- ورد في ج: الأمري.

3- ورد في ج: المخزونة.

4- ساقط من ج.

والمحركة بالارادة، قوة تنفذ من الدماغ، ومن النخاع في الأعصاب، إلى العضل المحركة للأعضاء الحركة الإرادية. والحساسة خمسة: قوة البصر، ومحسوسها الأجرام وألوانها وأكْوانها. وقوة السمع، ومحسوسها الأصوات. وقوة الشم، ومحسوسها الروائح. وقوة الذوق، ومحسوسها الطعام. وقوة اللمس، وهي سارية في البدن. وقد يقال إما مدركة وإما محركة. والمدركة إما ظاهرة، وهي الحواس الخمس، وإما باطنة، وهي السياسية كما مر. وقد يقال المدركة إما باعثة، تدعو إلى الحركة نحو المنافع، والمظنون 80 نافعا، وعن الضار، / أو المظنون ضارا، وإما فاعلة يكون بها التحرك كما مر.

وأما الحيوانية، وهي قوة يستعد بها الجسم، لقبول الحس[1] والحركة، فصنفان: فاعلة ومنفعلة. فالفاعلة يكون بها إنبساط القلب والعروق والشرايين، والمُنْفَعلة بها يكون الغضب والرضى، و المحبة والبغضة.

وأما الطبيعية فثلاث قوى: وهي العادية والمنمية والمولدة. فأما العادية فتخدمها أربع قوى وهي: الجاذبة والممسكة والهاضمة والدافعة، وزاد بعضهم خامسة، وهي المُمَيِّزة، وبعضهم سادسة، وهي الملصقة، وبعضهم سابعة، وهي المشبهة.

وشرح هذه الجملة، وبيان كيفية استحالة الغذاء إلى الأخلاط، على ما وعدنا به أن نقول والتوفيق با لله تعالى، أن للطعام هضما في ثلاثة مواضع: الأول في المعدة، الثاني في الكبد، الثالث في الأعضاء.

وكل هضم فبالقوى الأربع المذكورة. فإذا مضغ الإنسان الطعام، وقد حصل له أيضا في ذلك هضم ما، تحركت القوة الجاذبة[2]، فجذبته بإذن ا لله تعالى إلى المري، فإذا استكمل الأكل، واستقر الطعام كله في معدته، استراحت الجاذبة، وتحركت الممسكة، فحبسته في

1- ورد في ج: الحسي.

2- سميت الجاذبة لأنها تجذب النافع من الغذاء، وهي موجودة في سائر الأعضاء، لأن كل عضو يجذب ما يوافقه، وغذاء كل عضو يخالف غذاء الآخر.

المعدة، وأغلقت بابيها[1] لئلا ينفذ عنها، فإذا قبضت عليه المعدة، استراحت المُمْسِكة، وتحركت الهاضمة، فاشتغلت بطبخه، بما فيها من الحرارة، وما فيما يليها من الأعضاء، حتى إذا كمل طبخه[2]، بأن صار ككشك الشعير، وهو حشيشه، ويقال له الكيلوس تشبيها بالكلَس، وهو الجبس في لونه، فحينئذ تستريح الهاضمة وتتحرك الدافعة، فتدفع الطعام عن المعدة، من فمها الأسفل، ويعرف بالبواب إلى معي متصل به، يعرف بذي الاثني عشر أصبعا، لأن مقداره في كل شخص إثنا عشر أصبعا بأصابعه، فيغتذي هذا المعي من الطعام بما يوافقه، ثم يدفع الباقي إلى معي آخر تحته يعرف بالصائم، وهو الدوارة في العرف، فإذا استقر في الدوارة، اجتذبت الكبد بلته على عروق صغار بينهما، تعرف بالمساريقا، ويبقى الثفل في الدوارة، وتستقر تلك البلة في عروق الكبد، وهو محل الهضم.

الثاني، ويقال لذلك الحاصل الكِيمُوس[3]، فتطبخه الطبخ الثاني، حتى يصير دما، وتغتذي منه بما يوافقها، وتميز الباقي بالقوة المميزة، التي زيدت في العدد، وتخرج منه دما عكرا أسود غليظا، ودما رقيقا أصفر كثير المائية، وزبدا أبيض، ودما قِرْمِزِياً خالصا، فيجذب الطحال[4] عكره، فيغتذي منه بما يوافقه، ويصير الباقي مرة سوداء، وتجذب 81 / المرارة منه الرقيق الأصفر الماوي، وتغتذي منه بما يوافق جوهرها، ويصير الباقي مرة صفراء، وترسل مائيته إلى الكِلاَ، تدفعها إلى المثانة، وفيها بقية صفرة من الطبخ، فتخرج

1– ورد في ج: ما فيها.

2– ورد في ج: الطيخ.

3– ورد في ج: الكيموسي. وهي كلمة يونانية: الخلط، أو الحالة التي يكون عليها الطعم بعد فعل المعدة فيه.

4– ورد في ج: الطيحال.

بولا، وتجذب الرئة[1] زبده لينطبخ فيها، فيصير بلغما، وترطب منه جرمها لئلا يدركها اليبس من شدة الحركة.

وأما الدم الآخر، فما رقّ منه وصفا، يندفع إلى القلب، فيغتذي منه بما يشاكل جوهره، ويرسل الباقي في الشريانات الحاملة للروح كما مر، وما بقي في الكبد، تبعثه في الأوردة التي فيها إلى أعضاء البدن، وذلك محل الهضم الثالث. فقبل كل عضو ما يشاكل طبعه وهضمه هضما ثالثا، فيصير أبيض صافيا، وهو المني، ويصيره شبيها به، ويكون إلصاق الغذاء بالعضو وتشبهه به، بالقوة الملصقة والمشبهة المزيدتين فيما مر.

ثم يغتذي العضو بما يشاكل جوهره، كما أن غذاء الشجر من الماء والأرض، ويصير في العود عودا، وفي الورق ورقا، وفي الثمر ثمرا، وفي الزهر زهرا، وفي الحلو حلوا، وفي الحامض حامضا، كذلك الغذاء في الجسد، وهو المني المذكور، يصير في اللحم لحما، وفي العظم عظما، وفي الجلد جلدا، وفي العصب عصبا، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2].

فهذا بيان منشإ الأخلاط من الغذاء، ونشأ الأعضاء من الأخلاط، ثم إن فضل عن الأعضاء شيء زائد على غذائها، أرسلته الطبيعة <بإذن الله، على جداول لطيفة>[3] إلى أوعية المني، فتخرجه عند الحاجة إلى إخراجه بجماع أو احتلام، وما بقي مما لا تنتفع به الأعضاء من فضلة الغذاء، تدفعه من مسام البدن عرقا من الجلد، ورمصا من العين، ووسخا من الأذن، ومخاطا من المنخرين، ونخامة من الخيشوم، وبزاقا من الفم، ونفثا وبخارا من سائر البدن، وتولد من غليظه الشعر لتنفي عنه البدن، مع ما في الشعر من الزينة والستر وشد العضو، وهذا كما تنفي الطبيعة النباتية، فضلة الغذاء النباتي إلى الظاهر قشورا وَلِيَفا وصمغا، ونحو ذلك.

1- ورد في ج: الرية.

2- المومنون: 14.

3- ساقط من ج.

وأما المُنَمِّيَة، فهي التي تزيد في أقطار الجسم طولا وعرضا، إلى أن يبلغ ما قدر له، وقيل إنها تخدمها قوة تفعل ذلك.

وأما المُوَلِّدَة، فهي التي تتصرف لبقاء النَّوْع، كما أن اللتين قبلها <لبقاء>[1] الشخص، وهذه تخدمها قوتان المُغَيِّرة وَالمُصَوِّرَة، فأما المغيرة فهي التي تغير المني في الرحم، من نطفة إلى علقة إلى مضغة، ولا تعطيه صورة، والمصورة تفيده الصورة، أي شكلا ما ومقدارا ما وعددا ما. وقيل المولدة على صنفين: صنف يحصل المني، وصنف يفصل قواه، بحسب كل عضو عضو[2]، ويقال لها المغيرة الأولى، والمصورة يحصل عنها / تخطيط الأعضاء وتشكيلاتها، وهي المغيرة الثانية. وقيل التغير[3] هو طبخ المني حتى يصلح[4] للتصوير، ثم التصوير بعد ذلك.

82

السابع: في الأفعال الصادرة عن القوى

وهي آثار تنشأ عن القوى السابقة، وتنقسم بحسب الجنس إلى ثلاثة، على عدد القوى، فمنها ما يضاف إلى القوى الطبيعية، كنفوذ الغذاء والتغذي، والتوليد والتنمية. ومنها ما يضاف إلى الحيوانية، كالتنفس. ومنها ما يضاف إلى النفسانية، كالاحساس. ثم منها ما يتم بقوة واحدة، وهو المفرد، كالجذب عن الجاذبة، والهضم عن الهاضمة. ومنها مركب لا يتم إلا بقوتين، كالتنفس الذي يتم بانقباض وانبساط، أو بثلاث كالتوليد بالمغيرة بقسميها والمصورة كما مر.

1- سقطت من ج.

2- كلام منقول بالمعنى عن ابن سينا من كتابه "القانون في الطب".

3- ورد في ج: التغيير.

4- ورد في ج: يصطلح.

{وجه الاعتقاد الصحيح في الأمور الطبيعيات}

تنبيه: وقد فرغنا من الأمور الطبيعيات، على وجه الاختصار، وأنت ترى في خلالها انفعال شيء عن شيء، على ما هو إعتقاد الطبائعيين الضالين المضلين، فإياك وأن تعتقد شيئا من ذلك على ظاهره، فتنسب أثرا ما في شيء ما لغير الله تعالى، كلا وإنما الآثار كلها لله تعالى، فلا يصدر شيء في الوجود إلا وقد تعلقت به القدرة الأزلية، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والأسباب المتقاربة أسباب عادية، يكون الفعل من الله تعالى عندها لا بها، فمن أسند إليها فعلا فقد أشرك مع الله غيره، تعالى عن ذلك، ومن ألغاها رأسا فهو جاهل بحكمة الله تعالى، وبديع صنعته.

ومثل هذا الحديث في العقاقير الآتية، فالله تعالى ببارع حكمته، قد اختص بعض الموجود، بما لم يختص به غيره، من وجود أثر عنده أو مصلحة، فلابد أن يكون لذلك الموجود بذلك مزية على غيره، كما أن من اختصه الله تعالى، من أشخاص بني آدم بنفع ومصلحة، كالأنبياء ومن تبعهم من العلماء، لهم المزية بذلك على غيرهم من الأشخاص الإنسانية.

الباب الثاني: في حفظ الصحة

وهذا أول المقصود بالذات من هذا الفن، وتقديمه على الذي بعده مناسب، من جهة أن الصحة أسبق وأغلب، والصحة حالة للبدن[1] تجري معها الأفعال على المجرى الطبيعي، وقد تكون كلية، أي في جميع البدن، أو جزئية أي في بعضه[2]. وحفظها يكون بالدواء والغذاء، وتدبير ما لابد من تدبيره.

1- ورد في ج: البدن.

2- ورد في ج: بعضها.

وقد قسموا الطب كله قسمة أخرى غير ما ذكرنا، إلى علم وعمل، والمراد بالعلم الاطلاع على حقائق الأشياء، وعلى خواصها ولوازمها، وذلك في خمسة أمور: الأول الطبيعيات وقد تقدمت./ الثاني الأمور الضروريات لبدن الإنسان، وسنذكرها. الثالث الأمراض وذكر اختلافها، وما يقع منها شاملا للبدن، وما يختص بعضو بسيط أو مركب. الرابع الأسباب الموجبة لها، وتقسيمها إلى بادية وواصلة وسابقة، وسنذكرها في الباب الثاني. الخامس في الأعراض الحادثة في الأفعال والأحوال، وتذكر عند ذكر الأمراض. 83

والعمل منه ما يكون باليد كالفصد والحجامة، والشرط وجبر المكسور. ومنه ما يكون بإعطاء الغذاء والدواء، ونحن قد اختصرنا في التقسيم، فأردنا أن يكون كل ما سوى الطبيعيات من الأمور العلمية، داخلا في البابين، فإن الحديث عن تدبير أمر أو استعماله، أو معاناة زواله يتضمن العلم به، بذكر بيانه، وهو أحصر.

فاعلم أن الأمور الضرورية، التي الإنسان مطلوب بمراعاتها، لحفظ صحته ستة: الأول الهواء. الثاني المأكول والمشروب. الثالث النوم واليقظة. الرابع الحركة والسكون. الخامس الاستفراغ والاحتقان. السادس الحركات النفسانية.

فأما الهواء[1]، فلا محيد للإنسان عنه، لأنه محيط به وفيه منفعته،، فإن الروح شديدة الحرارة واللّطافة، يضر بها الاغتمام، فَخُلِق لها الهواء معدلا ببرودته ومنفسا عنها، فإن كان صالحا معتدلا صلحت، وإن تغير فلابد من تدبيره، واختلافه إما أمر طبيعي، يلحقه من جهة الفصول، فإن في الربيع الاعتدال، وفي الصيف الحرارة واليبس، وفي الخريف البرد واليبس، وفي الشتاء البرد والرطوبة.

وقد تنحرف الفصول عن حالها لعارض، فيبرد الصيف مثلا، ويسخن الشتاء، فيختل[2] الهواء، وإما شيء يعرض له من النواحي أو الرياح أو الجبال أو التراب، فإن

1- ورد في ج: الهوى.

2- ورد في ج: فينتحل.

الجنوب أحر وأرطب، والشمال بالعكس، وإن كان الجبل من ناحية الجنوب، كان الهواء أبرد، وبالعكس فالعكس، ، والتربة الصخرية أيبس، والطينية أرطب، وقد يحدث للهواء احتقان وتَعَفُّن، فيتأذى من يستنشقه، كما يحدث لبرك الماء التعفن، فيتأذى من يشرب منها، وهذا هو المراد بالوباء عندهم، فينبغي للإنسان أن يتحفظ من الهواء الفاسد، بأن يستعمل ما يصلح ذلك الفساد، أو ما يقاومه، أو يهرب عنه إلى هواء لم يفسد.

وأما المأكول والمشروب، فلابد للإنسان عادة منهما، وتقدم أن الغذاء هو المستحيل إلى الأخلاط، ومن ذلك تنشأ الأعضاء البدنية، فتصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

84 واعلم / أن المطعومات كلها، تتخذ إما غذاء وإما دواء، والفرق بينهما، أن ما أريد به تنمية البدن غذاء، وما أريد به قهره هو دواء. وقسموا المجموع إلى ستة أقسام: غذاء مطلق، وهو الذي يتغير عن البدن، ولا يغيره ويشتبه به، ودواء معتدل، وهو الذي يتغير عن البدن، ولا يغيره ولا يشتبه به، وغذاء دوائي، وهو الذي يتغير عنه ويغيره، ويكون آخر شأنه يغيره البدن ويتشبه به. ودواء مطلق، وهو الذي يتغير عن البدن ويغيره، ويكون آخر شأنه يغير البدن من غير أن يتشبه به، ودواء سمي، وهو الذي يتغير عن البدن ويغيره، ويكون آخر شأنه إفساد البدن، وسم مطلق، وهو الذي لا يتغير عن البدن ويفسده.

وينقسم الغذاء إلى لطيف وكثيف، وكثير التغذي وقليله، وحَسَن الكيموس وَرَدِيه، فلابد أن يراعى الطعام كيفية وكمية، ووقتا وترتيبا.

فأما الأول، فيختلف باختلاف الأمزجة، فليس ما يصلح للبلغمي كما يصلح للصفراوي وهكذا، فلابد من مراعاة مزاج البدن، وطبع الطعام. وقالوا إن حفظ الصحة يكون بالمشابه، فالحار يصلح له الحار، والبارد يصلح له البارد، والمعتدل بالمعتدل، وإبراء المرض يكون بالضد، وسيأتي. وكون الصحيح يعتبر له ما يناسب طبعه، هو المفهوم من كلام القدماء، ولبعض المتأخرين مناقشة بما يطول تقريره.

وحاصله استحباب الاعتدال، مع ميل إلى الطبع فهو أسلم، ويستدعي هذا المحل

ذكر المطعومات كلها، من لحوم وحبوب، وفواكه وخضر، وأشربة ومعاجين، وما لكل من طبع وخاصية، وكثيرا ما يفرد ذلك بالتأليف، ونحن نعرض عنه لسهولة[1] أمره، ولأنا لم نقصد في هذا الكتاب إستيفاء كل فن من الفنون، فإن ذلك لا يسعه موضوع عادة، بل ضبطها والاشارة إلى جمل منها، تنبه على ما وراءها، ونؤثر ذكر القوانين على الجزئيات، وا لله الموفق.

وأما بحسب الكمية، فقد تطابق النقل والعقل، والمِلَّة والفَلْسَفَة، على مدح التقلل من الطعام، وذَمِّ الاسراف، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[2] وقال النبي ﷺ (حَسْبُ ابْن آدَم لُقَيْمات يُقِمْن صُلْبَه، فإن كَان ولاَبُد، فَثُلث للطَّعَام، وثُلْث لِلشَّرَاب، وَثُلْث لِلنَّفْسِ)[3] وقَال جالينوس: «الحمية طابع الصحة» وقال هَرمُس[4]: «وجدنا الحمية / نافعة للدين والدنيا، احتمى أهل الدنيا فصحت أبدانهم، ففازوا بالصحة، واحتمى أهل الآخرة فصحت أديانهم، ففازوا بالجنة».

85

غير أن ذلك مختلف باختلاف طباع الناس، فالضابط فيه ما قال إمامنا مالك رضي الله عنه، في وصيته «أن تضع يدك من الطعام وأنت تشتهيه، وترفع وأنت تشتهيه» وهكذا قال الطبيب للرشيد بمحضر الأطباء، حيث قال لهم « ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه » والقصة مشهورة ذكرناها في غير هذا الكتاب.

1- ورد في ج: لسهولته.

2- الأعراف: 31.

3- ابن ماجة في سننه كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، بألفاظ مغايرة.

4- يقال هو إدريس النبي عليه السلام، وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها، وأثبت لها الشرف والوبل... راجع ترجمته مع بعض حكمه في الملل والنحل: 219.

فهذا ضابط لا ينخرم، وحاصله أن لا يأكل إلا بعد الجوع الصادق، ويرفع قبل الشبع، لتتغلب الطبيعة على الطعام، ويعرف الجوع الصادق، بأن لا يختار طعاما على طعام، وأن لا ينتظر للخبز مثلا إداما، ولا تماطل الشهوة إذا صدقت.

وأما وقته فقيل أقله أكلة بين اليوم والليلة، وأكثره أكلتان، وأوسطه ثلاث أكلات في يومين، وقيل غير ذلك. ولا ينضبط أمر الناس بذلك. وعندي أن الضابط المذكور في الكيفية يكفي عن هذا، وإنما يحتاج إلى هذا من يطلب مزيد جوع، من أهل الرياضة من الصوفية لصلاح القلوب.

وأما الترتيب، إذا اجتمعت أطعمة مختلفة، فيقدم الغليظ على الرقيق، والكثيف على اللطيف[1]. وقيل العكس، ويقدم الرطب والملين على الجاف والممسك، ويجعل في زمن البرد سخينا بالحس، وفي زمن الحر باردا، ولا يطال[2] زمن الأكل لئلا يرد المتأخر، وقد شرع الهضم في الأول، فيقع في البَرَدَة[3] المنهي عنها. قيل وكثرة الألوان محير للطبيعة، مفسد للهضم، لقلة مراعاة[4] حسن الترتيب.

وأما الماء، فكالطعام تعتبر له الكمية والكيفية، والوقت والترتيب. أما الكمية، فأن يشرب حتى يروى، وهو القدر الذي تطلبه الطبيعة للطبخ، فإن جاء عطش بأثره، فليدافعه حتى يعلم أنه صادق. وأما الكيفية، فتعلم من العلم بمحمود الماء ومذمومه، وهو مذكور في الفن لا نطيل به.

1- ورد في ح: الرقيق.

2- ورد في ج: يطيل.

3- واحدة البرد، التخمة وقيل إنها سميت بذلك، لأنها تبرد المعدة فلا تستمرئ الطعام ولا تنضجه.

4- ورد في ج: مراعات.

وأما الوقت، فعند العطش الصادق، وذلك عند انحدار الطعام عن[1] فم المعدة، واشتداد الهضم، فتستغيث المعدة على الماء، لئلا يقع احتراق أو فساد، والناس في هذا أيضا يختلفون بالمشاهدة. والأطعمة تختلف أيضا، فالمالح والحار واليابس يفتقر إلى الماء / سريعا، ما لا يفتقر إليه غيره. 86

وأما الترتيب، فكما وصف الشارع ﷺ حيث أمر أن يمص الماء مصا ولا يعب عبا، فإن العب ربما وقع معه انغلاق فم المعدة، فينحرف الماء عن مجراه ولا ينفع، فيموت الإنسان عطشا.

وأما النوم، فتراعى أيضا كيفيته وكميته، ووقته وترتيبه. فأما الكيفية، فإنه يكون على الظهر وعلى البطن، وعلى الجنب الأيمن والأيسر، ولكل منها منافع ومضار مذكورة في الفن، والأقرب الجنب الأيمن[2]، ثم الأيسر على ما سيجيئ. وأما كميته، فالأكثر منه يطفئ الحرارة الغريزية، ويملأ الدماغ فضولا، ويرخي البدن، وربما أفسد العقل، وقلته تضعف وتبرد، وتيبس وتخفف الدماغ، وتولد الفكر والهم والوسواس، فأفضله المعتدل، ووقته الليل، اللهم إلا لعارض يقتضي النهار لسهر الليل، لعارض وعدم كفاية، كالأيام الطوال، أو يكون تعب.

1- ورد في ج: على.

2- ومما أخرجه البخاري في ذلك في كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء قوله ﷺ: (إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ).

وأما ترتيبه، فقيل ينبغي أن يبدأ عن جنبه الأيمن، فيأخذ نومة، ثم يمتد على بطنه يسيرا، حتى تغلب عليه السنة، ثم يستريح يسيرا على قفاه، ثم ينقلب على جنبه الأيسر، ويستوفي عليه نومه، وإذا عرف مقدار النوم عرف مقدار اليقظة.

وأما الحركة والسكون، فاعلم أن الحركة في الجملة، توثر الحرارة[1] الغريزية ما لم تفرط، فتحللها وتبرد، والسكون مبرد مطفئ لها، فالرياضة محتاج إليها لتنمية الحر الغريزي، وتحليل الفضول، وتصليب[2] الآلات، وأنواعها كثيرة، كالمشي والجري، والمصارعة، والركوب برا وبحرا، والدلك، والمحمود من ذلك، استعمال كل عضو خاص فيما خلق له، على الاعتدال، والبدن كله فيما يصلح له، ووقتها بعد خلاء المعدة، إلا الشديدة فلا تكون على ضعف.

وأما الاستفراغ والاحتباس، فلابد منهما للبدن، فإن كانا معتدلين حفظا صحته، وإن اعترض احتباس ما يطلب استفراغه، إما لقوة المسكة، أو لضعف في الدافعة، أو الهاضمة، أو إنسداد في المجاري، أو فقد الاحساس بالحاجة إلى الدفع، أو انصراف الطبيعة إلى جهة أخرى، كحالة المرض، فيجب أن يبادر باستصلاح الفاسد، وإزالة العارض، وإن كان العكس فكذلك.

ومن جملة ما يقع به ذلك الحمام، فلابد أن يراعى فيه الاعتدال، فلا يكون حارا جدا ولا فاترا، واعتدال المكث فيه، وكذا[3] الجماع، فإنه يخفف عن البدن، ويبسط النفس، وينفع ذا البدن الحار الرطب الدموي لكثرة تولد المني فيه، فيتضرر بعدم استفراغه، وإلا فضرره أقرب وأكثر، فإن المني مادة البدن كما مر، فلا ينبغي أن

1- ورد في ح: تثير للحرارة.

2- ورد في ح: وتطيب.

3- ورد في ح: وكذلك.

87 يخرج / منه إلا ما فضل، وأفضل كيفياته أن تستلقي على ظهرها وهو عليها، ولا يجامع في حال تعب، ولا بعد إستفراغ، ولا مع شبع أو جوع، أو فرح[1] مفرط أو غيظ.

وأما الحركات النفسانية، فالفرح والهم، والخوف والحب، ولابد من مراعاتها، إذ الفرح يقوي النفس، ويحرك الحرارة الغريزية، فإن أفرط فربما أطفأها، فيقع الهلاك. وقد دخل الجماز على المتوكل[2]، فقال له المتوكل تكلم، فإني أريد أن أستبرئك، فقال له الجماز بحيضة أم بحيضتين، فضحك، فقال له الفضل[3] وزيره أضحكت أمير المؤمنين، فقد ولاك جزيرة القرود، فقال الجماز إسمع وأطع، يعني فهو منهم، فانبسط المتوكل وأمر له بعشرة آلاف درهم، فمات الجماز فرحا.

والهم يضعف النفس، ويطفئ الحرارة الغريزية، ويشعل الغريبية (كذا؟)، ويهدم الجسم، وكذا الخوف والحسد والحب. وبالجملة، فالروح يتأثر لهذه التصورات، والحركات الباطنة، تأثرات مختلفة، فلابد أن يحترز منها، إما بالهرب عن مظانها، وإما بإطفائها، وكسر صولتها إذا وقعت، كالاستعاذة للغضب[4]، على ما ورد في الحديث. وقد يتأثر لتصورات أخرى خارجة، كما يشمئز الإنسان عند جر الحجر على الحجر مثلا، ويسيل لعابه عند رؤية من يأكل الحوامض، وعند تذكرها، ويتمطى أو يتثاوب عند رؤية من يفعل ذلك، إلى غير هذا.

1- ورد في د وج: فرط.

2- هو جعفر المتوكل، الذي بويع بالخلافة سنة 232 هـ، فرفع المحنة بخلق القرآن، وأظهر السنة، وأمر بنشر الآثار النبوية. قتله غلمان ابنه المنتصر بإيعاز منه سنة 247 هـ. تاريخ الخلفاء: 320.

3-. يبدو أنه وقع تصحيف في اسم هذا الوزير الذي هو الفتح بن خاقان وليس الفضل.

4- تضمين للحديث الذي رواه الترمذي عن معاذ بن جبل في كتاب الدعوات، باب ما يقول عند الغضب ونصه: (عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِ أَحَدِهِمَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ غَضَبُهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).

وأما تدبير الفصول، فالربيع لكونه معتدلا، تتقوى فيه القوى، ولا تكاد تضر الأغذية فيه، فإن الفصل يجبرها، ولا بأس بالرياضة الكثيرة فيه والجماع، ويكون الفصد في يوم صاح، مع الراحة والبسط، وتجنب الهم والغضب، والخوف والفكر، ودرس الكتب، والجماع والسهر، والصوم وسائر التعب، في صدر النهار، لا على جوع وامتلاء.

وأما الصيف، فلكونه حارا يابسا، ينبغي أن يجتنب فيه كل حار من الأطعمة والأشربة، كالعسل والثوم، والعصافير والحمام، ويؤكل فيه كل بارد رطب، مثل لحم العجل السمين، بالخل والقرع، ويؤكل القِثّاء والبطيخ ونحو ذلك، ويخفف اللباس فيه، والرياضة والجماع، ويترك السهر، ويراد نوم القائلة.

وأما الخريف، فلكونه باردا يابسا، تتقوى فيه السوداء، وتضعف القوى، فينبغي أن يجتنب فيه كل شيء بارد يابس من الأطعمة، كخبز الذرة، ولحم المعز الكبير، والبقر، والباذنجان، والكرنب والخل، ويستعمل فيه ما كان حارا رطبا، كالفراريج والخرفان، والجداء والسليخ(كذا؟)، والجزر والحمص، والبيض النمريشت(كذا؟)، والعنب الحلو، ومن أفضل الأشياء فيه الحليب، ويشم القطران فيه، / ويتدفي فيه باللباس، فإن برده مضر، ويترك فيه السهر والجماع، ولا بأس بالحمام. 88

وأما الشتاء، فلكونه باردا رطبا، يمال فيه إلى الأغذية الحارة، كلحوم الطير، وفراخ الحمام، والفراريج والعصافير، وتستعمل فيه الرياضة والجماع، وكثرة الأكل والتدفي.

واعلم أن تدبير الفصول عند الأطباء، يكون بحسب طباعها المذكورة، لا بحسب الأيام كما عند الفلكيين، فلو عرض مثلا برد[1] شديد في يوم من الربيع، فليجعل من قبيل الشتاء، ويدبر تدبيره وهكذا، وتدبر الحبلى خصوصا بترك الفصد والحجامة والاسهال، وتجنب الفزع والأصوات الهائلة، وشم روائح الأطعمة بغتة، والمرضع بتركها من الجماع،

1- ورد في ج: بردا.

وأن لا تلزم الدعة والسكون، لئلا يفسد لبنها، والطفل بالتحفظ على شكله عند التقميط[1]، وعند التنويم، وعلى حواسه وأخلاقه، فلا يترك لغضب شديد، ولا غم ولا سهر، ويتخير له في الرضاع، فإنه يغير الطباع، وما ذكرنا من التدبير في الفصول، وكذا ما قبلها، إنما هو في حق الشخص المعتدل المزاج، فإن غلب عليه خلط، فلابد أن يدبر بحسب ما يليق به، وله حكم المريض بحسبه.

الباب الثالث: في علاج المريض

ويعرف حد المرض من نقيض حد الصحة، لأن بينهما التضاد أو العدم والملكة، وللمرض أسباب ثلاثة: البادئ والسابق والواصل، فالبادئ ما لم يكن ذاتيا، من سوء المزاج أو الخلط، بل أمرا خارجيا، كحرارة الهواء، أو نفسانيا، [كحرارة][2] الغضب والهم. والسابق هو السبب البدني، ويكون بينه وبين المرض واسطة، كالامتلاء الموجب للعفونة، الموجبة للحمى بإذن الله تعالى. والواصل، ما يباشر المرض، كالعفونة، وبعضهم يسمي السابق المتقادم.

وأنواع المرض في الجملة، سوء المزاج، وفساد التركيب، وتفرق الاتصال. ويكون العلاج باليد كالفصد والشرط، والبط والجبر، والضماد والتكميد، ونحو ذلك. ويكون بإعطاء الدواء، مأكولا أو مشروبا، أو تبخيرا أو نحوه.

ولابد في هذا المحل من تحرير فصلين: الأول ذكر الأمراض على التنصيص، ما يعم منها البدن، كالحمى والذبول، أو ما يخص عضوا، كالصداع والرمد من الرأس إلى القدم، وذكر أسباب كل ما يعالج به. الثاني ذكر الأدوية على التنصيص، من عقاقير وأغذية

1- ورد في د: التقط. من قمط قمطا وقَمَّطَه: شد يديه ورجليه، كما يفعل بالصبي في المهد.

2- سقطت من د و ج.

دوائية وأشربة، ومعاجين وإيارجات، وجوارشات[1]، وما لكل من طبع وخاصة، وما يستعمل فيه، وكيف يستعمل، وذلك بعد معرفة أدلة المرض، إما من معرفة الخلط الغالب، كما مر في علاماتها، وإما باللمس / وجس النبض، والنظر إلى السحنة، وإلى البول والبراز، واعتبار أحوال النوم والحركة، ونحو ذلك، ويراجع ذلك كله وما أشبهه في الفن، فإن غرضنا مجرد التنبيه، والله الموفق.

89

علم الحساب

وهو علم فلسفي من العلوم الرياضية[2] كما مر، وهو علم منتفع به في عمل المواريث، وفي القسمة كلها بين الشركاء، وفي الغنائم والوصايا، وغيرها من أبواب الفقه، وفي التوقيت ونحوه، فلذا أدرجناه في علوم[3] الشرع، بحسب التوسل، وتقدم أنه العلم الباحث عن العدد، من حيث ما يعتريه من جمع وتقسيم، وغير ذلك. فموضوعه العدد من هذه الحيثية.

والعدد هو ما تألف من الآحاد، فالواحد مادته، وقد يدخل فيه، وينقسم الفن بحسب البحث عن العدد إلى قسمين: الأول في أحوال العدد المعلوم. الثاني في استخراج المجهول من المعلوم. والأول ينقسم إلى ثلاثة: الأول في العدد الصحيح، الثاني في الكسور، الثالث في الجذور، وفي كل أبواب. والمهم منه الكثير الاستعمال قسم المعلوم، خصوصا الصحيح والكسر، فلنشر إلى جمل نافعة منه، فنقول:

1- من جرش جَرْشا الحب والقمح: طحنه و لم يُنعِّم طحنه. ومنه الجاروش والجاروشة جمع جواريش: رحى اليد يجرس بها القمح المسلوق ونحوه.

2- ورد في ج: الرياضة.

3- ورد في ح: علم.

الباب الأول: من الصحيح في تقسيم العدد وبيان مراتبه

فالعدد إما زوج، وهو المنقسم بمتساويين كإثنين، وإما فرد وهو خلافه كثلاثة. والزوج إما زوج الزوج كأربعة، وإما زوج الفرد كستة. وإما زوج الزوج والفرد كاثني عشر. والفرد إما أول وإما فرد الفرد. ولما كان العدد يتزايد إلى غير نهاية، اعتبروا له مراتب يدور عليها، فالأولى مرتبة الآحاد، وهي من واحد إلى تسعة، والثانية مرتبة العشرات، وهي من عشرة إلى تسعين، والثالثة مرتبة المئين، وهي من مائة إلى تسعمائة، وبعد ذلك مرتبة الألوف، ومنها يعود الدور.

وهذا العلم شبيه بعلم الطب، في الاحتياج إلى العمل باليد، عندما يكثر العدد، واعتبروا له حِسَاب الجُمَّلِ[1]، وهي أبجد هوز حطي، واستغني عن الباء لأنها في المرتبة الثانية، فبقيت تسعة أحرف، جعلوا لها تسعة أشكال، وجرى عملهم بوضعها بقلم على هذه الصورة: <1–2–3–4–5–6–7>[2]، فصورة الألف للواحد، وصورة الباء لاثنين، وهكذا إلى الطاء لتسعة، وإن وقعت الألف في المرتبة الثانية، بأن تقدمها عدد آخر أو صفر، فهي عشرة، وإن وقعت في الثالثة، فهي مائة، وإن وقعت في الرابعة، فهي ألف، فإذا وضعت ألفا بعد ألف هكذا: "اا" فهي أحد عشر، وبعد ياء هكذا: "ي ا" فهي إثنا عشر، / وهكذا 90 في سائر الأحرف، ومتى لم يوجد عدد تحفظ به المرتبة، وضع فيها صفر[3]، وهي حلقة

1- وتمام جدول حساب الجمل، وما يقابله من الأرقام كالتالي: ا=1 - ب=2 - ج=3 - د=4 - هـ=5 - و=6 - ز=7 - ح=8 - ط=9 - ي=10 - ك=20 - ل=30 - م=40 - ن=50 - س=60 - ع=70 - ف=80 - ص=90 - ق=100 - ر=200 - ش=300 - ت=400 - ث=500 - خ=600 - ذ=700 - ض=800 - ظ=900 - غ=1000. المنجد في اللغة والأعلام: 1.

2- ساقط من ج.

3- ورد في ج: سفر.

صغيرة، فمتى أريد العشرة وحدها، وضعت الأَلِفُ، وقدم لها صفـر، هكـذا: "0ا"، أو مائـة قدم لها صفران هكذا: "00ا" ، وهكذا سائرها.

الباب الثاني: في الجمع

وهو ضم العدد إلى العدد، لينطق بهما بلفظ واحد، فإذا قيل لك اجمع إثنين إلى إثنين فقل أربعة، وإلى ثلاثة فقل خمسـة، وإن كـثر العـدد أحتيـج إلى الوضـع، فتضـع المجمـوع والمجموع إليه في سطرين متوازيين، وتمد عليهما خطا، ثـم تجمـع كـل مرتبـة إلى نظيرتـهـا صحفتها، وتضع المرتفع منهما على الخط فوقهما، ومـا كـان مـن ذلـك كلـه، فهـو مجمـوع العددين. فإن قيل لك إجمع إثنين وثلاثين ومائة، إلى أربعة وخمسـين ومائـة، فـأنزل ذلـك هكذا: "132 + 154" ثم اجمع أربعة إلى إثنين تكن ستة، فضعها فوقها، وخمسـة إلى ثلاثـة تكن ثمانية، فضعها، وواحدا إلى واحد تكن إثنين، فضعها، فيكون المجمـوع، وذلـك سـتة وثمانون ومائتان، هكذا: "286".

وإن قيل لك اجمع ستة وعشرين ومائة، إلى أربعة وثلاثين وخمســمائة، فـأنزل ذلـك هكذا: "126 + 534" ثم اجمع أربعـة إلى سـتة تكـن عشـرة، فضـع الصفـر فوقهمـا، وأنـزل بالواحد تحت الثلاثة، وهكــذا تفعـل كلمـا ارتفعـت لـك العشـرات، ثـم اجمـع الواحـد إلى الثلاثة، ثم إلى الاثنـين يكـن سـتة، فضعهـا، ثـم الخمسـة إلى الواحـد يكـن ستة، فيكـون المجموع، وذلك ستون وستمائة، هكذا: "660".

وإن قيل لك اجمع ستة وعشرين ومائة، إلى خمسة وثلاثين وأربعمائـة، فـأنزل ذلـك هكذا: "126 + 435" ثم اجمع خمسة إلى ستة تكن أحد عشر، فضع الواحد فوقهما، وأنـزل الواحد تحت الثلاثة، ليكون في المرتبة الثانية، وهكذا أيضا تفعـل كلمـا ارتفعـت لـك آحـاد وعشرات، ثم اجمع الواحد إلى الثلاثة وإلى الاثنين تكن ستة، فضعها، والأربعـة إلى الواحـد تكن خمسة، فيكون المجموع، وذلك أحد وستون وخمسمائة، ومتى كان المجموع في المراتب

صفر إلى صفر فهو صفر واحد، لأنه يكفي في حفظ المرتبة، وإن كان عددا إلى صفر أو بالعكس ألغي الصفر، واعتبر العدد لأنه كاف في حفظ المرتبة.

الباب الثالث: في الطرح

وهو أن يزال أقل العددين من الأكثر، ليعرف كم بقي، فإذا قيل إطرح أربعة من خمسة، فقل الباقي واحد، ومن عشرة فقل الباقي ستة، وإن كثر أحتيج إلى العمل، وهو أن تضع المطروح منه في سطر، والمطروح تحته، وتمد عليهما خطا، ثم تطرح كل منزلة من نظيرتها، وتضع الباقي على الخط، ، وما كان فهو/ مجموع الباقي. 91

فإن قيل لك اطرح خمسة وخمسين ومائة، من سبعة وثمانين وأربعمائة، فأنزل ذلك هكذا: "487 – 155"، ثم اطرح خمسة من سبعة، تبقى إثنان، فضعهما على رأس الخط، والخمسة من ثمانية تبقى ثلاثة، فضعها، والواحد من أربعة تبقى ثلاثة، فضعها، فيكون الخارج، وذلك إثنان وثلاثون وثلاثمائة، هكذا: "332".

وإن قيل لك اطرح اثنين وعشرين ومائة، من اثنين وأربعين وثلاثمائة، فأنزل ذلك هكذا: "342" ثم اطرح إثنين من إثنين-فلا يبقى شيء، فضع على الخط صفرا، وهكذا تفعل أبدا حيث تفانى العددان، والاثنين من الأربعة يبقى إثنان ضعهما، والواحد من الثلاثة يبقى إثنان، فضعهما فيكون الخارج، وذلك عشرون ومائتان، هكذا: "220".

وإن قيل لك اطرح ستة وعشرين ومائة، من أربعة وثلاثين وثلاثمائة، فأمزل ذلك هكذا: 334، ثم إطرح ستة من أربعة، فلا تنطرح، لأنها أقل فزد على الأقل عشرة تكن أربعة عشر، وهكذا تفعل في طرح الأكثر من الأقل أبدا، ثم إطرح من المجموع تبق ثمانية، فضعها على رأس الخط، واجمع العشرة بصورة الواحد إلى الاثنين تكن ثلاثة، فاطرحها من الثلاثة فتفنيها، فتضع على الخط صفرا، والواحد من الثلاثة يبقى إثنان، فيكون الخارج، وذلك ثمانية ومائتان، هكذا: "208".

الباب الرابع: في الضرب

وهو تكرير أحد العددين بقدر ما في الآخر، ليخرج عدد ثالث مجهول، فإذا قيل لـك اضرب إثنين في ثلاثة، فقل ستة، وفي أربعة فقل ثمانية، وفي خمسة فقـل عشرة، وهكـذا، وإن كثر العدد أحتيــج إلى العمـل، ويكـون علـى أوجـه، أشـهرها المجنـح، وهـو أن تضع المضروب في سطر، وتحته المضروب فيه، أول منزلة من منازل المضـروب فيـه، تحـت آخـر منزلة من منازل المضروب، وتمد عليهمـا خطـا مجنحـا، ثـم تضـرب آخـر منزلـة في جميـع المضروب فيه، وتضع الخارج من فوقه، ثم تقهقر المنازل لتضرب فيها ما بقي.

فإذا قيل لك اضرب ستة وعشرين في سبعة وثمانين، فأنزل ذلك هكــذا: "26 x 87"، ثم اضرب إثنين في ثمانية يكن ستة عشر، فضع الستة فوق الثمانية والواحد بعـد ذلـك، ثـم اضرب الاثنين في السبغة يكن أربعة عشر، فضع الأربعـة فـوق الاثنـين، والواحـد في المرتبـة بعده، ثم قهقر السبعة تحت الستة، والثمانية تحت السـبعة، فـاضرب السـتة في الثمانيـة، تكن ثمانية وأربعين، فضع الثمانية فوقها في المرتبة الثانية، والأربعة بعد ذلك والسـتة / في السبعة تكن إثنين وأربعين، فضع الاثنين فوق الستة، والأربعة بعدها، ثم مد علــى الخـارج خطا، واجمعه عليه، فيكون الخارج إثنين وسـتين ومـائتين وألفـا، هكـذا: "1262"[1]. وكـل عدد تضربه في الواحد، فالخارج هو ذلك العــدد إذ لا تكـرار، وكـل عـدد تضربـه في صفـر، فالخارج صفر، فيرفع الصفر في المرتبة.

92

الباب الخامس: في القسمة

وهي تجزئة الأكثر بعدد الأقل، فإذا قيل أقسم أربعة على إثنين، فقل الخارج إثنان، أي لكل واحد، أو ستة على إثنين، فقل الخارج ثلاثة، وإن كثر العـدد أحتيـج إلى العمـل،

1– الخارج الصحيح من عملية الضرب هذه هو: 2262، بدل 1262.

وهو أن تضع المقسوم في سطر، والمقسوم عليه تحت آخر منزلة منه، إن كان أقل منها، وإلا فقهقره إلى منزلة أخرى، حتى يكون أقل مما هو فوقه من العدد، ثم تطلب عددا تضربه فيه، وتفني بالحاصل ما على رأسه، أو تبقي منه بقية أقل من المقسوم عليه، فتضعها فوقهما، ثم تقهقر وتفعل مثل ذلك أيضا حتى تكمل.

فإذا قيل لك، اقسم ستة وأربعين على إثنين، فأنزل ذلك هكذا: "46 ÷ 2" فانظر عددا تضربه في إثنين، وتفني به الأربعة، أو تبقي منه بقية، تجد ذلك إثنين وقد أفنتها، ثم تقهقر الاثنين تحت الستة، وتطلب عددا تضربه فيها، تجد ذلك ثلاثة، وقد أفنتها، فيكون الحاصل ما تحت السطرين[1]، وذلك ثلاثة وعشرون.

وإن قيل لك اقسم ثمانية وأربعين وستمائة على ثمانية، فأنزل ذلك هكذا: "648÷8"، <وضع الثمانية تحت الأربعة، لتكون تحت أربعة وستين، ثم أطلب عددا تضربه في الثمانية، وتفني ما على رأسه تجده ثمانية، ثم قهقر الثمانية تحت مثلها، واطلب عددا تضربه فيها تجده واحدا، فيكون الحاصل أحدا وثمانين، هكذا: "81">[2].

وإن قيل لك اقسم تسعة وتسعين وأربعمائة على أربعة، فأنزل ذلك هكذا: "499÷4"، ثم اطلب عددا تضعه تحت الأربعة، وتفني به ما على رأسه، تجد ذلك واحدا، ثم قهقر الأربعة تحت التسعة، واطلب عددا تضربه فيها، تجد ذلك إثنين ويبقى واحد فضعه فوقها مضافا إلى التسعة الأولى، ثم قهقر الأربعة تحت التسعة الأخرى، واطلب عددا تضربه فيها، فتفني بها ما على رأسها، وهو تسعة عشر، تجد ذلك أربعة، وتبقي ثلاثة وهي أقل من المقسوم عليه، فانسبها منه، وذلك أن تضعها عليها وبينهما خط، وهكذا تفعل أبدا فيما بقي فيه القليل، فيكون الحاصل أربعة وعشرين ومائة، وثلاثة أرباع هكذا: "124

1- ورد في ج: السطر.

2- ساقط من ج.

"3/4". وإن كان المقسوم عليه أكثر من منزلـة، فاقسـم عليـه مجموعـا، وإن شـئت فحلـه إلى أيمته،/ واقسم عليها واحدا بعد واحد. 93

فإذا قيل لك، اقسم ستة وتسعين على إثني عشر، فحلها إلى أربعة وثلاثة، ثم اقسـم على الأربعة أولا، وأنزل ذلـك هكـذا: "96 ÷ 4" فضـع تحـت الأربعـة إثنـين، يبقـى مـن التسعة واحدا، ثم حول الأربعة تحت الستة، وضع تحتهـا أربعـة تفنهـا، فيكـون الخـارج أربعة وعشرين، فأقسمها على الثلاثة، وأنزل ذلك هكذا: "24 ÷ 3"، واطلب عـددا تضربـه في الثلاثة وتفني بها على رأسه، وهو أربعة وعشرون، تجد ذلك ثمانية، وهي الحاصل مـن قسمة المجموع، ومن هذا ونحوه أحتيج إلى معرفة أيمـة العـدد، وهـي جـذوره الـتي تتـألف منها عند الضرب، فالأربعـة مثـلا أيمتهـا <إثنـان واثنـان، لأن ضـرب>[1] إثنـين في إثنـين بأربعة. والستة أيمتها ثلاثة وإثنان، لأن ضرب الاثنـين في ثلاثـة بسـتة. والثمانيـة أيمتهـا إثنان وأربعة. والعشرة إثنان وخمسة.

وتعرف الأجزاء النسبية من ذلك على التعاكس، فإذا ضربت ثلاثـة في أربعـة، فهـي إثنـا عشـر، وثلثهـا أربعـة، وربعهـا ثلاثـة، وفي خمسـة بخمسـة عشـر، فثلثهـا خمسـة[2]، وخمسها[3] ثلاثة، وهكذا. ويعرف وجود الأجزاء في الكثير بالطرح.

الباب السادس: في التسمية

وهي معرفة نسبة القليل من الكثير، عكس القسمة السـابقة، والعمـل فيهـا أن تحـل المسمى منه إلى أيمته، فتقسم عليه المسمى واحدا بعد واحد. فإن قيل لك سم إثني عشر من ثمانية وأربعين، فحل المسمى منه إلى أيمته، وهي ستة وثمانيـة، وضع عليهمـا خطـا، ثـم

1- ساقط من ج.

2- ورد في ج: خمس.

3- ورد في ج: وخميسها.

أقسم المسمى على ستة، يخرج إثنان، فضعها على الثمانية، لأنها أقل منها، وهي الربع، وهو النسبة المطلوبة.

الباب السابع: في قسمة المُحَاصَّة

والعمل فيها أن تجمع الأنصباء، ويجمع المال بعد ذلك، ثم تنظر ما نسبة نصيب كل من مجموع المحاصة، فيأخذه من المال، أو اقسم المال على مجموع المحاصة، يخرج جزء السهم لكل واحد، فإذا قيل رجلان، لأحدهما ستة عشر دينارا، وللآخر ثمانية، وربحا إثني عشر دينارا، فأنزل ذلك <هكذا:>[1]

	24	12
زيد	16	8
عمرو	8	4

فالمحاصة أربعة وعشرون، ونسبة ما للأول منها ثلثان، فيأخذ ثلثي المال وهو ثمانية، ونسبة نصيب الآخر الثلث، فيأخذ الثلث وهو[2] أربعة. ولو قسمت المال هنا على المجموع، خرج النصف لأنه أقل منه، فيأخذ كل واحد نصف نصيبه، وهو الحاصل أولا.

94 /الباب الثامن: في الكسور

وهي عشرة: النصف أكبرها، ثم الثلث، ثم الربع، ثم الخمس، ثم السدس، ثم السبع، ثم الثمن، ثم التسع، ثم العشر، ثم الجزء الأصم[3]، وأوله الجزء من أحد عشر، وصورة النصف واحد فوق إثنين، هكذا: "1/2"،وصورة الثلث واحد فوق ثلاثة، هكذا:

1- سقطت من ج و ح.

2- ورد في ج: وهي.

3- لابن البناء العددي المراكشي (ت: 721 هـ) رسالة في الجذور الصم وجمعها وطرحها.

"1/3"، <وصورة الربع واحد فوق أربعة، هكذا: "1/4">[1]، وكـذا غيرهمـا، وصورة الجـزء [الأصم][2] واحد فوق عدده، فمن أحد عشر هكذا: "1/11".

والكسر خمسة أنواع: مفرد، ومنتسب[3]، ومبعض، ومختلف، ومستثنى، والأخير إما متصل أو منقطع. فالمفرد المتحد، سواء كان بلفظ الافراد كالنصف والثلث علـى مـا[4] مـر، أو بلفظ التثنية أو الجمع، كسدسين وكثلاثة أرباع، وسواء اتحد إمامـه [كمـا مـر][5]، أو تعـدد كثلاثة أرباع الخمس، هكذا: "5 3/4"، وبسطه ما على رأسه.

وأما عن المنتسب، فهو المتعدد المنتسب إلى ما قبله بحــرف العطـف، كربـع وخمـس ربع هكذا: "1/4 و 5/4"، وبسطه أن يضرب ما على رأس الإمـام الأول، في الإمـام الثـاني، ويحمل عليه ما على رأسـه بستة، وهكـذا في المثـال يضـرب الواحـد في الخمسـة بخمسـة، ويحمل عليه ما على رأسه بستة، وهي البسط.

وأما المبعض فهو أن ينتسب كل إلى ما بعده، بغير واو عكس[6] ما قبله، كخمس ربـع ثلث هكذا: "1/5 1/4 1/3"(كذا؟) وبسطه ضرب ما فـوق الخـط بعضـه في بعـض، وهـو في المثال واحد.

وأما المختلف وهو أن لا ينتسب بعض إلى بعض، عكس ما تقدم، كثلاثـة أخمـاس، وأربعة أسباع، هكذا: "3/5 و 4/7"، وبســطه أن يضـرب بسـط كـل سـطر في أيمـة الآخـر،

1- ساقط من ج.

2- سقطت من د و ح.

3- ورد في ج: منسب.

4- ورد في ج: كما.

5- ساقط من د.

6- ورد في ج: بغير عكس واو.

ويجمع ذلك، ففي المثال تضرب الثلاثة في السبعة، بأحد وعشرين، والأربعة في الخمسة عشرين، والمجموع واحد وأربعون، وهو البسط.

وأما المستثنى المتصل، فهو أن يكون بأداة الاستثناء، وما بعد الأداة[1] بعض مما قبله، نحو أربعة أتساع إلاّ خمس[2] التسع، هكذا: "4/9 إلا 1/5"؟، وبسطه أن تضرب بسط المستثنى منه في أيمة المستثنى، وتحفظ الخارج، ثم تضرب المستثنى في بسط المستثنى <منه>[3]، وتطرح ذلك المحفوظ، يبقى البسط، ففي المثال تضرب أربعة في خمسة بعشرين، ثم يضرب الواحد في الأربعة بأربعة تطرح من العشرين، فتبقى ستة عشر، وهي البسط.

وأما المنقطع فهو أن لا يكون المخرج بعضا، نحو أربعة أسداس إلا خمسة أرباع، هكذا: "4/6 إلا 5/4" وبسطه أن يضرب كل جهة / في أيمة الآخر، ثم يطرح الأقل من الأكثر، والباقي هو البسط، ففي المثال تضرب أربعة في أربعة بستة عشر، ثم تضرب أربعة في ستة بأربعة وعشرين، تطرح منها الأولى، فتبقى ثمانية وهي البسط. 95

وإن وجد مع الكسور عدد صحيح، فإن تصدر فاضربه في الأيمة، واجمعه مع البسط، نحو أربعة وسدس ونصف سدس، هكذا: "4 1/6 1/2" فتضرب الأربعة في الستة بأربعة وعشرين، ثم في إثنين بثمانية وأربعين، وتجمع مع البسط، وهو ثلاثة بأحد وخمسين، وهو بسط المجموع، هكذا: "51".

وإن تأخر عنها ضرب في البسط، نحو ثلاثة أرباع ونصف ربع وخمسة هكذا: "3/4 1/2 5" فاضرب بسط الكسور وهو سبعة في الخمسة، تكن خمسة وثلاثين، وهي البسط، وإن توسط بين الكسور، وكان مضافا إلى الأول، فاضرب فيه بسط ما قبله، ثم اضرب الخارج

1- ورد في ج: الإستثناء.

2- ورد في ج: الخمس.

3- سقطت من ج.

فيما بعده من الأيمة، واحفظ ذلك، ثم اضرب بسط ما بعده في أيمة ما قبله، واجمع ذلك إلى المحفوظ، نحو ثلاثة أثمان وربعا الثمن وثمانية وخمسة أسداس، هكذا: "3/8 2/4 8 5/6"، فاضرب بسط ما قبله، وهو أربعة عشر فيه بإثني عشر ومائة، وهذا المجموع في ستة باثنين وسبعين وستمائة، ثم اضرب خمسة في ثمانية بأربعين، ثم في أربعة بمائة وستين، ثم اجمع ذلك إلى الأول، يكن إثنين وثلاثين وثمانمائة وهو البسط.

وإن أضيف إلى ما بعده، نحو ثلاثة أرباع، وثلث ربع، وخمسة، وثلث، هكذا: "3/4 1/3 4 1/3"؟ فاضربه في إمام ما بعده، واحمل عليه ما فوقه، ثم اضرب ذلك في بسط ما قبله، ففي المثال تضرب الخمسة في ثلاثة بخمسة عشر، إلى الواحد تكن ستة عشر، ثم تضرب ذلك في العشرة، وهي بسط ما قبله، تكن مائة وستين هكذا: "160"، وهو البسط.

وأما جمع الكسور، فهو أن يضرب بسط كل واحد في أئمة الآخر، ويجمع الخارج ويقسم على الأيمة. فإذا قيل اجمع ثلاثة أرباع إلى ثلث هكذا: "3/4" إلى "1/3" فاضرب ثلاثة في ثلاثة، وواحدا في الأربعة، والمجموع ثلاثة عشر، فتقسم على الأيمة يخرج واحد وربع.

وأما طرح الكسور، فهو أن تضرب أيضا بسط كل واحد من المطروحين في أئمة الآخر، ثم تطرح الأقل من الأكثر، وما بقي تقسمه على جميع الأيمة. فإذا قيل اطرح ثلاثة أرباع من أربعة أتساع، هكذا: "3/4 من 4/9"، فاضرب بسط الأول من إمام الثاني بثمانية عشر، والعكس بستة عشر، ثم اطرحها منها يبقى اثنان، أنزلهما على الامامين، فيكون ذلك ربعي تسع، هكذا: "9 2/4".

96 وأما ضرب الكسور[1]، فالعمل فيه أن تضرب بسط أحد المضروبين في بسط الآخر، وتقسم الخارج على الأيمة. فإذا قيل اضرب أربعة أخماس في ستة أثمان، هكذا: "4/5 في 6/8" فاضرب البسط في البسط بأربعة وعشرين، واقسم ذلك على الامامين، تخرج أربعة وأربعة أثمان، وهي النصف.

وأما قسمة الكسور، فهي أن تضرب واحدا من المقسومين في أيمة الآخر، وتقسم <خارج المقسوم على>[2] خارج المقسوم عليه. فإذا قيل اقسم ثمانية أتساع، على ثلاثة أسداس، هكذا: "8/9 على 3/6" فاضرب ثمانية في ستة بثمانية وأربعين، وثلاثة في تسعة، بسبعة وعشرين، ، اقسم عليه الأول بعد حله إلى أيمته، وهي: تسعة وثلاثة، يخرج واحد وسبعة أتساع.

وأما التسمية، فهي كالقسمة، غير أن القسمة تجزئة الكثير على القليل، والتسمية نسبة القليل من الكثير، فإذا قسم الشيء على ما هو أكثر منه، صار نسبة، وذلك ظاهر، ولنكتف بهذا القدر من هذا العلم، وما وراءه يطلب في فنه[3].

1- ورد في ج: الكسر.

2- ساقط من ج.

3- من الكتب المصنفة في الحساب: "تلخيص أعمال الحساب" لابن البناء المراكشي وشرحه. يوجد مخطوطا بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 5973، والمكتبة العامة بمراكش تحت رقم: 579. وقد حظي هذا الكتاب بعناية الباحثين، فنقله ARISTIDE MARRE إلى الفرنسية سنة 1864م. كما وضعت عليه شروح من قبل القلصادي، وابن هيدور تلميذ ابن البناء. وطبع محققا سنة 1969م بتونس بعناية الدكتور محمد السويسي.

علم التوقيت

ويقال علم الوقت، وتقدم ذكره في الرياضات من العلوم الفلسفية، وهو نافع في الدنيا وأمور المعاش كالحساب، وله نفع بالغ أيضا في الدين، ولذا أدرجناه في العلوم الشرعية، كما أدرج الحساب، فهو واجب في الجملة، والمطلوب منه ما تتوقف عليه العبادات، كأوقات الصلوات، وأجزاء الليل للمتسحر والمتهجد، والقبلة ونحو ذلك.

فلابد أن تعرف المنازل الثمانية والعشرين وهي: النطح[1]، البطين[2]، الثريا[3]، الدبران[4]، الهقعة[5]، الهنعة[6]، الذراع[7]، النثرة[8]،

1- ويسمى أيضا الناطح والشرطين، وإنما سميا الشرطين نهما علامة دخول أول السنة. وفي نوء الشرطين يطيب الرمان، وتكثر المياه، وتنعقد الثمار، ويحصد الشعير.

2- يقال له بطن الحمل، وتقول العرب: «إذا طلع البطين فقد اقتضى الدين»، وقالوا إنه أشر النواء وأقلها مطرا، وفي نوءه يجف العشب ويتم حصاد الشعير، ويأتي أول حصاد الحنطة.

3- ويقال له النجم، وهو أشهر هذه المنازل وهي ستة أنجم. والعرب تقول: «إذا طلع النجم غديه ابتغى الراعي كسبه». وفي نوء الثريا تتحرك الرياح، ويشتد الحر، ويدرك التفاح والمشمش.

4- وهو كوكب أحمر منير يتلو الثريا، وسمي دبرانا لاستدباره الثريا. ةالعر تتشاءم به. وفي نوئه يشتد الحر، وهو أول البوارح، وتهب السمائم، ويسود العنب.

5- ورد في د: العلقة. الهقعة رأس الجوازء، ثلاثة كواكب صغار. تقول العرب: «إذا طلعت الهقعة رجع الناس عن النجعة». وفي نوئها يدرك البطيخ وسائر الفواكه، ويشتد الحر ويكثر هبوب السمائم.

6- كوكبان أبيضان. تقول العرب: «إذا طلعت الجوزاء كسب الصبا». وفي نوئها انتهاء شدة الحر وإدراك الرطب والتين وتغيير المياه.

7- ذراع الأسد المقبوضة وله أيضا مبسوطة. تقول العرب: «إذا طلع الذراع ترقرق الشراب وفي كل قاع». وفي نوئها تشتد بوارح الصيف حرا وسموما، وفيه يدرك الرمان ويحمر البسر.

8- هي ثلاثة كواكب متقاربة وهي أنف الأسد. تقول العرب: «إذا طلعت النثرة قنأت البسرة». وفي نوئها في كل يوم تظهر آفة تفسد شيئا من الزرع والثمار.

الطرفة[1]، الجبهة[2]، الزبرة[3]، الصرفة[4]، العواء[5]، السماك[6]، الغفر[7]، الزبانيان[8]، الإكليل[9]، القلب[10]،الشولة[11]،

1- هو طرف الأسد، وهما كوكبان صغيران مثل الفرقدين. تقول العرب: «إذا طلعت الطرفة كثرت الطرفة». وفي نوئه بوارح وسموم، وفيه يؤكل الرطب، ويقطف العنب.

2- هي جبهة الأسد وهي أربعة كواكب. تقول العرب: «لولا طلوع الجبهة ما كان للعرب رفهة». ونوءها محمود، يقال: ما امتلأ واد من نوء الجبهة ماء إلا امتلأ عشبا. وفي نوئها ينكسر البرد.

3- هي زبرة الأسد أي كاهله، وهي كوكبان نيران. يكون في نوئها مطر شديد، فإن أخلف قصر، ويبرد الليل مع السموم بالنهار.

4- هي كوكب واحد على أثر الزبرة، وسميت كذلك بانصراف الحر والبرد عند طلوعها وسقوطها. وفي نوئها مطر ورياح وبرد بالليل، ويأتي المطر الوسمي.

5- هي أربعة أنجم. والعرب تقول: «إذا طلعت العواء طاب الهواء». وفي نوئها يستوي الليل والنهار، ويأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، وهو ابتداء الخريف.

6- هو السماك الأعزل. والعرب تقول: «إذا طلعت السماك ذهب العكاك». وفي نوئه انصرام النخل وقطع العنب، ويأتي المطر. وهو ىخر المنازل الشامية.

7- وهو ثلاث كواكب خفية. قال الساجع: «إذا طلع الغفر اقشعر السفر وذبل النضر». وفي نوئها يؤبر النخل.

8- الصواب الزُبانا من زبان العقرب: قرناها. وهما كوكبان مفترقان. قال الساجع: إذا طلعت الزبانا فاجمع لأهلك ولا تتوانا. وفي نوئه يدخل الناس بيوتهم ويشتد البرد.

9- وهو رأس العقرب. والعرب يقولون: «إذا طلع الإكليل هاجت السيول، فإذا سقط غارت مياه الأرض». وفي نوئه تكثر الأمطار والغيوم.

10- وهو قلب العقرب. وتقول العرب: «إذا طلع القلب جاء الشتاء كالكلب». ونوء القلب تتشاءم به العرب، ويكرهون السفر إذا كان القمر نازلا في العقرب. وفي نوئه يشتد البرد وتهب الرياح.

11- هي كوكبان متقاربان، وسميت كذلك لارتفاعها. والعرب تقول: «إذا طلعت الشولة اشتدت على العيال العولة». وفي نوئها يسقط الورق كله وتكثر الأمطار.

النعايم[1]، البلـدة[2]، سـعد الذابـح[3]، سـعد بلـع[4]، سـعد السـعود[5]، سـعد الأخبيـة[6]، الفـرع المقدم[7]، الفرغ المؤخر[8]، بطن الحوت[9]، ويسمى الرشاء.

وهي منقسمة على السنة الشمسية، وهي العجمية، لكـل فصل منهـا سبعة منـازل، فللربيع من الفرع المقدم إلى الدبران. وللصيف من الهقعة إلى الزبرة، وهي الخراثـان (كـذا؟). وللخريف من الصرفة إلى القلب. وللشتاء من الشولة إلى سعد الأخبية.

1- أو النعائم، وهي ثمان كواكب. والعرب تقول: «إذا طلعت النعائم توسعت البهائم». وفي نوئها أول الشتاء واستواء الليل والنهار.

2- هي فضاء في السماء لا كوكب بها. وتقول العرب: «إذا طلعت البلدة حمت الجعدة». وفي نوئها يجمد الماء وتنقى البساتين من الأدغال والحشيش وتكرب الكروم.

3- هو كوكبان غير نيرين. والعرب تقول: «إذا طلع سعد الذائح حمى أهله النابح». وفي نوئه يصعد الماء إلى فروع الشجر، ويدرك الجوز واللوز، ويرجى المطر.

4- هو نجمان مستويان في المجرى. تقول العرب: «إذا طلع سد بلـع صـار في الأرض لمع». وفي نوئه يكثر المطر وتتزاوج العصافير، ويبيض الهدهد، وتهب الجنوب، ويقل اللبن.

5- هو ثلاث كواكب. تقـول العـرب: «إذا طلـع سـعد السـعود كـره في الشـمس القعـود». ونـوءه محمود، وفيه يتحرك أول العشب ويصوت الطير، ويورق الشجر، وتصيب الإبل مرعاها.

6- هو أربعـة كواكـب، سمـي كذلـك لأن عنـد طلوعـه تخـرج الحشـرات المختبئة في الأرض. تقـول العرب: «إذا طلع سعد الأخبية خلت من الناس الأبنية». وفي نوئه يكثر المطر جدا، ويقطع الكرم.

7- هو فرع الدلو المقدم. تقول العرب: «إذا طلع الدلو طلب اللهو». ونوءه محمود وفيه ينعقـد اللـوز والتفاح والمشمش بالحر، وبرده يهلك الثمار.

8- ونوءه محمود، وطلوع الفرعين وغروبهما يكون في إقبال البرد وإدباره، وعند سقوط الفرع المؤخر يجز النخل. وفي نوءه أخر أمطار الشتاء، وفيه يكثر العنب ويستوي الليل والنهار.

9- هي كواكب كثيرة في مثل حلقة السمكة. وتقول العرب: «إذا طلعت السمكة أمكنت الحركة». ونوءه عزير المطر قلما يخلف وهو أوان حصاد الشعير. وهو آخر المنازل اليمانية. عن كتـاب عجـائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات : 254 وما بعدها.

97 وهي منازل الشمس تقطعها في السنة، فتمكث في كل منزلة / ثلاثة عشر يوما، إلا الجبهة فأربعة عشر، ومنزلة الشمس أبدا منها، هي التي تطلع لطلوعها وتغيب مقابلتها، وتتوسط عند المغرب الثامنة منها، وعند العشاء العاشرة، وعند السحور الثامنة عشر منها، وعند الفجر العشرون.

والبروج إثنا عشر على عدد الشهور، لكل شهر برج وهي: الدلو[1]، والحوت[2]، والحمل[3]، والثور[4]، والجوزاء[5]، والسرطان[6]، والأسد[7]، والسنبلة[8]،

1- أو ساكب الماء: هو أحد البروج الإثني عشر، تنزله الشمس في أواخر يناير وأوائل فبراير، وفيه ثلاثة منازل للقمر: سعد السعود، وسعد بلع، وسعد الأخبية.

2- كوكبة في البرج 12، ألمع نجومها نجم مزدوج انتقل الاعتدال الربيعي إليها بتقهقر الاعتدالين.

3- بيت المريخ وشرف الشمس، وهبوط زحل، ووبال الزهرة. وهو برج ناري، شرقي ذكر، منقلب طبيعته المرة الصفراء، ربيعي.

4- صورته صورة ثور، مؤخره إلى المغرب ومقدمه إلى المشرق. والعرب تسمي الكواكب التي على كاهل الثور الثريا.

5- أو التوأمان: الكوكبة البروجية الثالثة تحل الشمس فيها قرب المنقلب الصيفي، ألمع نجمين فيها رأس التوأم المقدم ورأس التوأم المؤخر. وبالكوكبة منزلتان قمريتان هما الذراع والهيئة.

6- بيت القمر، وشرف المشتري، وهبوط المريخ، ووبال زحل، وهو برج مائي أنثى ليلي شمالي منقلب، صيفي بلغمي..

7- كواكبه سبعة وعشرون، والعرب تسميه أيضا الصرفة، لانصراف البرد عند سقوط بالمغرب بالغدوات، وانصراف الحر عند طلوعه من تحت شعاع الشمس بالغدوات.

8- هي ستة وعشرون، وتسمى عواد البرد أيضا، لأنها إذا طلعت أو سقطت جاءت ببرد، واليوسي سماها بالسنبلة جريا على اختيار المنجمين في التسمية.

والميزان[1]، والعقرب[2]، والقوس[3]، والجدي[4]، فالدلو يبراير وهكذا.

والشمس تقيم في كل برج شهرا، والقمر يقطع المنازل في كل شهر، ويقيم في كل منزلة ليلة، وفي كل برج ليليتين[5] وثلثا، وتعرف القبلة بالمطـالع وبـالقطب، وبـالآلات المنصوبـات لذلك، وكذا ما بقي من مباحث هذا العلم يراجع في فنه.

{الانتهاء من العلوم المهمة والشروع فيما دونها}

و<إذ>[6] قد فرغنا من العلوم المهمة، التي شرطنا على أن ننبه على جمل منها، تعين الناظر وتنبه على ما وراءها، فلنشر الآن إلى ما بقي مـن الفنـون إشـارة إجماليـة، قصـدا إلى ضبطها لتعرف، وبا لله الاعانة.

فنقول من ذلك علمان متعلقان بالقراءة وهما: علم القـراءة، ويقـال علـم الأداء. وعلـم الرسم، ويقال علم الخط.

أما علم القراءة

فهو العلم الباحث عن ألفاظ القرآن، مـن حيـث التلفـظ بهـا، ومـا يتعلـق بذلـك مـن الآداب، فيدخل فيه حكم الاستعاذة والبسملة، لأنه من آداب الابتداء، والفصل بـين السـور

1- بيت الزهرة وشرف الزحل، وهبوط الشمس، ووبال المريخ، وهو برج ذكر هوائي نهـاري غربـي منقلب خريفي دموي. إخوان الصفا/1: 134-135.

2- هي أحد وعشرون كوكبا من الصورة، والعرب تسمي الثلاثة التي على الجبهة الإكليل.

3- أو كوكبة الرامي، أحد وثلاثون كوكبا في الصورة، وليس حواليه شيء من الكواكب.

4- كواكبه ثمانة وعشرون كوكبا في الصورة، وليس حوالي الصورة شيء من الكواكب.

5- ورد في ج: ليلتان.

6- سقطت من ج..

على مذهب مالك، والتكبير بين السورتين، ويدخل ترقيق الراءات واللامات وتغليظها، والامالة، وتسهيل الهمز بأنواعه، والمد والقصر، والادغام والوقف ونحو ذلك. ويندرج فيه ذكر الحروف المختلف فيها القراء، لأن التلفظ يختلف بها.

وأما علم الرسم

فهو العلم الباحث عن كيفية تصوير اللفظ، بحروف هجائية، بتقدير الابتداء به والوقوف عليه. ويدخل فيه ذكر الألفات والواوات، والياءات وما يثبت منها، وما يحذف وما يزاد، وما يكتب من الألفات المتطرفة ألفا أو ياء، وما تكون له صورة من الهمز وما لا، وما يوصل[1] من الحروف، وما يفصل ونحو ذلك. ويلتحق به:

علم الضبط

مما يرجع إلى الحركات والسكنات، وصور الهمز في المصاحف، والألواح ونحو ذلك.

فإن قيل إن علم القراءة من القرآن، يكون كعلم الحديث من الحديث، وقد أدرجتم هذا في المهمات، فهلا أدرجتم الآخر؟ قلنا الفرق بينهما، أن الحديث لما كان معرضا للزيادة والنقصان، ودخله احتمال الصحة والضعف والوضع، كان علمه الذي يميز صحيحه / من ضعيفه، وثابته من موضوعه، عِمَاداً له لا غنى له عنه، إذ لا ينتفع به دونه، كتفسير القرآن من القرآن، بخلاف القراءة، فإن القرآن محفوظ والحجة به قائمة، سواء أحسن أداؤه أو لا، رسم في مصحف أو لوح[2] أو لا، فلم يتوقف قيام الحجة به، وأنه من عند الله، ولا فهم معناه إذا فسر على شيء من علمي الأداء والرسم. 98

1- ورد في ج: ما يوصف.

2- ورد في ج: ولوح.

فإن قيل إنه لابد من أن يروى، وإلا لم يثبت، فيكون ما تعلق بالرواية مـن الحـروف المختلف فيها لابد منه. قلنا كل ذلك متواتر، وعندما تحقق التواتر القاطع للشبهات، ثبتـت الحجة، وإن لم يوضع في ذلك علم، ولا بحث فيه باحث، وما يذكر من المسانيد عن القـراء وأصحابهم، إنما هو تنبيه على الأخذ، وتنويه بالمشايخ، وتعريف لهم، والاستنان بالاتباع والتبرك، وإلا فالتواتر يغني عن ذلك.

ومن ذلك مما يتعلق بالسنة:

علم السير

وهو العلم الباحث عن أحوال النبي ﷺ من أول مبعثه إلى أن توفاه الله تعالى، وهـذا هو مؤدى لفظ السيرة، لأن السيرة فعلة من السير، وسيرة الانسان الهيئة التي يسير عليهـا، في أفعاله وأقواله، وأخذه وتركه. وقد أدرجوا فيه أحواله ﷺ من لدن وضـع، بـل مـن لـدن كان حملا، ثم ترقوا إلى ذكر والديه وأجداده، ثم إلى القبائل المتشعبة من ذلـك، وذكـر بلـده الكريم والبيت الحرام، ومن بناه ومن تولاه قديما، ومن زاره من الملوك ومن احترمـه، ونحـو ذلك.

وقد يزيدون سيرة الخلفاء بعده، وقد يفردون لما وقع من الحروب ذكرا وهو:

علم المغازي

فيقال علم المغازي والسير. وقد يعتبر خصوص أحوال النبي ﷺ في خلقتـه الكريمـة، وأخلاقه العظيمة، ومأكله وملبسه ونحو ذلك وهو:

علم الشمائل

فهذه فنون ثلاثة، زائدة على مـتن الحديـث، المـراد منـه أقـوال النـبي ﷺ وأفعالـه وتقاريره، وهي في المعنى منه، ولو اعتبر أولا متن الحديث من حيث الرواية لا الدراية وهـو

فن، لكانت فنون الحديث خمسة، وكونها اشتملت على ما ليس من أقواله ﷺ وأفعاله مما لغيره لايضر، لأن الحديث أيضا مشتمل على الآثار مما للسلف، من قول أو فعل، غير أنه لو تولع[1] الناس بحكايات[2] الغرائب وأخبار الوقائع، كثر في السيرة الغث والسين، وما لا يرضاه المحدثون، وناسب أن يكون فنا مستقلا، يتساهل بما لا ينبني عليه حكم شرعي منه.

ومنها ما تعلق بالفقه والأصول، وهما علمان: **علم الخلاف وعلم الجدل**، والأول يرجع إلى الفقه، والثاني إلى المنطق والكلام.

{علوم البلاغة}

99 ومنها ما يتعلق بعلوم البلاغة وهي ستة: علم / البديع، وعلم الميزان، وعلم القافية، وعلم الشعر، وعلم الكتابة، وعلم النقد.

فأما علم البديع: فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ووضوح الدلالة، والتحسين إما شيء يرجع إلى المعنى، كالتورية والتوجيه، وحسن التعليل، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والعكس، ونحو ذلك. وإما شيء يرجع إلى اللفظ، كالتجنيس والترصيع.

وأما علم الميزان[3]: فهو ما يعرف به تفعيل الشعر، وما يقع فيه من زيادة ونقص، وله أوزان جعلها الإمام الخليل بن أحمد رضي الله عنه، وهو الذي ابتدأ وضع الفن خمسة عشر

1- ورد في ج: لولع.

2- ورد في ح: بالحكايات.

3- يظهر في بعض الأوزان المثبتة في المتن شيء من الاضطراب ولذلك نعمد إلى نظم صفي الدين الحلي لها كضابط:

- البحر الطويل: طويل له دون البحور فضائل ❖ فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيل =

وهي: الطويل، ووزنه فعولن مفاعيلن ثمان مرات. والمديد، ووزنه فاعلاتن فاعلن ثماني مرات. والبسيط، ووزنه مستفعلن فاعلن ثماني مرات. والوافر، ووزنه مفاعلتن ست مرات. والكامل، ووزنه متفاعلن ست مرات. والهزج، ووزنه مفاعيلن ست مرات. والرجز، ووزنه مستفعلن ست مرات. والرمل، ووزنه فاعلاتن ست مرات. والسريع، ووزنه مستفعلن مستفعلن مفعولات ومثلها. والمنسرح، ووزنه مستفعلن مفعولات مستفعلن ومثلها. والخفيف، ووزنه فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ومثلها. والمضارع، ووزنه مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن ومثلها. والمقتضب، ووزنه مفعولات مستفعلن مستفعلن ومثلها. والمجتث، ووزنه مستفعلن فاعلاتن

- – البحر المديد: لمديد الشعر عندي صفات ❖ فاعلاتن فاعلن فاعلات
- – البحر البسيط: إن البسيط لديه يبسط الأمل ❖ مستفعلن فاعلن مستفعلن فعل
- – البحر الوافر: بحور الشعر وافرها جميل ❖ مفاعلتن مفاعلتن فعول
- – البحر الكامل: كَمَلُ الجمال من البحور الكامل ❖ متفاعلن متفاعلن متفاعل
- – بحر الهزج: على الأهزاج تسهيل ❖ مفاعيلن مفاعيل
- – بحر الرجز: في أبحر الأرجاز بحر يسهل ❖ مستفعلن مستفعلن مستفعل
- – بحر الرمل: رمل الأبحر ترويه الثقات ❖ فاعلاتن فاعلاتن فاعلات
- – بحر السريع: بحر سريع ما له ساحل ❖ مستفعلن مستفعلن فاعل
- – البحر المنسرح: منسرح فيه يضرب المثل ❖ مستفعلن مفعولات مفتعل
- – البحر الخفيف: يا خفيفا خفت به الحركات ❖ فاعلاتن مستفع لُنْ فاعلات
- – بحر المضارع: تعد المضارعات ❖ مفاعيل فاع لاَتُ
- – البحر المقتضب: اقتضِبْ كما سألوا ❖ فاعلات مفتعل
- – بحر المجتث: ان جُثّتِ الحركات ❖ مستفعلن فاعلات
- – البحر المتقارب: عن المتقارب قال الخليل ❖ فعولن فعولن فعولن فعول
- – البحر المتدارك: حركات المحدث تنتقل ❖ فَعِلنْ فَعِلُنْ فَعِلُنْ فعل

عن المنجد في اللغة والأعلام: 389.

فاعلاتن ومثلها. وهذه الثلاثة إنما تستعمل مجزوة، أي محذوفا منها جزءان. والمتقارب، ووزنه فعولن ثماني مرات، ويتكلم فيه على معرفة السبب والوَتِدُ. والزِحَاف وهو الحذف في ثاني السبب. والعلة وهي الحذف فيما سوى ذلك. ومعرفة العروض والضرب، وما يقع فيه، وما يقع لكل نوع من الضروب، وما يستعمل كاملا وما لا. وزاد غيره[1] المتدارك، وهو فاعلن فاعلن ثماني مرات.

وأما القافية: فهو ما يعرف به آخر البيت من الكلام، على الروي الذي تبني عليه القصيدة، وعلى وصله وحركته وما قبله، وما يكون من ذلك مقبولا وما يكون عيبا، وكثيرا مَا يُجْمَع الفَنَّانِ لاحتياج أحدهما إلى الآخر، فيقال عليهما علم العروض.

وأما علم الشعر: فالمراد به القدرة على صوغه، فإنه ليس كل من يعرف علم العروض يقول الشعر، فقول الشعر موقوف على ثلاثة أمور: أحدها معرفة العروض تعلما أو طبيعة، الثاني معرفة النحو كذلك، الثالث وجود سليقة فيه، وإلا فلا ينفعه العلم إلا تكلفا. وهذا / العلم وعلم العروض مخصوصان بالموزون من كلام العرب، بخلاف النحو 100 والبلاغة والبديع، وسائر العلوم اللغوية، فإنها محتاج <إليها>[2] في كل من الموزون والمنثور وهو أكثر.

وأما علم الكتابة: فهو علم التَّرْسِيل، والمراد به القدرة على صوغ الرسائل، والتحليات والتوقيعات ونحو ذلك، وهو في المنثور ضد ما قبله، ولذا يقال فلان شاعر وفلان كاتب، فبينهما التقابل بالذات، ولكن يستعمل في الكتابة الشعر على طريق التبع كثيرا، بخلاف العكس.

1- يعني أبو الحسن الأخفش (ت: 211هـ)، وتبعه الجوهري صاحب "الصحاح" (ت:1005م).

2- سقطت من ج و ح.

وأما علم النقد: فالمراد به نقد الشعر، وهو معرفة ما يقبل فيه وما يرد، ومـن المقبـول ما يستجاد، وما يستساغ فقط، حتى يتميز فيه الخبيـث مـن الطيـب، كمـا يقـع في انتقـاد الدراهم، لمعرفة الجيد منها والرديئ. وكأن النقد مضاف إلى الشعر وحده، مع أن الكلام كله يُنْتَقَدُ، لوقوع ذلك كثيرا في الشعر، وسببه صعوبته كما قيل:

الشعر صعب وطويل سلمه ❖ إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

يريد أن يعربه فيعجمه

مع كثرة ترامي الناس عليه بلا استعداد.

ومنها ما يتعلق باللغة خصوصا وهو:

علم الغريب

أي العلم المتعلق ببيان معاني الألفاظ المسـتغربة، وقـد يعتـبر مثـل ذلـك في القرآن أو الحديث، فيقال غريب القرآن أو غريب الحديث، وقد ألف الناس في كل منها.

ومنها ما يرجع إلى الأخبار غير ما مر، فإن كان حديثا عن حروب العرب، وما وقع لهم فيها من الانتصار والانكسار، وما قيل في ذلك من الأشعار[1] فهو:

علم أيام العرب

والأيام هي الحروب، وأصل ذلك أنهم يقولون قاتلناهم يـوم كـذا، ففعلنـا بهـم، فلنـا عليهم يوم كذا، ثم اتسعوا فقالوا جرى بيننا يوم أو أيام، وهي الحروب. وإن كـان نظـرا في الدول ومُدَدِها، وأعمار الناس، واختطاط البلدان، وخلائها ونحو ذلـك، ممـا يتعلـق بـابتداء الوجود ومدة الإقامة فهو:

1– ورد في ج: الشعر.

علم التاريخ

وقد يقع في الدول من أول الملكة الإنسانية، وقد يختص بجنس أو دولة أو إقليم أو بلد، وقد يختص بالدولة الإسلامية، وقد يختص بأعمار الأعيان ووفياتهم، أو اختطاط البلدان أو المساجد، أو الرباطات أو نحو ذلك، وكل ما يحتاج إليه من ذلك، من أمر شرعي، كتاريخ سكة معلومة، أو مكيال أو ميزان، أو مسجد عتيق، أو التقاء فلان من الرواة بفلان، أو إمكان التقائه به، أو كون فلان من المتقدمين أو المتأخرين، أو من الصحابة أو لا، أو غير ذلك. فهو داخل في العلوم الشرعية المهمة، وما لا فلا.

101 غير أنه إن أفاد فائدة أخرى، كالاعتبار والاستبصار، والاهتزاز / لوصف محمود، عند ذكر من اتصف به، والانتهاء[1] عن مذموم، عند ذكر من نعي عليه، أو تعليم صنعة أو حيلة نافعة، أو غير ذلك فهو محمود، إن لم يعطل عما هو أهم منه. وإن كان راجعا إلى حكايات أمور غير ما مر، وقعت أو ستقع حقا كان ذلك أو باطلا فهو:

علم القصص

على الاطلاق، كالاسرائليات، وكأخبار الزمان المتضمنة ذكر الجنة والنار وغير ذلك، وكثيرا ما تدخل الأحاديث في هذا النوع، وقد يراد من هذا ما يرغب الناس في مصالحهم، وينفرهم عن مضارهم، وهو:

علم الوعظ

وإن كان راجعا إلى حكايات تقدر، وهي ليست بواقعة، فتارة يقدر ذلك على ألسنة العجماوات والجمادات، إخبارا بلسان حالها بما يُعَد أمْثَالاً وَحِكَماً، وهذا نوع إستعملته العرب قديما، وإليه ينسب كتاب كليلة ودمنة، وفائدته ظاهرة عامة للناس، وتارة على

1- ورد في ج: الانتفاء.

ألسنة الناس، إما لمجرد إظهار الاقتدار على الكلام نظما ونثرا، مع ما يتضمنــه الكـلام مـن الفوائد والأغراض، كما في المقامات الهمدانيــة والحريريـة وأضرابهمـا، وإمـا لمجـرد تحليـة الأسماع بالأمور الغرائب، والاطراف في المحاضرات والمسامرات وهو:

علم البطالين

أهل الخلاعات والهزليات والمحادثات، وبعض السخفاء من الملوك، وقـد يتفـق مـن هذا النـوع بعـض مـا وقـع هـو أو شبهه، ويـزاد عليـه مـن الكـذب مـا يشبهه أو يفوقـه، كالعنتريات والهلاليات، ومن هذا النوع بعض المغازي والفتوح، ويندرج في هذا الفن ما يُقَـدَّر منه على ألسـنة الجمـادات، كالتفـاخر بين السـيف والقلـم، وينخـرط في هـذا السـلك فـن الخرافات كلها، وأصلها كما في الحديث، أن خرافة <وهو>[1] رجل من بني عذرة، أَسِرَته[2] الجن، فبقي عندهم زمنا، ثم رجع فجعل يحدث الناس بغرائب، زعم أنه رآها عنـد الجـن خارجة عن المعتاد، فأنكر الناس ذلك، وجعلوا كلما سمعـوا حديثـا غريبـا، قـالوا «حديـث خرافة»، أي هو من ذلك الجنس، فصار مثلا، ثم توسع الناس فيــه حتـى صـار كأنـه اسـم للحديث نفسه، وجمعوه لذلك فقالوا الخرافات.

وهذه الأنواع، وإن أغمضنا[3] فيها، فإنما ذلك بحسب غالب حالها وحال متعاطيهـا، وإلا فكثيرا ما يذكر الشيء منها استشهادا أو استبصارا، أو لقصد الاحمــاض في محالـه، أو غـير ذلـك مـن مقـاصد العقـلاء، فيقبـل ويكـون لهـا بذلـك مسـاغ في أن تنخـرط في سـلك[4]

1– سقطت من ج.

2– ورد في ج و ح: استهدته.

3– ورد في ج: غمصنا.

4– ورد في ج: سلوك.

102 العلوم، / كما ذكر في الفلسفيات: **علم الرمل، وعلم السحر، وعلم السيمياء**. وقد بقي مما يعد من العلوم المعتبرة، **علم الأمثال وعلم الحكم**.

أما الأمثال

فجمع مثل، والمراد به المثل السائر، وهو ما نسبه مضربه بمورده، كقولك لمن ضيع حاجة في إبانها، ثم جعل يطلبها، «الصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ»، بكسر التاء، وإن كان المخاطب ذكرا، لأن المعنى حالتك هذه شبيهة بحالة المرأة التي قيل لها ذلك، وكانت امرأة من العرب، كان زوجها شيخا كبيرا ذا مال، فكرمته لكبر سنه فطلقها، وتزوجت فتى مُقِلاً، ثم إنها مرت بها إبل الشيخ ذات مرة، فأرسلت تطلب لبنا، فقال الشيخ قولوا لها: «الصيف ضيعت اللبن»، أي بسؤالك الطلاق فيه، فلما قيل لها وكان الفتى معها، ضربت على عضده[1] قالت: «هذا ومذقه خير»، وهو مثل آخر.

وأما الحكمة، فهي الاصابة على الجملة، والمراد هنا ما يقع في الكلام نثرا ونظما، وقد قيل: «نزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد، على قلوب اليونان وهم الخائضون في البراهين المنطقية، وهي علم الحكمة، وأيدي أهل الصين، وكانت لهم براعة في عمل اليد من صنائع البنيان، لم تكن لغيرهم، وعلى ألسنة العرب، فنطقوا بذلك في أشعارهم وخطبهم».

وقد قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ من أَشْعَرُ الناس؟ فقال: الذي يقول «ومن ومن» يريد زُهَيْراً في آخر ميميته[2] وهي حكم.

1– ورد في ج: ضدده.

2– وهي من بحر الطويل ومطلعها:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ❖ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وليس للأمثال والحكم واضع معين، وإنما يُنْطِق الله تعالى بها من شاء من عباده، فمنها ما عبر به على لسان حال الجمادات والعجماوات كما مر، ومنها ما تكلم به الناس في الوقائع والوصايا، وصدر كثير منها عن حكماء العرب، وحكامهم ورؤسائهم وأهل النبل منهم، كأكتم بن صيفي[1]، وقس بن ساعدة، وعامر العدواني وأوس بن حارثة، وسيف بن ذي يزن[2]، وهند بنت الخس وغيرهم.

وقد اشتهر لقمان بذلك وذكره الله تعالى في كتابه[3] وناهيك بذلك شرفا للحكمة، ونبينا ﷺ قد أوتي من ذلك ما لم يوته بشر، فله الأمثال التي ابتكرها كقوله: (حَمِيَ الوَطِيسُ)[4] وقوله (لا يتناطح فيهما عنزان)[5] وغير ذلك. وأما الحكمة فبحر لا يدرك غوره ولا ينزف غمره، كيف وهو ﷺ ينبوع الحكمة وسراج الهدى، ومدينة العلم، وإمام المتقين، وقدوة العارفين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

103 وهذان العلمان / لا يختصان بالعرب، فإنهما راجعان إلى معنى الكلام، لا إلى لفظ مخصوص، والعقلاء في ذلك كلهم سواء. نعم هم متفاوتون في الفطنة والذكاء. وبقي من علوم العرب أنواع منها:

1- هو أكتم بن صيفي التميمي، حكيم وخطيب، أدرك الرسول ﷺ، و لم يسلم، وقيل فيه: إنه أحد المعمرين الذين شارفوا المائتين عمرا، (ت: 9 هـ). اشتقاق ابن دريد: 69.

2- هو سيف بن ذي يزن أو معدي كرب بن سيف بن ذي يزن، ملك اليمن من قبل كسرى بعد قضائه على ملوك الحبشة، وكان ملكه خمس عشرة سنة. الكامل في التاريخ/1: 289.

3- مصداقا لقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان: 12.

4- الحديث بطوله أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.

5- لم أقف على هذه القولة.

علم القيافة

وحاصله معرفة النسب الإنساني، بتوسم الصور كما قال المُدْلَجي، حين نظر إلى رجلي أسامة[1] وأبيه زيد رضي الله عنهما: «إن هذه الأقدام بعضها من بعض»، وسمعه النبي ﷺ فسر بذلك، وقال بعضهم: «ورثت من أبي عبدا شيخا كبيرا، فسافرت وهو معي، فلما دخلنا بلدا جعل يقود بي، فنظر إلينا أعرابي فقال ما أشبه الراكب بالقائد، فأسررت ذلك في نفسي حتى رجعنا، فخلوت بوالدتي وأخبرتها بذلك وسألتها، فقالت اعلم أن أباك كان عقيما، فلما خفت هذه الأموال تذهب من أيدينا، مكنت ذلك العبد من نفسي، فهو أبوك، ولولا أن هذا أمر ستعلمه في الآخرة، ما أخبرتك به في الدنيا».

وهذا العلم شعبة من علم الفِراسة الحكمية، المذكورة في الفلسفيات، وهو شيء يوجد بتخصيص من الله تعالى لمن يشاء، وكان في بني مدلج، واعتبره الفقهاء في إلحاق النسب بشروطه، وقالوا كل من اختصه الله به، فقوله مقبول فيه، وإن لم يكن مدلجيا.

ومنها علم العيافة والزجر[2]:

وحاصله الاستدلال بحيوانات ماشية أو طائرة أو جمادات، من حيث حركاتها أو أصواتها أو أسماؤها، أو غير ذلك، على أمور من الغيب وقعت أو تقع، وكان هذا العلم في بني لهب.

قال الشاعر:

سألت أخا لِهْبٍ ليزجر زجرة ❖ وقد رد علم العالمين إلى لِهْبِ

1- أسامة أو الحِبُّ بن زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، ويكنى أبا محمد، وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ومولاته، مات في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان. طبقات ابن سعد/4: 349.

2- الزجر والعيافة يفيدان نفس المعنى، نقول عاف الطير: زجرها.

وأصل الزجر، أن الواحد يجد الطير واقعة فيزجرها لتطير، فينظر إلى أي ناحية تتوجه[1]، فإن تيامنت تفاءل بذلك، وإن تشاءمت تطير، فالمراد زجر الطير. وقد اتسعوا[2] فيه، فاستبدلوا بأسماء الطير وأصواتها، ثم بغير الطير، فتفاءلوا بالسانح، وتشاءموا بالبارح، لأن السانح من الظباء مثلا، هو الذي يأتي من جهة الشمال قاصدا إلى اليمين، فهو معرض قد أمكن الرامي من رميه، والبارح بالعكس، وربما عكسوا، فتشاءموا بالسانح.

قال زهير:

جَرَت سُنُحاً فقلت لها اخْبِـرِي ❖ نَـوًى مَشْجُولَة فمتى اللقـاء

104 واستدلوا بالأشجار، باعتبار الاشتقاق في أسمائها، كالبان للبين، وبغير ذلك، كما / قال الأعرابي حين توفي النبي ﷺ، خرجت من أهلي بليل فنظرت إلى السماء، فإذا سعد الذابح، فقلت: ذبح وقع بالعرب، ثم لقيت شيهما يعني قنفذا، فقلت شيء مهم.

وهذا العلم أيضا لا يختص ببني لِهْبٍ[3]، بل كل من ألهمه الله ذلك يقول به، وهو أمر عادي، للعلم بأن الله يفعل ما يشاء، ولا تأثير لشيء من الكائنات في شيء، وإنما هي أمور تقع عندها الأشياء بمشيئة الله، وقد لا تقع فتنخرم العادة،، إن شاء الله تعالى أن يخرقها، ويكذب حينئذ الحاكم بها.

كما قيل[4]:

1- ورد في ج: توجهت.

2- ورد في ج: استعملوا.

3- بنو لهب نسبة إلى قبيلة من الأزد مشهورة بالعيافة، وهي زجر الطير.

4- هو لبيد بن ربيعة بن مالك، كان من الشعراء المخضرمين. وفد على النبي ﷺ، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. سكن الكوفة، وعمر طويلا، (ت: 41 هـ). والبيت من قصيدة في بحر الطويل قالها في رثاء أخيه لأمه أربد بن قيس. الأغاني/15: 291-305. الأعلام/5: 240.

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضوارِبُ بِالحَصَى ❖ وَلاَ زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ

ومن هذا الفن فنون أخرى، كالضرب بالحصا كما في البيت، وكالتفاؤل والتشاؤم في الطير أو الإنسان أو غيره، من جهة وحدته أو كثرته، أو من جهة الصفة أو الجنس، أو بكونه سالما أو موفا، أو لأمر يلقى أو يرى أو يسمع، وقد كانت بيعة علي ﷺ سبق إليها طلحة[1] ﷺ، وكان في يده شلل، فأنكر ذلك من حضر من الصحابة، واغتموا به وقالوا سبقت يد شلاء، هذا أمر لا يتم فكان كذلك. ودخل بعض الملوك وأظنه سيف بن ذي يزن على امرأة، وهي تسدي ثوبا، فقالت له: ملكك يمتد طولا وعرضا، ثم دخل عليها آخر، فقالت له: قد انتهى أمرك، فغضب عليها، وأنكر عليها إن لم تقل له كما قالت للأول، فقالت له: إنا إنما نتوسم أمورا بعلاماتها، والأول دخل علي وأنا أمد الثوب طولا وعرضا، وأنت دخلت علي وأنا أريد قطعه.

وكلام الشافعي ﷺ في أهل العاهات، والقباح الصفات، كلام يتضمن تجنبهم، وقد ذكرت ذلك مع وقائع جرت له معهم في كتاب المحاضرات[2]، فلا يحتقر ذلك مع سلامة العقيدة، فإنه من حكمة الله تعالى المثبوتة في الكون. ومن علومهم:

الكهانة

وأصلها كما في الحديث[3]، أن الجن يسترقون السمع، ويلقون في آذان أوليائهم من الإنس، وهذه العلوم لم تخرج من القوة إلى الفعل، حتى تكون لها أوضاع واصطلاحات

1– هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو، أحد العشرة المبشرين بالجنة قتل يوم الجمل سنة 36 هـ. وهو من المهاجرين الأولين. روي له ثمانية وثلاثون حديثا. الإصابة/3: 390.

2– راجع في ذلك كتاب المحاضرات/1: 142 وما بعدها. ورسائل اليوسي/1: 159 وما بعدها.

3– تضمين للحديث الذي أخرجه البخاري و غيره في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. وكتاب التفسير، باب قوله ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾.

كسائر الفنون، لأنها مخصوصة بخصوص، فلا تتعدى أربابها ومن يجري مجراهم، ، ولا يدخلها القياس ولا التعلم، اللهم إلا أن يكون بينهم، كما نقول في العلوم الوهبية عند الصوفية، أنها إنما تعرف بإشارة العارف إلى العارف، وتسمية العلم علما لمن / حصل له، لا يتوقف على وضع ولا اصطلاح، وإلا لم يسم الصحابة فقهاء، ولا سمي ما حصل لهم في قلوبهم فقها. ومن علومهم: 105

علم الأنواء

وهو الاستدلال بالنجوم على نزول المطر، وذلك أن النجم متى غرب، طلع نظيره، فقد يقع عند ذلك مطر، فينسبونه إليه، ولهم اختلاف في أنه هل هو منسوب للغارب أو للطالع، فقيل النوء هو سقوط النجم في المغرب، وطلوع آخر يقابله، وقيل هو النجم المائل إلى الغروب، وهذا من علم الأحكام النجومية المتقدم ذكره في الفلسفة، والعرب قد اطلعت على هذا القدر منه، وهو أعم، وقد بين فيه النبي ﷺ ، فقال كما في الصحيح لأصحابه، على إثر سماء نزلت (أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)[1].

ومن علوم العرب **علم خط الرمل** وهو أيضا فلسفي كما مر، **وكذا الشعبذة، وسائر النيروزات**[2]**، هي أيضا من علوم السيميا**، على أحد الرأيين كما مر ذلك، وكذا سائر الحيل التي تغالط بها العقول، أو يوخذ بها شبه السحر، ولا تنحصر لزمام، ومن هذا النمط أيضا الذكر وهو حدس بفطنة، تدرك بها أمور غريبة، لا يكاد يفطن لها، وقد اشتهر بذلك إياس

1- سبق تخريجه في ص: 157.

2- ورد في د وح: النيروجات. والنيروز اليوم الأول من شهر الشهر الأول من شهور السنة الفارسية.

بن معاوية القاضي[1]، حتى ألفوا في هذا الفن تأليفا سموه "زكر إياس"، وقد يكون ذلك استدلالا بأمارات يتفطن لها، كما حكي عنه، أنه نظر إلى ثلاث نسوة سمعن صاعقة فارتعن لها، فقال: «إحدى النسوة عذراء، والأخرى حبلى، والأخرى مرضع»، فقيل له من أين علمت هذا؟ فقال: «رأيتهن حين الخوف، قد وضعت إحداهن يديها على فرجها، فعلمت أنها عذراء، لأن ذلك العضو أهم أعضائها عليها، وأولى ما تخاف عليه، والأخرى وضعت يديها على بطنها، فعلمت أنها حبلى لذلك أيضا، والأخرى وضعتهما على ثدييها، فعلمت أنها مرضع كذلك». ومن هذا المعنى ما وقع لبني نزار، حيث ذهبوا متحاكمين، فمروا "بمرتع الجمل"، وقصتهم مشهورة ذكرناها في محل آخر.

والعلوم لا تنحصر، ولا سيما ما يرجع إلى العقول والإلهامات، وإنما نبهنا على المشهورة والمتداولة، وا لله الملهم للصواب، وإليه المرجع والمثاب.

الفصل الحادي عشر: في تقسيم آخر للعلم

106 ذكره ابن جزي في / قوانينه الفقهية فقال: «إن العلوم في الجملة ثلاثة أنواع، علوم شرعية، وعلوم هي آلات للشرعية، وعلوم ليست بشرعية، ولا آلات للشرعية.

فأما العلوم الشرعية، فأصلها الكتاب والسنة، ويتعلق بالكتاب علمان، القراءات والتفسير. ويتعلق بالسنة علمان، علم[2] الحديث ومعرفة رجاله. ويتفرع من الكتاب والسنة علمان، أصول الدين وفروع الفقه، وينخرط التصوف في سلك الفقه، لأنه في الحقيقة فقه الباطن، كما أن الفقه أحكام الظاهر.

1– إياس بن معاوية، قاضي البصرة، الموصوف بالذكاء (ت: 122 هـ). شذرات الذهب/1: 160.

2– ورد في د و ج: حمل.

وأما آلات الشرعية، فهي أصول الفقه، وعلوم اللسان، وهي النحـو واللغـة، والأدب والبيان. وأما التي ليست بشرعية ولا آلات للشرعية، فتقسم أربعة أقسام: الأول ما ينفع ولا يضر، كالطب والحساب، وقد يعد الحساب من آلات الشـرع، للاحتيـاج إليـه في الفرائـض وغيرها.

الثاني ما يضر ولا ينفع، كعلوم الفلاسفة وعلم النجوم، يعني أحكامهـا، لا التعديـل الذي يخرج به الأوقات والقبلة، فذلك لابأس به، [وقيل بوجوبه][1]، وأمـا أحكـام النجـوم، فمن اعتقد تأثير الكواكب فهو كافر، ومن زعم الاطلاع على المغيَّبَات بها فهو مبتدع، وكذلك كل من يروم التطلع على الغيب بأي وجه كان.

الثالث ما يضر وينفع كالمنطق، فإنه ينفع من حيث إصلاحه للمعاني، كإصلاح النحو للألفاظ، ويضر من حيث هو مدخل للفلسفة.

الرابع ما لا يضر ولا ينفع، كعلم الأنساب، إلا ما فيه اعتبـار أو اقتـداء، أو اسـتعانة على صلة الأرحام»[2]. إنتهى كلامه.

{اعتراض اليوسي على تقسيم ابن جزي للعلوم}

وما ذكره من الآلات، فهو قولنا فيما تقدم، أنه يستعان بها، وأنها شرعية بواسـطة، فالمقصود واحد، ثم يرد عليه أن يقال[3]، أنه لا يصح أن يراد بالشرعي في هذا الباب، مـا لم يستفد اسمه إلا من الشرع، على ما هو مصطلح الأصوليين في هذا اللفظ، فلم يبق إلا أن يـراد به ما أذن فيه شرعا، كما تقول في البيع الصحيح هو بيع شرعي، وغيره لا، أو ما عرف في

1- ساقط من د و ج.

2- القوانين الفقهية: 276 بتصرف.

3- ورد في ج: يقول.

هذه الملة، فإن أريد الأول، فإما أن يراد ما أذن فيه في الجملة، <أو ما أذن فيه جملة وتفصيلا، أي بحيث لا يشتمل على مسألة غير ما دون فيها.

فإن أريد الأول، فنقول العلوم كلها التي عدها مأذون فيها جملة، لاشتمالها في الجملة>[1] على المنافع دينية أو دنيوية، فتكون كلها شرعية، وإن أريد الثاني، لزم ألا يكون شرعيا إلا الكتاب نفسه، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]، والسنة الثابتة ما وراء ذلك.

107 فلابد في / كل علم من أمور باطلة، نشأت عن الجهل أو الغلط أو الوهم، ومثل هذا لا يؤذن فيه ولا في سماعه وتعلمه، وليس لك أن تعتبر تصويب المجتهدين، لأن العلوم قد اشتملت بالمشاهدة، على ما سوى الاجتهاديات، من الأوهام والأغاليط كما قلنا.

وإن أريد ما عرف في هذه الملة، فإن أريد على إطلاقه، فما أخرجه من الطب والحساب والمنطق، ونحوها معروف في هذه الملة، وإن أريد ما لم يعرف إلا فيها، لزم أن لا يكون علم الكلام شرعيا، لأنه هو الإلهي هذب ونقح، كما هذبت سائر العلوم، وكونه غير شرعي باطل، كيف وهو أساس الشرعيات ورأسها، وقد عده هو أيضا منها.

وإن أريد بالشرعي ما تضمن الأحكام المشروعة، فإن أريد المطلوبة بالذات، لزم أن لا يعد من الفقه شرعيا إلا ربع العبادات فقط، فإن غيره إنما يبحث عن أمور مباحة بالذات، وقد يعرض لها الطلب، والطب كذلك، مع أن المداواة مطلوبة شرعا، لمن أقامه الله في مقام الأسباب، كما طلب القوت.

وإن أريد ما هو أعم، فالعلوم كلها لا يقصر ما فيها من الأحكام في الجملة عن الإباحة، وهي حكم شرعي على الصحيح.

1- ساقط من ج.

2- فصلت: 42.

وقوله في علوم الفلاسفة أنها تضر ولا تنفع ممنـوع، فإنك قـد رأيتهـا مشـروحة فيمـا مضى، فما كان منها متعلقا بمنافع دنيويـة، ولم يمـاس العقـائد، ولا خـاض في الإلهيـات، وذلك معظمها، فهو كله نافع غير ضار، كما ينفع الحرث والتجارة وسائر الأسباب، وذلـك باق غالبا في أيـدي النـاس اليـوم، وإن لم يعرفـوا الاصطلاحـات، ومـا كـان منهـا واقعـا في العقيدة، فمشهورة منحصرة[1] في ثلاثة علوم: العلم الإلهي، وعلم الأحكام، وعلم الطب.

فأما العلم الإلهي، ففيه ما يضر وفيه ما ينفع، وقـد أخـذ المتكلمـون الصحيـح منـه، ونبهوا على الباطل. وأما علم الأحكام، فقد أخذه الناس على وجه صحيح، وهو كون ما فيه إن صح أمرا عاديا، ولا محذور في ذلك. وأما الطب، فقد أخذوه أيضا مع العلم، بأن ما فيـه من المزاج، وتفاعل العناصر، ونشأ التغيرات عن القوى، ونحو ذلك، ليس علـى مـا يعتقـده أهله، بل أمور عادية، والتأثير كله لله الواحد القهار، ولا محذور أيضا في ذلك.

ولهم علمان أيضا من هذا النمـط، أحدهمـا علـم السـحر، علـى رأي مـن يـرى فيـه التأثير لأجرام الأفلاك، أو الملائكة، أو لروحانيتها، أو للجن. الثاني علـم الطلسمات، وأن القوى السافلة منفعلـة عـن القـوى العاليـة، وهـذان العلمـان سـاقطان مرغـوب عنهمـا عنـد الجميع. فقد بان لك أن إطلاق القول، بأن علوم الفلاسفة تضر ولا تنفع / غير مستقيم. 108

فإن قيل ما اشتمل منها على أمـور فاسـدة، يخشـى علـى مـن تعاطـاه أن يعتقدهـا، فيجب تركه سدا للذريعة، قلنا قلما يخلو علـم بـل ولا موجـود مـا، عـن مفسدة مبثوثـة في مصلحته، فلو توقيت المفاسد بطل كثير من المصالح، وكأنك أيها الغافل، لم تر ما بيدك مـن علم الكلام مشحونا بأقوال المبتدعة، والجبريـة، والمجسـمة، وأقـوال المعطلـة، والبراهمـة،

1– ورد في ج: تنحصر.

والنصارى، والمجوس، ومن نظر فيها يخشى عليه، إن لم يتأيد بعقل رشيد، ونور رباني، فلم لا يعد[1] ضارا عند الجمهور ويترك.

نعم ضعيف الميز، وكل من لم يعط ما يميز به بين الخالص والبهرج، حق عليه الهرب عن ذلك كله، محافظة على رأس المال، واستراحة من الاشغال.

وقوله «من زعم الاطلاع على المغيبات بها، فهو مبتدع»، نقول من أي جهة يسمى مبتدعا، وتنطبق حقيقة البدعة على وصفه، بل نقول إن كان معه في ذلك فساد عقيدة، كاعتقاد الربط العقلي، لزمه الكفر، أو يرى أنه يطلع على الغيب كله، فكذلك. وإن صحت عقيدته، وعلم أن تلك الأمور عادية، وأنه يتعرف منها أمورا تدل عليها عادة، فنحن نتركه وما دفع إليه، فلعله يرى أن تلك الأمور جرت عادة الله تعالى، بإحداث أمور عندها، ويرى أن تلك العادة مُطَّرِدة، محكوم[2] بها، كما حكم النبي ﷺ بوجود الحيا[3] عند وجود السحابة، المتراكمة على صفة معلومة، من جهة معلومة، والحديث مشهور[4].

ولم يزل أهل العرف يحكمون بالغُدَيْقَة، وهي عندهم ريح بحرية شديدة، ويقولون ما حركت عودا صباحا إلا بلته عشيا، فأي شيء يضر في هذا.

1- ورد في ج: بعد.

2- ورد في ج: بحكم.

3- ورد في ج: الحياء.

4- الذي وقفت عليه عند مالك في الموطأ: «إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غُدَيْقة» قال ابن عبد البر هذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه في غير الموطأ، إلا ما ذكره الشافعي في الأم. موطأ مالك/1: 192 بتحقيق فؤاد عبد الباقي.

نعم نحن لا نعتمد قوله في ذلك، ولا نبني عليه أمرا، ولذا لا نصوم بقول المنجم ولا نفطر، لأنا نحكم ببطلان ذلك ضربة لازب، بل لأنا لا نثق به لكثرة الخطإ، لا خطأ أدلته، بل قد يكون من عدم تحقيقها، وكثرة[1] الدعوى فيها بلا بصيرة.

وإن أراد بالبدعة أن ذلك مخالف، لما عليه السلف الصالح من التبري إلى الله تعالى، والتفويض إليه والتسليم له، فهو كذلك، لكن اسم البدعة بهذا المعنى لا يعرف لمعناه حكم، إذ ليس كلما لم يكن عند السلف، يكون بدعة منهيا عنها.

وقوله في المنطق «أنه ينفع لاصلاحه للمعاني، كاصلاح النحو للألفاظ»، نقول فلم لم تعده في الآلات كالنحو، وهل يكون صلاح اللسان أوكد من صلاح العقل، كلا بل الأمر بالعكس.

وقوله «يضر لكونه مدخلا للفلسفة»، نقول المنطق من علوم الفلسفة، فجعله مدخلا غلط، وكذا عده[2] الطب والحساب وأحكام النجوم منها غير صحيح، فإنها منها، ولعله يريد بعلوم الفلسفة / بعضها، وهو ما يرجع إلى الخوض في الاعتقادات، وذلك العلم الإلهي، والمنطق ليس مدخلا إليه، بل هو آلة مستقلة لكل علم، ولذا لم يعدوه في الرياضيات ولا الطبيعيات، بل قسما برأسه، وسموه معيار العلوم، لأن كل علم فهو معروض عليه، ولذا قيل: «من لامعرفة له به، لا وثوق بعلمه». ثم لو كان مدخلا للفلسفة، فقد علمت أن لا حرج في الفلسفة نفسها، فكيف بما هو مدخل إليها.

109

1- ورد في ج: وكثرت.

2- ورد في د و ح: عزله.

{الرد على الإمام السيوطي في تحريمه المنطق}

ونحو هذا القول، قول السيوطي في نقايته[1] فإنه جزم بحرمة علوم الفلسفة، ومثل بالمنطق منها، وقد كان ذكر الطب في العلوم المهمة عنده، فيقال له إن حرمت علوم الفلسفة عندك، فالطب حرام لأنه منها، فلم ذكرته وأنكرت غيره؟، وإن قام عندك للطب دليل يخرجه عن نظائره، فَهَلاَّ نَبَّهْتَ عليه، ثم عليك بيانه، وعليك بيان دليل الحرمة في جميعها، فإن كان لابتداعها، أي ابتداع استعمالها واستخراجها إلينا، فالمبتدع أعم من المحرم، فلابد من دليل خاص، وإن كان لاشتمالها على فساد، فقد علمت أن كثيرا منها لم يشتمل عليه، فلابد من التفصيل.

ثم يقع البحث في المشتمل على ما مر، ثم إن كان كذلك، فالطب الذي ارتضيته أولى بالتحريم من المنطق، لأن الطب مشحون بأباطيل الطبائعيين والحكماء، في القوى والأرواح، وتأثير البسائط العلويات في السفليات، وغير ذلك. وأما المنطق فلم يقع فيه شيء يُسْتَنْكَر في العقيدة، لأنه إنما بحثه في التصورات والتصديقات ذهنا، من غير تعرض لصورة مخصوصة، ولا حكم مخصوص.

نعم، وقعت فيه مسألة تنويع الحقائق بالأجناس والفصول، الموهمة عدم تماثل أجرام العالم، وهو خلاف ما عند المتكلمين، من تماثلها الموجب للاستدلال بحدوث بعضها على حدوث الجميع، والخَطْبُ فِيه سَهْل، فإنه ينبني على تجرد الحقائق، ولا ينافي ذلك تماثل الأجرام في ذواتها، والقول بالمجردات قد صار إليه كثير من المحققين، وآخرون توقفوا على أن حدوث العالم، بعد القدر الذي يثبت به وجود فاعل مختار، يكفي فيه

1– كتاب في أربعة عشر علما، وقد خصه السيوطي بشرح ضاف.

السمع، فمن العجب العجيب أن يستباح الطب، ويحرم المنطق. وللسيوطي رحمه الله مثل ذلك في مواضع[1] أخرى، ولنا معه كلام في غير هذا الكتاب[2]، والله أعلم بالصواب.

وقال الشيخ زروق[3] في بعض كلامه: «العلم علمان، علم الأديان وعلم الأبدان»، وفي بعضها «العلوم ثلاثة، علم الأديان وعلم الأبدان وعلم الجنان»، يعْني التصوف، قال: «وما سواه فضول أو هذيان». ولعله يريد ما هو مقصود بالذات، وإلا فالعلوم كلها لا تخلوا من نفع ولو بالتبع، كما مر كل ذلك.

110 الفصل الثاني عشر: في تقسيم العلم بحسب الحكم الشرعي

فاعلم أن العلم في نفسه، من حيث إنه وصول النفس إلى المعنى محمود، فإنه فضيلة الإنسان وغذاء الروح، ثم قد يعرض له بحسب مضمونه، وتوجه النفس إليه اختيارا، أن يكون مباحا، لكونه غير مطلوب، ولا منهي عنه، كالعلم بأحوال البحار والبلدان، أو ممنوعا، وفيه بحث تقدم في الكلام على السحر، أو مطلوبا شرعا، إما فرضا وإما ندبا، وينقسم حينئذ إلى العين والكفاية.

فالأول ما يتعلق بالإنسان في نفسه، كالكافر فإنه مطلوب بالإسلام فرض عين، فيجب عليه تعلم صورته ومبانيه، ثم إذا حان الوقت وجب عليه تعلم الطهارة، وسائر شروط الصلاة وفرائضها، ثم إن أراد اشتراء طعام أو ماء أو لباس، وجب عليه تعلم أحكام البيع والشراء، وإن أراد التزوج وجب عليه تعلم أحكام النكاح، وإن أراد مزارعة أو مضاربة، وجب عليه تعلم أحكام ذلك، وهكذا. فليس فرض العين مخصوصا بالعبادات، ولا

1- من بينها: كتابه "الحاوي في الفتاوي"، وكتابه "القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق".

2- أفاض اليوسي القول في الرد عليه في كتابه "الحاشية على شرح كبرى السنوسي".

3- هو أحمد بن حمد بن محمد البرنسي الفاسي (846-899 هـ). ثقة محدث صوفي، تفقه ببلده فاس، وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف. من تآليفه "شرح مختصر خليل". الأعلام/1: 91.

بباب من أبواب الفقه دون غيره، وعلى هذا النوع يحمل قوله ﷺ (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)[1] عند كثير من الأئمة، فمن عرضت له حالة، فعلم حكمها وعمل بذلك كما علم، فقد أطاع الله تعالى مرتين، ولابد أن يقيد ذلك بحسب ما في المقام، من أن يكون حصل له العلم بها بتعلم لله تعالى، فلو حصل له من غير تعلم، أو غير اخلاص، فالمعتبر العمل، ومن لم يعلم ولم يعمل، فقد عصى الله تعالى معصيتين، ومن علم ولم يعمل، فقد أطاع الله طاعة، وعصاه معصية، ففي هذا المقام يكون العالم خيرا من الجاهل، فإن الله تعالى يسأل العبد عن العلم وعن العمل، فيسأل العالم عن العمل، ويسأل الجاهل عنهما معا، فإن كان جاهلا بمناط الحكم في الخارج، كمن شرب خمرا مع جهله أنها خمر، فهو أحسن ممن شربها مع العلم بذلك.

والثاني ما زاد على ذلك، فيجب على الأمة، أن يكون فيهم طائفة يتفقهون في الدين، ليكونوا مرجعا للجاهل في دينه، وبهم يحفظ الشرع عن الضياع، والذي يخاطب بهذا من الناس لتشتغل به، من جاد حفظه وفهمه، وحسنت سجيته. وسنعيد القول في هذا في الباب الثالث، إن شاء الله تعالى.

قيل والاشتغال به أفضل من عبادة أخرى قاصرة، كالصلاة والصوم، وذلك لثلاثة أوجه: الأول ما ورد من نصوص في فضل العالم على العابد، وسيأتي عند ذكر فضل العلم. الثاني أن منفعة العبادة قاصرة، خاصة بصاحبها، ومنفعة العلم عامة، انظر كلام عز الدين. الثالث أن أجر العبادة المذكورة ينقطع بالموت، ومن خلف علما ينتفع به / بعده، فلا ينقطع بالموت. قلت: وهذا مع صحة النية في العلم والاخلاص، وذلك صعب إلا على من وُفِّق. 111

1- أخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

الفصل الثالث عشر: في بيان فضل العلم ومنزلته من الشرف

اعلم أنا قد بينا حقيقة العلم، وبينا حكمه، فلابد من بيان فضله، فإن ذلك كلـه مـن جملة أحكامه، وقد أطبق الكتاب والسنة، والإجماع والنظر، على فضل العلم.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَـاتٍ﴾[1] وروي في هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «العلماء فوق المومنين سبعمائة درجة، مـا بـين الدرجتين مائة عام»، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَـا يَعْلَمُـونَ﴾[2] وقـال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾[3] فقد بـدأ الله تعـالى بنفسـه، وثنى بملائكته، وثلث بأولي العلم، وكفى بذلك[4] منزلة وشرفا، وقال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[5] وقال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَئِـكَ هُمْ خَـيْرُ الْبَرِيَّـةِ﴾[6] إلى قولـه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[7] فالآية الأولى تقتضي أن العلمـاء، هـم الذيـن يخشـون الله تعـالى، والثانية تقتضي أن الذين يخشون الله تعالى هم خير البريئة، فينتج من أبـين الأشـكال، أن العلماء هم خير البريئة، وهـذا علـى أن الإشـارة إلى صـدر الكـلام، ولـو كـان إلى الجـزاء أو

1- المجادلة: 11.

2- الزمر: 9.

3- آل عمران: 18.

4- ورد في ج: وفي ذلك.

5- فاطر: 28.

6- البينة: 7.

7- البينة: 8.

الرضوان، أنتج خيرا آخر للعلماء، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2]، إلى غير ذلك.

وقال النبي ﷺ: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)[3] وقال (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ)[4] وقال ﷺ: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[5] وفي الحديث (يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء)[6] قيل وهذا مع أن أدنى ما للعالم مداده، وأعلى ما للشهيد دمه، فكيف بما فوق المداد.

قلت: وكأنه غفلة عن جهة المناسبة، فإن مداد العالم فيه كانت الخصوصية، التي فضل بها، وهو انتفاع المسلمين بعلمه، وبه توصل إلى استحصاله، فليس عنده في هذا الجانب أعلى منه، ولما كانت خصوصية الشهيد هي أن يحمي الإسلام بنفسه لا بمداد اعتبر دمه فافهم. وفي الحديث أيضا (ما عبد ا لله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد

1- العنكبوت: 49.

2- العنكبوت: 43.

3- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. وأخرجه مالك في كتاب الجامع ،باب جامع ما جاء في أهل القدر.

4- أخرجه الترمذي في كتاب العلم ،باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. والدارمي في كتاب المقدمة، باب من قال العلم الخشية وتقوى ا لله.

5- لم أقف عليه.

6- ضعيف جدا. قال الذهبي في الميزان/3: 517: «متنه موضوع» وقال الألباني في الضعيف: «موضوع».

أشد على الشيطان من ألف عابد)[1]، وقد وقع في هذا الباب أحاديث كثيرة اختصرنا الكلام عنها، خوف الوقوع في ضعيف.

وقال بعض السلف: «لا شيء في الدنيا أعز من العلم، الأمراء حكام على الناس، والعلماء حكام على الأمراء».

112 / وعن علي كرم الله وجهه:

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهمُ ❖ على الهدى لمن استهدى أدلاءُ

وعنه أيضا، «كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه». وقال أبو مسلم الخولاني: «العلماء في الأرض، مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عنهم تحيروا». وعن معاذ ﷺ «تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وبذله قربة، وتعليمه لمن لايعلمه صدقة». وقال سفيان بن عيينة: «أرفع الناس عند الله منزلة، من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء». إلى غير هذا من أقوال الحكماء، وهي كثيرة.

وبيان شرفه بالنظر، أن العلم هو الخاصية، التي امتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان، وبها استحق أن يتوجه إليه الخطاب من رب الأرباب، وهذا شرف عظيم، وكل من كان فيه أقوى، كان أحق بهذا الاختصاص وهذا الشرف، كما أشرنا إليه في صدر الكتاب.

1- إسناده موضوع. أخرجه الدارقطني في سننه/3: 79 من طريقين عن يزيد بن هارون، ويزيد بن عياض كذاب.

الفصل الرابع عشر: في ذكر جهات الشرف

اعلم أن العلم كله بالقياس إلى الجهل، شرف لصاحبه وكمال، ثم يكون لفنونه شرف من جهة أخرى، يقع بها التفاوت، فقد يكون من جهة الموضوع كالطب، إذ موضوعه الإنسان، وهو أشرف ما في الكون، ومن جهة الغاية كعلم الأخلاق، ومن جهة مسيس الحاجة كالفقه، ومن جهة الجميع، وهو أبلغ في الشرف كالإلهي على ما مر، وكذا علم التفسير.

ولابد لكل علم من غاية، يحدها متعاطيه، ويتبجح بها، ولولا ذلك لم يشتغل به، غير أن ذلك قد يكون حقيقيا وقد يكون إضافيا، فيكون له كمال بحسب ما دونه، ونقصان بحسب ما فوقه، وسنلم بشيء مما يقول أهل الفنون في فنونهم، إن شاء الله تعالى.

وقد يستنقص العلم، أو يظن أنه غير نافع، أو غير ضار، لخطإ في حده أو في رتبته أو في غرضه، كأن يظن بالطب أنه يبرئ كل مرض، ومن الأمراض ما لا يبرأ، أو بالفقه أنه أشرف العلوم، مع أن علم التوحيد أشرف منه، أو يقصد به غير غايته، كطلب المال والجاه مثلا، مع أن قاصد هذا غير عالم على التحقيق بل متشبه.

الفصل الخامس عشر: في بيان العلم النافع

وفيه بيان ما بقي من شرط ما ذكر من الفضل فيه، اعلم أن العلم النافع، قد يراد به ما ترتبت عنه ثمرته مطلقا، أعني دينية أو دنيوية، فإن العلوم متنوعة وثمراتها كذلك، وضده ما لم تترتب عليه ثمرته، أو يترتب عنه ضرر، فالأول كمن تعلم الكيمياء، ثم لم يكن مرزوقا فافتقر، والثاني / كمن تعلم ذلك، ثم اتهم بالتدليس، فامتحن فلم يحصل على طائل ولا سلم. 113

والمراد هنا بالعلم النافع عند أئمة الدين، ما ترتبت عليه الثمرة الدينية، بأن تصلح عنده حالة العبد، اعتقادا وعملا، ظاهرا وباطنا، وبذلك تترتب الثمرة الآجلة من دخول

الجنان ورضى الرحمن. قال ابن عطاء الله[1] في "التنوير": «العلم النافع هو الذي يستعان به على طاعة الله، ويلزمك المخافة من الله، والوقوف على حدود الله، وهو علم المعرفة بالله، ويشمل ذلك العلم بالله، والعلم بما به أمر الله، إذا كان تعلمه لله تعالى». انتهى.

قلت: ويلتحق به ما يستعان به فيه، فالعلوم كلها في الجملة لها مدخل في هذا، بشرط صحة القصد، وهو القيام بوظائف العبودية، والاستعانة على ذلك والتوصل إليه، وبشرط عدم الخطإ في الترتيب، وهو أن لا يقدم شيء على ما هو أهم منه في الوقت، فعلم بهذا أن كل ما ذكر أولا من فضل العلم، وحصول الثواب العظيم عنه، ونيل الدرجات الرفيعة به، إنما هو العلم النافع، وهو علم الأبرار المتقين الأخيار، القاصدين به وجه الله تعالى، وطلب الزلفى لديه، لا من يقصده[2] بسوء نية، ولأغراض دنيوية، من طلب المال والجاه، أو لقصد المكابرة والمماراة.

ويقال إنه لما بلغ علماء ما وراء النهر، بناء المدارس ببغداد، أقاموا مأتما للعلم، وقالوا: «كان الذين يشتغلون به هم أرباب الهمم فينتفع بهم، فأما إذا كانت له أجرة فإنه يتسارع إليه الأخساء، فيكون ذلك سببا لارتفاعه».

وعن النبي ﷺ: (مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ وَلِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ الله النَّارَ)[3]، وعنه ﷺ: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ

1- هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الفضل تاج الدين المعروف بابن عطاء الله الإسكندري، المتصوف الشاذلي (ت: 709 هـ)، المالكي المذهب. أخذ عن أبي العباس المرسي. والتنوير المذكور في النص هو كتاب "التنوير في إسقاط التدبير". الديباج: 70 - شجرة النور: 204.

2- ورد في ج: يطلبه.

3- أخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به. والدارمي في كتاب المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله.

اللَّهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[1] وعنه ﷺ: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2] وفي الحديث المشهور أيضا في الثلاثة الذين يقضى فيهم أولا وفيه: (رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ)[3]. وعن بشر أوحى ا لله تعالى إلى داوود لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا، فيصدك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي. إلى غير هذا مما يكثر.

وقال الشيخ زروق: «العلوم المعينة على تنوير القلب أربعة: علم التوحيد والإيمان، وأقل / ما يجزئ منه عقيدة مجردة عن البرهان محررة في البيان كترجمة "العقيدة"[4] للإمام الغزالي، وما جرى مجراها، وأوسطه في "رسالته القدسية"، وأعلاه معرفة" أصول المذهب" لعبد الحق "وقواعده"، وأضر ما فيه فرض الشبه، والاشتغال بأنواع التأويل، من غير احتياج لذلك، لأنه مشتت للقلب، مشوش للذهن، موهن للإيمان، مضعف لحرمة الربوبية من القلب، إلا في حق كامل منتصر للشريعة، بما أوتيه من العلم والبيان، فيقدم بذلك دفعا

114

1- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا.

2- أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير ا لله تعالى. وابن ماجة في كتاب المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به.

3- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. والنسائي في كتاب الجهاد، باب من قاتل ليقال فلان جرىء.

4- أي ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة، التي هي أحد مباني الإسلام. الإحياء/1: 79-83.

لأهل الاعتراض، ومداواة لذوي القلوب المراض، لا لِخَلِي سليم غير محتـاج إليـه، ولا قـادر عن القيام عليه.

الثاني علم الفقه والأركان، وأقل ما يكفي منه عقود الأبواب وشـروطها، وأوسـطه مـا يتسع النظر في الأحكام، وأعلاه ما تثبت به الحجة والمحجة، من العلم بالتوجيه والتنظير، والدليل والتعليل، وأنواع التقسيم، وأَضَرُّ مـا فيـه التشـدق[1] في المجـالس، وتشـتيت الذهـن بالخلافيات، واتساع التأويل في الحركات، ورؤية النفس بالتحصيل، مـع مطاولـة الأقـران، ومكابرة الإخوان، والاشـتغال بوجـوه الهذيـان، فتعلـم مسـتمعا سـاكنا مقتصـرا علـى محـل الفائدة، متبرئا من الدعوى، ورؤية النفس، تسلم من آفاته، وبا لله التوفيق.

الثالث علم التصوف والأحوال، وفائدتـه تحقيـق العبوديـة، والنظـر في وجـه تعظيـم الربوبية، بإقامة الحقوق والاعراض بالحق عن كل مخلـوق، وأقـل مـا يجـزىء فيـه "بدايـة الهداية" للغزالي، وأوسطه "منهاجه"، وبعض كتب المحاسـبي[2]، وأعـلاه كتـب ابـن عطـاء ا لله، ومن نحا نحوها.

فأما كتب الحاتمي وابن سبعين، وابن الفـارض وأبـي العبـاس البونـي، ومـن جـرى مجراهم، فلها رجال لهم في الحقائق مجال، وعندهم في[3] التمييز مقال، فـلا يشـتغل بهـا في البداية إلا غوي، ولا في النهاية إلا خلي، ولا في المتوسط إلا ذكي، يـأخذ بمـا بـان رشـده، ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته، وما هو إلا كما قال بعضهـم، في ترجمـة مـن كتـاب لـه "بحر طامس يحتاج لبحري غاطس" وقد أولع بـه قـوم فضلـوا وأضلـوا، وفـارقوا العمـل بمـا

1- ورد في ج: التمشدق.

2- هو الحارث بن أسد المحاسبي، من أكابر الصوفية. ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد 243 هـ. وهو أستاذ الجنيد. من كتبه "الرعاية لحقوق ا لله"، "البعث المنشور". شذرات الذهب/2: 103.

3- ورد في ح: من.

توهموه فزلوا، وربما ادعوا ما فهموه أو تسنموه دالا لأنفسهم، فافتضحوا بشواهد الأحوال. كما قيل:

من تحلى بحلية ليس فيه ❖ فضحته شواهد الامتحان[1]

أعاذنا الله من البلاء بمنه وكرمه.

الرابع علم الإيضاح والدلالة، والبيان والتحقيق، ومداره على أربعة، العربية لغة ونحوا، وما يجري مجراها، والمراد بها، ما يقع به التفهم والتفهيم، على أتم الوجوه، بأقرب ما تحصل به، فهي كالملح إن كثر أضر، وإن قل فسد الطعام، بنقص لذته وذوقه، والله أعلم».

115 قلت: ولا ضرر في كثرة النحو، بل باعتبار / الكلام، بل لا يحتمل كثرة وقلة، فإن كل كلمة وجملة محتاجة إلى حكمها من النحو، ولا مزيد عليه، ولذا يقول أهل البيان: «إن الوجه في قول القائل، النحو في الكلام كالملح في الطعام، هو كون الصلاح بوجوده، والفساد بعدمه، من غير ملاحظة كمية، ولكنه قد تتبع فيه فروع وتدقيقات وتشعيبات، لا يحتاج إليها، أو يضيع به ما هو أهم، وذلك ضرر».

والاصطلاحات <الحديثية والفقهية وغيرها، ولا سيما اصطلاحات>[2] الصوفية، فإنه مهم لغرابة ألفاظه، ودلالته على معانيه الواضحة المعروفة عندهم، التي من جهلها اعترض بالباطل، وبقي جيده من التحقيق عاطل، فمعرفة الاصطلاحات لازم بكل حال.

وفقه الحديث، لتعرف مواقعه، وعلم التفسير كذلك، ولكل منهما ظاهر وباطن، وحد ومطلع، فالظاهر للنحاة والقراء، والباطن للمفسرين وأصحاب المعاني، والحد للفقهاء العلماء، والمطلع للعارفين والأولياء، ولا تصح رتبة دون التي قبلها.

1- جاء الشطر الأول من البيت في جامع بيان العلم وفضله/1: 145: من تحلى بغير ما هو فيه.

2- ساقط من ج.

{علوم الكتاب والسنة ثمانية}

والعلوم التي حواها الكتاب والسنة في الجملة ثمانية، علم اللسان وهو العربية، وعلم الأديان وهو التوحيد، وعلم الأركان وهو الفقه، وعلم الأبدان وهو الطب، وعلم الحسبان وهو التنجيم، وعلم السلطان وهو السياسة، وعلم الإخوان وهو [علم][1] المعاشرة، وعلم الجنان وهو علم التصوف، ولكل منها مشرب وحقيقة، وعلى المريد فيها حظ من العبودية، لابد له منه، ونوع من الفتح على حسب ما أهل له، وإذا علمت العلوم المنورة، فقد بانت لك العلوم المكدرة. انتهى.

خاتمة تشتمل على فوائد

الأولى: ذكر الفرق بين العلم والمعرفة في اصطلاح الصوفية: اعلم أن العلم قد مر تفسيره، ويسمى معرفة أيضا عند المتكلمين، ولذا قال القاضي أبو بكر رحمه الله: «العلم هو المعرفة، ولو قيل ما المعرفة لقلنا العلم، فإن جهل السائل العبارات كلها فسحقا سحقا، وقد فرق أرباب الاصطلاح بينهما بوجهين: أحدهما أن العلم يتعلق بالكليات، والمعرفة بالجزئيات، ووجهه أن لفظ العلم متى بقي على أصله، تعدى إلى مفعولين، ثانيهما في المعنى خبر عن الأول، فهو متعلق لا محالة بالنسبة الحكمية، وهي كلية غالبا وأبدا، على الاعتبارين في المحمول إذا كان جزئيا، ولفظ المعرفة قاصر، فقد علمت المراد بالجزئيات والكليات، وإن كان الذي تعلق به العلم، يكون أيضا جزئيا بحسب قاعدته فافهم. / الثاني 116 أن المعرفة تستعمل حيث يسبق الجهل، والعلم أعم، ولذا يقال الله تعالى عالم ولا يقال عارف».

1- سقطت من د و ج.

قلت: أما أنه لا يقال عارف، فيحتمل لهذا ويحتمل، لأنه لم يرد بـه توقيـف. وأمـا أن المعرفة تكون حيث يسبق الجهل، فإن أريد بالمعرفة الذكر، فـالصواب أن يقـال، حيـث تسبق الغفلة، بأن يكون الشيء معلوما ثم ينسى،، ثم يحضر بعد ذلك عند التذكر، فحضوره ذلك هو المعرفة في هذا القصد، يقول من طالت غيبتك عنه: عرفتني؟ فتقول عرفتك.

وقال زهير:

وقفتُ بِهَا مِن بَعْد عِشْرِيـنَ حِجَّــةً ❖ فَلَأْ يَا عَرفتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

ولا شك أن هذا المعنى أيضا مستحيل على ا لله تعالى، إذ لا ينسى سبحانه ولا يغفل.

{الفرق بين العلم والمعرفة في اصطلاح الصوفية}

وأما الفرق بينهمـا بلسان الصوفيـة، فإنـه يقـال العلـم مـا حصـل مـن طريـق النقـل والسماع، أو من طريق النظر والاستدلال، والمعرفة ما حصل من طريق الفيض الرباني، علـى جهة الكشف والنوال، وقد يقال في الأول علم مكسـوب، وفي الثـاني علـم موهـوب، فيكـون العلـم أعـم[1]، ويكـون لكـل منهمـا أسـباب واستعداد يناسبه، غـير أن ذلـك في الأول لازم <عادة>[2]، وهو المعنى بقوله ﷺ: (وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)[3]، بخلاف الثاني، فإن مواهب ا لله تأتي بغتة، لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد، وتكون أيضا عن أسـباب، وذلـك المعنـي بقوله ﷺ: (من عمل بما علم أورثه ا لله علم ما لم يعلـم)[4]، وتفصيـل الأسـباب ليـس هـذا محله.

1- ورد في ج: أهم.

2- سقطت من ج.

3- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل لقول ا لله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَـا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

4- سبقت الإشارة إليه في ص: 204.

وهذا الفرق من جهة المنشأ والأصل، وأما من جهة الخاصية، فالعلم لما كان راجعا إلى اكتساب العباد، كان مضبوطا بقوانينه شرعا أو عقلا، فصاحبه يفصل ويحصل، ويحقق ويدقق. والمعرفة لما كانت وراء الطور، وهي خُصُوص لخصوص، كانت غير مضبوطة لقاعدة، بل بحسب الذوق، فكل من سقي شربة يترنم بها، ولا ينسحب حكمها على من لم يشربها، ومن هذا كان من تكلم في التصوف بلسان العلم، كالمحاسبي وأبي طالب والغزالي، يقرر القواعد ويحررها، بخلاف غيرهم من أرباب المواجيد، فإن أقوالهم تختلف في الشيء الواحد، لكونها عن مشارب مختلفة، مثلا يقول الواحد الزهد هو كذا، ويقول الآخر هو كذا، فيقتصر كل على ما في ذوقه، والعالم ينظر فيها جميعها، ويحرر منها ما هو الأولى. وتطلق المعرفة أيضا على معنى آخر أخص من هذا، وبه أطلق وصف العارف، 117 المقابل للزاهد والعابد، وليس شرح هذا / من وظيفنا، فلنتركه لأربابه، والله المستعان.

الثانية: ذكر بعضهم في ذكر بعض ما قيل من الشعر في العلم جملة وتفصيلا، فأما في الجملة فمن ذلك قول بعضهم:

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم ❖ وعنه فكاشف كل من عنده فهمُ

ففيه جلاء للقلوب من العمى ❖ وعون على الدين الذي أمره حتمُ

فإني رأيت الجهل يزري بأهله ❖ وذو العلم في الأقوام يرفعه العلم

يُعَدُّ كبير القوم وهو صغيرهم ❖ وينفذ فيه منهم القول والحكم

وأي رجاء في امرئ شاب رأسه ❖ وأفنى سِنِيه وهو مستعجم فدم[1]

يروح ويغدو الدهرَ صاحبُ بِطْنَةٍ ❖ تركب في أحضانها الشحم واللحم

إذا سئل المسكين عن أمر دينه ❖ بدت رُحَضَاء العَيِّ في وجهه تسم

1- أي بعيد الفهم غير فطين.

وهل أبصرت عيناك أقبح منظرا ❖ من أشيب لا علم لديه ولا حلم
هي السوءة السَّوْءاء فاحذر شماتها ❖ فأولها خزي وآخرها ذَمُّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم ❖ فصحبتهم زين وخلطتهم غُنم
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم ❖ نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم
فوا لله لولا العلم ما اتضح الهدى ❖ ولا لاَحَ من غيب الأمور لنا رسم[1]

وقال الآخر:

بنور العلم يكشف كل ريب ❖ ويبصرُ وجه مطلبه المريدُ
فأهل العلم في رحب وقرب ❖ لهم مما اشتهوا أبدا مزيد
إذا عملوا بما علموا فكل ❖ له فيما ابتغاه ما يريد
فإن سكتوا ففكر في مَعاد ❖ وإن نطقوا فقولهم سديد[2]

وقول الآخر:

رأيت العلمَ صاحبه شريف ❖ وإن وَلدته آباءٌ لِئَام
وليس يزال يرفعه إلى أن ❖ يعظم قدره قوم كرامُ
ويتبعونه في كل أمر ❖ كراع الضَّأْنِ يتبعه السُوام
ويحمل قوله في كل أفق ❖ ومن يك عالما فهو الإمام
فلولا العلم ما سعدت نفوس ❖ ولا عُرِفَ الحلال ولا الحرام
118 / فبالعلم النجاةُ من المخازي ❖ وبالجهل المذلة والرغام
هو الهادي الدليل إلى المعالي ❖ ومصباحٌ يضيىء به الظلام

1– القصيدة لأبي القاسم أحمد بن عمر ابن عبد الله بن عصفور. جامع بيان العلم وفضله/1: 49.

2– أبيات من إنشاد عمر بن محمد بن محمد بن عبد الحكم لبعض الحكماء. نفسه/1: 49.

كـذاك عن الرسول أتـــى عليـه ❖ مـــن ا لله التحيـــة والســــلام[1]

وفي رواية أخرى:

وإن طِلاَبَـةُ حـــقٌّ على مـــن ❖ له عقل وليس به سقـــام

فإما عالـــا تغـــدو وإمـــا ❖ إلى التعليم يخرجك اغتنـام

وسائر ذاك من لا خيـــر فيـه ❖ ومن يك عالما فهو الإمـــام

كذلك عن النبي أتـــى عليـه ❖ من ا لله التحية والســـلام[2]

وقول الآخر وينسب لصالح بن جناح:

تعلم إذا ما كنت لست بعالـــم ❖ فما العلم إلا عند أهل التعلـــم

تعلم فإن العلم زيـــن لأهلــــه ❖ ولن تستطيع العلم إن لم تَعَلَّـم

تعلم فإن العلم أزيـــن بالفتــــى ❖ من الحلة الحسناء عند التكلـــم

وقال سابق البربري[3]:

العلم يجلو العمى عن قلب صاحبـه ❖ كما يُجْلِي سواد الظلمة القمر

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلهـــا ❖ ولا البصير كأعمى ما له بصر[4]

وقول أبي بكر بن مروان رحمه ا لله تعالى من قصيدته:

العلـــم زيـــن وتشريـــف لصاحبـــه ❖ أتت إلينا بذا الأنبياءُ والكتـــبُ

والعلم يرفـــع أقـوامـا بـــلا حســـب ❖ فكيف من كان ذا علم له حسَب

1– أبيات من إنشاد أبي عمر أحمد بن سعيد لبعض الأدباء. جامع بيان العلم وفضله/1: 54.

2– تنسب هذه الأبيات لبكر بن حماد كما أنشدها عنه ابن عبد البر وجماعة. نفسه/1: 54.

3– ورد في د: الجزير.

4– أبيات من قصيدة لسابق البلوي المعروف بالبربري. جامع بيان العلم وفضله/1: 50.

فاطلب <بعلمك>[1] وجه الله محتسبا ❖ فما سوى العلم فهو اللهو واللعب[2]

وقول الآخر:

يُعَدُّ رفيع القوم من كان عالما ❖ وإن لم يكن في قومه بحسيب

وإن حل أرضا عاش فيها بعلمه ❖ وما عالم في بلدة بغريب[3]

وقول الآخر:

لقد ضلت حُلومُ من أناس ❖ يرون العلم إفلاسا وشؤما

كَسَانَا عِلْمُنَا فخرا وجودا ❖ وبالجهل اكتسوا جهلا ولؤما

هم الثيران إن فكرت فيهم ❖ فكيف بأن تَرَوْا ثورا حليما

119 / فَجَانِبْهُم وَلاَ تَعْتَبْ عليهم ❖ وكن للكُتب دونهمُ نديما[4]

وقول الآخر:

العلم بَلَّغَ قوما ذروة الشرف ❖ وصاحب العلم محفوظ من الخُرَف

يا صاحب العلم مهلا أن تدنسه ❖ بالموبقات فما للعلم من شرف[5]

وقول الآخر:

لو أن العلم مُثل كان نورا ❖ يضاهي الشمس أو يحكي النهارا

كذاك[6] الجهل أظلم جانباه ❖ ونور العلم أشرق واستنارا

1- سقطت من ج.

2- الأبيات لأبي بكر قاسم بن مروان الوراق القرطبي. جامع بيان العلم وفضله/1: 56.

3- تنسب إلى بعض الأدباء كما ساقها ابن عبد البر. نفسه/1: 57.

4- نسبها ابن عبد البر إلى سليمان جليس ثعلب. نفسه/1: 58.

5- ذكرها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/1: 58.

6- في جامع بيان العلم وفضله/1: 58 لذاك بدل كذاك.

إلى غير هذا مما يكثر.

وأما في التفصيل، فمن ذلك في كتاب ا لله تعالى، ما يروى عن شيخ الشيوخ ابن لُـب[1] ﷺ، قال: «هممت بطاعة اشتغل بها فبت مفكرا في ذلك، فإذا بهاتف يقول:

إذا الأحبـاب فاتهـم التلاقـي ❖ فمـا صلـة بأفضـل من كتـاب

فقال فعلمت أن الاشتغال بكتاب ا لله تعالى أولى».

وفي الحديث قول بعضهم:

ألا إن خيـر النـاس بعـد محمـد ❖ وأصحابـه والتابعيـن بإحسـان

أنـاس أراد ا لله إحيـاء دينـه ❖ بحفظ الذي يروي عن الأول الثاني

إذا عـالم عالي الحديـث تسامعـوا ❖ به جاءه القاصي من القوم والداني

وساروا مسير الشمس في جمع علمه ❖ وأوطانهم أضحت لهم غير أوطان

وقول الآخر:

وَاظِبْ على جمع الحديث وكتبه ❖ وَاجْهَدْ على تصحيحه في كتبه

واسمعه من أربابـه نقـلا كمـا ❖ سمعوه من أشياخهم تسعد بـه

واعرف رواة ثقاتـه من غيرهـم ❖ كيما تميـز صدقه مـن كذبـه

وهو المقـرر للكتـاب وإنمـا ❖ نَطَـقَ النبـيُّ لنا بـه عن ربـه

فتفهم الأخبـار تعـرف حِلّـه ❖ من حِرْمه مع فرضه من ندبـه

وهو المبيـن للعبـاد بشرحـه ❖ سنن النبي المصطفى مع صحبـه

وَتَتَبَّعِ العالـي الصحيـح فإنـه ❖ قرب إلى الرحمن تحـظ بقربـه

وَتَجَنَّبِ التصحيف فيه فربمـا ❖ أدى إلى تحريفـه بـل قلبـه

واترك مقالـة من قال بجهلـه ❖ في كتبـه أو بـدعـة فـي قلبـه

1- فرج بن قاسم بن أحمد الغرناطي (701-782هـ) إمام غرناطة ومفتيها وعالمها. نيل الإبتهاج:219.

فكفى المحدث رفعة أن يرتضى ❖ ويعد من أهل الحديث وحزبه

120 / وفيهما قال الآخر:

نور الحديث مبين قادر واقتبس ❖ وَاحْدُ الركابَ له نحو الرضى القدُسِ
واطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت ❖ أعلامُه برباها يا ابن أندلس
فلا تضع في سوى تقييد شاردةٍ ❖ عُمْرا يفوتك بين اللحظِ والنَّفَسِ
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل ❖ شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
ما العلم إلا كتابُ الله أو أثَرٌ ❖ يجلو بنور هداه كل مُلْتَبِسِ
نور المقتبس خير للتمس ❖ حرز لمحترس نعمى لمبتئس
ورد بقلبك عذبا من حياضهما ❖ تغسل بماء الهدى ما فيه من نجس[1]
والزم مجالسهم واحفظ مجالسهم ❖ واندُب مدارسهم بالأربع الدرس
واسلك طريقهم واتبع فريقهم ❖ تكن رفيقهم في حضرة القدس
تلك السعادة إن تلم بساحتها ❖ فحط رحلَك قد عوفيت من نفس[2]

وفي علم الكلام قول بعضهم:

أيها المغتدي ليطلب علما ❖ كل علم عبد لعلم الكلام
تطلب الفقه كي تصحح حكما ❖ ثم أغفلت منزل الأحكام

وقول الآخر:

عاب الكلام أناس لا خلاق لهم ❖ وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة ❖ أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

1- ورد في ج: دنس.

2- الأبيات لأبي بكر أحمد القرطبي كما نسبها له الشهاب القسطلاني في إرشاد الساري، وقال إنه أحسن وأجاد.

وفي علم الفقه قول بعضهم:

إذا ما اعتز ذو علم بعلم ❖ فعلم الفقه أشرف في اعتزاز

فكم طيب يفوح ولا كمسك ❖ وكم طير يطير ولا كباز

وفي النحو قول بعضهم:

النحو يصلح من لسان الألكن ❖ والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا أردت من العلوم أَجَلَّها ❖ فأجلها منها مقيم الألسن

وقد عارض هذا الشيخ أبو عمر رحمه الله فقال:

العلم يرفع كل بيت هين[1] ❖ والفقه يجمل باللبيب الدين

121 / فالحر[2] يكرم بالوقار وبالنهى ❖ والمرء تحقره إذا لم يرزن

وإذا[3] طلبت من العلوم أجلها ❖ فأجلها عند التقي المومن

علم الديانة وهو أرفعها لدى ❖ كل امرئ متيقظ متدين

هذا الصحيح[4] لا[5] مقالة جاهل ❖ فأجلها منها مقيم الألسن

لو كان مهتديا لقال مبادرا ❖ فأجلها منها مقيم الأدين[6]

ولا شك أن أعلى العلوم وأجلها، ما يستثمر منه بإذن الله تعالى <معرفة الله تعالى>[7]، وما له من جمال وجلال، ومعرفة أفعاله وحكمته في أرضه وسمائه، وملكه

1- ورد في ج: مهين.

2- ورد في ج: فالمرء.

3- ورد عند ابن عبد البر: فإذا.

4- ورد في ح: المصحح.

5- ورد عند ابن عبد البر: ولا.

6- ساقها أبو عمر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/1: 56.

7- ساقط من ج.

وملكوته، ومعرفة أحكامه، وذلك كله مضمون علم الشريعة، الظاهر منها والباطن، وهو الفقه في الدين، وهو الحكمة. وإن شئت قلت معرفة ما للنفس وما عليها، وأحدهما يغني عن الآخر، لأن ما على النفس هو مما لله تعالى، وإن شئت قلت معرفة ا لله ومعْرفة حكمه وحكمته، وهي معنى الأول، وقد أشرت إلى ذلك، حيث أقول من قصيدة:

والعلم زرع ليس يزكو في امرئ ❖ يجني فيجني من جناه ويحتوي

حتى يصادف تربة من لبه ❖ ليست بملح أو كنود عربد[1]

وجرى من التوفيق بستانا ومن ❖ طبع هواء صافيا لم يفسد[2]

فهناك يثمر غير أن ثماره ❖ شتى إذا أحصيتها لم تعدد

وأجل مغبوط به ومنافس ❖ ذو الأطيب الأبقى الأجل الأعود

عرفان رب العرش ثم صفاته ❖ وفعاله فإلى خفاياها اهتدي

ومدار هذا العبد في أطواره ❖ من يومه وغد ومن أين ابتدي

تلك المعارف لا شقاشق نابث ❖ يهذى ولا يهدي خصيم ملدد

فإذا تحلت بالتناسك والتقى ❖ وإنابة للمالك المتوحد

أزرت بتاج في جبين مملك ❖ من عسجد في لؤلؤ وزبرجد[3]

هذا التفصيل الاطلاقي، وأما الإضافي فيصح في كل علم، أنه أفضل بالنسبة إلى أمر يعتبر دونه، وقد امتدح النحو أثير الدين أبو حيان بقصيدته التي يقول فيها:

1- ورد في ج: عربدي.

2- ورد في ج: يفسدي.

3- من أصل القصيدة الدالية التي يمدح فيها شيخه ابن ناصر على سبيل المعارضة لقصيدة البوصيري في مدحه شيخه الإمام الشاذلي. راجعها في الديوان، حرف الدال. وهي مشروحة في كتاب نيل الأماني في شرح التهاني: 126-127 المطبوع بمصر صفر سنة 1347 هـ.

122 / وما زال هذا العلم تنميه سادة ❖ جهابذة تسنى به وتعاضده

إلى أن أتى الدهر العقيم بواحد ❖ من الأزد تنميه إليه فزاهده

إمام الورى ذاك الخليل بن أحمد ❖ أقر له بالسبق في العلم حاسده

وفي المنطق قول بعضهم:

حكمة المنطق شيء عجب ❖ واختلاف الناس فيه أعجب

كل علم فهو قانون له ❖ وبه يدرك ما يستصعب[1]

وما من علم إلا له فضيلة يختص بها، وثمرة يمتاز بها، يغتبط به عليهما من يولع به، فيمتدح ويثنى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

{العقل هو سبب العلم وآلته}

الثالثة: قد مرت الإشارة إلى أن العقل، هو سبب العلم وآلته، بحيث لا عقل كما في الجمادات والحيوانات العجماوات لا علم، وكذا حيث لم يكمل كالصبيان، أو عرضت له آفة كالمجنون والنائم والسكران ونحوهم، لامتناع وجود الموقوف دون الموقوف عليه، ثم كون العقل آلة لمطلق العلم وموقوف عليه، مبني على أنه ليس بعض العلوم على ما مر، وإلا فالأمر إضافي، وهو أيضا عقلي، بناء على أن استلزام الدليل للنتيجة عقلي، وإلا فالتوقف عادي، لظهور أن شرط الادراك مطلقا الحياة لا غير.

فإن قيل إنه كثيرا ما تظهر علوم ومعارف عند عادي العقل، كالبله والمجانين والصبيان، وكثيرا ما يوجد العلم في أمور الدين دون الدنيا والعكس، وقد توفي النبي ﷺ عن ألوف من الصحابة، ما كان يحسن الواحد منهم أن يشتري حاجة من السوق بقيراط،

1- سبقت الإشارة إلى أن الغزالي هو قائل هذا البيت.

2- المومنون: 53 - الروم: 32.

وهم فقهاء في دين ا لله، وقال تعالى في غيرهم﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾[2].

قلنا أما أوّلاً، فنقول هذا معنى قولنا التوقف عادي، أي فلا عجب في انخراقه حيث شاء ا لله، والموقوف هو العلم المكسوب في العادة، وما يقع للمذكورين ليس منه بل موهوب، وهو من قبيل الإلهام الذي تجده البهائم، غير أن هؤلاء شرفوا فيه بالمزيد، وجعل لهم لسان لبيانه، أو إن الصبي معه العقل الهيولائي، وهو وإن لم يكن هو مفيد العلم غالبا، فلا عجب في ندوره عنه، ولذا يقال نوادر الصبيان. وأما البله ولا سيما من أولياء ا لله تعالى، فهم إنما فقدوا عقل المعاش، الذي هو مناط التكليف لا عقلا آخر.

123 وأما ثانيا فنقول، حصول العلم كيفا وكما / بالقسمة، والعقل للعلم بمثابة السهم الذي يرمى به والجارح المصيد به، فمتى اشتغل بوحشية تخلى عن الأخرى، ومتى توجه إلى ناحية حاد عن الأخرى، وذلك بإذن ا لله تعالى، نسأله سبحانه أن يوجه عقولنا إلى ما ينفعنا عنده، وأن يجعلنا من أهل العلم النافع. آمين.

ثم يقوى ويضعف في ذاته بإذن ا لله تعالى، ولذا يقال من الناس من أعطي من العقل قيراطا أو درهما أو درهمين، أو قنطارا أو قنطارين أو نحو ذلك.

فإن قيل: أنى يكون اختلاف في الماهية الواحدة، قلنا لا تلزم الوحدة، ثم لو كانت فالأعراض تكثر، فالاختلاف إما نوعي وإما عرضي، والسيف من حديد إما ذكر وإما مؤنث، ولا إشكال في شيء من ذلك، ويقوى أيضا ويضعف في توجهه وفي إدراكه، وذلك بحسب الصفاء والسلامة من الصوارف، وصدق المتوجه ووضوح المدرك، وكثرة إلفه أو إلف شبيهه، وبحسب ضد ذلك كله فافهم.

1- الروم: 7.

2- الكهف: 93.

{قوة الملكة وضعفها}

الرابعة: من هذا المعنى، أنه قـد يقـوى العقـل وتقـل الملكـة لعـدم الاشـتغال، وقلـة الممارسة، وقد تقوى الملكة مع ضعف العقل، لشدة الممارسة وطولها، ومآل هـذا إلى ضعـف، فإن كل شيء راجع إلى أصله، وقد تكـون الملكـة ويقـل التحصيـل، لقلـة المراجعـة أو سـوء الحفظ، وقد يوجد التحصيل ويقل التحقيق، لقلة الممارسة أو سوء الفهم، وفي هذا المعنى قال القائل: «لقيت فلانا فوجدت عقله أكثر من علمه، وفلانا فوجدته على العكس».

الخامسة: متى قيل فلان حافظ أو حافظ العصر، فتارة يراد به ظاهره من التحصيـل وهو <المراد>[1] الظاهر، ويجوز أن يراد به الملكة وهو العلم، وإذا قيل حافظ، لكثرة ما جمع في تصنيفه أو درسه من العلم، والنقول الكثيرة والمسائل الغريبـة[2]، فتـارة لكونـه يغـرف مـن صدره وهو الحفظ، وتارة لكونه يجمع من الدواوين الكثيرة، وله فضـل المطالعـة والممارسـة، ولاسيما في الغرائب الخفية، المفتقرة إلى دقة نظر، مع مكابدة الـترتيب وحسـن الـترصيف، فإن لم يكن ذلك، فإنما هو السلخ من الدواوين لكثرتها عنده، فلا كبير فضل له، أزيـد مـن وجود العدة، كما قيل:

إنما الصولـــي شيـــخ	❖	أعلم الناس خزانـــة
أرسلنـــــاه بعلـــــم	❖	طلبا منـه الإبانـــــة
قال يا غلمان هاتـــوا	❖	رزمة العلم الفلانـــة

124 / وهذا من أوصاف العالم قدمناه عن بابه، لتشبث المسائل بعضها ببعض.

1- سقطت من ح.

2- ورد في ح: الغرائب.

{تقسيم العلوم في الجملة أربعة أقسام}

السادسة جملة ما ذكرنا من العلوم في الكتـاب، ينقسـم أربعـة أقسـام: قسـم مشـهور الاستعمال في الفلسفة وفي الملة، وقسم بالعكس، <وقسم مشهور في الفلسفة دون الملة، وقسم بالعكس>[1].

فأما القسم الأول، وهو العلم الإلهي والطب، والمنطق والتوقيت، فقد شـرحناه بعـض الشرح، وتعرضنا للمهم منه للحاجة إليه، ولم نكتف بكونـه مشـروحا في دواوينـه في الملـة، لاحتياج الإلهي إلى أن يعلم أنه هو علم الكلام، وأن ينبه على ما فيه من ترهات المبطلـين في الجملة، واحتياج الطب إلى التنبيه على ما فيه من أوهام الطبائعيين، فإنه مهم، وأطباء الملة لم يعتنوا به، واحتياج المنطق إلى أن يعلم أيضا أنه هو، وأن لا بأس في مسائله، فيظهر غلـط من يحرمه[2]، ويجعله مفتاحا للفلسفة كما مر.

وأما عكسه، وهو ما ذكر من علوم العرب، كالعيافة والقيافة والحكم والأمثـال مثـلا، فقد شرحنا أيضا ما لابد منه، لأنه نافع ومحتاج إليه أحيانا، وهو لم يـدون كمـا ينبغـي في الملة.

وأما الثالث وهو علم الفلسفة خلاف ما ذكر، فلم نشرحه بل اكتفينا فيه بالإشارة عن التصريح، والإجمال عن التفصيل، لعدم تأكد الحاجة إليه، وإنما المقصود من ذكـره الإعـلام بوجوده، ازديادا في البصيرة واستيقاظا من الجهالة.

وأما الرابع وهو جميع العلوم الشـرعية، أصـلا وفرعـا، ذاتـا وعرضـا، فلـم نشـرحها أيضا، بل اقتصرنا على الإشارة والإجمال، لأنها مشـروحة في دواوينهـا، ولا مزيـد عليهـا، وديوان واحد لا يجمعها، فاعلم وا لله المستعان.

1- ساقط من ج.

2- ورد في ج: يحرفه.

البــاب الثانــي

فــي أحكــام العالــم

وفيه فصول:

الفصل الأول: فـي لفظه

اعلم أن العالم لفظ مشتق من العلم، فالعالم هو المتصف بالعلم، إذ من له العلم يجب أن يكون عالما، بحكم الاشتقاق، كما أن كل من كان عالما فله علم، بحكم التلازم، ولذا كان العالم من أسماء ا الله تعالى، فإن ا الله تعالى له العلم التام العـام، المحيط بجميع الجزئيات والكليات، والموجودات والمعدومات، والواجبات والجائزات والمستحيلات، وهو تعالى العـالم حقيقة، ويكون العالم أيضا وصفا للعبد بما رزق من العلم، وإن لم يكن محيطـا، وقد أثبت ا الله تعالى لعباده العلم، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[3] وقال تعالى:/ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4] ففيه إثبات البعض وهو المدعى. 125

وأثبته رسول ا الله ﷺ، ففي الحديث (من عمل بما علم أورثه ا الله علم ما لم يعلم)[5]، وقد مرت جملة من هذا في فضيلة العلم، غير أن اشتقاق العالم من العلم، بمعنى حصول الصورة على ما مر، ظاهر حيث يراد هذا المعنى، والجاري في العرف حيث يقال فلان عالم، وهذا عالم بني فلان. واتفق العلماء على كذا، أن ليس المراد هذا المعنى، إذ لو أريد مجرد الإدراك، لكان الناس كلهم علماء، إذ لا يخلو إنسان في الجملة عن إدراك ما،

1- آل عمران: 18.

2- العنكبوت: 43.

3- البقرة: 255.

4- الإسراء: 85.

5- سبقت الإشارة إليه في ص: 204.

وإن أريد كل إدراك لم يحصل لأحد، فعلم أنه مأخوذ من العلم بمعنى الملكة، أو القواعد المقررة على ما تقدم، والعلم حينئذ بمعنى المعلوم وهو صنعة، فتعذر الاشتقاق، <فإما أن يكون لوحظ الاشتقاق>[1] بالمعنى الأصلي واستمر على ذلك، أو يراد مدرك البعض، أي بالملكة التي من شأنها استطاعة الباقي، أو مدرك الجميع لا مطلقا، ولكن بحسب الطوق البشري، أو يكون على النسبة، فعالم معناه ذو علم، كما يقال في لابن وتامر أنه ذو اللبن أو ذو التمر.

إذا علم هذا، فالمراد بالعالم في هذا المحل، هو من له العلم بمعنى الفن، ويطلق على الجنس، فقد يكون له جميع فنون العلم، بقدر الطاقة البشرية، وقد يكون له بعضها كالفقه والنحو والكلام مثلا، فيضاف إلى فنه، كما يقال ذهب علماء الكلام أو علماء النحو إلى كذا، ويخصص أيضا بوصفه، فيقال متكلم وفقيه ونحوي، وجرى اصطلاح المتأخرين فيمن جمع الفنون المختلفة، أن يقال عَلاَّمَة، مبالغة في الوصف.

الفصل الثاني: في آداب العالم في نفسه

وهي أمور منها: تقوى الله تعالى ودوام خوفه، ومراقبته في جميع حركاته وفي سره وعلانيته، وليستشعر ما أودعه الله تعالى من أمانته، فيجتهد في حفظها ويحذر من الخيانة فيها، قال تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾[3] وعن الإمام الشافعي ﷺ: «ليس العلم ما حفظ العالم بل ما نفع» ويستتبع ذلك الورع والوقار،

1- ساقط من ج.

2- الأنفال: 27.

3- المائدة: 44.

والخشوع والخضوع، والسكينة وحسن السَّمْتِ. وعن عمر ﷺ: «تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار» ويروى[1] هذا في الحديث، ففي كتاب أبي عمر عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخذري قال: قال رسول الله ﷺ: (**تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولمن تعلمونه ولا تكونوا جبابرة العلماء**)[2].

126 / ومنها أن يصونه كما صانه أهله، ويحفظ عليه ديباجته وشرفه، فلا يمتهنه بذهابه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، أو إلى من يتعلمه منه، ف«في بيته يؤتى الحكم».

وقال أبو شجاع[3] الجرجاني:

ولم أبتذل في خدمة العلم مُهْجَتِي ❖ لِأَخْدُمَ من لاقيت لكن لِأُخْدَمَا

وعن الزهري «هوان بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم»، فإن دعت ضرورة أو تعينت مصلحة في ذلك مع النية الصالحة فلا بأس.

ومنها أن يزهد في الدنيا ويتنزه عن فضولها، لأنه أعلم الناس بخستها وشرف الزهد فيها، وقد قال الشافعي: «لَوْ أُوصِيَ لِأَعْقَلِ الناس صرف إلى الزهاد ولا أحد أحق بكمال العقل من عالم».

ومنها أن ينزه علمه عن أن يجعله سلما للأغراض الدنيوية، من مال وجاه ورياسة، وتقدم وشهرة ونحو ذلك، فإن ذلك يبطل أجره ويسقط منزلته، ويكسف نوره ويمنع المزيد

1- ورد في ج: وروي.

2- أخرجه أبو نعيم في الحلية/6: 342. وأخرجه الخطيب في الجامع: 41. وإسناده ضعيف جدا وهو صحيح عن عمر موقوفا.

3- ورد في ج: أبو الشجاع.

منه، وروي عن سفيان بن عيينة ﷺ قال: «أوتيت فهم القرآن فلما قبلت الصرة من أبي جعفر[1] سلبته».

ومنها أن يتنزه عن دني الأفعال والأحوال طبعا وشرعا، فلا يشتغل بحرفة رذيلة ولا أمر منكر، ولا خارج عن المروءة ولا موهم لذلك، فإنه إما أن يتبعه من رآه في غير أمر محمود، وإما أن يقع فيه فينتهك عرضه ولا ينتفع به، ولذا قال ﷺ (إنَّهَا صَفِيَّة)[2] فحق كذلك على العالم إن وقع في شيء له وجه لم يعلمه الناس أن يبينه ليندفع الوهم، ولا مدخل في هذا لأهل التخريب والملامة من الأولياء، لأن هؤلاء همهم في صلاح أنفسهم، لا أن يكونوا قدوة لغيرهم.

ومنها أن يأخذ نفسه بالمحافظة على الديانة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهد الاستطاعة، مع الصبر على ما يتحمل من النصب والأذى في ذلك.

ومنها أن يأخذ نفسه بالكمال في أقواله وأفعاله من جميع العبادات، فلا يرضى بالجائز وما يسقط الحرج، بل يزيد على ذلك تحسينا وتحفظا وتنفلا، ليكون قدوة لغيره، فيحصل له أجره وأجر من تبعه.

ومنها أن يجاهد في رياضة نفسه، وتطهيرها من جميع الصفات المذمومات، كالكبر والعجب، والرياء والحسد، والحقد وحب الدنيا، وغير ذلك مما شرح في كتب التصوف، وتحليتها بالكمالات أضدادها، لتحصل له التخلية والتحلية، فيجمع بين الظاهر والباطن، ولا يرضى بمجرد الظاهر، فإن الباطن هو اللباب.

1- يعني أبا جعفر المنصور العباسي الذي كان معاصرا له.

2- أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب: بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة، وكانت زوجة أو محرما له أن يقول: هذه فلانة، ليدفع ظن السوء به.

ومنها الدوام على تعاطيه والحرص على الازدياد منه. ومنها أن لا يستنكف عن أخذ العلم عن كل من لقي / ولو دونه، فإن «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها»، وبهذا يكثر استمداده، ويدوم انتفاعه، وقد أخذ جماعة من الصحابة عن التابعين.

127

ومنها أن يبث علمه للناس، ويودعه صدور الرجال، فبذلك تنبت شجرة العلم وتتصل مادته، وذلك بالتدريس والتلقين، والإفتاء والتصنيف. وقد قال النبي ﷺ لعلي يوم خيبر: (لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[1]، ويروى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**مثل الذي يتعلم العلم ولا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ولا ينفق منه**)[2] وفي رواية أخرى (**مثل الذي يتعلم العلم لا يحدث به الناس كمثل الذي رزقه ا لله مالا لا ينفق منه**) وقال علي كرم ا لله وجهه: «لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال، لأن العلم كان قبل الجهل» وفي حديث آخر (**من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم فيعمل به ثم يعلمه**)[3].

ويروى عن الإمام مالك ﷺ: «بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة كما يسأل الأنبياء» يعني عن تبليغه. وعن ابن القاسم قال: «كنا إذا ودعنا مالكا يقول لنا: اتقوا ا لله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه». وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه ا لله تعالى إلى بعض عماله: « أما بعد، فمر أهل الفقه و العلم من جندك، فلينشروا ما علمهم ا لله في مجالسهم ومساجدهم والسلام».

1- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل. وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.

2- إسناده حسن. رواه الطبراني في الأوسط: 693. والدارمي في سننه.

3- أخرجه أبو خيثمة في العلم: 138. وإسناده ضعيف للإرسال.

وعن علي كرم الله وجهه: «من علم وعمل وعلم دعي في ملكوت السماوات عظيما».

ويروى عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما تصدق رجل بصدقة أفضل من علم ينشره)**[1]. وعن ابن عباس قال: «معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر». ويقال: «العلم كالنار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن إذا لم تزد وقودا فنيت، والعلم يبقى مع التعاطي وإلا ذهب». وسنذكر إن شاء الله التفصيل في بيان ما ينبغي أن ينشر من العلم، ومن ينبغي تعليمه ومن لا.

الفصل الثالث في: آداب العالم في التدريس

وقد قدمنا أن نشر العلم يكون بطريق التدريس، وبطريق الإفتاء، وبطريق التصنيف، والكلام هنا في الأول، فنقول ينبغي للمدرس أمور:

منها إذا خرج إلى مجلسه أن يتطهر من الحدث والخبث، ويتنظف ويلبس أحسن 128 ثيابه، مما يليق نوعه بمثله في زمانه وبلده، قاصدا بذلك تعظيم / العلم وتبجيل الشريعة، لا رياء ولا فخرا ولا سرفا، ويختلف الحال باليسار والوقت، ولابد أن يختلف أيضا بالقصد والحال، فمن الناس من يغلب عليه حال العلم والمعرفة فينبسط، ومن يغلب عليه حال الخوف والورع فينقبض ويتقشف، والكل على هدى من الله.

ثم يركع ركعتي الاستخارة إن كان وقت ركوع، طالبا اختيار الله تعالى فيما يريد، فإن نشر العلم وإن كان مطلوبا وقربة في الجملة، قد يكون ذلك واجبا أو مندوبا، وقد يعرض له ما يكون به مكروها أو محرما، على ما سنبين إن شاء الله من التفصيل. ثم لو كان مطلوبا فقد يكون شيء آخر أهم منه وأوكد وأولى بالتقديم، فلابد من النظر في هذا كله،

1- أخرجه الطبراني في الكبير/7: 6964. إسناده ضعيف جدا.

والاستعانة بالاستخارة لئلا يقع في محذور أو محظور، وهو يظن أنه في مأمور، وهو شأن كل مغرور، نسأل ا لله العافية بمنه.

ويستحضر نية صالحة في بـث العلم، وبيـان فوائـده، وتبليـغ أحكـام ا لله تعـالى إلى عباده، والاعانة على الدين، وتنمية غرس العلم، وحياطتـه عـن شـبهات الضـالين وتخليـط الجاهلين، ونحو هذا مـن المقـاصد الحسـنة، وليستعذ بـا لله مـن النيـة الفاسـدة، والمقـاصد الخسيسة كما تقدم.

{الأدعية المأثورة عند الخروج من المنزل للتدريس}

ومنها إذا خرج من بيته أن يقول: «بسم ا لله توكلت على ا لله، لا حـول ولا قـوة إلا با لله، بسم ا لله على نفسي ومالي وديني، اللهم رضني بقضائك وبارك فيما قدر لي، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت». ويقول: (اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِـلَّ أَوْ أُضَـلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَـلَ أَوْ يُجْهَـلَ عَلَـيَّ عَـزَّ جَـارك وجَـلَّ ثَنَـاؤُكَ وَلاَ إِلَـه غَيْرُكَ)[1]، وغير ذلك من الأذكار الواردة عند الخروج. وليقل: «اللهم ثبت جناني وأدر الحق على لساني»، ونحو ذلك من الدعاء اللائق به.

ثم لا يزال ذاكرا لله تعالى وداعيـا ومتعـوذا إلى أن يصـل إلى مجلسـه، فـإن كـان في مسجد حياه بتحيته، وإلا فالركوع حسن إن كان الوقت، ثم سـلم علـى الحـاضرين وجلـس مستقبلا إن أمكن، بسكينة وتواضـع ووقـار متربعـا، أو كجلسـة التشـهد أو نحـو ذلـك ممـا يمكن، ولا يمد رجليه ولا إحداهما من غير عذر، ولا يرفع إحداهما على الأخرى، ولا يتكئ على يده، ولا يكن على حالة تـوذن بالاسـتخفاف بالجلسـاء، أو خفـة أو طيـش، كـالعبث باللحية، وإدارة الخاتم، وفرقعة الأصابع وتشبيكها، وكثرة الضحك، والالتفات والمـزاح، أو

1– أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته.

تشغل الفكر كالجوع الشديد والعطش، والهم والنصب والنوم والقلـق، والـبرد والحـر المؤلـين <ونحو ذلك>[1].

129 ومنها أن يبرز للناس، لينتفع / القوي والضعيف والكبير والصغير، فإن العلم كما جاء في الأثر «لن يهلك حتى يكون سرا»، غير أن هذا الأمر يختلف باختلاف العلوم، فرب علم يصلح للعامة، كظواهر الشرع وما في معناهـا مـن المواعـظ، والتشـبيهات والحكـم، فلابـد أن يتخذ له المجلـس العـام، ويكـون العـالم فيـه بـارزا، لينتفـع بـه الـراوي عرضـا واسـتملاء واستماعا، والمستفتي والسائل على الاطلاق.

وعلم آخر إنما هو للخاصة، كدقائق التصوف، وعلم الكلام، وسـائر العلـوم العقليـة، فلابد أن يجعل لأربابه خاصة، حيث يصلح بهم ولا يتأذون بغيرهم ولا يتـأذى بهـم، ولـذا قال الشيخ أبـو حـامد: «علـم الكـلام بمثابـة الـدواء، والفقـه كـالغذاء، والأول لخصـوص[2]، والثاني للناس كافة».

ومنها أن يكرم المتعاطين عليه، وينزلهم منازلهم في السن والشرف والنجابة، وقد كان ﷺ يكرم أصحابه ويكنيهم، ويسميهم بأحسن أسمائهم إليهم، وهذا مع التلطف بـالجميع، وخفض جناح الرحمـة عليهـم، ويلتفـت إليهـم ويواجـهـم، ولا يخـص بمواجهتـه أحـدا، بحيث ينكسر قلب غيره، اللهم إلا من سأل أو قرأ شيئا أو خاطبه خاصة في أمر، فيواجهـه بقدر الحاجة، ومن سأله استمع منه رفيعا أو وضيعا، اللهم إلا أن يستحق تعنيفا لتعنـت أو نحوه.

ومنها أن يفتتح بقراءة شيء من القرآن تبركا وتيمنا، على ما جرت به عادتهم، وهي غير جارية في بلادنا المغربية في الفنون، فـإن كـان في مدرسـة شـرط فيهـا ذلـك اتبـع شـرط

1- ساقط من ج.

2- ورد في ج: للخصوص.

الواقف، ويدعو ا لله تعالى لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين، ولابد أن يسمي ا لله تعالى بعد التعوذ به من الشيطان الرجيم، ويحمد ا لله تعالى ويصلي على نبيه ﷺ وعلى آله وصحبه، ويترضى[1] عن أئمة المسلمين ومشايخه، ويدعو للجميع وللواقف إن كان في مدرسة جزاء على فعله.

ومنها أن يرفع صوته بقدر استماع السامعين، ولا يزيد ولا ينقص[2]، ويترسل في كلامه مقتصدا من غير عجلة ولا طيش، ولا سرعة تخل ولا بطء يمل، ويفصل كلامه، ويقف ويعيد عند الحاجة، ويراعي في العبارة حال الحاضرين، فإن المبتدئ يخل به الإيجاز، والمنتهي يضجره الاطناب وكثرة التكرار.

ومنها أن يصون مجلسه عن اللغط لغير حاجة، وعن الهوس واللدد، ويزجر من اشتغل بذلك، وكل من لا ينصف ولا يهتم بالاستفادة والرشد، أو يقع له ما لا ينبغي في المجلس، كالنوم والتحدث، والضحك والاستهزاء بالناس، وغير ذلك مما يقع في النظر والجلوس والزي والتقدم والتأخر، وكذا كل ما يخل بالتعلم كما سيأتي بيانه.

{قول لا أدري لمن لا يدري وما فيه من الحكمة والصواب}

130 / ومنها أن يلازم هو الإنصاف، ويتبع الحق واستماعه من كل أحد وإن دنيا، وقول لا أدري في محله، وقد قيل: «جنة العالم لا أدري، فإن أخطأ أصيبت مقاتله». ونظمه بعضهم فقال:

ومن كان يهوى أن يرى متصدرا ❖ ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وقالوا: ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري، لكثرة ما يقوله، ويعلم أن ذلك لا يضع من قدره، فإن الاحاطة متعذرة، ولابد من أشياء تكون مجهولة، وهو محل لا أدري، ومن طمع

1- ورد في د وج: يترضي.

2- ورد في ج و ح: يقصر.

في الاحاطة فهو جاهل، ومن تقدم لما ليس له به علم فهو كذاب. وقد سمعت قديما بعض المدرسين يفتخر ويقول: «أنا الذي لا أقف أبدا، إن لم أجد جوابا شغلت السائل بالبحث في سؤاله» وهذا بلاء عظيم، اجتمع فيه الجهل واللدد، والكبر والرضى عن النفس. نسأل الله العافية.

ومنها إن تعدد الدرس أن يرتب، فيقدم الأشرف الأهم، فيبدأ بتفسير القرآن، ثم بالحديث، ثم بأصول الدين، ثم بأصول الفقه، ثم بالمذهب، ثم بالخلاف، أو النحو أو الجدل، وغير ذلك.

{من تصدر قبل أوانه تعرض لهوانه}

ومنها أن لا ينتصب لهذا الأمر، حتى يكون أهلا له محققا للفن الذي يريد الخوض فيه، مع ذكاء النفس وحصافة[1] الرأي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2] وقال النبي ﷺ (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ)[3] وقال الشبلي ﷺ: «من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه» وقال أبو حنيفة: «من طلب الرئاسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي».

وقال قائلهم:

تصدر للتدريس كل مهوس	❖	سفيه تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوه	❖	ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها	❖	كلاها وحتى سامها كل مفلس

1– ورد في ج: وخصابة.

2– الإسراء: 36.

3– أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزنا، باب: النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط. وأخرجه الطبراني في الصغير: 439.

ومن فعل ذلك فقد جمع بين التعدي على المرتبة، والجهل باستحقاقها، والتدليس على الناس، والتلبيس على منصب العلم، وأكل الوقف باطلا إن كان في مدرسة ونحوها، لأن الواقف إنما يقصد العلماء لا المتعاطين، ولو قصد هذا الجنس لم يوف شرطه لفساده. ومن تمام الأهلية أن يحسن صنعة التدريس، وكيفية الإملاء والتقرير، والتحرير والتنقير، فإنه رب محصل لفن ولا يحسن هذه الصنعة، فيقع في تخليط وتشتيت، فالواجب في ذلك

131 إذا / جلس أن يصغي إلى القارئ، حتى إذا فرغ من القدر المحتاج إليه، شرع هو بعد ما مر[1] من الاستفتاح، فاشتغل بتقرير الكلام وتصويره، بعبارة تليق بالحاضرين.

وللناس في ذلك عند الدرس والتصنيف صنعتان: إحداهما أن يلتقط الألفاظ المفردة، فيفسرها لفظا لفظا، ويحرر فيها اللغوي والشرعي والعرفي، والحقيقة والمجاز، والمنفرد والمشترك، ونحو ذلك، والمفرد والتثنية، والجمع المصحح والمكسر، والمصروف والممنوع، والمصحح والمعل، ونحو ذلك، حتى إذا فرغ منها رجع إلى التراكيب، ففسرها[2] وبين التصديق بعد التصور.

ثانيتهما أن يخلط الكل ويضربها ضربة، ففي كل تركيب يبين مفرداته ونسبته، والأولى أحظى بتحرير المفردات على ما ينبغي، ولكن لا تخلو من صعوبة على المبتدئ وتهويل عليه، فهي لائقة بالمتوسط والمنتهي، والثانية أرفق. ثم إن كان في الكلام بحث أو شبهة، أو رأي باطل قرر ذلك كله، على ما صار إليه صاحبه، ولا يمنعه بطلانه عنده من تقريره، كما هو شأن أهل الطيش والجهل، ثم يقرر جواب ذلك، أو الرد عليه إن كان في الكلام، وإلا أجاب من عنده إن أمكنه، وإن يسر الله الجواب على لسان أحد من الحاضرين، فليقبله إن كان صحيحا عنده، ولا يستنكف عن قبوله لصدوره ممن دونه، فإن

1- ورد في ج: كما مر.

2- ورد في ج: يفسرها.

الحق خلق من خلق ا الله يظهره ا الله حيث شاء، و«الحكمة ضالة المؤمن»، وحق العالم أن لا يعتقد أن الأمر مقصور عليه، ولا أنه في غُنْيةٌ عن الزيادة، وكفاية عن الفـائدة هيهـات، بـل حقه أن يجلس على نية أن يفيد ويستفيد.

{العلم عند الشيخ أبي فارس عبد العزيز ثلاث درجات}

وكان شيخنا أبو الفارس عبد العزيز رحمه ا الله ورضي عنـه كثيرا مـا يقـول: «العلـم ثلاث درجات، من ترقى الأولى ظن أنه أنه، ومن ترقى الثانية علم أنه أنه، وأما الثالثة فلا سبيل إليها» وإن كان عنـده بـاطلا فـلا ينبغـي أن يـرده عليـه بصـورة التعنيـف والـتزييف والتجهيل، وإن كان متعلما لا متعنتا، لأن ذلك يخمد قرائح المتعاطين ويكسبهم خـورا أبعـد عن التلجلج[1] في المدارك، وهي طريق الجمود والحرمـان، بـل بلطافـة فيقـول: مثـلا كلامـك حسن لو سلم من كذا، وهكذا يفعل مع المتعاطين، فيجرئهم على الفهـم والبحـث، ويرخـي لهم العنان، ويصرف أعنتهم بلطف عن الخطإ والخطل، ثم إن سنح له بحث في الكلام، أو 132 أورد عليه بحث / فليشتغل به، إن كان عقـول الحـاضرين تبلغـه، وإلا أعـرض عنـه حتـى يكون مع أهله، ويكون كل ذلك بعبارة توافق عقول أهل المجلس، لأن حقهم أوجب.

وحدثونا عن الأستاذ أبي علي الشلوبين[2]، أنه دخـل حضـرة مراكـش حرسـها ا الله، فوجد الشيخ الجزولي النحوي رحم ا الله الجميع، يدرس في مسجده علم العربيـة، فلمـا قعـد إليه[3]، إذا بين يديه حلقة من المبتدئين وهو يقرر لهم على قدر أفهامهم، فألقى عليه سـؤالا فأجابه بجواب متوسط على قدرهم، ثم ارتفعوا فجاءت حلقة أخرى للنجباء الشادين، فكان يلقي الأسئلة فيجيبه حينئذ بغاية التحقيق والتدقيق.

1- ورد في ج: التلجج.

2- هو الشلوبين الصغير محمد بن علي الأنصاري المالقي (ت: حوالي سنة 670 هـ).

3- ورد في ح: بين يديه.

وليحذر المدرس أن يقفز على البحث والإيراد، قبل شرح الكلام، أو يتسارع إلى رد مذهب، أو شبهة أو بحث أو سؤال قبل تقريره، ومتى احتاج الكلام إفرادا أو تركيبا، أو البحث فيه أو الجواب إلى دليل، أو شاهد أو مثال، فلابد من الاتيان به في محله على قدر الحاجة، من غير إخلال بما يكون به التصحيح والتبيين، ولا إغراب يحير أفكار الحاضرين، ومتى احتاج شيء من ذلك <أيضا>[1] إلى توطئة ومقدمة يستعان بها على الفهم أو التصديق، تَعَيَّنَ البدء بها بحسن بيان واختصار، حتى يكون كلام المدرس، [بحيث][2] لو سطر كان تصنيفا حسن الرصف مقبولا.

وهذا أيضا مع وجود الأهلية في الطلبة، وإلا فقد لا يبلغ الطالب لقصوره إلى فهم العبارة المحكمة، فلابد من النزول معه إلى عبارة أوضح بألفاظ متداولة، وتراكيب تليق بحاله، ولا عيب في ذلك حيث كان المقصود الافهام، وذلك إنما هو حيث يتفق أن يبتلى الكبير بتعليم الصغير، وإلا فالأشبه الجنس بالجنس، فإن المبتدئ يشق عليه إدراك إشارات الفحول، والفحل يشق عليه التنزل إلى مقاصد الصبيان، وقد قال أبو العباس بن البناء[3] في نحو هذا:

قصدت إلى الوجازة في كلامي ❖ لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم أَحْذَر فُهُوماً دون فهمي ❖ ولكن خفت إزراء الكبار
فشأن فحولة العلماء شأني ❖ وشأن البسط تعليم الصغار

133 / فإن قيل أكثر من يتقدم للتدريس قبل الكمال، لا يحسن الصنعة، بل ولا يحقق ما يقول ولا ما ينقل، فربما أخذ عنه الخطأ وصار ما يفسده أكثر مما يصلح، فيكون حقا على

1- سقطت من ج.

2- سقطت من د و ج.

3- أحمد بن محمد الأزدي المراكشي (649-721هـ)، الإمام العالم المشهور. شجرة النور: 216.

المبتدئ التقدم إلى الأخذ عن الفحول، ولهذا يقال في العرف: «من سبقك إلى القراءة، فاسبقه إلى الشيخ»، ويقال في مثل ذلك «ضربة بالفأس خير من عشرة بالقدوم».

قلنا قد يكون ذلك، وهو متعين في باب الأخذ والرواية والاستفتاء، لا في بـاب التعلم والتدرب في الطلب، ولابد من الفرق بين هذين الأمرين، فإن صاحب الرواية ناقل، فلابد له من تحري أهل التثبت فيما يسمع، والمستفتي طالب عمل، فلابد له من تحـري أمثـل أهـل الوقت، ليقلده في النازلة، وأما المتعلم فهو طالب صنعة ينبغـي إرهـاف خـاطره، لانتقـاص الفهوم وارتياض جواد فكره للركض في ميدان العلوم، فـلا يضره خطـأ يصـدر في الوقـت ولا تخليط، فإنه سيصلح بعد، ومـراده إنمـا هـو تغذيـة روحـه وتنميـة فكرتـه، وذلـك حـاصل بالمدارك مطلقا، وإذا تعاطى ذلك مع أمثاله حصل الغرض، ثم تكون التصفية والتهذيب بعـد بملاقاة المحققين، وهذا إنما هو في أرباب الفهم المتأهلين للعلم، وأما البليد الجـامد فحسـبه ما يسمع[1]، فليطلبه صحيحا مبينا، ولكل مقام مقال.

وقيل: «حد الإقراء تصحيح المتن، وحل المشكل، وزيادة علـى هـذا ضررهـا بـالمتعلم أكثر من نفعها»[2] اهـ. قلت ولابد أن يدرج فيما ذكر التنبيه على النقص أو الحشو، وهو مـن تصحيح المتن، وتوجيه ما يحتاج إلى التوجيه، وهو من الثاني. والتحقيق هو أن يعـامل كـل بما يليق به كما مر، والمدرس إن لم يكن طبيبا، كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

الفصل الرابع: في آداب العالم في الإفتاء

وهي الإبانة في اللغة، يقال أفتاه في الأمر إذا أبانه له، وتطلق الفتيا والفتوى، على ما يصدر من الحكم عن المفتي، وقد عَلِمْت من شرح اللفظ أن الإفتـاء يصـدق في الأصـل في كـل

1- ورد في ج: ما يسمعه.

2- هذا الكلام ينسب إلى الشيخ محمد بن ناصر الدرعي، وهذه الطريقة التي دشنها من قبل الإمام ابن عرفة، سار عليها فيما بعد أبو علي اليوسي، وشرحها في فهرسته. طلعة المشتري/1: 159.

علم، فكل من بين مسألة لسائل فقد أفتاه، ولكن اشتهر في العرف إطلاقه في <المسائل>[1] الشرعية فقط، وهو في ثلاث طبقات:

{طبقات المجتهدين في الفتوى}

الأول في الاجتهاد المطلق، وهو أن لا يتقيد صاحبه بمذهب أحد المجتهدين، بل بالكتاب والسنة، فيأخذ جواب النازلة من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسوله ﷺ نصا إن كان، وإلا اعتبر واجتهد، فقاس / الأمور بعضها على بعض[2]، حتى يقع على المسألة بطريق القياس، أو الاستصحاب، أو فحوى الكلام، أو نحو ذلك من الاستدلال، فهذه الطبقة العليا أصلها للنبي ﷺ فيما يفتي به على الوجه اللائق بمنصبه ﷺ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[3] ثم لأصحابه كافة، ولذا قال ﷺ (بأيهم اقتديتم اهتديتم)[4] ثم السادة التابعين، وسائر العلماء الراسخين، كمالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والسفيانين ونظرائهم[5]، وهم أئمة الهدى، ولكل أتباع.

134

الثاني في اجتهاد المذهب، وهو أن يكون مقتديا بمذهب إمام ممن ذكر في الطبقة الأولى، بعد أن ينظر في قواعده التي انبنى عليها مذهبه، ويمهر فيها مع التبحر في علوم الشرع، والتضلع من الكتاب والسنة، والنظر الصحيح، والفكر الصائب، ويقتصر من ذلك على ما اقتضته[6] قواعد إمامه وأصول مذهبه، فيفتي به وينتسب إلى إمامه، فيقال مالكي أو

1- سقطت من ح.

2- ورد في د وج: بعضها ببعض.

3- النجم: 4.

4- سبقت الإشارة إليه في ص: 103.

5- ورد في د و ج: نظائرهم.

6- ورد في د وج: ما اقتضاه من ذلك.

شافعي أو حنفي مثلا، وهذا مجتهد النسبة إلى مذهب إمامه، وماله من التصرف فيه، وهو مقلد بالنسبة إلى إمامه وما له من القواعد.

الثالث في اجتهاد الفتوى، وهو أن يكون أيضا مقتصرا على مذهب إمام مخصوص، ولكن لم يبلغ مبلغ الذي قبله من التصرف واستنباط الأحكام، وإنما حصل له حفظ أقوال من قبله، والإحاطة بالمذهب بقدر الطاقة، مع ذكاء النفس وقوة الفطنة، وصحة النظر ومعرفة أدلة الأقوال، ووجوهها المختلفة، فيصح له بطريق الحفظ معرفة القول المتفق عليه، والكثير قائله والقليل قائله، ويميز بذلك المشهور من الشاذ، وبطريق النظر في التوجيهات والتعليلات معرفة الصحيح من الباطل، والقوي من الضعيف، فيميز الراجح من المرجوح بما وقع لأهل المذهب، وبما يسنح له في فكره وما يهبه الله تعالى من عنده، ويكون قادرا على التشهير والترجيح، فيفتي بحسب ذلك، وقد تنزل به نازلة لا يحفظ لها حكما فيخرجها على بعض ما علم، أو ينتهج لها من الاستحسان وجها، وبهذا لم تتعطل النوازل في شيء من الأعصار، ولم ينقطع الاجتهاد في الحقيقة، وإن كان يظهر أنه منقطع، غير أن ذلك على الندور، وإلا التحق بالذي قبله.

إذا علم هذا فنقول، حق المفتي في جميع الطبقات أن يتبع الحق، ويتحرى الصدق، مع سائر الآداب المذكورة في العالم كما مر، فإن كان هو المعصوم وهو النبي ﷺ فالصدق واجب له، فيما يوحى إليه عقلا / بدلالة المعجزة، وفي جواز اجتهاده ﷺ خلاف، فإن 135 اجتهد وقلنا بتصويب المجتهدين، وأن ما ظنه المجتهد هو حكم الله في حقه وحق من قلده

[وإلا][1] فلا إشكال، وإلا فقيل[2] لا يجوز عليه الخطأ للعصمة، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى﴾[3] وقيل يجوز وينبه ولا يترك عليه.

وإن كان غيره فحقه في الطبقة الأولى الجمع بين الكتاب والسنة، فإن الله تعالى قد أنزل الأحكام في كتابه، قال تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[4].

ثم بينها بسنة رسول الله ﷺ قولا أو فعلا أو تقريرا، قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[5] فخصصت السنة العمومات، وقيدت المطلقات، وبينت المنسوخات، والمجازات التي يتخرج عليها الكلام، والظواهر التي لا تراد، والسنن والآداب، فمن تتبع ظواهر القرآن من غير أن يتبينها بالسنة يخشى عليه الضلال، بما هو الهدى، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾[6] وهذا أصل ضلال الخوارج، وكثير من المبتدعة.

وفي الثانية تحكيم قواعد إمامه مع الانصاف، وترك التعصب بالهوى، فالحق أحق أن يتبع، والشريعة كلها محجة واحدة. وفي الثالثة تحري المشهور من الأقوال، فقيل هو ما كثر قائله، وقيل ما قوي دليله، فإن اجتمعا فهو الأكمل.

الفصل الخامس: في آداب العالم في التصنيف

ويقال أيضا التأليف، وبين اللفظين في الأصل عموم من وجه، لأن التصنيف جعل الشيء أصنافا، فمن ألف بين مسائل من صنف واحد فلم يصنف، والتأليف إثبات الألفة

1- سقطت من د و ح.
2- ورد في ج: فقليل.
3- النجم: 3.
4- النحل: 89.
5- النحل: 44.
6- البقرة: 26.

والمناسبة بين أشياء مطلقا، فمن قرن بين شيئين غير متناسبين، أو أشياء كذلك فلم يؤلف. والعرف إطلاق اللفظين بمعنى واحد، فكل مصنف[1] لابد أن يكون مؤلفا[2] وبالعكس، أو كل مدون فهو مصنف، وإن لم يكن أصنافا، وكانوا يكتفون بالتعليم مشافهة، فبقيت العلوم في صدور الناس، ثم قصرت الهمم وضاعت العلوم، فدونوها لتبقى، وضنوا ببعضها خيفة أن يقع إلى غير أهله.

136 ورتبوا في صدور الكتاب / تراجم، تعرب عنه سموها الرؤوس وهي: الاسم، والماهية، والواضع، والغرض، والمرتبة، وتقدم ذكر ذلك في علم الكلام، وهي تارة تضاف إلى العلم، فتكون مقدمة للعلم، سواء وضعت في كتاب أو لا، صدرت أو لا، فمنها ما يتوقف عليه الشروع في العلم توقفا ما، ومنها ما يستعان به استعانة ما كما مر، وتارة إلى الكتاب، فتكون مقدمة للكتاب كذلك، ولابد أن توضع في أوله، ويزاد فيها وينقص بحسب الحاجة، وقسموا الكتب إلى علوم وغيرها.

والثانية إما أوصاف حسنة، أو أمثال سائرة قيدها النظم بالتقفية[3] والوزن، وهي دواوين الشعر، وإما أخبار وسير مرسلة، وهي كتب التاريخ، والتحقيق أن التواريخ علوم، ونقلتها الجامعون لها علماء بها، وغاية الأمر أن العلوم عقلية ونقلية، وهذه نقلية.

وأما الأشعار فهي أيضا علوم باعتبار نقلها وتدوينها، وليست علوما باعتبار إنشائها، مع أن ذلك مستدع وجود علم، ولذا يقال في الشاعر أنه عالم بالصنعة، وفلان أعلم بها من فلان، ومن ثم قسموه إلى مُخْتَرِع ومُوَلِد، ويقال أيضا إما شاعر وإما شعرور وإما متوسط، وهو

1- ورد في ج: مؤلف.

2- ورد في ج: مصنفا.

3- ورد في ج: بالتقيفة.

أيضا بحسب الطبقة، إما جاهلي وهو من لم يدرك الإسلام، وإما مخضرم وهو الذي كان في الجاهلية ثم أدرك الإسلام، وإما مولد وهو الذي نشأ في الإسلام.

{كتب العلم كثيرة بكثرة العلوم}

وأما كتب العلم فكثيرة لكثرة العلوم، وتنقسم إلى ثلاثة: مختصرة تكون تذكرة للمنتهي، وينتفع بها المبتدئ إن ساعده الذكاء والتوفيق، ومبسوطة تجعل للمطالعة، وينتفع بها الفريقان، وفيها على المبتدئ تطويل وإملال[1]، و[إما][2] متوسطة ونفعها أيضا عام، وهي أحسن وأسلم في الجملة، وقد يدعو إلى شيء داع صحيح فيعتبر.

والمصنفون فريقان: شخص ذو ملكة تامة ودراية كافية، ولا يستغنى عنه، وهو أعرف بما يصنع، وشخص ذو ذكاء وفطنة، يأخذ الكتب فيستخرج لبابها، ويحسن رصفها وترتيبها، وهذا ينتفع به المبتدئ والمتوسط، وحق الجميع تحري الصدق والتحقيق، واشتمال الوضع على فائدة معتبرة تستحصل، كاختراع ما كان مغفولا عنه، وجمع ما كان مُفْتَرِقاً، واختصار ما كان مطولا، وتهذيب ما كان محشوا، وبسط ما كان مغلقا، وتكميل ما كان ناقصا، تتميما أو تذييلا، أو تصحيحا أو تعريفا أو ترتيبا، وعقد منثور ليحفظ، وحل معقود ليفهم، أو غير ذلك من الفوائد، وإلا فتسويد قرطاس، وتعديد وسواس.

والمعتبر ما في نفس الأمر، وإلا فكل ذو رأي يظن رأيه صائبا، وبذلك كثرت الدفاتر وامتلأت / القماطر، ثم هي منثورات ومنظومات، والأولى أقرب إلى الفهم، وأيسر للتحرير والتحقيق، والثانية أعلق بالنفس وأسرع للحفظ، وهذا إذا كان النظم فصيحا سلسا، وإلا فلا عبرة به، وأمهات وشروح، ويعتبر في الشرح زيادة على ما ذكر، ما مر ذكره في التقرير في الدرس. 137

1- ورد في ج: وتخليل.

2- سقطت من د و ج.

الفصل السادس: في ذكر بقية طرق نشر العلم

اعلم أن ما ذكرنا من الدرس والإفتاء والتصنيف، هو ما اشتهر استعماله في نشر العلم، وقد يكون بغير ذلك، بكل ما يمكن به وصول العلم إلى الغير، وذلك كله راجع المعنى إلى ما ذكر، وذلك كالتلقين، فإنه راجع إلى الإفتاء إن كان جوابا عن نازلة، وإلا فلاحق بالتعليم السابق، إذ لا فرق بين الجمع والفرادى، وبذلك يلتحق تشقيق الكتاب للواحد مثلا، وككتب الرسائل إلى الناس، وهو داخل في التصنيف، لأن تدوين العلم أعم من أن يخاطب به معين أو لا، وكالوعظ والتذكير، وهو لاحق بالتدريس، ويكون التعليم في التدريس والإفتاء بالإشارة، وهي كالكلام، وكذا كل ما يفهم رضى أو إنكارا، من قول أو فعل أو سكوت، وقد يكون التعليم بالعمل، بأن يكون الشخص قدوة، فكلما عمل عملا أعتقد، ولذا كان فعل النبي ﷺ دليلا شرعيا، لا يقال إن النبي ﷺ معصوم، ففعله معتبر دون غيره، لأنا نقول لسنا الآن في الاعتبار وعدمه بل في الفهم، بمعنى أن النظر إلى[1] الفعل، يحصل به علم يدل الفعل عليه، كما يحصل بسماع القول، سواء أعتبر أو لا، وفعل النبي ﷺ هو من جملة الأمثلة أيضا.

واعلم أن التعليم في صورة الفعل <قولا>[2]، قد لا يكون مقصودا للفاعل، فحينئذ نقول نشر العلم بالتعليم، قد يكون مقصودا وقد لا كهذا ، ومن جملة هذا القسم الوجادة، فإنه يحصل بها علم للواجد، وقد لا يقصد صاحب الخط ذلك.

وأما الإجازة بأنواعها، فنعدها من تتمات نشر العلم، على حسب ما وقعت عليه الإجازة، وا لله المستعان. وأما نشر العلم بالقضاء، فيكون بالتبع، لأن قصد الخصوم ثمرة

1- ورد في ح: في.

2- سقطت من ح.

العلم لا العلم، والفرق بين القضاء وما مر من الفتوى، أن القضاء هو إخبار بالحكم الشرعي على وجه الإلزام، والفتوى على وجه الإعلام.

الفصل السابع: في بيان أصول هذه الطرق من السنة وأنها كلها مأثورة قديمة

أما التعليم بصورة التدريس، فأصله ما كان ﷺ يفعله في مجالسه مع أصحابه، من تبيين الأحكام والحكم والحقائق، وتفسير الحقائق وتفسير الآيات القرآنية، وذكر فضائلها وخواصها وغير ذلك، وهم في ذلك مجتمعون عليه، فهذا تقرير وتبيين. قال تعالى: 138 / ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] وهذه حلقة العلم، ولم تزل حِلَق العلم على العلماء كذلك وهلم جرا.

وأما بصورة الإفتاء فواضح، فإنه ﷺ ليسأل عن النازلة، فيفتي بما علمه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾[2].

وأما بصورة التأليف، فأصله ما كان ﷺ يفعله من كتب الوحي إذا نزل، وكتب الرسائل إلى الملوك وغيرهم، وكتب كتاب الصدقة، وقد جمع[3] فيه مسائل، فهو علم مدون، وذلك هو التأليف، ولئن[4] كان ﷺ لا يكتب بيده، لما أغناه الله عن ذلك، لقد كان يأمر بالكتب، والمقصود إنما هو وضع العلم وتدوينه وتخليده، سواء كتب العالم بيده أو لا، وكم من عالم يملي ولا يكتب، ويكون ذلك تأليفا.

1- النحل: 44.

2- النساء: 127.

3- ورد في ج: يجمع.

4- ورد في ج: وإن.

وأما التلقين والوعظ والتذكير وإشـارة الفعـل فكثـير، فقـد لقـن ﷺ أصحابـه أدعيـة وأذكارا، ولم يزل ﷺ يعظ ويذكر، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وكان ﷺ يقول: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي)[3] ويقول: (خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُم)[4]، أي من فعله عليه السلام.

وأما الإجازة، فقد قال ﷺ: (خُذُوا القُرْآنَ مِن أَرْبَعَةٍ)[5]، فهـذه إجـازة، وقولـه تعـالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[6] من معناه، وا لله المعين.

{التأريخ لطريقتي الإفتاء والتدريس}

واعلم أن هذه الطرق ليست سواء، فإن صورة الإفتاء سنة قديمة، لأنه ﷺ كان يسأل ويفتي، <وكذلك أصحابه من بعده>[7]، وهلم جرا بلا مزيد.

وأما صورة التدريس، بتقرير الكتب المؤلفة في الفنون، فأصلهـا ثـابت في السـنة[8] كمـا قررنا، وهي متأخرة لأنها إنما كانت بعد وجود الكتب، والكتـب إنمـا وجـدت بعـد الصدر

1- النحل: 125.

2- الذاريات: 55.

3- أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة.

4- أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا. وأخرجه النسائي في كتاب مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم.

5- أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب أبي بن كعب رضي الله عنه. وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد ا لله بن مسعود وأمه.

6- المائدة: 3.

7- ساقط من ج.

8- ورد في ج: السنن.

الأول، وأصلها تقدم كما مر، فكان الصحابة رضي ا لله عنهم يسمعون العلم، ويحفظونه في صدورهم، لكمال دواعيهم وقوة نورهم، غير أن منهم من كان يكتب ما يسمع زيادة في التوثق، على ما سنذكر حكمه في الباب الثالث إن شاء ا لله.

ولم يشتغلوا بوضع الفنون وتفصيلها بالتراجم وتصنيفها، حتى كان ابن عباس يكتب عنه أصحابه أشياء في التفسير، ثم ألَّفَ الناس في التفسير وفي الحديث، وفي النحو وفي الفقه، وفي القصص والتاريخ، إلى أن كانت الدولة المأمونية، فأدخلت العلوم الفلسفية في الملة، وألفوا فيها وفي علم الكلام، ثم استنبطت أصول الفقه وألفوا فيها، ثم في علم الخلاف وعلم الجدل، وألفوا في علم التصوف، وسائر العلوم وهلم جرا.

139 الفصل الثامن: في حكم نشر العلم بشيء من الطرق المذكورة

اعلم أنه قد مر فضل نشر العلم، وذلك موذن بكونه مطلوبا شرعا على الجملة، ثم هل وجوبا أو ندبا، وعلى الأول هل عينا أم كفاية؟

فنقول إن نشر العلم من جملة المصالح الإسلامية العامة، كجهاد العدو، وتجهيز الموتى، وذلك كله واجب على الكفاية، فنشر العلم فرض على الكفاية، فمن ظن أن غيره قام به سقط عنه الفرض، وبقي حكمه على الندب، لأنه فعل خير، ومن لم يظنه ضائعا سقط عنه، وهذا على المذهبين في فرض الكفاية، وأن المخاطب به الجميع أو البعض، ولا شك أن نصوص الكتاب والسنة مفصحة بالوجوب في الجملة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾[1] قيل هي في اليهود، أخذ عليهم العهد في أمر محمد ﷺ أن يبينوه ولا يكتموه، وتفيد المراد بطريق التعريض، وقيل هي عامة في كل من علمه ا لله تعالى علما، ولا إشكال.

1– آل عمران: 187.

وقال ﷺ (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَها)[1] وقال أيضا ﷺ : (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[2]، إلى غير ذلك، ومحمله ما ذكرنا. والدليل على كون الطلب كفاية، قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[3] فَعَلَّقَ ذلك بطائفة دون الجميع.

الفصل التاسع: في أن التعليم إذا لم يكن فرضا هو أفضل من الاشتغال بعبادة أخرى أم لا

اعلم أن الأحاديث الكثيرة، تدل على كون التعليم أفضل، ففي الحديث (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أُمَّتِي)[4]، وإنما ذلك من جهة نفعه للعباد، وفيه أيضا عن النبي ﷺ (مَنْ أَدَّى الفَرِيضَة وعَلَّم النَّاس الخَيْر كَانَ فَضْلُه عَلى العَابِد والمُجَاهِد كَفَضْلِي علَى أَدْنَاكُم رَجُلا)[5]، وفيه أيضا عن النبي ﷺ قال: (**فضل المومن العالم على المومن العابد سبعون درجة**)، وفيه أيضا عن النبي ﷺ قال: (**يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم اشفع للناس كما أحسنت أدبهم**)[6]، يعني تعليمهم،

1- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع. وأخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب فضل من بلغ علما.

2- أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب كراهية منع العلم.

3- التوبة: 122.

4- سبق تخريجه في ص: 303.

5- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب في فضل العلم والعالم، بألفاظ مغايرة.

6- إسناده موضوع. وقد أخرجه ابن السني في رياضة المتعلمين.

وعن النبي ﷺ قال: (نعمت العطية ونعمت الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوي عليها ثم تحملها لأخ لك مسلم تعلمه / إياها تعدل عبادة سنة)[1]. 140

ولابد أن يتقيد هذا بشيئين: أحدهما صحة قصده في التعليم، والسلامة من الآفات الباطنة والظاهرة، وتفصيل ذلك يطول، فليراجع في محاله من كتب العلماء، فإن غرضنا إنما هو ذكر القوانين. الثاني وجود أهله على ما سنذكره، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: (إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه، وقليل سائلوه كثير معطوه، العمل فيه خير من العلم، وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه العلم فيه خير من العمل)[2] انتهى. فهذا تفصيل بحسب الحاجة، وهو دليل ما قلنا.

الفصل العاشر: <في أن التصنيف أفضل أم التدريس؟>[3]

<اعلم>[4] أن العلماء <قد>[5] اختلفت أحوالهم في هذا، فمنهم من استغرق زمانه في التدريس فقل تصنيفه، ومنهم من بخلافه، والكل منفعة للناس. أما التدريس فنفع حاضر ينتشر به العلم في الآفاق، وأما التصنيف فنفع مدخر يوجد عند الحاجة إليه، وينبغي للعالم أن يراعي حال الوقت، فإن اتفق وجود طلبة العلم النجباء، فليشتغل بهم ويودع الحكمة

1- ضعيف جدا. وأخرجه مختصرا الطبراني في الكبير/12: 43.

2- إسناده ضعيف. وهو صحيح من كلام ابن مسعود. وقد اخرجه الطبراني في الكبير بهذا المتن، وأخرجه مالك بألفاظ مغايرة في كتاب قصر الصلاة في السفر، باب: جامع الصلاة.

3- ساقط من ج.

4- سقطت من ج.

5- سقطت من ج.

صدورهم، وإلا فَلْيُوَدِعْ[1] علمه بطون الأوراق، ولا يبق بطالا، وإن كان التوسط[2] فالتوسط، وهو الأخذ من كل قسم بطرف، وقد يكون شيء من العلم إن لم يجمع ضاع، فلا غنى فيه عن التصنيف، كما أنه قد يكون شيء مفروغ منه بما صنف فيه، فالتصنيف فيه تكلف.

وألسنة العلماء أيضا قد تختلف، فقد يكون منهم من لسانه في الكتب مثله في الدرس، وقد يكون من لسانه في الكتب أفصح، وقد يكون من هو بالعكس، فقد كان الشيخ سعد الدين التفتازاني[3] إذا اجتمع به السيد الجرجاني في المجالس ارتفع عليه السيد فصاحة وبيانا، فلما صنفا خرج لسان السعد أفصح وأنصع[4]، فالعالم في هذا أيضا، يراعي حال الوقت وحال نفسه، قياما بالنصح واتساما بالإنصاف.

الفصل الحادي عشر: في ذكر شيء من آفات العلم

فمن أعظمها أن يبقى العالم لا يؤخذ عنه حتى يموت بعلمه، وهي الآفة المشار إليها في حديث (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ)[5]، وفي خبر كميل بن زياد مع علي كرم الله وجهه، وأن عليا أشار إلى صدره وقال: «إن هاهنا لعلما لو وجدت له حملة» إلى أن قال: «هكذا يموت العلم بموت أهله». ومن آفاته النسيان، وفي حديث الأعمش / عن النبي ﷺ قال: (آفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ 141

1- ورد في ج: فليدع.

2- ورد في ح: متوسطا.

3- ورد في ج: التفتزاني.

4- وردت قصة المناظرة المذكورة في مجلس الأمير تيمورلنك في شذرات الذهب/1: 319-328 .

5- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم. وأخرجه مسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

وَإِضَاعَتُهُ أَنْ تُحَدِّثَ بِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ)[1]، **وعن الزهري: (إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة)**[2].

ومن آفاته وضعه في غير محله، وذلك أن يحدث به غير أهله، كما في الحديث المذكور، وقال أبو عمر: يروى عن النبي ﷺ أنه قال: **(قام أخي عيسى عليه السلام في بني إسرائيل خطيبا، فقال: يا بني إسرائيل لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم)**[3].

وقال الشاعر:

فمن منح الجهال علما أضاعه ❖ ومن منع المستوجبين فقد ظلم[4]

وقد كثر هذا المعنى في أقوال السلف ، وكلام الشعراء وهو ظاهر، وإنما يبقى النظر في عدم الأهلية ما هو؟ فنقول إنه يكون بأمرين:

الأول في الإنسان من جهة الأخذ والتحصيل، وهو أن يكون بليدا، جافي الطبع، نائي الفكر عن المدارك، بعيدا عن الفهم والحفظ، فتعليمه عنت وتكلف[5]، كمن يبذر في السباخ، أو على الصم الصلاب، فحقُّ العالم أن يتجنب مثل هذا ما أمكنه، وهو محنة لمن ابتلي به كما قيل: «ومن العناء رياضة الهرم»، وليصرفه عنه صرفا جميلا، إلى ما يليق به من عبادة يعمر بها أوقاته، أو سبب يستعين به على العبادة، ويكف به نفسه، وقد يكون ذلك في العلم على الاطلاق، وقد يكون في فن مخصوص، فيصرفه إلى غيره مما يقبله طبعه، ويدركه

1- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب مذاكرة العلم.

2- إسناده ضعيف. وله شواهد بمعناه. وهذا الأثر أخرجه الدارمي في سننه/1: 150.

3- رواه ابن عبد البر مرسلا في جامع بيان العلم وفضله/1: 110.

4- ينسب إلى الإمام الشافعي ﷺ.

5- ورد في ج: تكليف.

فهمه، وقد روي عن الإمام الخليل بن أحمد قال: «كان إنسان يتعلم علي علم العروض، فلا يحصل منه على شيء، فلما طال به الحال، وأتت عليه سنة أو نحوها، وهو على حاله من الجمود، ألقيت إليه قول عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئا فدعه ❖ وجاوزه إلى ما تستطيع[1]

وقلت له قَطِّعه ففهم المراد وانصرف ولم يعد إلي، فعجبت من فهمه إشارة البيت مع جموده».

الثاني من جهة سائر الخلق، بأن يكون خسيس الهمة، يعلم منه أنه لا يزداد بالعلم إلا تساقطا على سفساف الدنيا وأهلها، أو جبارا عنيدا، يعلم أنه لا يزداد به إلا طغيانا، وذلك أن العلم تتخذه النفس سلاحا، فإن كانت شريفة زكية، اتخذته لاستحصال الكمال اللائق، واستجلاب النفع، واستدفاع الشر، وإن كانت خسيسة متساقطة على الحظوظ، اتخذته آلة في ذلك، وإن كانت متعلية ازدادت به علوا وفسادا، وهذا القسم مخطر فإن 142 / العلم ربما كان دواء بإذن الله يصلح به الفاسد، ولا سيما العلوم النافعة، و في ذلك وقع قول القائل: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله».

وفي هذا يفصلون العلوم إلى دنيوية تستمر معها دواعي النفس، كعلوم اللسان، وإلى أخروية تخمد معها، كعلوم التصوف وعلوم الوعظ والتذكير، ويلتحق بها التفقه في الكتاب والسنة، وما لابد منه من علوم العقائد، والسيرة النبوية والشمائل. أما فروع الفقه وفروع الكلام، وعلم الخلاف وعلم الجدل، فأمر بين أمرين، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[2].

1– هذا البيت من قصيدة قالها عمرو بن معد يكرب في أخته ريحانة لما سباها الصمة بن الحارث، في غارة قام بها على قبيلة الشاعر المذكور. مختار الأغاني/7: 379.

2– البقرة: 213 – النور: 46.

ولا يعارض هذا المحل، بما روي عن بعض المشايخ، أنه كان يحدث بعلمه صبيانه وأهله، ولم يكونوا له أهلا، فإن محمله عندهم أنه كان يفعل ذلك تذكرة لنفسه لئلا ينسى، ويروى عن الأعمش أن إسماعيل بن رجاء، كان يجمع صبيان الكتاب، فيحدثهم لئلا ينسى حديثه، وكان بعضهم إذا لم يجد من يسمع منه، يحدث جواريه، ثم يقول: « إني أعلم أنكن لستن بأهل »، وإنما يريد الحفظ، وقد يبالغ بعضهم، فيجمع حجارة بين يديه، ويقرر لها ما حصل من العلم لئلا ينساه.

الفصل الثاني عشر: في قول العالم سلوني، وحرصه أن يؤخذ عنه العلم، وابتدائه جلساءه بالفائدة، وما كان من اختلاف أحوال العلماء في ذلك

يروى عنه ﷺ أنه قال حين رمى الجمرة يوم النحر: (خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ)[1]، وروي أنه كان ﷺ في سفر، ومعه معاذ بن جبل رديفه على الرَّحْل، فقال: (يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا قَالَ مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا قَالَ إِذًا يَتَّكِلُوا وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ)[2]، وهذا غير لفظ الصحيح، وأنه ﷺ قال: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ)[3].

1- سبق تخريجه في ص: 346.

2- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهة أن لا يفهموا.

3- أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

وعن علي كرم ا الله وجهه قال: « ألا رجـل يسـأل فينتفـع وينتفـع جلسـاؤه » قيـل: وما كان أحد يقول سلوني غير علي بن أبي طـالب ﷺ، ويـروى عـن أبـي الطفيـل قـال: «شهدت عليا ﷺ يخطب، ويقول: سلوني، فـوا الله لا تسـألوني عـن شـيء يكـون إلى يـوم القيامة، إلا حدثتكم به، وسلوني عن كتاب ا الله، فـوا الله مـا منـه آيـة إلا وأنـا أعلـم بليـل نزلت أم بنهار، أو بسهل نزلت أم بجبل" قال: "فقـام ابـن الكـوا وأنـا بينـه وبـين علـي، فقال: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْـرًا﴾[1].

143 / فقـال: ويلـك سـل تفقهـا ولا تسـل تعنتـا، ﴿الذَّارِيَـاتِ ذَرْوًا﴾ الريـح، و﴿الْحَامِلَـاتِ وِقْرًا﴾ السحاب، و﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ السفن، و﴿الْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة.

قال: «أفرأيت هذا السواد الذي في القمر؟ قال: أعمى سأل عـن أعمـى، أمـا سمعـت ا الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾[2] فمحوه السواد الذي فيه» قال: «أفرأيت ذا القرنين أنبيا[3] كان أم ملكا؟» قال: «لا ولا واحدا منهما، ولكنـه كان عبدا صالحا، أحب ا الله فأحبه ا الله، وناصح ا الله فناصحه ا الله، دعا قومـه إلى الهـدى فضربوه على قرنه، ثم دعاهم إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر، ولم يكن له قرنان كقرنـي الثور».

قال: « أفرأيت هذا القوس؟» قال: «هي علامة بين نوح وبين ربه وأمان من الغـرق». قال: «أفرأيت البيت المعمور ما هو؟»، قال: «الصراح فـوق سـبع سمـاوات تحـت العـرش، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون فيه إلى يوم القيامة».

1- الذاريات: 1-4.

2- الإسراء: 12.

3- ورد في ج: أنبيئا.

قال: «فمن﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[1]؟» قـال: «همـا الأفجـران مـن قريـش كفيتهـم يـوم بـدر». قـال: «فمـن ﴿الَّذِيـنَ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِـي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]؟» قال: «كان أهل حروراء[3] منهم».

وعن سعيد بن جبير أنه كان يقول: «إنه مما يهمني، أني وددت أن الناس قد أخذوا من العلم»، وكان سـفيان الثـوري يقـول: «وا لله لـو لم يـأتوني لأتيتهـم في بيوتهـم»، يعـني أصحاب الحديث.

ويروى أن الحسن ﷺ كان يبتدئ الناس بالعلم يقول: «سـلوني»، وأن ابـن سـيرين وإبراهيم كانا لا يبتدئان أحدا حتى يسألا، والحق في هذا النظـر إلى اختـلاف النـاس، فمـن كان عنده علم بما طلب منه من سؤال العلماء فلا حاجة إلى ابتدائه بالعلم، فإن فيه ابتـذالا، ولا بأس أن يندب إلى السؤال عن دينه نصحا، حتى إذا سأل علم، ومن كان جـاهلا بـالأمر كله، فلابد أن ينبه، والأفضل أن يقدم إليه ما يحرك داعيته، ويستوجب منه الاصغاء، كما كان ﷺ يقول: (ألا أحدثكم ألا أخبركم أتدورن ما كان كذا)[4] ونحو ذلك.

1- إبراهيم: 28.

2- الكهف: 104.

3- كناية عن فرقة الخوارج الذين صعدوا إلى جبل حروراء في أعقاب خروجهـم عنـه، بسـبب قبولـه التحكيم في معركة صفين بينه وبين معاوية.

4- مثال ذلك قوله ﷺ: (أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنِ الدَّجَّالِ مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّهُ يَجِـيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ) أخرجـه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾.

وقد يكون جاهلا جهلا مركبا، فيعتقد في جزئية خلاف الحق، أو يظن أنـه لا حكـم فيها، فلابد من التنبيه، والضابط أنه لابد من مراعاة نصـح العبـاد، وتبليغهـم مـا ينفعهـم، ومراعاة ديباجة العلم أن تبقى وا لله المستعان.

الفصل الثالث عشر: في طرح العالم المسألة على أصحابه

اعلم أنه يكـون هـذا علـى قسـمين: أحدهمـا مـن العـالم يهـا، وهـو صـورة المسـألة، ويكون ذلك منه / تمرينا وامتحانا لأصحابه، أو مداخلة ومباسـطة، ولا بـأس بذلـك كلـه، 144 وأصله فعل النبي ﷺ، ففي الصحيح أنه قال لأصحابه: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَراً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَأَنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَأَخْبِرُونِي مَا هِيَ)[1]، وكذا قوله لمعاذ بـن جبـل: (أَتَـدْرِي مَـا حَـقُّ ا لله عَلَى العِبَاد)[2] وكلاهما مشهور، وسأل عمر رضي الله عنه عن ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾[3] ليظهر فضل ابن عباس، ومن فوائد ذلك التنبيه والتنشيط[4] لأمثالها وترسيخا في الأذهان، فإن مـا امتحـن عليه لا ينساه عادة. الثاني من سائل عنها أو مذاكر فيها، ولا إشكال فيها، وقد كـان أمـير المومنين عمر رضي الله عنه يسأل أصحابه كثيرا، فـلا يسـتنكف العـالم أن يسـأل جلسـاءه والمسئول حينئذ وهو العالم بطريق الحيثية.

1- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب الحياء في العلـم. وأخرجـه مسـلم في كتـاب صفـة القيامـة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة. وكلاهما بألفاظ مغايرة.

2- سبق تخريجه في ص: 353.

3- النصر: 1.

4- ورد في دوج: التشطيط.

الفصل الرابع عشر: في حال العلم إذا كان عند الأرذال والأشرار

روى أنس بن مالك ﷺ قال: قيل: (يَا رَسُول ا لله مَتَى يُتْرَكُ الأَمْر بالمعْرُوف وَالنَّهْي عَنِ المنْكَر، قَالَ: إذَا ظَهَرَ فِيكُم مَا ظَهَر في بَنِي إسْرَائِيل قَبْلَكم قِيل: وَمَا ذَاكَ يَارَسُول ا لله قَالَ: إذَا ظَهَرَ الإِدْهَان في خِيَارِكُم وَالفَاحِشَة في شِرَارِكُم وتَحَوُّل المُلْك في صِغَارِكُم وَالفِقْه في رُذَالِكُم)[1].

قيل: وسئل رسول ا لله ﷺ عن أشراط الساعة، فقال: (أن شرطها أن يلتمس العلم عند الأصاغر)[2] الذين يقولون بالرأي، وقيل أهل البدع، ويقال: «تَفَقُّه الرعاع فساد الدين، وتفقه السفلة فساد الدنيا».

ووقع هذا المعنى في كلام سفيان، وتقدم شيء منه عند ذكر المدارس، وعند ذكر وضع العلم في غير محله ومعنى هذا في الجملة، أن الفاسد الطبع يتخذ العلم سلاحا لفساده، ثم لا يحجزه حياء ولا مروءة، أن يدخل به مداخل السوء فيقتدى به، أو يكذب على ا لله في حكمه، وذلك كله فساد للدين والدنيا، ولذلك قال القائل لعمر بن عبد العزيز: «أما أهل الخير فلن يريدوك، وأما أهل الشر فلن تريدهم، ولكن عليك بأهل الاحسان، فإنهم يتحامون عن الدنس لمكان حسبهم»، وهكذا أمر العلم.

1- أخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين، باب مسند أنس بن مالك. ويلاحظ أن ألفاظ المتن المعتمد عند اليوسي تختلف عما ورد عند الإمام أحمد وابن ماجة. والحديث بسنده ومتنه: (حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ يَحْيَى الدِّمَشْقِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو مُعِيدٍ حَدَّثَنَا مَكْحُولٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى نَدَعُ الِائْتِمَارَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا كَانَتِ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ).

2- حديث حسن أخرجه ابن المبارك في الزهد: 61. وأبو عمرو الداني في الفتن/2: 62.

الفصل الخامس عشر: في ذم العالم على مخالطة الأمراء الظلمة

يروى عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتَنَ)[1]، وعن حذيفة رضي الله عنه «إياكم ومواقف الفتن. قيل: وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله. قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول له ما ليس فيه». وعن وهب بن منبه[2] / قال: «إن جمع المال وغشيان السلطان، لا يبقيان من حسنات المرء شيئا إلا كما يبقى ذئبان جائعان ضاريان سقطا في حظار فيه غنم فباتا يجوسان حتى أصبحا». 145

وعن سفيان الثوري قال: «في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزوارون للملوك». وفي الخبر، «خير الأمراء الزوارون للعلماء، وشر العلماء الزوارون للأمراء»، ويقال أيضا: «شر الأمراء أبعدهم من العلماء، وشر العلماء أقربهم من الأمراء».

وعن النبي ﷺ قال: (**العلماء أمناء الرسول على عباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسول، فاحذروهم واعتزلوهم**)[3]، وقيل للأعمش: «يا أبا محمد لقد أحييت العلم بكثرة من يأخذه عنك، فقال: لا تعجبوا، فإن ثلثا منهم يموتون قبل أن يدركوا، وثلثا يلزمون السلطان فهم شر من الموتى، ومن الثلث قليل من يفلح»، وإنما قال شر من الموتى، لأنهم يفسدون ويدلون على الفساد، بخلاف الموتى.

1- أخرجه أحمد في مسند بني هاشم. وأخرجه النسائي في كتاب الصيد والذبائح، باب اتباع الصيد.

2- وهب بن منبه بن كامل أبو عبد الله التابعي اليمني (34-114 هـ)، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء وسمع عددا من الصحابة. من كتبه "تفسير القرآن" و"قصص الأنبياء". وفيات الأعيان/5: 88 - شذرات الذهب/1: 150.

3- حديث ضعيف، ذكره ابن عبد البر في جامعه/1: 643.

واعلم أن هذا كله، إنما هو في الظلمة الجائرين[1]، وفي المداخلة وكثرة الزيارة، فأما أهل العدل فلا بأس بمخالطتهم وإعانتهم على الخير لمن قوي عليها، وأولئك بيض الأنوف، وكذا[2] الملاقاة لضرورة داعية، من غير إعانة على الشر ولا مساعدة، والوقت سيف، والمداراة مشروعة، والرياح تجري بما لا تشتهي السفن[3]، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4].

الفصل السادس عشر: في مدح العالم العامل وذم الفاجر وطالب الدنيا بعلمه

وتقدم خبر من علم وعمل وعلم دعي في ملكوت السماء عظيما مع جملة من فضل[5] العلم والعمل، وروي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ)[6].

وفي الحديث (أوحى الله إلى بعض الأنبياء، أو أنزل في بعض الكتب، قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش، وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، إياي يخادعون، وبي يستهزءون، لأتحين لهم فتنة تذر الحليم فيهم

1- ورد في ج: الجائرون.

2- ورد في ح: كذلك.

3- تضمين لبيت شعري أوله: ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

4- آل عمران: 101.

5- ورد في ح: فضيلة.

6- أخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به.

حيرانا)[1]، وكان ابن المبارك[2] يقول: «تعوذوا با لله من فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

ويروى هذا حديث عن النبي ﷺ، وأنه قال ﷺ: (**هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل، وشرار الشرار / شرار العلماء، وخيار الخيار خيار العلماء**)[3]، وعن الأوزاعي قال: «شكت النواويس إلى ا لله عز وجل ما تجد من نتن جيف الكفار، فأوحى ا لله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه».

146

ولأبي العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما	إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كَمُلْبِسِ الثوب من عري وعورته	للناس بادية ما إن يواريها
وأعظم الذنب بعد الشر نعلمه	في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها	منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: (إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ

1- ينقل اليوسي هذا الحديث بالمعنى، وقد أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب عن ابن عمر ونصه: (... عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَقَدْ خَلَقْتُ خَلْقًا أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ فَبِي حَلَفْتُ لَأُتِيحَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا فَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ).

2- عبد ا لله بن مبارك التيمي بالولاء، أبو عبد الرحمن شيخ الإسلام (118-181هـ). صاحب التصانيف والرحلات. من كتبه "الجها"، و"السنن"، و"الزهد". الديباج: 130.

3- يبدو أنه لا أصل له، وأما شقه الثاني: بصيغة وشر الشر إلخ فقد أخرجه الدارمي في سننه.

فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ[1] فهؤلاء أهل الرياء بعلمهم أو عملهم، وقد تقدم ذكر الاخلاص في وصف العالم، نسأل ا لله رحمته آمين.

خاتمة تشتمل على فوائد مما ورد في حكم ما تقدم وغيره

الأولى: في ذكر مراتب العلم، قالوا: «أولها الانصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»، وكأنه أريد بالحفظ هنا التحصيل حفظا وفهما، وبذلك كملت المراتب، وقيل: « أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»[2]، والمراد أن هذا الترتيب هو اللائق في الجميع، فإن عكس بأن قدم النشر على العمل فهو قد يكون، وبئس ما صنع، وما سواه من المراتب متعين.

147 **الثانية:** فيما ورد من دوام عمل معلم الخير في الحديث المشهور **(إذا مات ابن / آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، وولد صالح يدعو له، وعلم يبثه في صدور الرجال)**، وفي حديث آخر (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ

1- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة. باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

2- كلام ينسب لمحمد ابن وضاح في آداب أخذ العلم. ترتيب المدارك/4: 439.

يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)[1]، وفي حديث آخر (**ثـلاث تنـال المومـن بعـد وفاتـه: الولـد الصالح يدعو له من بعد وفاته، فينالــه أجـر دعائـه، والرجـل يـترك الصدقـة في الموضـع الصالح فتنفذ لوجهها، والرجـل يعلـم العلـم الصـالح فينتهـى بـه عـن المعـاصي**). وقـال الحكماء: «علم الرجل ولده المخلف».

ولا شك أنه هو ذكره وشرفه بعده، و لله در القائل:

يقولون ذكر المرء يبقى بنسلـــه ❖ وليس له ذكر إذا لم يكن نسـل

فقلت لهم نسلي بدائع حكمتـــي ❖ فمن سره نسل فإنا بذا نســـل

الثالثة: في قوله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين) في حديث عبــد ا لله بـن مسـعود رضي الله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِـهِ فِـي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَـا)[2] والحكمـة الفقـه في ديـن ا لله، وفي حديث عن أنس قال: قال رسول ا لله ﷺ (**الحكمة تزيد الشريف شرفا، وترفـع المملـوك حتى تجلسه مجالس الملوك**)[3].

وفي معناه قول الشاعر:

العلم ينهض بالخسيس إلى العُلا ❖ والجهل يقعد بالفتى المنسوب

1- أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. وأخرجــه الـترمذي في كتاب الأحكام، باب في الوقف.

2- أخرجه البخاري في كتاب العلم، بـاب الاغتبـاط في العلـم والحكمـة.و أخرجـه مسـلم في كتـاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقول بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة فقه أو غيره فعمـل بهـا وعلمها.

3- إسناده مسلسل بالضعفاء. أخرجه السيوطي في الجامع الصغير (3827) وأشار إلى ضعفه.

الرابعة: في قوله ﷺ (الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ)[1]. روي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله أحملني، فإنه قد أبدع بي، أي هلكت راحلتي" فقال: (مَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُم عَلَيْه فَاتِ فُلانًا)[2] فأتاه فحمله، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ: (الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ)، له مثل أجر فاعله، وعن أبي الدرداء قال: «العالم والمتعلم شريكان، والمتعلم والمستمع شريكان، والدال على الخير وفاعله شريكان»، والمراد من هذا، أن العالم يدل الناس على الخير في تعليمه، فهو وفاعله شريكان.

{أسماء أصناف كتب المذاهب الأربعة}

الخامسة: في ذكر أصناف الكتب، وتسمية بعضها ليعرفه من أراده، أما أصنافها فتكون كما مر من ثلاثة: مختصرة، ومتوسطة، ومبسوطة. فمن المختصرة في مذهبنا المالكي: "الرسالة"[3] للشيخ أبي محمد، و"التلقين"[4] للقاضي أبي محمد عبد الوهاب بن 148 نصر، / و"القواعد"[5] للقاضي عياض، وكتاب ابن الجلاب[6]، وغير ذلك.

1- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله. وأخرجه أحمد في مسند الأنصار، حديث بريدة الأسلمي.

2- أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافة في أهله بخير.

3- وهي أشهر كتب ابن أبي زيد القيرواني (310-386هـ). شرحها كثيرون، وهي مطبوعة متداولة.

4- "التقين" كتاب مشهور للقاضي أبي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (362-422هـ) مطبوع.

5- المقصود به "كتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام" لأبي الفضل عياض السبتي (486-544 هـ). الذي قال فيه اليوسي مجيبا حين سُئل عن حرمه: «المغرب كله حرم لأبي الفضل». والكتاب طبعته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي.

6- أبو القاسم عبد الله بن الحسن بن الجلاب العراقي، الفقيه الأصولي (ت: 378هـ). والكتاب هو "التفريع" في المذهب مشهور. شجرة النور الزكية: 92.

ومـن المتوسـطة فيـه: "المعونـة"[1] للقـاضي، و"الجواهـر" لابـن شـاس[2]، و"جـامع الأمهات"[3] لابن الحاجب، و"المقدمات"[4] لابن رشد، و"المختصر"[5] لخليل، وغير ذلك.

ومن المبسوطة فيه: "المدونة"[6]، وكانت أولا فتاوى مجموعة بلا ترتيب، فأخذها أسد بن الفرات[7]، وعرضها على ابن القاسم، ثم أخذها سحنون بن سعيد[8]، فعرضعها علـى ابـن القاسم ثانيا وجردها، فطرحت الأولى وهي "الأسدية"، والثانية "السحنونية"هـي المشـهورة، وهي الأم، ومختصراتها: ك"التهذيب" للبرادعي[9]، ومحادياتها: ك"التبصرة" لأبي الحسـن

1- اسمه الكامل "كتاب المعونة بمذهب عالم المدينة" مطبوع.

2- نجم الدين الجلال عبد الله بن محمد بن شاس، الفقيه الإمام العمدة (ت: 610 هـ). ألف "الجواهـر الثمينة في مذهب عالم المدينة" التي اختصره ابن الحاجب. شجرة النور الزكية: 165.

3- أو "المختصر الفقهي" لجمال الدين بن الحاجب الإسكندري (ت: 646 هـ) مخطـوط بـدار الكتـب المصرية رقم: 20.

4- كتاب "المقدمات الممهدات بأوائل كتب المدونة" لابن رشد الجـد القرطبي (455-520 هـ) وهـو مطبوع محقق.

5- هو أشهر مختصر في الفقه المالكي، شرح أكثر من ستين شرحا، وترجم إلى الفرنسية، وهو للشـيخ خليل بن إسحاق المصري (ت: 726 هـ). مطبوع.

6- هي آراء الإمام مالك الفقهية، جمعها ودونها تلميذه سحنون، وطبعت عـدة مـرات آخرهـا طبعـة دار الكتب العلمية ببيروت 1415 هـ/1994م.

7- أبو عبد الله أسد بن الفرات (145-213هـ) أصله من نيسابور، قدم به أبوه تونـس مـع محمـد بـن الأشعث، الفقيه الحافظ الراوية. أخذ عنه أئمة منهم أبو يوسف موطأ مالك . شجرة النور: 62.

8- أبو سعيد عبد السلام سحنون القيرواني (160-240هـ)، اجتمـع فيـه مـن الفضـائل مـا تفـرق في غيره. أصله من حمص. شجرة النور الزكية: 69.

9- أبو سعيد خلف بن أبي القاسـم الأزدي المعـروف بالـبرادعي (ت:...)، الفقيـه العـالم الإمـام. لـه تآليف مشهورة منها: "التمهيد لمسائل المدونة" وغيرها. شجرة النور: 105.

اللخمي[1]، وكتاب ابن يونس، و"الدخيرة"[2] للشهاب القرافي، و"المختصر"[3] لابن عرفة، و"البيان والتحصيل"[4] لابن رشد، وغيره من شروح الأمهات.

وأما الأسمعة: فهي بحسب ما فيها، وهي لأصحاب الإمام مالك، وينسب كل سماع لصاحبه، فيقال: سماع أصبغ[5]، وسماع ابن وهب[6] مثلا، وإن كان في السماع أجزاء، كانت رسوما، ويُلَقَّبُ كل رسم بأول مسألة كتبت فيه ليعرف بذلك، فيقال مثلا: رسم جاع فباع أمواله من سماع فلان، وما وقع في الأسمعة وغيرها مما سُمِعَ عن الإمام مالك، هي الروايات، وما يقع لأهل المذهب، هي الأقوال، والرواية أيضا قول.

ومن الكتب المختصرة في مذهب الشافعي: "التحرير"[7]، و"مختصر الوسيط"[8] للبيضاوي. ومن المتوسطة: "المهذب"[9]، و"الوسيط"[10]، و"الروضة"[11] للنووي. ومن

1- أبو الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي القيرواني (ت: 478هـ)، الإمام الحافظ العالم. له "التبصرة" المذكور في النص، وهي تعليق على "المدونة". شجرة النور: 117.

2- كتاب الدخيرة لأحمد بن إدريس المعروف بالقرافي (ت: 684 هـ).

3- هو كتاب المختصر الكبير لإمام تونس وعالمها محمد بن عرفة الورغمي (803/716 هـ).

4- هو لابن رشد الجد المتوفى سنة 520 هـ. وقد طبع.

5- يعني كتاب سماعه عن ابن القاسم، وهو لأصبغ ابن فرج المصري (150-225 هـ).

6- يعني سماعه عن مالك مباشرة، وهو عبد الله ابن وهب المصري (125-197 هـ)

7- وهو لقاضي القضاة عبد الله بن عمر البيضاوي (ت: 685 هـ).

8- اختصار لكتاب "الوسيط" للغزالي، واسمه الكامل "الغاية القصوى في دراية الفتوى" طبع محققا.

9- المهذب للشيخ أبي إسحاق الفيروزبادي الشيرازي (ت: 476 هـ) وهو مطبوع.

10- الوسيط لحجة الإسلام الغزالي (ت: 505 هـ) في فروع المذهب الشافعي، يقع في ست مجلدات.

11- يعني كتاب "روضة الطالبين وعمدة المفتين" وهو اختصار وترتيب وتنقيح لكتاب "فتح العزيز في شرح الوجيز" لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي (ت: 623 هـ) مطبوع.

المبسوطة: "الحاوي"[1] للماوردي، و"الكافي"[2]، و"الوافي"، و"البسـيط"[3]، و"بحـر الذهـب"[4]، و"النهاية"[5]، و"شرح الوجيز"[6]، و"شرح الوسيط"[7].

ومن المختصرة في المذهب الحنفـي: "البدايـة"[8]، و"مختـار الفتـاوى"[9]، و "مختصر القـدوري"[10]. ومـن المتوسـطة: "الهدايـة"[11]، و"المشتملة". ومـن المبســوطة: "المحيــط"، و"المبسوط".

ومـن المختصـرة في المذهـب الحنبلـي: "العمــدة"[12]، و"النهايــة الصغـرى". ومــن المتوسطة: "المقنع"[13]، و"الكافي"[14]. ومن المبسوطة: "المغني"لابن قدامة. قيل وأول مـن دون في الفقه عبد الملك بن جريج.

1- يعني كتاب "الحاوي الكبير" للقاضي عبد الحسن الماوردي (ت: 450 هـ) .

2- كتاب الكافي لسليم الرازي (365-447 هـ) الفقيه الشافعي، الأديب اللغوي المفسر.

3- "البسيط" هو مختصر كبير وضعه الغزالي على كتابه "الوسيط".

4- وقع تصحيف في اسم هذا الكتاب، واسمه الحقيقي هو "بحر المذهب" وهو لفخر الإسلام الرويـاني (ت: 502 هـ) وهو في الفقه الشافعي والمقارن.

5- اسمه الكامل "نهاية المطلب في دراية المذهب" لإمـام الحرمـين الجويـني (ت: 478 هــ) وهـو شـرح لمختصر المزني (ت: 264 هـ). ولأهميته أطلق عليه العلماء "المذهب الكبير" .

6- المقصود به كتاب "فتح العزيز في شرح الوجيز" (يعني وجيز الغزالي) لأبي القاسم عبد الكريم بـن محمد الرافعي (ت: 623 هـ). له عدة شروح.

7- لتلميذ الغزالي محيي الدين الخيوشاني النيسابوري (ت: 548 هـ) في ست عشرة مجلدا.

8- اسمه الكامل "بداية المبتدىء" وهو مختصر لعلي بن أبي بكر المرغيناني (530-593 هـ).

9- أو مختارات النوازل للمرغيناني المذكور. وهو مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم: 95.

10- نسبة لأحمد بن محمد بن أحمد أبي الحسن القدوري البغدادي (362-428 هـ).

11- وهو عبارة عن شرح أيضا للمرغيناني على كتابه "بداية المبتدىء" طبع عدة مرات.

ومن المختصرة في التفسير: "زاد المسافر"[1] لابن الجوزي، و"الوجيز"[2] للواحدي، و"التسهيل"[3] لابن جزي. ومن المتوسطة: "تفسير البغوي"[4]، و"تفسير الكواشي"، و"تفسير الماتريدي"[5]، و"الوسيط"[6] للواحدي، و"الكشاف"[7] للزمخشري، وقال فيه صاحبه يمدحه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عـــدد ❖ وليس فيها لعمري مثل الكشـــاف

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ❖ فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ومن المبسوطة: "تفسير الإمام الرازي"[8]، و"تفسير ابن عطية"[9]، وغير ذلك.

= 12- اسمه الكامل "عمدة الأدلة" في الفقه لابن عقيل البغدادي (431-513 هـ). وهناك أيضا كتاب "العمدة" وهو مختصر في الفقه لابن قدامة الدمشقي (541-620 هـ).

13- هو للشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد المعروف بابن قدامة (ت: 620 هـ). حظي بعناية كبيرة فوضع له العلماء شروحا ومختصرات. طبع عدة مرات بالقاهرة.

14- الكافي لابن قدامى المذكور وهو في أربع مجلدات.

1- ويسمى أيضا "زاد المسير" ويبدو أنه وقع تصحيف في اسمه في المتن، وهو لعبد ارحمن بن علي أبي الفرج المعروف بابن الجوزي البغدادي الحنبلي (508-597 هـ).

2- الوجيز لعلي بن أحمد بن محمد أبي الحسن الواحدي النيسابوري (ت: 468 هـ).

3- "التسهيل لعلوم التنزيل" في أربعة أجزاء لابن جزي الغرناطي المالكي (693-741 هـ).

4- أو "معالم التنزيل" لحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (436-510 هـ) وهو مختصر من تفسير الثعالبي النيسابوري (ت: 427 هـ) طبع عدة مرات.

5- اسمه "تأويلات القرآن" لمحمد بن محمد الماتريدي الحنفي (ت: 333 هـ).

6- واحد من التصانيف الثلاثة في التفسير للواحدي السابق الذكر.

7- وهو كتاب "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل" للإمام الزمخشري الملقب بجار الله (ت: 538 هـ) الذائع الصيت في الآفاق، كأشهر تفاسير المعتزلة. طبع عدة طبعات.

8- وهو كتاب "مفاتيح الغيب" المعروف ب"التفسير الكبير" للإمام أبي عبد الله بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت: 606 هـ)، وهو أكبر تفسير بالرأي والمعقول. طبع عدة مرات.

9- هو كتاب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي الغرناطي (ت: 546هـ).

149 ومن كتب متن الحديث: / "الموطأ"[1] للإمام مالك، و"صحيح البخاري"[2]، و"مسلم"[3]، وكذا "الترمذي"[4]، و"النسائي"[5]، و"أبو داود"[6]، و"ابن ماجة"[7]، و"الدارقطني"[8]. والمسندات المشهورة: ك"مسند أحمد"[9]، و"ابن أبي شيبة"[10]، و"البزار"[11]، وغيرها مما لا يكاد يحصى.

1- هو أول كتاب دون في الحديث والفقه، وضعت له عدة شروح ومختصرات وهو مطبوع.

2- اسمه الكامل "الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه" ويسمى بالجامع لجمعه بين أحاديث الأحكام والعقائد، والآداب والرقائق، والتاريخ والسير والمناقب، وهو للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري (ت: 256 هـ).

3- وهو الكتاب الثاني من كتب السنة للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: 261 هـ)، حظي بعناية العلماء، فوضعوا عليه الشروح والمختصرات الكثيرة، وطبع عدة مرات.

4- "الجامع الصحيح" للحافظ أبي عيسى الترمذي (ت: 279 هـ) أحد كتب السنة الستة، وأحد السنن الأربعة. طبع بشكل مستقل، وطبع مع شروحه أيضا.

5- يعني كتاب "السنن الصغرى" أو (المجتبى) للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد النسائي (ت: 303 هـ) وهي مجردة في الأصل من السنن الكبرى، شرحت وصدرت مطبوعة.

6- وهي للإمام الحافظ سليمان أبي داود السجستاني (ت: 275 هـ) أول السنن الأربعة، وأهمها بعد الصحيحين، وضعت عليه الشروح والتعليقات والمختصرات، وصدر مطبوعا.

7- وهي للحافظ أبي عبد الله محمد بن ماجة القزويني (ت: 273 هـ) أحد السنن الأربعة الصحاح.

8- وهي للإمام علي بن أحمد بن مهدي أبو الحسن البغدادي الشافعي (306-385هـ) في أربعة أجزاء.

9- المقصود به الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت: 241 هـ) يعرف كتابه ب"المسند"، وهو أجمع كتب الحديث في القرن الثاني والثالث الهجريين. طبع عدة مرات في مصر والهند وبيروت.

10- الأولى أن يورد هذا الكتاب ضمن المصنفات وبه عرف ابن أبي شيبة الحافظ (ت: 235 هـ). سمي بالمصنف تمييزا له عن المسند، فالمصنف أو الجامع يرتب الأحاديث على ترتيب أبواب الفقه، بينما المسند يجمع الأحاديث ويرتبها على ترتيب أسماء الرواة من الصحابة.

11- نسبة إلى الإمام أحمد بن عمرو البزار (ت: 292 هـ).

ومن كتب الدراية: "تقريب التيسير"[1] للنووي، و"علوم الحديث"[2] للحاكم، و"الكفاية"[3] للخطيب وابن الصلاح[4]، وغيرها.

ومن الكتب المختصرة في أصول الدين: "قواعد العقائد"[5] للشيخ أبي حامد، و"عقائد السنوسي"[6]، و"عقائد البرهان النسفي"[7]. ومن المتوسطة: "المحصل"[8] للفخر، و"المعالم"[9] له، و"الإرشاد"[10] لإمام الحرمين، و"لباب الأربعين" للقاضي الأرموي[11]. ومن المبسوطة: "نهاية العقول" للفخر، و"الصحائف" للسمرقندي[12]. قيل وأول من تكلم في الكلام: عمرو ابن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال.

1- ليحيى بن شرف النووي الشافعي (631-676 هـ).

2- وهو بعنوان "معرفة علوم الحديث" للإمام الحكم بن عبد الله الحافظ النيسابوري (321-405هـ).

3- للخطيب البغدادي حافظ المشرق (ت: 463 هـ) وهو كتاب مهم في مصطلح الحديث. مطبوع.

4- يعني كتاب "المقدمة" لابن الصلاح (ت: 643 هـ) وهو أجمع كتاب في علوم الحديث، حظي بعناية كبيرة وصدر مطبوعا عدة مرات.

5- هي المطبوعة ضمن كتاب "الإحياء" تراجع في الجزء الأول: 79.

6- يعني "الكبرى" و"المتوسطة" و"الصغرى" للإمام السنوسي (ت: 895هـ) وهي مطبوعة.

7- نسبة إلى الشيخ نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي (ت: 537 هـ) وهو كتاب في علم التوحيد والعقيدة الإسلامية، وهو عبارة عن متن، ووضعت عليه شروح كثيرة. مطبوع.

8- وعنوانه الكامل "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين" للإمام فخر الدين الرازي. وهو مطبوع.

9- وهو الكتاب المسمى "معالم أصول الدين" للإمام فخر الدين الرازي. مطبوع.

10- هو لإمام الحرمين الجويني (ت: 478هـ). صدر محققا بعناية الدكتور يوسف موسى.

11- سراج الدين الأرموي محمد بن أبي بكر (504-682هـ) أصولي. الأعلام/7: 166.

12- محمد بن أحمد بن يحيى الحنفي السمرقندي (ت: 575 هـ).

ومن المختصرة في أصول الفقـه: "الورقـات"[1] للإمـام، و"القواعـد" لابـن السـاعاتي[2]، وكتـاب البـاجي[3]. ومـن المتوسـطة: "مختصـر" ابـن الحـاجب[4]، و"منهـاج"[5] البيضـاوي، و"التنقيح" و"التحصيل" للأرمـوي. ومـن المبسـوطة: "المستصفى"[6] للغـزالي، و"المحصـول"[7] للإمام، و"الإحكام"[8] للآمدي.

ومن المختصرة في علم النحو: "الجمـل"، و"الكفايـة"[9]، و"الشـافية"، و"الكراسـة"، و"اللمحة"، و"الشـذور"، و"ألفيـة ابـن معطـي"[10]، و"ألفيـة ابـن مـالك"[11]، و"مقدمـة ابـن

1- المقصود به "ورقات إمام الحرمين الجويني" في الأصول (ت: 478 هـ).

2- أحمد بن علي مظفر الدين المعروف بابن الساعاتي الفقيه الحنفي الأصولي (ت: 394 هـ). صـاحب "بديع النظام"، الجامع بين كتابي البزدوي والإحكام للآمدي في أصول الفقه.

3- لأبي الوليد الباجي (ت: 473هـ) كتابان في الأصول: "الإشارات" نشر عـدة مرات إحداهـا سـنة 1370 هـ على هامش شرح ورقات إمام الحرمين بمطبعة المنار بتونـس. و"الحـدود" الـذي نشـر مرتـين 1954م و1973م.

4- المسمى: "منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجـدل" للإمـام أبـي عمـرو عثمـان بـن عمـر المعروف بابن الحاجب (ت: 646هـ)، وقد اختصره هو نفسه في كتاب سماه "مختصر المنتهى".

5- هو "المنهاج في الوصول إلى علم الأصول" للقاضي البيضاوي (ت: 685 هـ). وقد طبع عدة مرات مع شرحه من قبل تاج الدين السبكي (ت: 771هـ).

6- هو كتاب "المستصفى في علم الأصول" لحجـة الإسـلام الغـزالي (ت: 505 هــ)، وهـو في مجلديـن كبيرين، طبع مستقلا، وطبع مع كتاب "فواتح الرحموت".

7- هو "المحصول في علم أصول الفقه" للإمام فخر الدين الرازي، وهو مطبوع.

8- هو "الإحكام في أصول الأحكام" لسيف الدين الآمدي (ت: 631 هـ) طبع عدة مرات.

9- الصواب فيها "الكافية" في الإعراب، وهي و"الشافية" في التصريف لابن الحاجب المالكي. وللإمـام ابن مالك الجياني الأندلسي (600-672هـ) كذلك.

10- ابن معطي هذا من علماء القرن السادس والسابع الهجري (564-628).

11- هي تلخيص للكافية والشافية الطويلة التي ألفها ابن مالك أولا وهي ألف بيت من بحر الرجز.

أجروم"[1]، وغير ذلك. ولا مانع من كون المختصرات بعضها أوفى من بعض، فإن الأمور إضافية.

ومن المتوسطة: "المفصل"[2]، و"التسهيل"[3]، و"الفوائد"، و"المقرب"، و"الإرتشاف".

ومن المبسوطة: "كتاب سيبويه"، و"جمع الجوامع للسيوطي".

ومن المختصر في متن اللغة: "مختصر العين"، و"كفاية المتحفظ". ومن المتوسطة: "صحاح الجوهري". ومن المبسوطة: "القاموس"، و"لسان العرب"، وكتب العلم لا يأتي عليها الحصر، فلا حاجة إل الإطالة بها.

السادسة: في إنزال الكتب منازلها، عند وضعها في الخزانة مثلا بعضها على بعض، فلابد أن يرفع الأشرف فوق[4] غيره، ولا يخفى ذلك على من له خبرة بمراتب الفنون، وأعلى الكتب: كتاب ا لله وهو المصحف، وكذا أجزاؤه، ثم التفسير، ثم متن الحديث، ثم علوم الحديث، ثم الفقه، ثم الكلام، ثم أصول الفقه، ثم النحو والبيان، وسائر علوم اللغة، ثم المعقول، وهكذا.

وإنما قدمنا الفقه على الكلام بحسب فضول الكلام، وإلا فمقصده أعلى، وقال بعضهم: «المصحف، ثم كتب الحديث الصرف، كالبخاري، ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب، ثم العروض، ويقدم في المستويين بكثرة الاحتواء على القرآن أو الحديث، ثم بالصحة والقدم، والاشتهار،/ وجلالة المصنف». 150

1– الإمام ابن أجروم الصنهاجي (ت: 723هـ)، ومقدمته هذه مطبوعة متداولة.

2– المفصل في النحو للإمام الزمخشري (467–532هـ)، وقد نظمه ابن مالك الجياني الأندلسي.

3– اسم الكامل "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" لابن مالك صاحب "الخلاصة الألفية" المذكور.

4– ورد في ح: على.

السابعة: في احترام الكتب، وأنه لا ينبغي أن يوضع على الكتب شيء من غير الكتب أو ما هو وقاية له، ولا أن تتوسد، وقد حكي أن رجلا بات متوسدا رسالة الشيخ ابن أبي محمد[1]، فأصبح أعمى، وقد أفتي في الأوراق المكتوبة، أن لا تكون صِواناً لشيء احتراما لها.

الثامنة: من جملة التعظيم تجديد كتبها، وأن لا تقرمط، وقد قيل لمن يقرمط: «إن عشت تندم وإن مت تشتم»، ويقال: «القلم أحد اللسانين»، وقيل: «حسن الخط إحدى الفصاحتين»، وقيل: «الخط الحسن يزيد الحق وضوحا»، وبقية الكلام على الكتب والخط يأتي في باب المتعلم، إن شاء الله تعالى.

1- المقصود به ابن أبي زيد القيرواني (ت: 386هـ) أو مالك الصغير. ورسالته هذه في الفقه المالكي.

الباب الثالث

في أحكام المتعلم

وفيه فصول:

الفصل الأول: في لفظه

اعلم أنه مطاوع، يقال علمته فتعلم، فالمعلم والمتعلم متقابلان، تقابل الفعل والانفعال، ومن وصف الأول العلم، ومن وصف الثاني الجهل، ولذا قالوا التعليم، يكون لمن ليس بعالم في غير معلوم، من عالم بعلم سابق، وإنما يستعمل غالبا في الأخذ مع الاحتياج إلى الفهم، فإن ذلك مصب حقيقة العلم. فإن كان الأخذ لمجرد السماع للنقل والحكاية، قيل رَاوٍ، وهو اصطلاح المحدثين، ومقابله المحدث. وإن ازداد الاحتياج للتهذيب والتأديب قيل مريد، وهو اصطلاح الصوفية، ومقابله شيخ، والمعلم أيضا يسمى شيخا، ويسمى كل من المتعلم والمريد تلميذا وصاحبا، وقد يقال في اصطلاح أهل العربية واللغة للتلميذ فتى وغلام، لكونه غالبا يكون شابا، يخدم شيخه، وقد يقال للشيخ المؤدب.

الفصل الثاني: في ذكر آداب المتعلم في نفسه

وهي أمور: الأول: أن يجتهد في تطهير باطنه، من كل غل وغش، وحسد وكبر، وكل دنس، وكل وصف مذموم، وكل عقيدة فاسدة، فإن وعاء العلم هو قلبه، فلابد أن ينظفه، وبذلك يزكو العلم، وتنمو عليه ثمراته الصالحة، وبذلك يكون صلاح الأمر، كما في الحديث (إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)[1].

الثاني: حسن النية، وهو أن ينوي بالتعلم، امتثال أمر الله تعالى في طلب العلم، والتقرب إليه، وتحصيل العلم ليعبد الله تعالى، ورجاء اللّحاق بأهله، والخروج عن

1- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

حضيض الجهل المذموم عند الله تعالى، وللسلامة من آفات الجهل وغوائله، ونحو هذا من الوجوه الحسنة، فإن النية هي أساس الأمر، وعليها يكون العمل، قال ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[1]، ولا يقصد بذلك استجلاب حظوظ الدنيا، ولا مباهاة[2] ولا مطاولة، / ولا لتشرف منزلته، وتعظم عند العامة رتبته، ويتصدر في المجالس، وتضرب إليه أكباد الإبل، وتنحني الرؤوس بين يديه، وغير هذا من حظوظ النفس، فيكون قد استبدل الذخر الذي لا يفنى، والنفيس الثمين، بالتافه الباطل الذي لا بقاء له، ولا قيمة له، نسأل الله العصمة بمنه، وهذا أعني حسن النية في طلب العلم، هو الذي يجب على الإنسان مراعاته في طلبه. 151

ويجب على العالم أن يتحراه فيمن يبذل له العلم، غير أنه عزيز الوجود، فكثير ممن يشمر لطلب العلم في زماننا، أن يكون باعثه مجرد محبة وولوع، يخلقه الله في باطنه، من غير معرفة حكم المطلوب ولا ثمرته، أو تشبها بالمشتغلين، وتحركا بحركتهم، كما قيل: «العاشية[3] تهيج الأبية» أو ضغطا من غيره كالأب، والوصي، والسيد، والأمير <مثلا>[4]، فيشتغل بمجرد الخوف أو رياء أو منافسة، كأبناء المنتسبين إلى العلم، لئلا يقال خلت الدار، أو رجاء تمول[5] في المآل، أو مرتب[6] في الحال، أو تحرر من تكاليف وقتية، أو نحو ذلك.

1- سبق تخريجه في ص: 177.

2- ورد في ح: ولا سيادة.

3- قوله العاشية ... هو مثل عربي قائله يزيد بن رويم الشيباني، وله قصة تنظر في مجمع الأمثال للميداني. والعاشية: الإبل التي تعشت.

4- سقطت من ج.

5- ورد في ح: تول.

6- ورد في ج: مرتبة.

وأهل القصد الصحيح قليل ما هم، فلو تشوف العالم إلى هؤلاء ليخصهم بعلمه، فقلما يجدهم، ولو بحث لوقع على الخبث الكثير، أو النفاق الكبير، وذلك بدعوى النية مع الخلو منها، فلم يبق إلا أن يجتهد في صلاح نيته هو، ويعمل على الظاهر وحسن الظن بالمسلمين، فلابد أن يكون بين الفرث والدم لبن خالص، يكون هو المقصود، وغيره غلاف له. وقد تصلح النية بعد كما قال بعض السلف: «طلبنا العلم بلا نية فجاءت النية بعد ذلك».

{على طالب العلم أن يبادر شبابه قبل فوات الأوان}

الثالث: أن يبادر شبابه، وأوقات عمره بالتحصيل، ولا يغتر بالتسويف، فإن المسوف لا يحصل على حاصل، وقد عدد العلماء عوائق العلم ستة، منها هذه، وهي: أن يماطل، ويطول أمله، ويغتر بالزمان المستقبل، فتتزايد الشواغل، وتضعف أسباب التحصيل. ومنها الوثوق بالذكاء، وأن سَيُحَصِّل الكثير في الزمن اليسير، فينقطع دون ذلك. ومنها أن ينتقل من علم إلى آخر، قبل تحصيل مقدار منه يكفي، أو من كتاب إلى كتاب قبل تكميله. ومنها طلب الحظوظ به، وعد هذا من جهة فوات الفائدة المعتبرة به، وكثيرا ما تنقطع الحظوظ عن صاحبه فينقطع. ومنها ضيق الحال والإعسار، عما لابد منه في الاشتغال. ومنها الغنى المُطْغِي، وإقبال الدنيا، وتقلد الولايات، والتفرغ للشهوات.

الرابع: أن يبالغ في الاجتهاد جهد الطاقة، وهو جُمَّاع الأمر، فقد قيل: «العلم إن أعطيته كلك، أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك، لم يعطك شيئا»، وقيل: «لا يستطاع العلم براحة الجسم».

152 / وأنشد فقهاؤنا في شأن المدونة:

قالت مسائل سحنون لقارئها ❖ بالدرس يدرك مني كل ما استترا

لن يدرك العلم بطال ولا كسل ❖ ولا ملول ولا من يألف البشرا

وهذه عوائق أخرى، ومع هذا لابد فيه من سلوك القصد، وأخذ العلم على تطاول الأيام، كما قال بعض السلف، وتذكر قوله ﷺ: (أن المنبث لا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع)[1].

الخامس: أن يقطع العلائق عنه ليتفرغ قلبه، ويكون همه هما واحدا ﴿مَا جَعَلَ اللَّـهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[2]، وقال بعضهم: «لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله، فلم يشهد جنازته»، وهذا من فوائد الرحلة كما سيأتي ذكرها، إذ يفارق فيها الأوطان والقطان، وكان بعض المشايخ يحض تلميذا له على هذا المعنى، حتى بلغ أن قال له: «أصبغ ثوبك لئلا يشغلك الفكر في غسله»، وقال بعض الفقهاء: «لو كلفت شراء بصلة ما فهمت مسألة».

السادس: أن يكون رأس ماله القناعة، فيرضى باليسير من العيش، والدون من الناس والمسكن وغيره. وبالجملة يتمرن على الضيق، ولا يهوله الفقر، ولا سوء الحال، ولا تشرئب نفسه إلى الرفاهية في شيء، ولا انتهض لجمع المال، والسعي في المال والسعي في العلم بحران لا يجتمعان، من سلك أحدهما غرق فيه، ولم يتفرغ للآخر، وعن الشافعي: «لا يطلب أحد هذا العلم بالمال، وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح»، وعن إمامنا مالك ﷺ: «لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد، حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل شيء».

وقد تنهض بالطالب قريحة، لطلب العلم على حاله، فيكيده الشيطان ويقول له: «لابد أن تسعى في قدر من المال، تقيم به أَوَدَكَ، أو تشتري به الكتب التي لا غنى لك عنها»، فيذهب لذلك، فلا يقع على قدر من المال، حتى تنطفئ تلك القريحة التي بها يتحرك، أو يستحلي المال فلا يستطيع فراقه.

1- لم أقف عليه.

2- الأحزاب: 4.

السابع: مما يستعين به على شأنه أيضـا، أن يتحـرى الحـلال، ويقتصـر منـه علـى القدر اليسير، فبذلك تتنور البصيرة، وتنشط الأعضاء، فإن الشبهة تعود على القلب بظلمـة، وعلى الأعضاء بالكسل والتواني عن الطلب، وأن الشبع كذلك، وقد قـالوا: «لا يصلـح العلـم لمن يأكل حتى يشبع»، مع أن الشبع مجلبة للأمراض المعطلة عن الأخذ، مدعاة للتوسـع في المال، وهو خلاف السنة، فقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْـرَبُوا وَلَـا تُسْـرِفُوا﴾[1]، وقـال ﷺ: 153 / (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الْـآدَمِيِّ لُقَيْمَـاتٌ يُقِمْـنَ صُلْبَـهُ فَـإِنْ غَلَبَـتِ الْـآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَـامِ وَثُلُـثٌ لِلشَّـرَابِ وَثُلُـثٌ لِلنَّفَـسِ)[2] أو كمـا في الحديـث، والخـير كلـه في السنة، ولا خير في السرف، ولابد أن يكون في طبائع الناس، ومقتضـى كفـايتهم اختـلاف، فلابد لكل واحد من الرجـوع إلى كفايتـه بحسـب طبعـه، وقوتـه وضعفـه، وبحسـب فعلـه، فليس المطالع والسامع كالدارس لطلـب الحفـظ والمـدرس مثـلا، وهـذا كمـا يذكـر الصوفيـة، من اختلاف أحوال العباد في الأكل.

الثامن: من ذلك أيضا، أن يتحرى من الأطعمة، ما يخف ويعين على الفهم، والحفظ وقوة الحاسة، ويجتنب كل ما يكون بإذن الله سببا للبلادة أو الضعـف، أو كـثرة البلغـم، وكلا النوعين معروف في الطب والعادة. فالأول كأكل الزبيب، ومضغ اللبان ونحـوه، الثـاني كالحوامض والباقلاء والألبان والسمك ونحو ذلك، وقد بلغنا أن الحافظ أبا بكر بن الأنباري[3] رحمه الله، حضر مأدبة مع جماعة الفقهاء، فقدم صاحبها ألوان الطعـام، وأكـثر في ذلـك، فامتنع الشيخ من الأكل، وقال لصاحب الدار: «أقل لي قليـة» فخجـل الرجـل وقـال: «يـا

1- الأعراف: 31.

2- أخرجه ابن ماجة في كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع.

3- محمد بن جعفر ابن محمد بن الهيثم (ت: 360هـ) وقد تجاوز التسعين. البداية والنهاية/11: 306.

سيدي كيف تأكل القلية عندي؟»، فقال الشيخ: «ليس إلا ذاك، وإنما أَرَدْتَ أن تفسد علي حفظي»، وسنشير إلى طرف مما يضر بإذن ا لله بالطبع أو بالخاصية، إن شاء ا لله تعالى.

التاسع: أن يراعي أوقاته ويشتغل في كل وقت بما يناسبه، قالوا: «وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل»، وقيل: « أجود أوقات الحفظ الأسحار، ثم وسط النهار، ثم بالغداة، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع»، وهذا ما لم يكن شاغلا، فإن المطلوب الفراغ عن الشواغل، والبعد عنها، ولذا كان الحفظ في الغرف والخلوات، أحسن منه في شوارع الطرقات[1]، وبحضرة النبات والمياه، وسائر الملهيات.

العاشر: أن يقلل خلطة الناس ويؤثر العزلة، فبها يسلم من كثير من الآفات، ويتفرغ لما هو بصدده من عمارة الأوقات، وأن معاشرة الخلق فساد وبلاء من كل وجه، ويرحم[2] ا لله القائل:

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم ❖ وما بالجفا عند الضرورة من بأس

فلا تعذلوني في الجفاء فإنني ❖ رأيت جميع الشر في خلطة الناس

غيره:

لقاء الناس ليس يفيد شيئا ❖ سوى الهذيان من قيل وقال

فاقلل من لقاء الناس إلا ❖ لأخذ العلم وإصلاح حال

154 / اللهم إلا من ينتفع به إن ظفر به، وقليل ما هم، كمن يستفيد منهم علما أو أدبا، أودينا، أو وطرا من الدنيا محتاجا إليه، أو يفيده شيئا من ذلك مع السلامة من الآفات، وقد قالوا: «الأصحاب أربعة: صاحب لدينك، وصاحب لدنياك، وصاحب لآخرتك، وصاحب

1– ورد في د وح: الطرق.

2– ورد في ج: ورحم.

لتأنس به، وخيرهم من إذا نسيت ذَكَّرَك، وإن ذكرت أعانك، وإن احتجـت واساك، وإن ضجرت أنسك» إلى غير ذلك من المنافع، ومما ينسب لعلي كرم الله وجهه:

فـلا تصحـب أخـا الجهـل ❖ فإيـــاك وإيـــاك
فكـم مـن جاهـل أردى ❖ حليمـا حيـن وأخـاه
يقـاس المـرء بالمـرء ❖ إذا مـا المـرء ماشـاه.
[وللشـيء مـن الشـيء ❖ علامـات وأشبـاه
وللقلـب علـى القلـب ❖ دليـل حيـن يلقـاه][1]

غيره:

عن المرء لا تسأل[2] وسل عن قرينه ❖ فكـل قريـن بالمقـارن مقتـدي[3]

وقال غيره:

إن أخـاك الصـدق من كان معك ❖ ومـن يضـر[4] نفسـه لينفعـك
ومـن إذا ريـب الزمان صدعـك ❖ شتـت فيـك[5] شمله ليجمعك

وآداب التعلم كثيرة لا تنحصر في هذا، وسيظهر كثير منها في بقية الأبواب، إن شاء الله تعالى.

1- ساقط من د و ح.

2- ورد في ج: لا تسل.

3- ورد في ح مقتدي. والبيت من بيتين ينسبان لطرفة ابن العبد وينسبان لعدي ابن زيد أيضا. شـرح المقامات للشريشي: 193.

4- ورد في ج: أضر.

5- ورد في ج: فيه.

الفصل الثالث: في ذكر آدابه مع شيخه

وهي أمور الأول: أن يتحرى الصالح للمشيخة، بأن لا يأخذ العلـم والأدب، إلا ممـن هو أهل لأن يؤخذ عنه، ويعرف ذلك إما بالنظر، إن كانت له يد في العلم في الجملـة، وإمـا بتقليد العارفين سؤالا واستخبارا، فيأخذ عن المحقق الثقة، ويتحرى أهل الدين المتـأدبين، ومن جعل الله الفتح للعباد على يديه، رجاء أن يأخذ العلم وأدبه والعمل به، فإنه لا خـير في علم بلا عمل، ولا في زيادة علم مع نقصان أدب، وقد قـال بعـض السـلف: «هـذا العلـم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم».

وليحذر ممن فيه نزعة بدعة، أو سـوء اعتقـاد، لئـلا يسـري ذلـك إليـه فيهلـك مـع الهالكين، أو تورط في أودية الدنيا وصحبة الظَّلَمَة، مخافة أن يَنْجَرَّ بذلك إليها، وليحذر أن يتقيد بالمشاهير وذوي الجاه، ويعرض عن أهل الخمول، إن كانت فيهـم أهليـة، بـل يتبـع أهل الحق والتحقيق، ولا يستنكف كيفما كانوا، إذ «العلـم ضالـة المومـن»، لا يسـتنكف أن يأخذها من يد من وجدها بيده رفيعا أو وضيعا، وليأخذ عمن أخذ العلم عـن أهلـه، وتـأدب بالمتأدبين، ولا يأخذ عن صحفي، وهو من أخذ العلم مـن بطـون الأوراق فقـط، ويـروى عـن الإمام الشافعي ﷺ: «من تفقه من بطون الكتب، ضيع الأحكام». وقال أبـو عمـرو الدانـي[1] رحمه الله:

والعلم لا تأخذه عن صحفي	❖	ولا حروف الذكر عن كتبـي

155 / وقال الآخر:

والعلم لا تأخذه عن صحفي	❖	ولا حروف الذكر عن كتبـي
يظن الغمر أن الكتب تهدي	❖	أخا فهـم لإدراك العلـــوم

1- عثمان بن سعيد القرطبي (ت: 444هـ)، الإمام في علوم القرآن، المقرئ المجاب الدعـوة. لـه معرفـة بالحديث وعلومه، والفقه ودقائقه. شجرة النور: 115.

وما يــدري الجهــول بأن فيها ❖ غوامض حيرت عقــل الفهيـم
إذا رمــت العلــوم بغير شيــخ ❖ تضل عن الصــراط المستقيــم
وتلتبــس الأمــور عليك حتــى ❖ تصير أضـل مـن توما الحكيـم

الثاني: أن يعظم شيخه، ولا يزال نـاظرا إليـه بعـين الإجـلال، ويعتقـد فيـه درجـة الكمال، ويتواضع له، ويخضع بين يديه، ويهابه غاية الهيبة، ويعلم أن خضوعه لــه عـز، وذلته بين يديه رفعة، ويقال إن الإمام الشافعي عوتب على ذلك فقال:

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ❖ ولن تكرَم النفسُ التي لا تهينها

وأمسك ابن عباس على جلالة[1] قدره، بركاب زيد بن ثابت ﷺ وقال: «هكذا أمرنـا أن نفعل بعلمائنا»، وقال أحمد بن حنبل ﷺ لخلف الأحمر: «لا أقعد إلا بين يديك، أمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه»، وقـال الشـافعي ﷺ: «كنـت أتصفـح الورقـة بـين يـدي مـالك تصفحا رفيقا هيبة له، لئلا يسمع وقعها»، وقال الربيع: «وا لله ما اجترأت أن أشـرب المـاء والشافعي ينظر إلي هيبة له».

ويقال: حضر بعض أولاد الخليفة المهدي، عنـد شـريك بـن عبـد ا لله، فاسـتند[2] إلى الحائط وسأل شريكا عن حديث، فلم يلتفت إليه شريك، ثم عاد فعاد له بمثل ذلك، فقال: «أتستخف بأولاد الخلفاء؟»، قال: «لا ولكن العلم أجل عنـد ا لله مـن أن يضيعـه، أو العلـم زين عند أهله من أن يضيعوه»، ولا ينبغي أن يخاطب شيخه كخطاب الناس، بتاء الخطاب وكافه، أو بمجرد اسمه، بل يقول: يا سيدي، ويا أستاذي، ويا أيها العالم، أو الحافظ، أو نحو ذلك، وكذا[3] إذا ذكره في غيبته.

1- ورد في ح: بجلالة.
2- ورد في ج: فأسند.
3- ورد في ج: وكذلك.

الثالث: أن ينقاد إليه في أموره كلها، ولا يخرج عن رأيه وطاعته، بل يكون معه كالميت بين يدي الغاسل، أو كالمريض بين يدي الطبيب، فيخدمه ولا يمل من خدمته، ويحمد الله تعالى عليها، ويتبع إشارته فيما يأمره به، قال الشيخ أبو حامد الغزالي ﷺ: «ومهما أشار عليه شيخه بطريق في التعليم فليقلده وليدع رأيه، فخطأ مُرْشِدِه أنفع له من صوابه في نفسه»، وقد نبه الله تعالى على ذلك في قصة موسى والخضر، عليهما السلام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾[1] الآية. هذا مع علو قدر موسى الكليم في الرسالة 156 والعلم، حتى / شرط عليه السكوت فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[2].

الرابع: أن يعرف له حقه، ويشكر صنيعه، والمنة التي أجراها الله <تعالى>[3] على يده، ويعتقد أنه أبوه بالولادة الروحانية، وهي أفضل من الطبيعية، فلا يزال مثنيا عليه، ومستغفرا له، وداعيا له، ومسدلا إليه غاية ما يمكنه من الإحسان مالا وخدمة، كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ❖ يدي ولساني والضمير المحجبا

وساعيا له في مكافأته بكل وجه يمكن، وفي الحديث (مَنْ أَسْدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ)[4]، وكل ما يفعله في حضوره يفعله في غيبته وبعد موته، فينصره ويغضب له، ويجاوب عنه من يذكره بسوء، وإن عجز قام عن المجلس، وكذا يعامل أولاده ومواليه، وأقاربه وأحباءه، وسائر من له نسبة، وهذا شأن الصحبة والمحبة على الإطلاق.

كما قيل:

1- الكهف: 68-72-75.

2- الكهف: 70.

3- سقطت من ج.

4- أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة ،باب عطية من سأل با لله. بلفظ: "من صنع" بدل "أسدى".

وقالوا يا جميل أتى أخوهـا ❖ فقلت أتى الحبيبُ أخو الحبيبِ
أُحِبُّكِ إن حَلَلْتِ جبال حِسْمى[1] ❖ وإن جاورت بُثَيْنة من قريب

{الصبر على جفوة الشيخ وشراسته}

الخامس: أن يصبر على جفوة شيخه وشراسته، إن كانت في خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته، وحسن اعتقاده فيه، وإلا حُرِم ما عنده، وقد قال قائل لسفيان بن عيينة: «إن قوما يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك»، فقال للقائل: «هم حمقى إذن مثلك، إن تركوا[2] ما ينفعهم لسوء خلقي»، وليتلطف في إدخال السرور على قلب الشيخ، وفي استعطاف قلبه، وفي مصالحته إن جفا أو غضب، ولينسب الذنب إلى نفسه، وليبالغ في الاعتذار والتوبة، والاستغفار والانكسار، ولينسب كل نقيصة إلى نفسه، وكل فضيلة إلى شيخه، ولا يجادل ولا يماري، وليتحمل بحسن التحمل، ما تجده النفس هنالك من الذل والهوان، رجاء ما يعقبه من العز والرفعة، كما يتحمل ما يلقاه من الغربة والضيق وسوء الحال، فإن عاقبة ذلك كله خير، وفي كلام بعض السلف «من لم يصبر على ذل التعلم، بقي عمره في عماية الجهالة».

وكنت مرة في أيام الغيبة، على طلب العلم، مر بي بعض الإخوان في ا لله، فوجدني في ضيق من نفسي واغتمام، فأنشدني متمثلا:

فمن لم يذق ذل التعلم ساعة ❖ تجرع كأس الجهل طول حياته

157 / وهو معنى الكلام المحكي، فلم يزل هذا البيت في خيالي، وكلما جاشت إلي النفس أنشدته، ونفعني ا لله به.

وقال الآخر:

1- لعلها في المدينة أو أطراف الشام.

2- ورد في ج: أن يتركوا.

إن المعلم والطبيب كلاهمـــا ❖ لا ينصحان إذا هما لم يكرمـــا

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ❖ واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «ذللت طالبا وعززت مطلوبا».

{وجوب معرفة حق الشيخ وشكر صنيعه}

السادس: أن يشكر له ما أسدى إليه من السعي في مصالحه، حين لا تكون ملائمة لطبعه، كأن يحضه على خير، أو يزجره عن سوء، أو يعنفه على ذلك، أو يضيق عليه لمصلحته فيه، وكل ما يفعله من ذلك به، فليعتقد فيه الخير، وليتأوله أحسن التأويل، وليرج عاقبته، وليقدم فهم الشيخ على فهمه، ورأيه على رأيه، كما قال الصحابي: «اتهموا رأيكم»، ومتى أعلمه الشيخ بفائدة أو حكمة، أو لطيفة من دقائق الأدب كان علمها، فلا يظهر له أنه كان عالما بها، وليشكر شكر من لم يعلم، اللهم إلا أن يتعلق غرض الشيخ، بشهادته بها مثلا، فليذكر ذلك، والضابط في السعي حفظ قلب الشيخ، وفي استجلاب أمثالها منه على الدوام، وليراع حق الله في ذلك عليه لا مجرد الانتفاع.

{التزام الأدب في الدخول على الشيخ}

السابع: أن يستعمل الأدب في الدخول على الشيخ، فيدخل عليه فارغ القلب من الشواغل، حسن الهيئة نظيفها، باحترام ووقار، فإن كان الشيخ في محل خاص، فليستأذن برفق، فإن لم يأذن له انصرف سليم القلب، وإن كانوا جماعة وأذن لهم، فليتقدم للدخول أفضلهم وأسنهم وللسلام، ثم يسلم الأفضل فالأفضل، وإن دخل عليه في محل خاص، ثم وجده مع واحد يتحدث معه ثم سكتا، أو في شغل فأمسك عنه، ولم يبدأه بالكلام ولا باسطه، فليسلم سريعا ويخرج، إلا أن يلزمه الشيخ المكث، ويختلف الحال في ذلك، والضابط مراعاة الأدب، وحفظ القلب كما مر.

ولا يدخـل مشغول البـال بجـوع أو عطـش، أو هـم أو نحـوه، إذ يمنعـه ذلـك مـن الإصغـاء والانتفـاع، ولا يطـرق علـى الشـيخ ليخـرج إليـه، ولا ينـاده مـن وراء الحجـرات، ولينتظر خروجه، وليصبر إن كان نائما حتـى يسـتيقظ، وقـد كـان ابـن عبـاس رضـي ا الله
158 عنهما يأتي باب زيد بن ثابت فيجده نائما، فيقال له: «ألا نوقظـه / لـك؟» فيقـول: «لا»، وينتظره حتى يستيقظ، وربما أصابته الشمس، وهـو علـى ذلـك ولا يبـالي، ولا يقـترح علـى الشيخ ما يشق عليه، من مجلس غير معتاد أو وقت، أو تخصيص لـه بشـيء مـن ذلـك، أو بملاحظة، فربما فعل الشيخ ذلك، مع استثقال، وفيه هلاكه، اللهم إلا أن يكون هو افتتحه بذلك، ومَنَّ عليه به، فليقبله شاكرا له.

{الأدب في الجلوس بين يدي الشيخ}

الثامن: أن يجلس بين يدي الشيخ بالأدب، جلوس الصبي أمـام المـؤدب إن أمكنـه، وهو أولى به، ومن أغرب ما شاهدته في هذا، أن كنت أيام البداية، أجلس في حلقـة شـيخنا أبي بكر التطافي[1] رحمه ا الله ناحية جنبه الأيسر، وهم يقرؤون الخلاصة، فكنت أفهم بعضـا من كلامه، وأشياء لا أفهمها، حتى بلغنا نحو النصف، فاتفق لبعض من كان بين يديـه أن خرج من البلد[2]، فجلست في موضعه بين يدي الشيخ، فكنت من ذلك اليوم، كل ما يخـرج من في الشيخ يدخل في قلبي كالشمس المنيرة، ولا يفوتني شيء، وقضيت العجب من ذلك.

ويقبل عليه بكليته مصغيا متلقفا كل ما يسمع بقلـب شـهيد، ولا يتغـافل حتـى يَمُـرَّ الكلام، ويلقى الشيخ في تقريره عناء، ثم يسأل عنه هـو سـؤال مـن لم يسـمع قـط، فإنـه إن أعاده تألم الشيخ بذلك، فقد قيل: «أثقل من حديث معاد»، وإن لم يعد تألم هو وتألم الشيخ بتألمه وغفلته، ولا خير في شيء من ذلك.

1– ورد في ج: المتفلاقي.

2– ورد في ج: المدينة.

وليحذر من الالتفات يمينا وشمالا، أو فوق أو تحت عن الشيخ، ولاسيما عند كلامه معه، ولا يضرب بكميه، ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يعبث بيديه أو رجليه، ولا ينظر إلى أهل المجلس، عندما يصدر منه بحث أو فلج[1] في مباحثة الشيخ تبجحا بحاله، أو يرى ما يقولون فيه، فإن مثل هذا مفتون في نفسه، ممقوت عند ا لله وعند الشيخ، إلا من عصمه ا لله، ولا يشبك أصابعه، ولا يعبث بلحيته، ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط، أو وسادة، أو على يده إلى الوراء، ولا يول الشيخ ظهره أو جنبه، ولا يشير بيده حال البحث، ولا يكثر الكلام لغير حاجة، ولا التنحنح، ولا يبصق ولا يتنخم ما أمكنه، فإن غلبه أخذ ذلك في ثوبه من غير صوت وحكه، وليخفض الصوت عند العطاس جهده، وليسد فاه عند التثاؤب.

وفيما ينسب إلى علي[2] كرم ا لله وجهه من الوصايا في هذا الباب قوله: «من حق العالم عليك، أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده 159 / بيدك، ولا تعمد بعينك غيره، ولا تقولن قال فلان خلاف قوله، ولا تغتبن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره لله تعالى، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته، ولا تسار في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء» انتهى.

فإن أمره بأمر يخالف الأدب كالجلوس على فراشه، أو التقدم بين يديه، فقيل يراعي امتثال الأمر، وقيل الأدب، وهو أولى، كما فعل الصديق ﷺ حين قال: «ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول ا لله ﷺ»، اللهم إلا أن يكون ثَمَّ جزم أو باعث لا يمكن خلافه.

1- فَلَجَ: فلجا وفُلْجا القوم، وعلى القوم: فاز.

2- ورد في ح: لعلي.

{في آداب مخاطبة الشيخ}

التاسع: أن يحسن الأدب في مخاطبته للشيخ جهده، فيخاطبه خطاب تعظيم وتبجيل، ويقبل قبول مطيع مذعن، فمتى ذكر الشيخ أمرا فلا يقل لا نسلم هذا، أو من قاله؟ أو من ذكره؟، فإن أراد استفادة هذا، فليتلطف وليكن في مجلس آخر، ولا يقول لم ذاك؟، فقد قيل: «من قال لشيخه لِمَ لم يفلح أبدا»، وجاء لبعض المشايخ الصوفية تلميذ له فقال له: «يا سيدي رأيت فيما يرى النائم، كأنك تقول لي كذا، فأقول لك لم هو؟»، فقال له الشيخ: «اذهب عني ولا تأتيني أبدا، فإنك لولا أنك تجوز في نفسك، أن تقول ذاك، لم تره في منامك».

ومتى سمع من الشيخ أمرا فليستبشر به في الحال، وإن كان قد علمه كما مر، وإن ظهر أنه خلاف الصواب، وأصر الشيخ عليه لغفلة أو قصور، فلا ينكر عليه ولا يلاججه، إذ لا عصمة إلا للأنبياء عليهم السلام، وليتحفظ من مواجهة الشيخ بصورة الرد عليه، كأن يقول له: «أنت قلت كذا، ومرادك في فهمك، أو خطر لك كذا»، فيقول: «لا ما قلت هذا، وما خطر لي هذا، وما هذا مرادي» و نحو ذلك، أو بصورة لا تليق في باب الحكايات، كأن يقول عند خطابه الشيخ: «قال لي فلان أنت جاهل، أو لا خير فيك، أو فعل ا لله بك»، وليغير هذه العبارة، كأن يقول: « قال لي فلان»، يعني نفسه هو جاهل، أو الأبعد يعني نفسه جاهل، أو نحو ذلك، أو بما يجري على ألسنة جفاة العوام فيما بينهم، كقوله للشيخ عند الخطاب: «أسمعت؟ أفهمت؟، أتدري؟، أتعرف؟» ونحو ذلك، والعرف قد يختلف والضابط هو ما مر، من مراعاة حفظ قلب الشيخ، فللعبارة أثر، بل وللنظرة، وللجلسة، فليحافظ على ذلك كله.

160 العاشر: أن يحذر من أن يسبق الشيخ إلى / شرح معنى أو جواب سائل، أو يعيده بعد ذكر الشيخ <إظهارا منه لمعرفته، اللهم إلا أن يلزمه الشيخ>[1] شيئا من ذلك فيمتثل، أو يقطع كلام الشيخ بسؤال، أو حكاية أو غير ذلك، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ فيسأل، وإن تصدر الشيخ للتحدث بعلوم أو حكايات أو أخبار، ثم فرغ من قصة، فلا ينبغي للتلميذ أن يذكر قصة أخرى تشبه ذلك، فيؤدي ذلك إلى انقطاع حديث الشيخ، وصيرورة الكلام بينه وبين التلاميذ مناوبة، فهذا من سوء الأدب.

بل حق التلميذ في هذا، أن يغمد لسانه ويفتح أذنيه، لما يستفيد من الشيخ، وليدع معلومه مطويا حتى يحتاج إليه، وقد قال الحكيم: «إنما خلق للإنسان لسان واحد وأذنان ليكون سماعه أكثر»، ولا يقل عند سماعه قصة أو فائدة، قد ذكرها أو نص عليها فلان في كتابه، أو هكذا سمعنا أو حفظنا، بل يظهر من نفسه أنه ما رأى شيئا من ذلك، ولا سمعه قط، فهو أحفظ لقلب الشيخ، اللهم إلا أن يعلم أن الشيخ يحب ذلك.

{استعمال الأدب في المناولة من الشيخ شيئا}

الحادي عشر: أن يستعمل الأدب في المناولة، فإن تناول من الشيخ شيئا، أو ناوله إياه فباليمين، فإن كان ورقة فُتْيا أو رسالة، أو سؤال يناوله للشيخ، فليناولها منشورة، لئلا يتكلف الشيخ نشرها، إلا أن يخشى وجود سر لا يحب الإطلاع عليه، وليقم بين يديه عند مناولته للشيخ، ولا يمد إليه يده، أو ينبذ الشيء إليه، أو يزحف إليه زحفا، ولا يحوجه إلى أن يمد يديه، بل إن علم أن الشيخ يثقل عليه إخراج يديه ليمسك المكتوب، فليمسك له حتى يقرأه، وإن ناوله كتابا هيأه له، وإن احتاج إلى مسألة منه في محل مخصوص، فليره

1- ساقط من ج.

المحل ولا يحوجه إلى التفتيش، وإن ناوله قلما فليمده أولا، أو دواة فليفتحها ويهيئهـا، أو سكينا فلا يرد إليه حَدَّها، وهكذا سائر ما يتناول.

وإن طلب الشيخ سجادة فليفرشها له، إن أريـد الصـلاة أو الجلـوس، وإذا قـام بـادر لأخذها، وكذا إلى النَّعْل، وسائر الخدمة، وإلى الأخذ بيد الشيخ إن احتاج، وإلى تقديم نعلـه إليه، والمطلوب الخدمة بأي وجه أمكن، مما يكون معه حفظ قلب الشـيخ، ومـن أنـف مـن خدمة المشايخ أو استحيى فهو محروم، وقد قالوا: « أربعة لا يستنكف عنهن[1]: ذو العقـل، ولو كان شريفا في نفسه، أو أمـيرا قيامـه مـن مجلسـه لأبيـه، وخدمتـه للعـالم يتعلـم منـه، والسؤال عما لا يعلم، وخدمته للضيف» .

الثاني عشر: أن يستعمل الأدب في الجلوس إلى الشيخ، وليكـن بـين يديـه إن أمكـن 161 كما مر، فإن تأتى له القرب جدا، / وأمن من مضايقة الشيخ، فليقرب كما في وصية لقمـان، حيث قال: «وزاحم العلماء بركبتك»، وإلا وهو الأغلب فليتوسط، فلا يزاحم حتى يثقـل، أو يمس الشيخ أو سجادته أو ثوبه، ولا يبعد حتى لا ينتفـع، ومتـى أمـره الشـيخ بشـيء مـن ذلك، فإن رآه أدبا بادر إليه، وإلا فالأدب كما مر.

{في آداب مماشاة الشيخ}

الثالث عشر: أن يستعمل الأدب في الماشاة، فإذا خرج مع الشيخ فليكن وراءه، فهو بمنزلة التابع، فلا يتقدم عليه ولا يمشي إلى جنبه، غير أنهم استثنوا مواضع أربعة، ينبغـي التقدم فيها بين يدي المشايخ، وذلك إذا نزلوا سُفلا، أو انطلقوا ليـلا، أو خـاضوا سـيلا، أو حَذِروا ويلا، أي شيئا يتقى. أما أولا فمخافة أن يقع للشيخ زلل، فيتداركه من تحته، ولئلا يزل هو فيقع عليه. وأما ثانيا فمخافة أن يكون في الطريق شيء يؤذي، من حيوان أو غيره،

1- ورد في ح: عنها.

فيلقاه عن الشيخ. وأما ثالثا فلتجربة المحل، لئلا تكون بِرْكة يغرق فيها، أو يكون الماء شديدا لا يحتمل. وأما رابعا فظاهر، وكل ما أشبه الأربعة فهو بها ملتحق.

وأما المشي إلى جنبه، فقد يحسن حين يحب الشيخ الأنس به أو بحديثه أو تحديثه، وقد يأذن له الشيخ في الأخذ عنه في تلك الساعة، فلا يمكن إلا ذاك، وهو من الآداب الملوكية في صحبة الرؤساء، وينبغي حينئذ أن يحيد له عن الجادة ولا يزاحمه، فإن أمكنه أن يقي الشيخ شمسا أو ريحا، أو زحاما أو دابة، أو كلبا عقورا أو فتنة ما، فليكن من جهة على اليمين أو الشمال، وإن أقبل عليه الشيخ يحدثه، فليكن من الجهة الأخرى، غير جهة الشمس أو الريح، أو الدخان أو نحوه، لئلا يلقى الشيخ ذلك بوجهه.

وهذه أمثلة يعرف بها ما وراءها، عند كل متيقظ لبيب، وإن أقبل الناس على الشيخ وهو معه، فليعرفه بمن يحتاج إلى التعريف من أهل الأقدار مثلا، ليلقى كلا بما يستحق، ومن لم يعرفه سأل عنه بلطف، وأعلم به الشيخ[1] ليكفيه أمر السؤال، وإن رأى أحدا يُسَارُّ الشيخ فليبعد حتى لا يسمع ما جرى، وإن لقي الشيخ في الطريق، فليبدأه[2] بالسلام على غاية من البشاشة <والترحيب>[3]، فإن رآه ماشيا بين يديه، فلا يكلمه من خلف، بل يبادر أمامه ليسلم عليه من قُدَّام، وإن كان بعيدا فلا يناده، بل يذهب حتى يصل إليه، فإن رآه في محل لا تليق فيه الملاقاة لضيق أو وعورة، أو لا يحب فيه الشيخ ملاقاة في الجملة، أو أن لا يراه بعينه أصلا، فلا يلقاه حتى يمكن، إذ المهم حفظ قلبه، وقد يراه منقبضا في الوقت عن الناس، فلا يزاحم.

1- ورد في ج: الشيخ به.

2- ورد في ج: فليبادره.

3- سقطت من ج.

162 وقد حدثنا / بعض[1] مشايخنا عن بعض أشياخه رحم ا الله الجميع، أنه خرج في يـوم خميس، فرأى تلميذا له قد أقبل من بعيد في طريقه تلك، وعلم أنـه يلقاه فيسلم عليه، فصاح عليه: «يا فلان لا تفسد علي خميسي، أي بالسلام، واذهب من طريق أخرى»، نعم إن كانت له حيلة ولطافة في بسطه وتأنيسه فلا بأس. وقد حكى الغزالي في الإحياء: «أنه ﷺ خرج يوما منقبضا، فلم يستطع أحد أن يدنو منه، فجاءه بعض من له لطف وفكاهة من الصحابة، فقال لهم: أرأيتم إن أضحكته لكم، فتقدم إليه وقال: يا رسول ا الله، بأبي أنت وأمي، بلغنا أن الدجال يأتي في مَسْغَبَة ومعه جَبَل خبز، فقال ﷺ (هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ)[2] فقال ما ترى فدى لك أبي وأمي، إن أدركني ذلك آكل من ثردته، حتى إذا تضلعت شبعا آمنت با لله وكفرت بالدجال، فضحك ﷺ».

الفصل الرابع: في آدابه في الدرس والأخذ وما يحتاج إليه مع الشيخ والأصحاب

وهي أمور: الأول: أنه ينبغي له أن يبتدئ أولا، بتحصيل القرآن حفظا وإتقانا وفهما، لأنه أم العلوم وأهمها، ولرجاء بركته وتنوير القلب به، ولأنه أولى بالتقديم من كل وجه، ولا يزال يتعهده على مرور الأيام تلاوة وتدبرا وعملا بما فيه، فذلك أساس الخيرات، وليحذر [من][3] نسيانه والغفلة عنه، فذلك مفتاح الشر، ثم يشتغل بعد بالفنون

1- ورد في ح: حدثت عن بعض أشياخنا.

2- أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ذكر الدجال. وأخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب جواز قوله لغير ابنه يا بني واستحبابه للملاطفة.

3- سقطت من د و ج.

الأهم فالأهم، والأقرب فالأقرب، وليتبع في الترتيب إشارة الشيخ، إن كان مشاركا، وإلا اشتغل بما عنده حتى يتقنه، إن لاَقَ في الوقت، وإلا اشتغل باللائق، وطلب من يتقنه عليه.

الثاني: قيل ينبغي له أن يبادر أولا بالحديث، فيتقنه رواية ودراية، ويعرف مسانده ورجاله، وصحيحه وحسنه، ولغته وغير ذلك، لأنه جناح الفقيه الآخر، بعد كتاب الله تعالى العزيز.

قلت: وهذا أحسن لو كان الوقت يساعده والعمر، وذلك غير موجود، ولاسيما في زماننا من وجهين: أحدهما، أن الهمم قاصرة، والفتن فائضة، وبركات الأعمار والأيام مرتفعة، فلو اشتغل طالب بالحديث رواية ودراية، لأفنى فيه قطعة عمره التي يسخو بها في طلب العلم، أو جميع عمره ولم يصل إلى شيء آخر، بل لو اشتغل بالرواية وحدها، لذهب عمره فيها وخرج صيدلانيا. ثانيهما، أن الرواية قد انقطعت غالبا اليوم من صدور الرجال، فاكتفى الناس بما في بطون الدفاتر، المصنفات فيها وفي أحكامها ورجالها، بما في علوم الحديث وتراجم أهله، مع أنه قد ذهب أيضا الاستنباط / والاستدلال بالحديث، إلا 163 إيضاحا وتأييدا، وذهب النور الذي كان يقذف في قلوب السلف، ويستغنون به عن الاصطلاحات والقواعد، فيمهرون في الكتاب والسنة إذا نظروا فيهما.

فالأَوْلى بالطالب اليوم، أن يبدأ بكتاب الله تعالى كما قلنا تبركا وتنويرا، وتنبها[1] لما لابد منه، ولا يطلب التغلغل في علومه أولا، لأن ذلك يذهب بعمره، مع أنه غالبا لا يصل إلى تحقيق ذلك، قبل أن يستعين عليه بعلوم أخرى، ثم يأخذ في القواعد اللغوية والعقلية، حتى إذا تضلع منها، أقبل على العلوم الشرعية دليلا ومدلولا، أصلا وفرعا، وتقدم تفصيلها، فإن أفنى نفيس عمره في ذلك، فنعمت التجارة، والعلوم كثيرة لا يسع العمر التبحر فيها كلها، إلا أن تخرق العادة لأحد، فليأخذ من كل فن أحسنه، ولابد منه فيه،

1- ورد في ج: وتنبيها.

ليتفرغ للعمل والتزود للمعاد الذي هو المقصود، وإن رأى طبعه مائلا إلى فن من الفنون، أكب عليه إن كان مهما أو ذريعة إلى مهم، وكذا إن رأى طبعه نافرا عن فن من الفنــون، ورأى في نفسه جمودا عنه فليغن عنه، وليشتغل بغيره كما قيل:

إذا لــم تستطــع شيــئا فدعــه ❖ وجـــاوزه إلـــى مـــا تستطيـــع

فإن كان شرعيا مقصودا بالذات، فليتكلف منه معرفة ما هو فرض عـين عليـه، وليـترك مـا سوى ذلك، ولا يغفل مع الإقبال على القواعد مِن تَعَهُّد ما يرجو بركته وتنوير قلبه به، مـن تلاوة كتابه، وذكر حديث رسول ا الله ﷺ، وكلام أرباب العقول.

الثالث: ينبغي له في البداية، أن لا يهجم على الخلافيات العقلية والسمعية، بل ولا على الفنون المختلفة، قبل أن يعرف مدى عقله، فربمـا ضـل أو تحـير، ولـذا قيـل: «كـثرة الفنون مضلة الفهوم»، فليشتغل بما يطيق من الفنون، حتـى يقـوى علـى غـيره، وليعلـم أن العقل الذي يرام إدراك العلوم به، مثاله مثال الحيوان الذي يربيه للاصطياد، فإن هو أهمله أولا عن أكل اللحم، واقتناص ما قرب، لم يضر بالصيد، وإن كلفه مـن صغـره الظبـاء وبقـر الوحش عجز، فالواجب التدريج من الصغير إلى الكبير، ومثاله أيضا الجذع من الخيـل، إن أهملته في المرج ولم تحركه للجري لم يتعلم، وإن كلفته جري المراعــي عجـز، وربمـا انقطـع نياطه فمات، فالواجب أن تركضه وترسله على سجيته، فلا يزال يزداد حتى يكمـل، ولـذا قيل: «خاطبوا الناس بما يفهمون»[1]، ويقال: (الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَـارِ الْعِلْـمِ قَبْـلَ كِبَارِهِ)[2].

1- تضمين لحديث: (حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ). أخرجه البخـاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم.

2- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب العلم قول العمل.

ثم إذا كمل إدراكه، فليعتن بالمهمات، وهي العلوم الشرعية، وما يستعان <به>[1] عليها، على ما مر من / تفصيلها، ويلم بالبواقي إلماما، ولا ينبغي إن أعطي قوة الإدراك، أن يتجنب شيئا من العلوم حتى يعاديه، فإن الناس أعداء ما جهلوا، وليعلم أن العلوم داخل بعضها في بعض، وليس أحد يكمل في شيء على ما ينبغي، وهو جاهل بالبواقي، ولاسيما العلوم الشرعية وهي المقصودة، ولا يهمل مشاورة شيخه في شيء من الأمور، والاستضاء بمصباحه.

164

الرابع: ينبغي له أن يلزم جميع مجالس شيخه، ولا يمل من صحبته كما مر في وصية علي كرم الله وجهه «أنه كالنخلة ينتظر كل حين ما يسقط منها»، ثم إن كانت له الكفاية فيما عنده، فالأولى أن يقتصر عليه ويتشيع له، فبذلك يستعطف قلبه عليه ويستدر دعاءه، وإلا فليلتقط بالتلطف والأدب، من غير إيحاش ولا تغيير، ويعرف لكل ذي حق حقه، وللأكثر أكثر، وللأول فضله، وليعتن أكثر بما يجد فيه النفع أكثر، فإن الأرزاق قسم، والعبارات كما قال في الحكم «قوت لعائلة المستعين»[2]، وليس لك منها إلا ما قسم لك، فكما يقال في حق المريض، الراحة على يد فلان، يقال في حق المتعلم، الفتح على يد فلان.

الخامس: ينبغي له إذا أتى المجلس، أن يسلم تسليما على جميع الحاضرين، ويخص الشيخ بمزيد تحية وإكرام، كما مر في وصية علي كرم الله وجهه، وليجلس حيث انتهى به المجلس، ولا يتخطى رقاب الحاضرين، إلا أن يكون له مجلس معلوم مع الشيخ، أو يدعوه الشيخ، أو يعلم أنه يؤثر ذلك، أو الحاضرون لمصلحة فيه، من مزيد بحث مع الشيخ، أو أفضلية من علم أو صلاح أو سن، والأولى لمثله أن لا يتأخر ما أمكنه، حتى يحتاج إلى تخطي الرقاب، وينبغي لخصوص أهل الدرس، أن يجلسوا بين يدي الشيخ،

1- سقطت من ج.

2- ورد في د وح: المستمعين.

ليسهل عليه الإقبال عليهم، ومن حل محلا لائقا فلا ينتقل عنه، فقد يكون في الانتقالات، حيرة في الفهم بإذن الله تعالى، ولا يجلس أحد في مجلس أحد، ما لم يكن بأمر الشيخ، أو لسبب ظاهر يعذر به.

السادس: ينبغي له كما يتأدب مع الشيخ، أن يتأدب مع الحاضرين، ومع الرفقة كلها، ويحترم مجلسه، فإن ذلك من احترام الشيخ، فلا يسيء إلى أحد منهم، بانتهاره أو شتمه أو اجتذابه، أو الجلوس بين يديه أو فوقه، أو استناد عليه بمرفقه أو رأسه أو نحو ذلك، إلا أن يكون بينه وبينه شيء من ذلك محتملا، ولا يعارضه عند سؤاله للشيخ أو بحثه معه بجواب، ولا بحث ولا سؤال آخر للشيخ ينسي سؤاله، ولا يفرق بين متصاحبين 165 أو متعاونين إلا بإذنهما، وليوقر أكابر أهل المجلس وأفاضله / أكثر.

وينبغي لأهل المجلس أن يرحبوا بالوارد ويفسحوا له، ويكرموه بما ينبغي لمثله، وينبغي للوارد إذا فُسح له أن يضم جناحيه، ولا يضيق على الناس، ومتى أساء أحد منهم أدبا، أو أساء إلى غيره، فالشيخ أولى أن يؤدبه أو يزجره، أو يصلح ذات البين، أو من يقدمه لذلك، وإن أساء أحد إلى الشيخ، فعلى الجماعة القيام بزجره، والانتصار للشيخ وفاء بحقه، وهذا حق التلميذ أن ينتصر لشيخه بالحق حاضرا كان أو غائبا، حيا أو ميتا.

السابع: أن يخلع عنه جلبابي الحياء والكبر في التعلم، ويرمي بنفسه في غمرات الطلب، فلا يستحيي ولا يأنف أن يسأل عما لا يعلم، ويستفهم عما لا يفهم، ولا أن يقول لم أفهم، فإن الوجه إذا لم يحَمَّر في مثل هذا، لم يبيض أبدا، وينسب إلى عمر ﷺ: «من رق وجهه رق علمه»، وقال مجاهد: «لا يَتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر»، وقالت عائشة ﷺ: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في دين الله تعالى»، وقالت أم سليم لرسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيي من الحق، هل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟» .

وقال الشاعر:

وليس العمى طـول السـؤال وإنمـا ❖ تمام العمى طول السكوت على الجهل

وقالوا: «من رق وجهه عند السؤال، ظهـر نقصه عنـد اجتمـاع الرجـال»، ولابـد أن يكون ذلك، بأدب وتلطف وحسن تأن، فإن الحياء لا يأتي إلا بالخـير، وإنمـا طلـب زوالـه لحاجة التفقه مخافة البقاء في غمرات الجهل، ولابد من الاقتصار على قدر الحاجة، ومـا لم يكن منه بد، والمحافظة على الحياء فيما وراء ذلك، وقد كـان ﷺ فيمـا وصفـه الواصفـون، أشد حياء من العذراء في خذرها، ومع ذلك متى احتاج لأمر لابد منه، لم يعقـه الحيـاء عـن الحق، فقال للرجل المقر بالزنى: (أَنِكْتَهَا لاَ يَكْنِي)[1] لتوقف الحدود علـى مثـل هـذا، وأمـر بذلك فقال: (مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوا)[2]، وقـال علـي كـرم ا لله وجهـه: (كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً فَاسْتَحْيَيْتُ مِن رَسُـولِ ا للهِ ﷺ لِمَكَـانِ ابْنَتِـهِ فَـأَمَرْتُ الْمِقْـدَادَ أَنْ يَسَـأَلَ)[3] الحديث.

فالطالب متى أمكنه أن يستفيد العلم، مع المحافظة علـى الحيـاء كـان أولى، مـع أن الحياء المطلوب هو الحياء عن الفُحْشِ، وما لا ينبغي كالتقدم للكلام مع عدم الأهليـة، وأمـا الحياء عن مجرد الكلام وما يحتاج كدأب النساء، فلا فضيلة له.

1- أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت. وأخرجـه أبو داود في كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك.

2- أخرجه أحمد في مسند الأنصار، حديث عتي بن ضمرة السعدي عـن أبـي ابـن كعـب رضـي ا لله عنهما.

3- الحديث بطوله أخرجه البخاري في كتاب الغسل، باب غسل المذي والوضوء منه. وأخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب المذي.

166 الثامن: ينبغي له أن يراعي نوبته عند الشيخ، / وهذا متأكد لأنه مـن الحقـوق، فـلا يطلب السبق على من سبقه بالدرس أو السؤال، وقـد رووا في هـذا خـبرا، وهـو أن أنصاريـا جاء إلى النبي ﷺ يسأله، وجاء رجل من ثقيف، فقال النـبي ﷺ: (**يـا أخـا ثقيـف، إن الأنصاري قد سبق بالمسألة، فاجلس كي ما نبتدئ بحاجـة الأنصاري قبـل حـاجتك**)[1] أو كما قال ﷺ، فإن كان للمتأخر حاجة ضرورية، قد علمها السابق، أو أشار الشـيخ بتقديمـه لعذر تعين، وإن كان غريبا فيستحب للسابق عليه إيثـاره علـى نفسـه، لمكـان غربتـه، وإلا فلا، لأن المسارعة إلى العلم والاشتغال به قربة، وقد قالوا: «الإيثار بالقرب مكروه».

التاسع: أن يكون جلوسه بين يدي الشيخ، أعني صاحب الدرس، على ما مر، فـإن كان معه كتاب أمسكه معه، ولم يطرحه في الأرض، ثم لا يقرأ حتـى يـأذن لـه الشـيخ. ولا يقتصر حتى يأمره، وليس لغيره أن يقول له اقتصـر، إلا بـإذن الشـيخ، فـإن اقتصـر الشـيخ لتعب أو ملل أو عارض ما، فليقتصر هو ولا يزاحم الشيخ. وعند اسـتفتاحه للقـراءة، يحمـد ا لله تعالى ويصلي على النبي ﷺ وعلى أله وصحبه، ويترحم على مصنف الكتاب، ثم يدعو للشيخ فيقول ثلاثا: «قال الشيخ رحمه ا لله تعالى ورضي عنكم» يريد شيخه إن كان حاضرا، أو عن إمامنا، أو عن شيخنا، أو أستاذنا حاضرا كان أو غائبا، أو نحو هذا مـن العبـارات، وقد قال العلماء: «إن الطالب إذا لم يعرف هذه الآداب الاستفتاحية ونحوها، فعلـى الشـيخ أن ينبه عليها، لأنها متأكدة».

العاشر: ينبغي لكل من الطلبة، أن ينصـح إخوانـه، ويحبهـم ويحـب لهـم الخـير، ويؤنسهم عن وحشة الغربة، ودهشة الولوج في مضايق الفهوم، ويشاركهم فيما ظفـر بـه، ولا يضن عليهم بفائدة حصلها، وقاعدة حررها، ويكون عونا لهم ما أمكنـه في ذات ا لله تعـالى،

1– لم أقف عليه.

فبذلك يزكو علمه، ويصلح حاله، وتربح تجارته، وإلا لم يثبت له علم، وإن ثبت لم تكن له ثمرة، وقد جرب ذلك عند أهل العلم فصح، وليحذر من المهالك الموبقات، وهي أن يحسدهم إرادة الامتياز عليهم، أو يفخر عليهم لنسبة التحصيل إلى عقله، ونسيان ربه الفتاح العليم، الذي امتن عليه بما حصل، من غير حول منه ولا قوة، وا لله الموفق والمعين.

الفصل الخامس: في ذكر حكم طلب العلم

وتقدم في الباب الأول ذكر العلم، وأن منه فرض عين وفرض كفاية، وغيرهما، ومنه يعرف ما هاهنا، فإن ما هو فرض عين طلبه فرض عين، إذ لا علم إلا بالتعلم[1]، وما هو فرض كفاية طلبه كذلك، وما لا فلا، ونريد أن نفصح ها هنا بالمقصود، ونكمل الغرض / بذكر ما ورد من الأخبار، وما قيل فيها. 167

فاعلم أنه يروى في الحديث المشهور، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)[2]، و(طَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ)[3]، ويروى: (اطْلُبُوا العِلْم ولَوْ بِالصِّين، فَإِنَّ طَلَبَ العِلْمِ فَرِيضَة عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)[4] وقد تكلموا في متن هذا الحديث، فضعفه قوم، وقال آخرون: «هو وإن لم يثبت معناه صحيح»، وقد اختلفوا في المراد منه، فسُئِل الإمام مالك عن طلب العلم، أهو فريضة؟ فقال: « لا وا لله، ولكن يطلب منه المرء ما ينتفع به في دينه».

1- ورد في ح: بتعلم.

2- سبق تخريجه في ص: 301.

3- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. وأخرجه أبو داود في كتاب العلم باب الحث على طلب العلم. وكلاهما بلفظ الماء بدل البحر.

4- حديث أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب، من حديث أنس. وقال البيهقي: متن مشهور وأسانيده ضعيفة. انظر المغني بذيل الإحياء/1: 9.

قال أبو عمر بن عبد البر: «وروينا عن الحسن بن الربيـع قـال: سـألت ابـن المبـارك قلت: قول النبي ﷺ (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) قال: <ليـس هـو الـذي تطلبونـه، ولكن فريضة عمن وقع في شيء من دينه أن يسـأل عنـه حتـى يعلمـه»، وسـئل مـالك عـن الحديث الذي يذكر فيه (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْـلِمٍ)، فقـال:>[1] «مـا أحسـن طلـب العلم، أما فريضة فلا».

والأظهر من هذا، وهو أكثر الأجوبة ما مر، من أن المراد طلب ما يجب على الإنسـان في خاصة نفسه، من إيمان با لله تعالى وبصفاته، وأسمائه وبرسله، وباليوم الآخـر، والصـلاة بأحكامها، والزكاة كذلك لمن عنده مال، والحج، وسائر الأمـور المطلوبـة، وجميـع مـا نهـي عنه، وما يحل وما يحرم في كل معاملة يريد الأخذ فيها، ومتى تَعَيَّنَ عليـه مـا هـو فـرض كفاية، التحق بهذا القسم أيضا، فكان طلب العلم فريضة

الفصل السادس: في ذكر الأسباب والأحوال التي ينال معها العلم بإذن ا لله <تعالى>[2]

وقد مر في آداب المتعلم من ذلك ما فيه غُنْية، لأن ذلك كله سبب لحصول العلم، وفي الخبر: «إنما العلم بـالتعلم، وإنمـا الحلـم بـالتحلم» والقصـر في الأول إضـافي، لخـروج العلـم الوهبي، فالمراد العلم الرسمي، فالتعلم مفتاحه، وهو أم الأسباب.

وقال <سابق>[3] البربر:

قد قيل قبلي في الزمان الأقـدم ❖ إني وجـــدت العلـم بالتعلـم

1- ساقط من ج.

2- سقطت من ج.

3- سقطت من ج.

وقال كثير[1]:

وفي الحلم والإسلام للمرء وازع ❖ وفي ترك أهواء الفؤاد المتيم

بصائر رشد للفتى مستبينة ❖ وأخلاق صدق علمها بالتعلم

وقد لا يكون طبع بلا أدب، ولا علم بلا طلب، وسئل بعض الحكماء، عن السبب/ الذي ينال به العلم، فقال: «بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع، وبالفراغ له يجتمع»، وقال الفراء: «بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع: رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهمه ولا يطلبه، وإني لأعجب ممن في وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم»، وفي كلام علي كرم الله وجهه: «العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين»، وقيل لبرزجمهر: «بم أدركت ما أدركت من العلم؟»، فقال: «ببكور كبكور الغراب، وصبر كصبر الحمار، وحرص كحرص الخنزير».

168

ومن أقوى الأسباب في رسوخه، وتهييج القريحة لما لم يحصل منه، مذاكرته وتعليمه، فعن علي كرم الله وجهه أنه قال: «تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث، فإنكم إن لم تفعلوا يدرس علمكم»، وقالت أم الدرداء ﵂: «طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت لنفسي أشفى من مذاكرة العلماء»، وعن عبد الرحمن بن أبي ليلي: «إحياء العلم مذاكرته».

وقال بعض السلف: «إذا سمعت حديثا، فحدث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتب في صدرك»، ومن هذا ما يروى عن إسماعيل بن رجاء، أنه كان يأتي صبيان الكتاب، فيعرض عليهم حديثه كي لا ينسى، وعن علقمة: «تذاكروا الحديث، فإن إحياءه ذكره»، وعن ابن مسعود: «تذاكروا الحديث، فإنه يهيج بعضه

1- كُثَيِّر عُزَّة: هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر أبو صخر (ت: 105هـ)، من فحول شعراء الإسلام، وعزة هي بنت جميل بن وقاص التي كان يحبها حبا عذريا. الأغاني/9: 3-83.

بعضا»، وقالوا: «علم علمك من يجهل، وتعلم ممن يعلم، فإنك إذا فعلت ذلـك، علمـت مـا جهلت، وحفظت ما علمت».

وقال <بعضهم>[1]:

أبـذل العلـم ولا تبخـل بـه ❖ وإلى علمك علما فاستفـد

وتلـق العلـم مـن مستوثـق ❖ ليس يعتاض من العلـم الصفـد

واغتنمهـا حكمـة بالغـة ❖ ليس فيها لِلألَدِيـن لَـدَد[2]

وقال غيره:

لا يدرك العلـم إلا كـل مشتغـل ❖ بالعلـم همتـه القرطاس والقلم[3]

غيره:

إذا لم يذاكر ذو العلـم بعلمـه ❖ ولم يستـزد علما نسي ما تعلما

وكم جامع للعلم في كـل مذهب ❖ يزيد على الأيام في جمعه غما[4]

وتنبغـي المذاكـرة عقـب افـتراق المجلـس، قبـل وقـوع النسيان، وخمـود القرائـح، واختلاط العقائد والعقول، وافتراق الأصحاب، غير أنه يحصل مـن المجلـس إذا طـال فتـور وملل، فيتعين تأخيرها ريثما تجم القرائح من غير طول، وأفضل أوقاتها الليل، إذ هو وقـت 169 الفراغ، وتكون مع / الأصحاب أو من يصلح غيرهم، ومن لم يجد من يصلح، فليذاكر نفسه بنفسه، وليجرد من نفسه مخاطبـا، إن أراد أن يـأتي بهـا علـى صورة التعليم، وقـد كـان

1- سقطت من ج.

2- ورد في جامع بيان العلم وفضله/1: 103: مرد بدل لدد. وفيه تنسب هذه الأبيات لمحمد بن مُناذر.

3- جامع بيان العلم وفضله/1: 103.

4- من إنشاد أبي بكر محمد بن صالح الأبهري لبعضهم. جامع بيان العلم وفضله/1: 103-104.

بعضهم يجمع أحجارا فيخاطبها، وعند الاشتغال بالتعليم يظهر ما حصل، ويلجئه الأمر إلى التأمل والمراجعة والاهتمام، وذلك هو عنوان الانتفاع.

فالطالب قبل الاشتغال بالمذاكرة والتعليم، مثل الولد يعيش في كسب أبيه، فلا يكون عليه كبير هم، فإذا اشتغل بغيره صار بمنزلة الوالد، بعد أن يتعلق به العيال ويكون قيما عليهم، ومن سعادة الطالب وتباشير نجحه، أن يرزقه الله من يذاكره، أو من يتعلم منه فهما حريصا، ومن أقوى الأسباب في الفهم والحفظ، التقوى وأكل الحلال، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[1].

وقال الشاعر:

شكوت إلى وكيع سُوء حفظي[2] ❖ فأرشدني إلى ترك المعاصي

[وقال بني إن العلم نور ❖ ونور الله لا يوتاه عاصي][3]

وتخفيف المعدة من الطعام، ولا سيما من الأطعمة الغليظة، المورثة بإذن الله جمودا، وسنشير إلى شيء منها. ومن ذلك الغنى تارة والفقر أخرى.

أما الغنى فقد يكون، وذلك إذا ساعد التوفيق، وصدقت السابقة من الأمور المعينة على الطلب، وذلك من أوجه: الأول: أنه تكون به الكفاية للطالب، عما عسى أن يزعجه عن الطلب. الثاني: أنه يتيسر به الإنفاق في سبيل الله، الذي هو مجلبة الخيرات، ولا سيما على المعلم، فإن الإحسان إليه وخدمته بالنفس والمال، هو مفتاح الخير، ولذا يذكر في الحكايات الفقهية: «قبح الله الفقر أدركنا مالكا، وقرأنا على ابن القاسم». الثالث: أنه يتأتى به انتخاب الأطعمة، التي تكون عنها بإذن الله الصحة وسلامة الحواس، وحدة

1- البقرة: 282.

2- ورد في ج: فهمي.

3- ساقط من د. وتنسب هذه الأبيات إلى الإمام الشافعي، ووكيع شيخ من شيوخه في العلم.

الفكر وقوة الحفظ، وسنشير إلى شيء منها، ولذا شاع عند المتعاطين للعلم، إذا ذكروا الشرائط والأسباب، أن يعدوا الشيخ الفتاح، والكتب الصحاح، والقدر الفواح[1].

وأما الفقر، فإنه يكون مع توفيق الله[2] وعصمته، سبب للتحصيل، وذلك من أوجه: الأول: أنه يكون معه التجرد عن الشواغل الدنيوية أخذا وعطاء، وحراسة وانتهاضا، لتنمية المال ونحو ذلك. الثاني: أنه تخمد معه النفس غالبا، فيذهب عنها الكبر المانع من التعلم، وما يلزم ذلك من التفاخر والتباهي، والتضاد والتعادي، وتذهب عنه الشهوات النفسانية الموقعة في المعاصي، واستعجال التأهل / القاطع عن الطلب، فمن 170 العصمة ألا تجد. الثالث: أنه يرجى معه شدة الافتقار إلى الله تعالى، ووجود الاضطرار الذي هو مفتاح الاستجابة، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[3]، وذلك كفيل بكل خير، ولذا يقال: «لولا أولاد الفقراء لذهب العلم، أو لضاع العلم»، ومن أراد الله به بابا جعل له إليه سبيلا، (لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ)[4].

1- نظم العلامة المحقق محمد كَنون (ت: 1302هـ) هذه الشرائط بقوله:

قد قيل قبلي في الزمان الأول	❖	للمتعلم شروط تنجلي
كتب صحاح ثم عقل راجح	❖	وشيخ فتاح وقدر فائح
وزاد بعض تركه البطالة	❖	وفي قانون اليوسي ذي المقالة

النشر الطيب/1: 138.

2- ورد في ج: مع التوفيق.

3- النمل: 62.

4- أخرجه مالك بهذا اللفظ في كتاب الجامع، باب جامع ما جاء في أهل القدر.

الفصل السابع: في ذكر الرحلة في طلب[1] العلم

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[2]، فهذا وإن كان في الجهاد، فالعلم أيضا من جملة سبيل الله، إذا أريد به وجه الله، وقد روي حديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ)[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[4]، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما أن الخروج للتفقه، وهو غرضنا، الثاني أنه للغزو، وليتفقه الباقون، وفي كِلَيْهِما الحض على طلب العلم، ومن لم يجده في مكانه ارتحل إليه.

وقال ﷺ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[5] الحديث. فالهجرة كانت لفائدة الخروج عن الفتن، والشواغل والعوائق، والوصول إلى العلم، وتيسير الدين، والرحلة في طلب العلم كذلك، وقال ﷺ: (اطْلُبُوا العِلْمَ وَلَو بالصِّين)[6]، وقال ﷺ: (يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ أَوْ آبَاطِ الإِبِلِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ)[7]، إلى غير هذا.

1- ورد في ج: لطلب.

2- النساء: 100.

3- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب فضل طلب العلم.

4- التوبة: 122.

5- سبق تخريجه في ص: 177.

6- سبق التعليق عليه في ص: 399.

7- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة. بألفاظ مغايرة.

ولم يزل الناس يرحلون في طلب العلم، من لدن الرحلة إلى النبي ﷺ <وهلم جرا>[1]، ذكر في الإحياء قال: «جاء عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئتك فأظمأت[2] نهاري، وأسْهرت ليلي، وأنضيت[3] راحلتي، لأسألك عن مسألة، فقال: (سل، فرب معوصة سئل عنها)، فقال: ما علامة الله فيمن يريد، وما علامته فيمن لا يريد؟ فقال ﷺ (بخ بخ كيف أصبحت يا عدي؟) قال: أصبحت أحب الخير، وأحب العمل به، وإذا فاتني شيء منه حننت إليه، وإذا عملت عملا أيقنت بثوابه، فقال ﷺ: (هي هي، ولو أرادك للأخرى لاستعملك[4] لها)[5] أو كما قال.

ورحل ضمام بن ثعلبة[6]، فسأل عن الشرائع ورجع إلى قومه[7]، وهذا النوع لا ينحصر، ورحل جابر بن عبد الله إلى الشام في حديث واحد، قال: «بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ فابتعت بعيرا، فشددت عليه رحلا[8]، ثم سرت إليه شهرا،

1- ساقط من ج.

2- ورد ف ج: فأظمت.

3- ورد في ج: وأمضيت.

4- ورد في ج: لاستعملتك.

5- لم أقف عليه.

6- هو وافد وفد سعد بن بكر، حين قدم على رسول الله ﷺ في السنة التاسعة للهجرة ليسأله عن شرائع الإسلام، فلما رجع إلى قومه قال رسول الله ﷺ (لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ) فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: «... وإن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا، وقد استنقذكم به مما كنتم فيه، وأظهر إسلامه»، فما أمسى ذلك اليوم في حاضره رجل مشرك ولا امرأة مشركة. طبقات ابن سعد/1: 144 - الكامل في التاريخ/1: 644.

7- ورد في ج: قوله.

8- ورد في ج: راحلتي.

171 حتى قدمت الشام فإذا عبد ا الله بن أنيس الأنصاري، فأتيت منزله فأرسلت إليه أن / جابرا على الباب، فرجع إلي الرسول، فقال: جابر بن عبد ا الله؟ فقلت: نعم، فخرج إلي فاعتنقته واعتنقني، فقلت: حديث بلغني عنك، أنك سمعته من رسول ا الله ﷺ، لم أسمعه أنا منه، قال: سمعت رسول ا الله ﷺ يقول: (يَحْشُرُ ا الله تَبَارَك وتَعَالى العِبَاد، أَوْ قَالَ النَّاس وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إلى الشَّامِ، عُرَاة بُهمًا غُرْلاً قَالَ قُلْنَا وَمَا بُهمًا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا المَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ، لاَ يَنْبَغِي لأَحَد مِن أَهْل الجَنَّة، وَأَحَد مِن أَهْل النَّار يَطْلُبُه بِمَظْلَمَة، حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عُرَاةًحُفَاة غُرْلًا بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ)[1]».

ورحل أبو أيوب الأنصاري، إلى عقبة بن عامر، فلما قدم مصر أخبروا عقبة، فخرج إليه قال: «حديث سمعته من رسول ا الله ﷺ في ستر المسلم، لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك، قال: سمعت رسول ا الله ﷺ يقول: (من ستر مؤمنا على خربة ستر ا الله عليه يوم القيامة)[2]، قال: فأتى أبو أيوب راحلته فركبها، وانصرف إلى المدينة وما حل رحله».

ويروى أن ا الله تعالى، أوحى إلى موسى عليه السلام، أن اتخذ نعلين من حديد، وعصا من حديد، ثم اطلب العلم والعبر حتى تخلق[3] نعلاك، وتنكسر عصاك. ومن ذلك رحلته على نبينا وعليه السلام إلى الخضر. وقد ارتحل الإمام الشافعي إلى إمامنا مالك بالمدينة رضي ا الله عنهما، فتفقه عليه، وارتحل يحيى بن يحيى وغيره من الأندلسيين إلى

1- أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة. وأخرجه أحمد في مسند المكيين، حديث عبد ا الله بن أُنَيْس..

2- الذي وقفت عليه عند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي بدون لفظ (على خربة). فليراجع الحديث في المدونات المذكورة.

3- من خَلَقَ وخَلِقَ وخَلُقَ الثوب: بلي.

المدينة، فأخذوا عن مالك، وكذا ابن القاسم وغيره من المصريين، وهو أو غيره يخاطب أهله:

أَقُول لهـا والعِيسُ تسرح[1] للنـوى ❖ أعدي[2] لفقدي ما استطعت من الصبر
أليس من الخسران أن لياليا ❖ تمر بلا نفع وتحسب من عمر[3]

واعلم أن للرحلة فوائد كثيرة: منها، التخلص عن شواغل الوطن، وفتنة الشرية والخيرية. ومنها، التجرد لأخذ العلم، الذي هو شرطه. ومنها، القربة، التي هي مظنة عدم الألفة والخلطة، ومعاشرة الناس التي هي إحدى العوائق. ومنها، ما يرجو من ثواب خطواته ومشقته، وبركة ذلك في العلم والعمل عاجلا وآجلا. ومنها، ما يرجو من التيسير واتساع الرزق، بمقتضى الوعد الصادق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[4].

ومنها، ما يرجو من اعتناء الشيوخ به أكثر، فإن للغريب والقاصد، والراحل من أرض 172 إلى أرض / مَزِيدُ حَقٍ. ومنها، وهو أعظمها امتحان نفسه ليظهر صدقها، فإن النفس تدعي حب العلم وطلبه، والحرص على تحصيله، وأنها تؤثره على غيره، فإذا سنحت بأن أعمل راحلته، ونبذ أحباءه وحبائبه، وتصدى لقطع المسافة، ومقاساة الجوع والعطش، والحر والبرد، والغربة والهوان، كما قيل:

لا يعدم المرء كنا يستكين[5] به ❖ وعيشة بين أهله[6] وأحبابه

1- ورد في ج: تسرج.

2- ورد في ج: أعد.

3- نسب اليوسي هذين البيتين إلى ابن القاسم حين تهيأ للرحيل إلى مالك. رسائل اليوسي/1: 174.

4- النساء: 100.

5- ورد في ج: يستْكِنّ

6- ورد في ج: أهليه.

ومن نأى عنهم قلّتْ مهابته ❖ كالليث يُحْقَر لما غاب عن غابه

وقال غيره:

إذا كنت في قوم عِدًى لست منهم ❖ فكل ما فعلت من خبيث وطيب

وإن حدثتك النفس أنك قادر ❖ على ما حوت أيدي الرجال فَكَذِّبِ

وبالصبر على ذلك تبين صدقها، وما دامت مقيمة في عشها وعيشها لا تبرح فهي مدعية، وأقرب ما إليها الكذب، ومنها ما يستفيد[1] بالسفر والاغتراب، من الأخلاق الحسنة، والرياضات المستحسنة، والتجارب البينة، وظهور الحبيب من أهله، والعدو إذا نجع، والحظوة الجديدة إذا رجع. إلى غير هذا مما لا حاجة إلى استقصائه، وطلب إحصائه.

الفصل الثامن: في الحض على التعلم في الصغر وبيان فضله

يروى عن النبي ﷺ أنه قال: **(من تعلم العلم وهو شاب كان كواشم في البحر ومن تعلم العلم بعدما يدخل في السن كان كالكاتب على ظهر الماء)**[2]، ويروى عن الحسن قال: «طلب الحديث في الصغر كالنقش في الحجر»، ويروى عن علقمة قال: «أما ما حفظت وأنا شاب، فكأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة»، ويروى عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بني ابتغ العلم صغيرا، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير»، ويقال: «من أدب ولده، أرغم أنف عدوه».

وقال الشاعر:

يُقوّم من ميل الغلام المؤدب ❖ ولا ينفع التأديب والرأسُ أشْيَبُ[3]

وقال سابق البربري:

1- ورد في ج: ما يستفاد.

2- إسناده موضوع. أورده السيوطي في الجامع وأشار إلى ضعفه.

3- جامع بيان العلم وفضله/1: 83.

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل ❖ وليس ينفع بعد الكبرة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلــــت ❖ ولن تلين إذا قومتها الخشــب[1]

وقال الآخر:

أرانـــي أنسى ما تعلمت في الكبـــر ❖ ولست بناسٍ ما تعلمت في الصغـر
ومـــا العلم إلا بالتعلم في الصبــــا ❖ وما الحلم إلا بالتحلم في الكبـــــر
ولـــو فَلق القلبَ المعلمُ في الصبــــا ❖ لألفى فيه العلم كالنقش في الحجر
173 / وما العلم بعد الشيب إلا تعسف[2] ❖ إذا كلَّ قلبُ المرء والسمع والبصر
ومـــا المرء إلا اثنان عقل ومنطــــق ❖ فإن فاته هذا وهذا فقـــــد دمـــر[3]

الفصل التاسع: في فضل الدوام على تعاطي العلم من المهد إلى اللحد والصبر في ذلك على اللاواء والجهد

يروى عن النبي ﷺ أنه قال: **(من جاء أجله وهو يطلب علما[4] ليحيي به الإسلام، لم يفضله النبئون[5] إلا بدرجة)**[6]، وعنه أيضا ﷺ **(إذا جاء الموت طـالب العلـم وهـو علـى**

1- جامع بيان العلم وفضله/1: 83.

2- ورد في ج: ناسفا.

3- نسب ابن عبد البر هذه الأبيات إلى أبي عبيد الله نفطويه، الذي أنشدها لنفسه. جامع بيان العلم وفضله/1: 84-85.

4- ورد في ح: العلم.

5- ورد في ح: الأنبياء.

6- إسناده موضوع. أخرجه الخطيب في التاريخ/3: 78، وابن عبد البر في الجامع/1: 402.

تلك الحال مات شهيدا)[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «منهومان لا يشبعان، أو لا تنقضي نهمتهما، طالب علم وطالب دنيا»، وقد يرفع حديثا، وقيل لابن المبارك: «إلى متى تطلب العلم؟ قال: إلى الممات إن شاء الله»، وقيل له ذلك مرة أخرى، فقال: «لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد»، وقيل لأبي عمرو بن العلاء: «حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟، قال: ما دام تحسن به الحياة»، وقيل لسفيان بن عيينة: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم لأن الخطأ منه أقبح»، وقال بعضهم: «لا تزال عالما ما كنت متعلما، فإذا استغنيت كنت جاهلا»، وعن الإمام مالك: «إن هذا الأمر لن ينال، حتى يذاق فيه طعم الفقر»، وقد نزل ذلك بربيعة في طلب العلم، حتى باع خشب سقفه، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة، من الزبيب وعصارة التمر.

ويروى عن شعبة أنه قال: «من طلب الحديث أفلس»، وعن أبي سفيان أنه قال: «لقد طلبنا هذا العلم وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة[2]، فما انتفع به إلا من دبغ البُن قلبه، وذلك أن أبا العباس لما أفضي إليه الأمر بعث إلى المدينة، فأقدم إليه عامة من كان فيها من أهل العلم، فكان أهلها يعدون لنا خبزا يلطخوه لنا بالبن، فنغدو في طلب العلم، ثم نرجع إلى ذلك فنأكله، فأما من كان ينتظر أن يصنع <له>[3] هريسة أو عصيدة، فكان ذلك يشغله، حتى يفوته كلما كنا نحن ندركه». وقال سحنون: «لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع، ولا لمن يهتم بغسل ثوبه، ولذا قيل[4] لولا أولاد الفقراء لذهب العلم».

1- ضعيف جدا. أخرجه البزار في مسنده: 138. والخطيب في الفقيه والمتفقه/1: 16.

2- ورد في ج: كثيرة.

3- سقطت من ج.

4- ورد في ج: قالوا.

الفصل العاشر: في مدح الإلحاح في طلب العلم وأن مفتاح العلم السُّؤال

وتقدمت الإشارة إليه في آداب المتعلم، ونريد الآن أن نتعرض له بوجه أشفى، روي أن رجلا في زمان النبي ﷺ أصابه جرح، فأصابه احتلام، فأُمِر بالاغتسال فمات، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءُ الْعِيِّ[1] السُّؤَالَ[2])[3]، / وقال بعض السلف: «العلم خزانة مفتاحها السؤال»، وعن ابن مسعود قال: «زيادة العلم الإبتغاء[4]، ودرك العلم السؤال، فتعلم ما جهلت، واعمل بما علمت». 174

{أشعار في مدح الإلحاح في طلب العلم}

وأنشد الأصمعي:

شِفَاءُ العَمَى طُولُ السُّؤَالِ وَإِنَّمَا ❖ تَمَامُ العَمَى طُولُ السُّكوتِ عَلَى الجَهْلِ

وقيل للأصمعي: «بم نلت ما نلت؟، قال: بكثرة سؤالي، وتلقفي الكلمة الشرود». ودعا معاوية دغفلا النسابة فسأله، فوجده حافظا، فقال له: «يا دغفل بم حفظت هذا؟ قال: بقلب عقول، ولسان سئول».

وأنشدوا في السؤال:

إِذا كُنتَ في بَلَدٍ جَاهِلاً ❖ لِلعلمِ مُلْتَمِسًا فَسَلْ

فَإن السؤال شفاء العمى ❖ كما قيلَ في المَثَل[5] الأول

1- ورد في د: العمى.

2- ورد في د و ج: المسألة.

3- أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم. وأخرجه ابن ماجة في كتاب الطهارة وسننها، باب في المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل.

4- ورد في ح: الإنفاق.

5- ورد في ج: المثال.

وقال الآخر:

لا يذهبـن بـك التفـريط منتظرا ❖ طـول الأنـاة ولا يطفَح بك العجل

فقـد يزيـد السـؤال المرء تجربـة ❖ ويستريح إلى الأخبار من يسـا

وقال الآخر:

ألا خبروني أيها الناس إنـمـا ❖ سألت ومن يسأل عن العلم يعلـم

سـؤال امـرئ لم يعقل العلم صدره ❖ وما السائل الواعي الأحاديث كالعُمى[1]

وقال غيره:

وليـس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ❖ ولا البصير كأعمى ما له بصـر

واستخبر الناس عما أنت جاهلـه ❖ إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر

وقال أيضا:

وقد يقتل الجهل السؤال ويشتفـي ❖ إذا عاين الأمر المهم المعايـن

وفي البحث قدما والسؤال لذي العمى ❖ شفاء وأشفى منهما ما يعاين[2]

وقال [غيره][3]:

والعلم يشفي إذا استشفى الجهول به ❖ وبالدواء قديما يحسم الـداء

غيره:

إذا كنت لا[4] تدري ولم تك بالـذي ❖ يسائل من يدري فكيف إذن تدري

1- ورد في ج: كالعم.

2- ورد في ج: يُتعاين.

3- سقطت من د و ج.

4- ورد في ج: لم.

غيره:

وسـل الفقيـه تكـن فقيهـا مثلـه ❖ مـن يسـع في علـم بفقه يمهر

وتدبـر العلـم الـذي تعنـى بـه ❖ لا خيـر في علـم بغيـر تدبر

قيل ودخل رجل على عبد ا لله بـن المبـارك ﷺ، وعنـده أهـل الحديـث يسـألونه، فاستحيى الرجل أن يسأل، فكتب عبد ا لله بطاقة ورمى بها إليه، فإذا فيها:

إن تَلَبَّثْتَ عن سؤالك عبد ا لله ❖ ترجع غدا بِخُفَّيْ حُنَيـن

175 / فأعتب الشيخ بالسؤال تجـده ❖ سلسا يلتقيك بالراحتيـن

وإذا لم تصح صياح الثكالـى ❖ قمت عنه وأنت صفر اليديـن

وعن علي كرم ا لله وجهه قال: « خمس احفظوهن، لو ركبتم الإبل لأنضيتموهن قبل أن تصيبوهن، لا يخاف عبد إلا ذنبه، ولا يرجـو إلا ربـه، ولا يستحيي جاهل أن يسأل [عما لا يعلم، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد][1]، ولا يستحيي عالم إن لم يعلم أن يقول ا لله أعلم».

وقال الخليل بن أحمد: «الجهل منزلة بين الحياء والأنفة». ويـروى عـن النـبي ﷺ أنه قال: **(ويل لمن يعلم ولا يعمل مرتين، وويل ثـم ويـل لمـن لا يعلـم ولا يتعلـم)**[2]. وقـال بعض السلف: «ميراث العلم خير من ميراث الذهب والفضـة، والنفـس الصالحـة خـير مـن اللؤلؤ، ولا يستطاع العلم براحة الجسم» وهذه وصية شاملة.

وقال الشاعر:

عليك بأهل العلم فارغب إليهم ❖ يفيدوك علما كي تكون عليما

ويحسبك كل الناس أنك منهـم ❖ إذا كنت في أهل الرشاد مقيـمـا

1- ساقط من د و ج.

2- أخرجه ابن عبد البر في جامعه/1: 338.

فكل قرين بالمقارن يقتدي[1] ❖ وقد قال هذا القائلون قديما

الفصل الحادي عشر: في ذكر فضيلة طلب العلم

ويعرف <ذلك>[2] تارة بالتصريح به، فيما ورد من الآثار، وتارة بالاستلزام من فضل العلم وفضل العالم، فإن طلب الفضل فضل، ومن وجوبه أيضا، و تقدمت هذه الاستلزامات، فنريد الآن التعرض لما هو صريح، ولما هو مستلزم أيضا، من فضل العلم وفضل العلماء بأوفى مما مر، روي عن النبي ﷺ أنه قال: **(إذا جاء الموت طالب العلم وهو في هذه الحال، مات وهو شهيد)**[3]، وقال ﷺ: **(ما جميع أعمال البر في الجهاد، إلا كنقطة في بحر، وما جميع أعمال البر والجهاد في طلب العلم إلا كنقطة في بحر)**[4]، وقال أيضا: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَلَ اللَّهُ عَلَيْه سَبيلاً إلى الجَنَّة سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[5]، وقال أيضا: **(من غدا في طلب علم صلت عليه الملائكة، وبورك له في معيشته، ولم ينقص رزقه، وكان عليه مباركا)**[6].

1- ورد في ج: مقتدي.

2- سقطت من ج.

3- سبقت الإشارة إليه في ص: 411.

4- لم أقف عليه.

5- أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. وأخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب فضل طلب العلم.

6- إسناده موضوع. أخرجه العقيلي في الضعفاء/1: 77، وعنه ابن الجوزي في الواهيات: 87.

وعن أبي حنيفة قال: «حججت مع أبي، فإذا شيخ قد اجتمع عليه النـاس، فقلـت لأبي: من هذا الشيخ؟ فقال لي: رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له عبد ا لله بن الحـارث بن جزء، قلت: فأي شيء عنده؟ قال: أحاديث سمعها من رسول ا لله ﷺ، فقلت: قدمني إليه حتى أسمع منه، فقدمني إليه فسمعته يقول: قال رسول ا لله ﷺ :/ (من تفقه في دين ا لله كفاه ا لله همه، ورزقه من حيث لا يحتسب)[1]».

176

وروي عن يحيى بن يحيى أنه قال: « أول ما حدثـني مـالك يـوم لقيتـه، قـال: مـا اسمك؟ فقلت: يحيى، وكنت أَحْدَث أصحابي سنا، فقال: يا يحيي ا لله ا لله عليك بـالجد في هذا الأمر، وسأنبئك بحديث إن شاء ا لله: قدم إلينا غلام ، فأقبل على طلب العلـم معنـا عند ربيعة، واجتهد ثم نزل به الموت، وهو طالب لهـذا الأمـر، فرأيـت جميـع علمائنـا قـد ازدحموا على نعشه، فنظر الأمير إليهم فأمسك عنه وقال: قدموا من شـئتم للصـلاة عليـه، فقدموا ربيعة، فصلى عليه وألحده في قبره، هو وزيد بن أسلم.

فبعد ثلاث رآه رجل من خيار بلدنـا، في أحسـن صـورة، غـلام أمـرد عليـه بيـاض، متعمم بعمامة خضراء، وتحته فرس أشهب نازلا من السماء، فسلم عليه وقال: هذا ما بلغني إليه العلم، فقال الرجل: ما الـذي بلغـك إليـه العلـم؟ قـال: أعطـاني ا لله عـز وجـل بكـل <باب>[2] تعلمته درجة في الجنة، فلم تبلغ بي الدرجات إلى درجة أهل العلـم، فقـال ا لله عز وجل: زيدوا لورثة أنبيائي، فقد حتمت على نفسي، أنـه مـن مـات وهـو عـالم بسـنتي وسنة أنبيائي، أو طالب لذلك، أن أجمعهم في درجة واحدة، وأعطـاني ربـي حتـى بلغـت درجة أهل العلم، فليس بيـني وبـين رسـول ا لله ﷺ إلا درجـة واحـدة هـو فيهـا جـالس،

1- إسناده ضعيف. أخرجه الخطيب في التاريخ/3: 32. والمغني عن حمل الأسفار/1: 33-35.

2- سقطت من ح.

وحوله النبيئون كلهم، ودرجة فيها أصحابه وجميع أصحابهم، والذين اتبعوهم[1] بإحسان، ونحن من بعدهم فيها جميع أهل العلم وطلبتهم، سوى ما بي عند الله من المزيد.

فقال الرجل: وما لك عند الله من المزيد؟ فقال: وعدني أن يحشرني مع النبيئين في زمرة واحدة، فأنا معهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل: يا معشر العلماء هذه جنتي، قد أبحتها لكم، وهذا رضواني قد رضيته عنكم، فلا تدخلوا الجنة حتى تقفوا فتشفعوا، وأعطيكم ما شئتم، وأشفعكم فيمن استشفعتم له، لأري عبادي كرامتكم ومنزلتكم عندي، فأصبح الرجل يحدث بهذه الرؤيا، وانتشرت في المدينة، قال مالك: وكان معنا أقوام اشتغلوا بطلب العلم، ثم انقطعوا عنه، فلما سمعوا بهذا الحديث رجعوا إلى طلب العلم، فهم اليوم علماء بلدنا».

وقال يحيى أيضا: « أول شيء حدثني به الليث أول يوم لقيته، قال لي: ما اسمك؟ قلت: يحيى متعني الله بك، فقال لي: يا يحيى الله الله جد في هذا الأمر، وسأحدثك بحديث تزداد به بصيرة، قال: كنا عند ابن شهاب طالبين لهذا الأمر، فقال لنا يوما: يا معشر الطلبة، أراكم تزهدون في هذا الأمر، با لله الذي لا إله إلا هو، لو أن بابا / من العلم جعل في كفة، وجعل أعمال البر في كفة أخرى، لرجح باب العلم، ومن عمل بمشورة أهل العلم فقد رَشَدَ، ومن عمل بغير علم، وبغير مشورة أهل العلم، فقد خسر خسرانا مبينا». 177

وروي عن عبد الله بن مسعود، أنه كان يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: «مرحبا بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، جلس البيوت، ريحان كل قبيلة». وقيل: «كلمة حكمة تسمعها من أخيك، خير لك من مال يعطاك، لأن المال يطغيك، والكلمة تهديك».

1- ورد في ج: اتبعوه.

وقال الحسن البصري: «الدنيا كلها ظلمة، إلا مجالس العلماء». وقيل: «مثل العالم في البلد، مثل عين عذبة في البلد». وقال ابن المبارك: «خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين الملك والعلم، فاختار العلم، فأتاه الله الملك والعلم باختياره العلم».

ويروى عن معاذ بن جبل قال: « قال رسول الله ﷺ : (تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما، فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقْتَصُّ آثارهم، ويُقْتَدى بفعالهم، ويُنْتَهَى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، هو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)»، هكذا حكى أبو عمر[1] هذا الحديث، وفيه عند غيره زيادات تركناها.

وعن سفيان: «ما يراد[2] الله بشيء أفضل من طلب العلم، وما طلب العلم في زمان أفضل منه اليوم». وقيل لبعض الأوائل: «أي شيء ينبغي للعاقل أن يقتنيه؟ قال: الشيء الذي إذا غرقت سفينته سبح معه» يعني العلم. وعن النبي ﷺ (مَنْ طَلَبَ عِلْماً

1- ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/1: 239. وإسناده موضوع مرفوعا.

2- ورد في ج: لا يدان.

فَأَدْرَكَهُ كُتِبَ لَهُ كِفْلَانِ مِن أَجْرٍ وَمَن طَلَبَ عِلْماً فَلَمْ يُدْرِكْهُ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنَ الْأَجْرِ)[1].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: (**العلم بالله عز وجل**) قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل وتخبرني عن العلم، فقال ﷺ: (**قليل العمل / ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل**)[2]»، وهذا محتمل، لأن يكون روعي كون العلم عمل قلب، فالعلم داخل في الأعمال، وهو أفضلها، وأن يكون من تلقى السائل بغير ما يتطلب، لكونه أولى به، ويؤيده الجواب الأخير. 178

وقال ﷺ: (مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّينَ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ < فِي الْجَنَّةِ >[3])[4]، وقال أيضا: (**رحمة الله على خلفائي، رحمة الله على خلفائي**)، وقالوا: ومن خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: (**الذين يحيون سنتي، ويعلمونها عباد الله**). ويروى: «أنه إذا كان يوم القيامة، توضع حسنات الرجل في كفة، وسيئاته في الكفة الأخرى، فتشيل حسناته، فإذا يئس وظن أنها النار، جاء شيء مثل السحاب، حتى يقع مع حسناته، فتشيل سيئاته، فيقال له: أتعرف هذا من عملك؟ فيقول: لا، فيقال: هذا ما عَلَّمْت الناس من الخير، فعمل به من بعدك»[5].

ورؤي يحيى بن معين في النوم، فقيل: «يا أبا زكرياء، ما صنع بك ربك؟ قال: زوجني مائة حوراء، وأدناني، وأخرج من كمه رقاعا كان فيها حديث، فقال: بهذا». ورؤي محمد بن الحسن في النوم، فقيل له: «إلى ما صرت؟ فقال: غفر لي، ثم قيل لي: لم

1- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب فضل العلم والعالم.

2- إسناده واه. أورده الغزالي في الإحياء. وقال العراقي في الشرح/1: 46 سنده ضعيف.

3- ساقط من ج.

4- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب في فضل العلم والعالم.

5- جامع بيان العلم وفضله/1: 209.

نجعل هذا العلم فيك، إلا ونحن نريد أن نغفر لك، فقيل له: ما فعل أبو يوسف؟ قال: فوقنا بدرجة، قال: فأبو حنيفة؟ قال: في أعلى عليين».

ويروى أنه: (إذا كان يوم القيامة، عزل ا لله تبارك وتعالى العلماء على الحساب، فيقول: ادخلوا الجنة على ما كان فيكم، إني لم أجعل حكمتي فيكم، إلا لخير أردته بكم) وفي رواية أخرى (أن ا لله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة، حتى يقضى بين الناس، ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يدعو العلماء فيقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع حكمتي فيكم، وأنا أريد أن أعذبكم، قد علمت أنكم تخلطون من المعاصي ما لم يخلط غيركم، فسترتها عليكم وغفرتها لكم، وإنما كنت أعبد بفتواكم وتعليمكم عبادي، ادخلوا الجنة بغير حساب، ثم قال: لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى)[1]. وفي رواية أخرى: (يبعث ا لله العباد يوم القيامة، ثم يميز العلماء، ثم يقول لهم: يا معشر العلماء، إني لم أضع علمي فيكم، إلا لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم)[2].

وقيل: «أوحى ا لله إلى إبراهيم عليه السلام، أني عليم أحب كل عليم». وروي: أن النبي ﷺ مر بمجلسين في المسجد، أحدهما يدعون ا لله، ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال ﷺ: (كِلاَ المَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ وأحَدُهُمَا أَفْضَل مِن صَاحِبِه، أَمَّا هَؤُلَاءِ / فَيَدْعُونَ اللَّهَ وَيَرغَبُون إِلَيْهِ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا 179

1- جامع بيان العلم وفضله/1: 214.

2- إسناده ضعيف جدا. وأخرجه الطبراني في الصغير: 591.

هَؤُلَاءِ فَيَتَعَلَّمُونَ وَيُعَلِّمُونَ الجَاهِلَ وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا)[1] ثم أقبل فجلس معهم. وروي: عن النبي ﷺ أنه قال: (العالم أمين ا لله في الأرض)[2].

وخطب زياد على الكوفة <فقال>[3]: «إني بت ليلتي هذه مهتما بثلاث: بذي العلم، وذي الشرف، وبذي السن. ولا وا لله، لا أوتي برجل رد على ذي علم، ليضع بذلك منه إلا عاقبته، ولا أوتي برجل رد على ذي شرف، ليضع بذلك من شرفه إلا عاقبته، ولا أوتي برجل رد على ذي شيبة، ليضعه بذلك إلا عاقبته، إنما الناس بعلمائهم وأعلامهم وذوي أسنانهم[4]».

وقال أبو الأسود الدؤلي: «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك». وقيل لبرزجمهر: «أيما أفضل الأغنياء أم العلماء؟ فقال: العلماء، فقيل له: فما بال العلماء يأتون الأغنياء، والأغنياء لا يأتون العلماء؟ قال: لعلم العلماء بفضيلة الغنى[5]، وجهل الأغنياء بفضيلة العلم».

وقالت امرأة لإبراهيم النخعي: «يا أبا عمران أنتم معشر العلماء، أحَدُّ الناس وألأم الناس، فقال: أما ما ذكرت من الحِدَّة، فلأن العلم معنا والجهل مع مخالفينا، وهم يأبون إلا دفع علمنا بجهلهم، فمن ذا يطيق الصبر على هذا؟. وأما اللؤم فلتعذر درهم الحلال، وأنا لا نبتغي الدرهم إلا حلالا، فإذا صار إلينا لم نخرجه إلا في وجهه الذي لابد منه».

1- أخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. وأخرجه الدرامي في كتاب المقدمة، باب فضل العلم والعالم.

2- إسناده موضوع أخرجه ابن عبد البر في جامعه/1: 228.

3- سقطت من ج.

4- ورد في ج: أنسابهم.

5- ورد في ج: الغناء.

قلت: وحاصله أن المتهاونين، الجامعين للمال مـن حلـه وغـير حلـه، يكـثر عندهـم المال، فيتيسر عليهم الجود به في الفضول بخلافنا. وعن ابن شهاب قال: «العلم ذكر يحبـه ذكور الرجال، ويكرهه مؤنثهم». وعن النـبي ﷺ (**إذا أتـى علـي يـوم، لا أزداد فيـه علمـا يقربني من ا لله، فلا بورك لي في طلوع شمـس ذلـك اليـوم**)[1]. ويـروى: (**كـل يـوم يمـر لا أزداد فيه علما يقربني من ا لله، فلا بلغني ا لله طلوع شمس ذلك اليوم**).

وفي معناه قيل:

دعوني وأمري واختياري فإنني ❖ بصير بما أبدي وأبرم من أمـــري

إذا ما مضى يوم ولم أصطنع يدا ❖ ولم أقتبس علما فما هو من عمري[2]

وقيل: «أوحى ا لله إلى موسى عليه السلام، تعلم الخير وعلم الناس، فإني منور لمعلـم الخير ومتعلمه قبورهم، حتى لا يستوحشوا لمكانهم». وسأل رجـل ابـن عبـاس عـن الجهـاد فقال: «ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبـني مسجدا تعلـم فيـه القرآن، وسـنن النبي ﷺ ، والفقه في الدين».

وقـال ابـن المقفـع: «اطلبـوا العلـم، فـإن كنتـم ملوكـا بـررتم، وإن كنتـم سـوقة عشتم». وقال الحجاج لخالد بن صفوان: / «من سـيد أهـل البصـرة؟ قـال: الحسـن، قـال: ذاك[3] وهو مولى؟ فقال: احتاج الناس إليه في دينهم، واستغنى عنهم في دنيـاهم، ومـا رأيـت أحدا مـن أشـراف[4] أهـل البصـرة، إلا وهـو يـروم الوصـول إليـه في حلقتـه، ليسـمع قولـه ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا وا لله هو السُّؤدد». 180

1- إسناده موضوع. أخرجه الخطيب في التاريخ/6: 100، وأبو نعيم في الحلية/8: 188.

2- تنسب إلى علي بن محمد الكاتب البستي. جامع بيان العلم وفضله/1: 61.

3- ورد في ج: ذلك.

4- ورد في ج: أشرف.

واعلم أن كل ما يذكر في فضيلة العلم وطلبه، إنما يكون تنبيها وترغيبا، وإلا ففضل العلم غني عن الكمال، لأنه كمال الإنسان، وبه امتاز[1] عن سائر الحيوان، ثم هو مناط الشرع والتكليف، ومفتاح التعرف والتعريف، أفيحتاج إلى بيان وبه يكون البيان؟.

وكيف يصح في الأذهان شيء ❖ إذا احتاج النهار إلى دليل[2]

الفصل الثاني عشر: في ذكر آفات العلم وقواطعه

وتقدم بعض ذلك في باب العلم، باعتبار العالم، والغرض هنا ذكره باعتبار المتعلم، وقد يجتمع ذلك وقد ينفرد، وليعلم أن حاصل الآفات بحسب العالم، إما عدم الانتفاع به، أو حصول وبال عليه، أو ذهابه بعد حصوله، ثم إن هذا الأخير تفضل الله برفعه، كما في حديث (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا)[3] وبقي الباقي، ولابد أن يراعى في هذا الأخير أيضا أن المرفوع هو القبض من الصدر، وأن عادة الله تعالى لم تجر بذلك فضلا منه وإحسانا، وجائز أن يقع ذلك خرقا للعادة، كما يحكى بعض ذلك في كرامات بعض الأولياء، وكما يرفع الإيمان بعد الردَّة، وكما وقع لبلعام بن باعوراء، ويجوز أيضا أن يقع بالنسيان عياذا بالله، إما نسيان للجميع أو للبعض، أو نسيان التحقيق من هرم، أو اختلال فكر لعارض ما، أو ذهاب العقل جملة، الذي هو مناط العلم.

1- ورد في ح: يمتاز.

2- ينسب إلى المتنبي، الشاعر الفحل المشهور: أحمد ابن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكوفي.

3- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم. وأخرجه مسلم في كتاب العلم أيضا، باب: رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. وتمام الحديث: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا).

وأما بحسب المتعلم فحاصله، أن يعوقه عائق عن الوصول إليه، وأما عدم الانتفاع بـه <بعد>[1] حصوله، فهو مما مر. ويكون عدم الانتفـاع بـه المذكـور قبلـه بوجهـين: الأول، في حق صاحبه، أما عند الله بأن لا يريد به وجهــه، فيحـرم مـن ثوابـه والقـرب بـه مـن الله تعالى، وأما عند الناس بأن لا يرزق حظوة ولا رزقا، وهذا أهون. والثاني، في حق غيره، بأن لا ينتفعوا على يده، وقد يكون معذورا في ذلك، فلا يفوته حظه من الله تعــالى، وقـد يكـون غير معذور، فيكون وبالا عليه، وسنلم بشيء من هذا في غير هذا المحل.

{عوائق المتعلم}

أمـا عوائـق المتعلـم، وهـي المقصـود ذكرهـا في هـذا الفصـل، فمنهـــا طـول الأمــل، والاغترار بالزمن المستقبل، وأن سيحصل فيــه، فتـتزايد عليـه الشـواغل، وتضعـف أسـباب التحصيـل ولا تعـود، ومنهـا الاغـترار بالذكـاء، وأن سـيحصل[2] العلـم / في الزمـن اليسـير، 181 فيتراخى حتى يقطع عن ذلك. ومنها الانتقال من علم إلى آخر، قبل أن يحصل منه المـراد، أو من كتاب إلى كتاب كذلك. ومنها طلب الحظوظ به، فتشــغله عـن التحصيـل والتحقيـق، وتستعجله عن دوام الطلب فينقطع، على أنه لو حصل شيء منها على هذه النيــة، لم يكـن له طائل، وكأنه لم يحصل. ومنها ضيق الحــال، وتعـذر أسـباب الاشـتغال، وذلـك بـالفقر وتطاول الأمراض ونحوه.

ومنها الاتساع في الدنيا، والاشتغال بتوفيرها وتنميتها، وتعاطي ملاذهـا. ومنهـا تقلـد الولايات ولو دينية، كالقضاء والإمامة الصغرى، وتعليم الصبيان، فإن ذلك كله ونحوه عـائق عن الاستغراق في الطلب. ومنها الاشتغال بتحصيل الدنيا، حرصا عليها واعتنـاء بهـا، فقـد

1– سقطت من ج.

2– ورد في ج: يستحصل.

مر أن منهومين لا يشبعان، طالب علم وطالب دنيا، والمرء لا يستطيع القيام بهما في آن واحد، فهما بحران من غرق في أحدهما، لم يصل إلى الآخر.

ومنها الاشتغال بالدنيا وتحصيلها لقصد الاستعانة على طلب العلم، فلا يحصل من المال قدرا ينتفع به، حتى يفوت الطلب بموت أو هرم، أو مرض أو قساوة قلب، وجمود فكر وجمود قريحة، أو إلف للفلوس، فلا يقدر على الطلب بلا هي، والواجب على المرء إذا رزق رغبة في العلم، وقريحة فيه، أن يبادر إلى معانقته على ما كانت عليه[1] حاله، والاعتماد على الله تعالى في الإعانة، وتيسير ما يحتاج إليه.

إذا هبت رياحك فاغتنمها ❖ فإن لكل عاصفة سكون

وإن درت نياقك فاحتلبها ❖ فلا تدر الفصيل لمن يكون

ومنها الأولاد والزوجات، والآباء والأمهات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[2]. ومنها الكسل والفتور والبطالة، وغير ذلك مما تقدم تحذير المتعلم منه في آدابه.

وقالوا:

قالت مسائل سحنون لقارئها ❖ بالدرس يدرك منا[3] كل ما استترا

لن يدرك العلم بطال ولا كسل ❖ ولا ملول ولا من يألف البشرا

وتقدم كل هذا، ومنها التغالي في التحصيل، والتشدد المفرط في الطلب، فإنه من أسباب الانقطاع.

1- ورد في ج: ما كتب عليه.

2- التغابن: 14.

3- ورد في ج: مني.

وفي الحديث (إن المنبث لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) فالمطلوب لطالب العلم أن يستغرق أوقاته في الطلب، ويدع البطالة، ولابد أن يستعين على ذلك بقطع العلائق، بأن يرتحل عنها ويبقى أعزب، ويبعد عن الخلطة، ويخفف المعدة، ونحو ذلك، وبإراحة نفسه 182 أحيانا إذا / ضجرت، وتوفيرها إذا كلّت، وتنشيطها إذا ملّت، وإنما هي كالدابة يسوسها، ولم يزل العلماء يوصون طالب العلم بالمواظبة عليه، والدوام من غير إكثار ممل، وقال بعض السلف: «خذ العلم مع الأيام والليالي، ولا تكابده، فمن رام أخذه جملة، ذهب عنه جملة».

وقد قلت في هذا المعنى مخاطبا بعض الأصحاب:

عليك بالجد في الترقي	❖	لنيل مرتبة الكمال
وذاك بالعلم فاجتهد في	❖	طلابه تدرك المعالي
وحاذر العجز والتواني	❖	والبرم الموجب الملال
وخذه باليسر والتأني	❖	وبالدوام مع الليال[1]
لا تغشمن العلوم غشما	❖	فذاك مفض إلى الخبال
ولا تخل من على الهوينا	❖	عول يعلو أوالتغال
فخير ما في الأمور يرجى	❖	أوساطها السهلة المنال[2]
لا ترد الوهد[3] في المراعي	❖	ولا ترد قنن الجبال
والبحر ذو غمرة ولكن	❖	يغوصه الطالب اللثال

1- ورد في ج: الليالي.

2- ورد في ج: السهل المنالي.

3- ورد في ج: وهدا.

والملك هلك وليس يحظـــى ❖ به ســـوى صـــبر الرجال[1]

وكان بعض السلف إذا مل يقول: «هاتوا من أشعاركم، فإن الأذن مجاجة، والنفس حمضة، فأفيضوا مما يخف علينا»[2].

وقال الشاعر:

أَفِد طبعك المكدود بالجد راحـــة ❖ تفده وعلله بشـــيء مـــن المـــزح

ولكـن إذا أعطيته المـزح فليكـــن ❖ بمقدار ما يعطى الطعام من الملـح

وقال علي كرم ا لله وجهه: «اجمعوا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائق الحكمة، فإنهـا تمل كما تمل الأبدان».

وقال أبو العتاهية:

لا يصلح النفس إن كانت مدبـرة ❖ إلا التنقل من حال إلى حـال

لا تلعبن بك الدنيا وأنـــت تـــرى ❖ ما شئت من عِبَر فيها وأمثال

وطبـاع النـاس[3] وقوتهـم مختلفـة في هـذا، فـرب إنسـان محتـاج إلى تجميـم النفـس، وإراحتها أكثر / من غيره، فليعمل كل على طبعه وقوته. 183

وقد كنت أيام الصبا في مجلس شيخنا أبي بكر التطافي رحمه ا لله، فلمـا اشـتد الحـر أرادوا أن يريحوا أنفسهم شيئا ما، فقلت لهم نشتغل، ولا بأس علينا من الحـر، وكـانت في إذ ذاك قوة الشباب، وصلابة البادية، فقال لي الشيخ المذكور: «نحكي لـك حكايـة في مثـل هذا، تريك الفرق بيننا وبينك، وهي أن بعض أمراء مصر، ذكر له بعض الأطبـاء عـن عشـبة

1– من قصيدة في الديوان حرف اللام. قالها على سبيل النصيحة مجيبا لأبـي القاسـم بـن عبـد العزيـز التهالي السوسي. وقد التمس منه ذلك.

2– ينسب للزهري حسب ما جاء في جامع بيان العلم وفضله/1: 104.

3– ورد في ج: النفس.

عندهم، أن من أكلها يموت بإذن ا لله تعالى، وكان أعرابـي بـدوي حـاضرا معهـم، فقـال: هاتوا هذه العشبة وأنا آكلها، فأكلها ولم يألم بها فضلا عن أن يموت، فلما رأى الأمير ذلـك غضب على الطبيب، وقـال: تكذبـني، فقـال الطبيـب: أيهـا الأمـير إنـا لم نتعـرض لهـذا الجنس، يعني أهل البدو، ولكـن إن أردت أن تعـرف صحـة قـولي، فخـذ هـذا الأعرابـي، وأعطه دارا وفراشا حسنا حتى يكمل الحول، فاعطه العشبة يأكلهـا، فـإن لم يمـت إذ ذاك فاقتلني، ففعل الأمير بالأعرابي ذلك، فلما أتى عليه الحول في الرفاهية أكلها فمات».

وليعلم أن العلم بحر لا يدرك له غور، ولا يستطاع نيله بعمر، فليأخذ الأهـم فـالأهم، وإن كانت له قوة، فليأخذ من كل علم أحسنه، لتعـذر الإحاطـة، ونقصـان القصـور[1]، فـإن العلوم مرتبط بعضها ببعض، فمن لم يشارك فيها لم يكمل في واحد[2] منها. وعن ابـن عبـاس رضي ا لله عنهما «العلم أكثر من أن يحصى، فخذ من كل شيء أحسـنه»[3]. وكـذا روي عـن وهب بن منبه «العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا منه أحسنه».

وأنشدوا:

ما أكثــر العلــم وما أوسعـــه	❖	من ذا الذي يقدر أن يجمعه؟
إن كنـــت لابـــد له طالبــــا	❖	محـــاولا فـا لتمـس أنفعـه[4]

وقال الآخر:

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم	❖	في العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان في ألف طومـار مســوّدة	❖	وربما لم تجـد في الألف حرفيـن[5]

1- ورد في د: العمر.

2- ورد في ج: لواحد.

3- جامع بيان العلم وفضله/1: 105-106.

4- ورد في ج: ما أنفعه. من إنشاد محمد بن مصعب لابن عباس. جامع بيان العلم وفضله/1: 106.

5- نسبها ابن عبد البر لمنصور الفقيه. نفسه/1: 106.

ويقال: «أنبل العلماء من يكتب أحسن ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب، ويحـدث بأحسن ما يحفظ»[1]. وكل ما مر من الآداب المطلوبة لمريد العلم، إذا اختل شيء، كـان ذلـك قاطعا بحسبه، إلا أن يغني الله عبده عنه، ويمنحه فضله بلا توقف، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

الفصل الثالث عشر: في الكلام على كتب العلم وتخليده في الصحف

184 وقد اختلف السلف في ذلك،/ فمنهم من كـره الكتـب، ورأى التعويـل علـى الحفـظ، ومنهم من رخص في الكتب مخافة التغرير، واحتج الأولون بما روي عنه ﷺ أنه قـال: (لاَ تَكْتُبُوا العِلْمَ عَنِّي شَيْئاً سِوَى القُرْآن، فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئاً سِوَى القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ)[3].

ويقال: « دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث، وأمر إنسانا أن يكتبه، فقال له زيد: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن لا نكتب شيئا من حديـث، فمحـاه». وقـال علـي كرم الله وجهه في خطبة: «أعزم على كل من كان عنده كتابا، إلا رجع فمحاه، فإنما هلـك الناس حين تبعوا أحاديث علمائهم، وتركوا كتاب ربهم».

وقيل لأبي سعيد: «لو اكتتبنا الحديث، فقال: لا نكتتبكم، خذوا عنا كما أخذنا عن النبي ﷺ». وقيل له أيضا: «نكتب ما سمعنا عنك، قال: تريـدون أن تجعلوهـا مصـاحف، إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا كما كنا نحفظ». وقيل لـه: «إنـك تحدثنـا عـن

1- جامع بيان العلم وفضله/1: 106.

2- المائدة: 120 - هود: 4 - الروم: 50 - الشورى: 9 - الحديد: 2 - التغابن:1 - الملك:1.

3- أخرجه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أبي سعيد الخدري. ويبدو أن في الحديث اضطراب من حيث اللفظ، وصوابه كما جاء في مسند أحمد: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ وَمَنْ كَتَبَ شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ).

رسول ا لله ﷺ حديثا عجيبا، وإنا نخاف أن نزيد فيه أو ننقص، فقال: أردتم أن تجعلوه قرآنا، لا، ولكن خذوا عنا كما أخذنا عن النبي ﷺ».

ويروى أن عمر رضي الله عنه هم أن يكتب السنن، فاستفتى غيره من الصحابة فوافقوا، ثم إنه جعل يستخير ا لله تعالى، ثم إنه أصبح ذات يوم فقال: «إني كنت أردت أن أكتب السنن وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم[1] كتبوا كتبا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب ا لله، وإني وا لله لا أشوب كتاب ا لله بشيء أبدا»[2].

ويروى عن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال: «إنا لا نكتب العلم ولا نكتبه»[3]. وعن مالك رضي الله عنه قال: «ما كان مع ابن شهاب إلا كتاب فيه نسب قومه، قال: ولم يكن القوم يكتبون، إنما كانوا يحفظون، ومن كتب منهم الشيء، إنما كان يكتبه ليحفظه، فإذا حفظه محاه»[4].

وقال ابن سيرين: «إنما ضلت بنو إسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم»[5]. ويروى عن الشعبي قال: «ما كتبت سوادا في بياض قط، وما استعدت حديثا من إنسان مرتين». وقال الأوزاعي: «كان هذا العلم شيئا شريفا، إذ كان من أفواه الرجال، يتلاقونه[6] ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره، وصار إلى غير أهله»[7]. وقيل لبعض الأئمة: « إني آتيك وقد

1- ورد في ج: قبلهم.

2- جامع بيان العلم وفضله/1: 64.

3- نفسه/1: 64.

4- نفسه/1: 64.

5- نفسه/1: 65.

6- ورد في ح: يتلقونه.

7- جامع بيان العلم وفضله/1: 68.

جمعت [لك][1] مسائل، فإذا رأيتك فكأنما تختلس مني، وأنت تكره الكتاب، فقال: لا عليك، فإنه قلما طلب إنسان علما إلا آتاه الله منه ما يكفيه، وقلما كتب كتابا إلا اتكل عليه»[2].

185 وأقوال السلف في كراهة الكتب كثيرة، وقد لاح / من جملتها، أن العلة في ذلك أشياء: الأول، المحافظة على الأدب، وأن لا يضاهى بكتاب الله تعالى كتاب آخر، ويتضمن هذا الوجه بيان الفرق، بين كلام الله تعالى وكلام غيره، وأن كلام الله تعالى موثق به، إذ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[3] وهو ثابت بالتواتر، فلا بأس بكتبه، وكلام الغير لا وثوق به كذلك، إما من جهة القائل أو من جهة السند، فلعله ليس كذلك، فتركه عن الكتب أولى.

الثاني، خوف تضييع الحفظ، والاتكال على الصحف، والعلم إنما هو في الصدور، كما قيل:

ليس بعلم ما حوى القمطر ❖ ما العلم إلا ما حواه الصدر[4]

ويقال: «حفظ سطرين خير من حمل وقرين، ومذاكرة اثنين خير من هذين». وقال أبو العتاهية: «من منح الحفظ وعى، ومن ضيع الحفظ وهم». وقال بعضهم: «حرف في تَامُورِكَ[5]، خير من عشرة في تابوتك».

وقال الآخر:

1- سقطت من د و ج.

2- جامع بيان العلم وفضله/1: 68.

3- فصلت: 42.

4- ينسب إلى الخليل ابن أحمد. جامع بيان العلم وفضله/1: 68.

5- قال ابن عبد البر: التامور: علقة القلب. نفسه/1: 69.

أمـا لو أعـــي كلّ مـــا أسمـــع ❖ وأحفـــظ مـــن ذاك ما أجـمـــع
ولـم أستفـد غير ما قد جمعـــت ❖ لقيـــل: هـــو العالـــم المَقْنَـــع
ولكـــنَّ نفسـي إلـى كـل فـــن ❖ مـــن العلـــم تسمعـــه تنـــزع
فلا أنـــا أحفـــظ ما قـد جمعـت ❖ ولا أنـــا مـــن جمعـــه أشبـــع
ومـــن يـــك في علمـه هكـــذا ❖ يكـــن دهـــره القهقـــرى يرجـع
إذا لـــم تكـــن حافظـا واعيـــا ❖ فجمعـــك للكتـــب لا ينفـــع
أأحْضُـــر بالجهـــل في مجلســي ❖ وعلمـــي في الكتـــب مستـــودع

وقال الآخر:

علمي معـــي حيثمـا يَمَّمْـت أحملـــه ❖ بطنـــي وعـــاء لـــه لا بطـــن صنـــدوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي ❖ أو كنت في السوق كان العلم في السوق[1]

غيره:

استـــودع العلـــم قرطاســـا فَضَيَّعَـــه ❖ فبئـــس[2] مستـــودع العلـــم القراطيـــس

الثالث، سد الذريعة، فإن العلم مـا دام في صـدور الرجـال، فـإنهم لا يمنحونـه غـير أهله، فإذا صار إلى الصحف، وقع عليه من ليس أهله، ونـاهيك بهـذا الفسـاد، ولاسيما في زمننا، وقد فسدت الكتب بالتحريف، وقلة الضبط، فينقل الخطأ ويقع الفساد من كل وجه.

واحتج الآخرون بالنقل والعقل أيضا، أما النقل، ففعل النبي ﷺ وأمـره، أمـا الفعـل ونعني به التقرير، لأنه ﷺ ما يكتب بيده، فقد كان الوحي يكتب بـين يديـه، والرسـائل التي فيها / العلم، ككتاب عمرو بن حزم في الصدقـات والديـات، والفرائـض وغـيره، وأمـا 186

1- ينسب إلى منصور الفقيه. جامع بيان العلم وفضله/1: 69.

2- ورد في ج: ليس.

الأمر، فأمره ﷺ الكتاب بما ذكر، وقال ﷺ في خطبته: (اكتبوا لأبي شاه)[1] رجل من أهل اليمن.

وكان عبد الله بن عمرو يكتب كل ما يسمع من رسول الله ﷺ، قيل فنهته قريش، وقالوا: «تكتب كل ما تسمع ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضى والغضب، فذكر ذلك للنبي ﷺ قال: فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: (اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ <مِنْهُ>[2] إِلَّا حَقٌّ)[3].

ويروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: «قلت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أ أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: (نعم) قلت: في الرضى والغضب؟ قال: (نَعَم، فَإِنِّي لاَ أَقُولُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلاَّ حَقاً)».

وفي الصحيح قيل لعلي كرم الله وجهه: «هل عندكم شيء سوى القرآن؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»[4].

وروي عن النبي ﷺ قال: (قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ)[5]. وروي ذلك عن عمر أيضا وابن عباس. وعن بعض السلف: «الكتاب أحب إلي من النسيان». وقال آخر: «يعيبون علينا

1- ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/1: 70.

2- سقطت من ج.

3- أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب في كتاب العلم. وأخرجه الدرامي في كتاب المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم.

4- جامع بيان العلم وفضله/1: 71.

5- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب من رخص في كتابة العلم.

الكتاب، وقال تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾[1]. وأوصى مالك بعض أصحابه عندما ودعه فقال: «أوصيك بتقوى الله في السر والعلانية، والنصح لكل مسلم، وكتابة العلم من عند أهله». وعن الخليل ابن أحمد: «اجعل ما تكتب بيت مال، وما في صدرك للنفقة». وكلام السلف في الترخيص في الكتاب، بل في التحريض عليه كثيرا <أيضا>[2].

وأما العقل، فإن الكتاب احتياط للعلم، عن أن يضيع بالنسيان، ويموت أهله، والوجه الذي احتيط به للقرآن فكتب في الصحف والمصاحف، يحتاط بها[3] للقرآن، ولولا الكتب المدونة لضاع كثير من العلم، ولولا التواريخ المصنفة لم تصل إلينا علوم الأقدمين، ولا عرفت تراجم الناس، وأما الذين كرهوا الكتب من السلف، كابن عباس وابن شهاب، والنخعي والشعبي وغيرهم، فكانوا عربا، والعرب قد أعطوا الحفظ، فكانوا يحفظون القصائد والخُطَبِ في مجامعهم وأنديتهم، ولا يستعيدونها، وقد حدث النبي ﷺ بخبر قُس بن ساعدة[4]، وأنه لقيه في سوق عكاظ وسمعه يخطب[5]، فحكى <ﷺ>[6] خطبته بوجهها، ثم قال مع شعر لا أرويه، فقال أبو بكر أنا أرويه إذ كان حاضرا معه، فأنشده بوجهه.

1- طـه: 52.

2- سقطت من ج.

3- ورد في ح: به.

4- قُس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب وشاعرها وحكيمها، أول من خطب على شرف واتكأ عند خطبته على سيف أو عصا. توفي نحو 23 ق. هـ. البيان والتبيين/1: 42-43 - الأعلام/5: 196.

5- ومما جاء في خطبته قوله: «... يا معشر إياد! أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر؟ يقسم قُسٌّ بالله قسما لا إثم فيه إن لله دينا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه». العقد الفريد/4: 215.

6- سقطت من ج.

187 وجلس نافع بن الأزرق إلى ابن عباس يسأله / عن مسائل، فإذا بعمر بن أبي ربيعة يجلس وهو شاب، فأنشد عمر قصيدته التي يقول في أولها:

أمن آل نُعْمٍ أنت غاد فمبكر[1] ❖

فقال نافع: «عجبا لك يا ابن عباس، الناس يضربون إليك أكباد الإبل ليسمعوا منك، وأنت تسمع الخنا من شاب من قريش، فقال ابن عباس: وأين الخنا؟ فقال: نافع أي في قوله في هذه القصيدة التي أنشدها:

رأيت رجلا أما إذا الشمس عارضت ❖ فيخزى وأما بالعشي فيخسر

فقال: ما هكذا قال، وإنما قال: «فيضحى وأما بالعشي فيخصر». فقال نافع: أكنت تحفظ القصيدة؟ فقال: لا، ولا سمعتها قط إلى الآن، ولو شئت لأعدتها عليك، فقال لِلّه أبوك فافعل، فأعادها ابن عباس كما هي، وفيها نحو ثمانين بيتا، فقال نافع: ما رأيت أروى منك، فقال ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر».

وتقدم قول الشعبي: «ما استعدت حديثا قط»، وكان إذا أراد أن يدخل إلى السوق سد أذنيه بالصوف خشية أن يسمع ما لا ينبغي، وكان يقول: «ما دخل أذني شيء قط فنسيته»، فلما انشرحت صدورهم بالإيمان والمعرفة ازدادوا حفظا إلى حفظهم، فلا يقاس بهم غيرهم، فالاحتياط هو الكتب، كما قيل:

العلم صيد والكتابة قيده ❖ قيد مصيدك بالحبال الموثقة[2]

ومن أعطي حفظا مع ذلك كان الفضل له، ومن لا فلا يضيع علمه ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[3].

1- وتمامه: أمن آل نُعْمٍ أنت غاد فمبكر ❖ غداة غد أم رائح فمهجر

2- بعده: ومن الجهالة أن تصيد حمامة ❖ فتتركها بين الأوانس مطلقة

3- البقرة: 265.

نعم، لا ينبغي لذي الهمة أن يتكل على الكتب، ولا أن يغـتر بكثرتهـا عنـده، فإنـه من خانه الفهم لما حفظ، لم ينفعه حفظه، ومن خانه الفهم والحفظ، لم تنفعه الدفـاتر، بـل تكون في مخزنه كالزرع وسائر المتاع، ولا يكون عالما بذلك، فأي شيء ينفع الجبـان، سـلاح محد، وإلا ميل جواد معد.

الفصل الرابع عشر: في ذكر آداب الكتب وما يتعلق بتحصيلها وضبطها ووضعها ونسخها ونحو ذلك

وفيه أمور: الأول: قد علمت أن الحفظ قد انتقص، بل قد ذهب في كثير من النـاس، وغلبة النسيان[1]، وأنه لابد من تقييد العلم بـالكتب، كمـا وقـع في الكتـاب، وكـان ذلـك في الحديث، وما يسمع، ثم صار في المصنفات، وصار العلم كلـه إلى الدفـاتر، إلا قليـلا، وصـار العالم هو ذو الملكة في تحقيق ما فيها، والخبرة بمظان ما يراجع منها، وأضحت الكتب آلـة لصاحب العلم، عالما كان أو متعلما، وسلاحا وخزانة، ومن لم تكن له كـان أعـزل، فينبغـي له حينئذ، وهو من أهم الأمور تحصيلها، إما بالملكية إرثا أو شراء أو هبة، وهي أولى، وإما بعارية، فإن تعذر الملك، لإعواز الثمن، أو إعواز ما يشترى، فلينسخ أو لينتسخ إن أمكـن، وهو أولى.

188 / وليحذر مكيدة الشيطان، وهي أن يسول له، أن طلب العلـم لا يكـون بغـير إعـداد مئونة كافية، وأن العلم لا يحصل من غير[2] كتب، فيتعاطى أسـباب الدنيـا، مـن تجـارة أو مشـارطة أو نحـو ذلـك، رجـاء أن يسـتحصل المـال، ليتمكـن بـه الطلـب وشـراء الكتـب واستنساخها، فيوشك حينئذ أن يتعوق عن العلم ويفوت الغرض عيـاذا بـا لله تعـالى، وذلـك

1- ورد في ج: فكثير من الناس غلب عليه النسيان.

2- ورد في ج: بغير.

بحدوث خمود في القريحة[1]، أو جمود في الفكرة، أو شهوة أخرى غالبة، أو ولع بالمال أو تحصيله، أو موت أو نحو ذلك من عوائق الناس، وقد مر شيء من هذا، وكذا النسخ قد يولع به، فيبقى فيه، حتى لا يحصل على طائل.

فالأولى لطالب العلم في بدايته، أن يرمي بنفسه في غمرات الطلب، ولا يلتفت إلى شهوات[2] نفسه، في مأكل ولا ملبس ولا منكح، ولا مركب ولا مسكن، ولا غرض ولا نحو ذلك، ولْيُعَوِّل على القسمة الأزلية، وأن ا لله تعالى من فضله موصل إليه الضروري من أموره، وأن يعتمد على السماع والحفظ والفهم، لا على الكتب، متكلا[3] على ا لله في أن يعلمه من فضله، وهو على ذلك قدير.

ثم إن كانت الكتب عنده حاصلة، أو أمكن استحصالها بغير تكلف، ولا تعوق عن شغل، فليأخذها وليطالع منها ما يقرب مدركه، وليدع منها ما هو عميق، ومشتت للفكر إلى وقته، فإن الكتب سلاح، وليس كل أحد يقاتل بغير سلاح، وإن تعذرت الكتب، فليحضر فكره، وليتق ا لله تعالى، ويتوجه إليه بصدق التوجه، وليثق حينئذ بفضل ا لله تعالى، وأنه لا يخيبه، وأنه إذا أعطي علما، فسيعطى كتبا.

ويقال في مثل هذا المقام: «إن الشجاع في المضايق، سلاح الناس كلها له، والفارس عند الغارات، خيل الناس كلها له، فمن نجب في العلم كتب الناس كلها له، وما أعوز منها، فا لله تعالى يغنيه عنه، وأن ا لله تعالى إذا أراد شيئا كان، وا لله تعالى من فضله، حقيق أن يكفي العالم أمر الرزق، وجماعة معه، كما وعد بذلك».

1- ورد في ج وح: بخمود القريحة.

2- ورد في ح: لشهوات.

3- ورد في ح: متوكلا.

{اختلاف أقوال الناس في إعارة الكتب}

وقد اختلفت أحوال الناس وأقوالهم في إعارة الكتب، فمنهم من كرهها صونا للكتب عن الضياع، وقديما[1] قيل: «آفة الكتب العارية»، ومنهم من يحض عليها، لأنها من التعاون على البر، والحق التفصيل، فمن كان أهلا لأن يُعْطى ويُعار، بظهور نجابة، وظهور صيانة للكتب، فينبغي أن يعار، وفي مثله يقال: «حبس الكتب عن أهلها من الغلول».

وقال رجل لأبي العتاهية: « أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك، فقال الرجل: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟، فأعاره»، وينسب للإمام الشافعي يخاطب محمد بن الحسن[2]:

189 / يا ذا الذي لم تر عين من رآه مثله ❖ العلم يأبى أهله أن يمنعوه أهله

ثم إذا وقعت العارية، فواجب على المستعير شكر المعير ومكافأته، ولو بالدعاء، وصيانة الكتاب المستعار، فلا يعرضه لتلف ولا فساد ولا هوان، كأن يفتحه فتحا فاحشا، أو تكون يده تلوثه أو توسخه بما فيها، أو يضعه على الأرض أو الحصير، أو ينظر حال غلبة النوم، فربما سقط من يده، أو على المصباح، أو سقط عليه المصباح أو زيته، أو يعرضه للندى أو للشمس، أو الدخان أو السارق أو الفأر، أو نحو ذلك من الآفات، كما قيل:

عليك بالحفظ دون العلم في كتب ❖ فإن للكتب آفات تفرقها

اللص يسرقها والفأر يخرقها ❖ والنار تحرقها والماء يغرقها

وأن لا يؤذيه بالتلوي عليه حين يريده، أو السعى به لظالم يأخذه، أو إفشاء ما عسى أن يجد فيه مكتوبا من أسرار مالكه، أو غيره.

وبالجملة، يجب أن يفعل فيه ما يفعله لنفسه، كما قيل:

1- ورد في ج: وقدما.

2- يعني محمد بن الحسن الشيباني (ت: 189هـ) صاحب أبي حنيفة النعمان، له رواية للموطأ.

أيها المستعير مني كتابا ❖ ارض لي فيه ما لنفسك ترضى

ومتى علم من نفسه، أنه عاجز عن القيام بذلك، لم تجز له الاستعارة، لأن مقدمة الحرام حرام، وكل هذا مطلوب منه في كتب نفسه، وكتب الأحباس، فإن حفظ المال واجب، وتضييعه حرام، والكتب إذا ضيعت كان فيها تضييع المال، وتضييع العلم.

الثاني: أن يستعمل الحزم عند اشتراء الكتاب، أو الاستنساخ منه[1]، أو استعارته[2]، بالاحتراز من أن يكون فيه فساد أو بتر أو رداءة خَطٍّ، لا يحصل معها الغرض، فلابد أن يتفقده بالتقلب، فإن أمكنته المقابلة فهي أولى بنسخة موثوق بها أو أكثر، وإن ضاق الأمر عن ذلك فليتصفحه أو يوكل به من يتصفحه، حتى يظهر حاله، ولو بالأمارات، كما قيل: «إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق أو إصلاح، فاشهد له بالصحة»، وليس على عمومه. وقيل: «لا يضيء الكتاب حتى يظلم»، أي بالإصلاح.

ونحن نقول: إذا لم تر فيه إلحاقا ولا إصلاحا فاشهد عليه بالفساد، وإذا ابيضت حواشيه، فلا بياض عنده، اللهم إلا كتب القدماء، الذين كانوا يأخذون الكتب رواية عن الأشياخ، ويعتمدون الضبط بلسان القلم، أما اليوم فقد وقع في الكتب من الفساد، ما لا يتدارك، لولا تفضل الله تعالى لحفظ دينه، وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين، وقد اعتنوا بشربة لبن أن لا يزاد فيها ماء، وخبزة أن لا ينقص منها وزن 190 / قيراط، وأهملوا الكتب التي هي قوام الدين، ومرجع الأمر كله.

{في آداب نسخ وتصحيح الكتب وما يتعلق بذلك}

الثالث: إذا اشتغل بالنسخ فليستعمل الآداب في ذلك، وهي أن يضع الكتاب المنسوخ منه، على مرفع ونحوه، لا على الأرض، ويفتحه بمقدار كما مر، وأن يكون على طهارة في

1- ورد في ج: والاستنساخ منه.

2- ورد في ج: واستعارته.

بدنه وثوبه، وأن يكون الحبر والورق طاهرين، وأن يكتب البسملة في أول الكتاب، فإن كـان الكتاب مبدوءا بها، أو بالحمدلة والصلاة على رسول الله ﷺ، فليكتب ذلك بعد مـع سـائر الكتاب، وإلا فليكتبه أولا، ثم يشتغل بعد بالكتب، وكلمـا انقضـى جـزء، حمـد الله تعـالى وصلى على النبي ﷺ، ثم كتب تم كذا ويتلـوه كـذا، حتـى يتـم كلـه، فيكتـب ذلـك بيانـا وإعلاما.

وكلما كتب اسم الله، فليتبعه بما ينبغي من التعظيم، نحو: سـبحانه، أو تعـالى، أو جل وعز، وكلما كتب اسم النبي ﷺ، صلى بلسانه وقلبه، سواء كان في الأصل أو لا، وكلما كتب اسم أحد من الصحابة، أو علماء الدين، وسـائر الصـالحين، ترضـى عليـه أو ترحـم، ويكمل الصلاة والسلام بالكتابة، ولو تكررت في السطر مرارا، ولا يختصـر كمـا يفعـل بعـض المحرومين، يكتب "صلع"، أو "صلم"، ولا يصلي على غير الأنبياء إلا تبعا.

الرابع: إذا نسخ فليجود الخط، وليجتنب الخـط الدقيـق، فإنـه سـيندم عليـه وقـت الكبر وضعف البصر، مع أنه من أسباب الضعـف، فـلا ينبغـي النظـر فيـه مـن أول وهلـة، وليكتب بالحبر فإنه أبقى، وليكن القلم محرفا من قصب[1] صلب، وليكن معه سـكين حـاد، لبري القلم ولبشر[2] الورق المكتوب.

الخامس: إذا صحح الكتاب بالمقابلـة، فلينقـط المعجـم، وليشـكل المشـكل، ويتفقـد مواضع التصحيف، وإن أدى استصلاحه إلى استعجامه، فليكتبه في الحاشية، وليكتب عليه لفظة بيان، وإن كان محتملا من جهة الشكل أو الاعجام، فلينبه في الحاشية، أو احتاج إلى شرح، أو تنبيه على فائدة أو تكملة، أو نحو ذلك، فليجعل ذلك كله في الحاشية، وليكتـب عليه حاشية، أو "ط" أي: طـرة، ومـا كـان مـن ذلـك مستغربا أو منكـرا، وهـو صحيـح في

1- ورد في ج: قلم.

2- ورد في ج: وليبشر.

الحاشية أو في المتن، فليكتب عليه صح، وليجعلها صغيرة، إن كانت في المتن، وإن وقع ما لا يدري، أصواب أم خطأ، فليكتب عليه كذا، وإن علم أنه خطأ، ولم يكن مما يصلح، فليكتب في الحاشية صوابه كذا والمحدثون يضيفون عليه، بأن يكتبوا "ضبا".

وإن وقعت زيادة، فإن كانت كلمة واحدة، فليضرب عليها بخط يجره عليها، أو يكتب عليها: «لا»، وإن كان أكثر أو سطر أو سطرين، فليكتب على أول كلمة: «لا أو من»، وعلى آخرها لا، أي منْ هاهنا إلى هاهنا، أو يضرب على الجميع، وإن تكررت الكلمة / سهوا، فليضرب على الثانية، لأن الأولى صواب، إلا أن تكون الأولى آخر سطر، فليضرب 191 عليها، حفظا لأول السطر الآخر، ما لم تكن التي في آخر السطر مضافا إليها، فليتركها لاتصالها بالمضاف، وإن سقط شيء أخرجه في الحاشية إن احتملت، ويسمى اللحَق بفتح الحاء، وأشار إليه من محله بخط لطيف، وليكن التخريج إلى جهة اليمين إن أمكن، وليكتبه إلى أعلى الورقة إن أمكن، ليبقى ما بعده نقيا، فإن وجد تخريجا آخر جعله فيه، ثم يكتب على ذلك صَحّ.

السادس: لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد، كما مر على كتاب يملكه[1]، ولا يكتب عليه صح، فرقا بينه وبين التخريج، فإن شاء كتب عليه حاشية، أو فائدة أو طرة كما مر، ولا ينبغي أن يكتب إلا الفائدة المناسبة للمتن، الذي عليه الحاشية، كبحث فيه أو تنبيه، أو عَزْو ناقل أو منقول عنه، أو تحليته أو ضبط بقلم اللسان، أو حكاية تؤيد المحل، أو نحو ذلك، وليحافظ على البيان، وليحذر الخط الرديء، وكثرة المحو والضرب، لئلا يظلم الكتاب، فيفسد أكثر مما يصلح، وأن الخط الحسن يبسط النفس، وينشط الفهم، ويزيد الحق وضوحا، وخطوط العلماء تكون غالبا رديئة، لاشتغالهم عن التصنع في الخط، بما هو أهم، غير أنها تكون سالمة من اللحن، متقنة مبينة، فتكون نافعة، وإنما البلاء مع الرداءة

1- ورد في ج: يكمله.

والفساد، ومن الخساسة أن يكون المتن بخط جيد مضيئا مرونقا، ويحشى عليـه بخـط رديء أو يضبطه ويشكله بذلك.

وكرهوا الكتب بين السطور، لأنه يظلم الكتاب، وهو كذلك، غـير أنـه إن تباعدت، وكان الشيء خفيفا، فلا بأس، ولاسيما بالحمرة، فإن معظم هذا الفصل، إنما هو أمور تليق، وتستحسن شرعا أو عادة، واللبيب يعرف ذلك، من غير توقف على نصوص.

السابع: لا بأس بكتابة الأبواب والفصول وسـائر التراجم، بلـون حمـرة أو صفـرة أو خضرة، وكذا كل ما يقع في خـلال الكـلام، مـن تنبيـه أو بحـث، أو سؤال أو جـواب، أو تنكيت أو فائدة أو لطيفة، أو رجوع أو رجع، أو نحو ذلك، لأنه أزيد في البيان، وفي حسن الكتاب، فإن لم يوجد غير الحبر، فليغلظ الخط ويمططه أكثر، ليعلم ذلك، وكذا بـين المـتن والشرح أو الحاشية، ولا بأس بالرمز بالحمرة أو غيرها، على مذاهـب أو أعـداد، أو أسمـاء رجال أو أقوال، أو نحو ذلك، غير أن ما لم يكن بينا من ذلك، فلابد للمؤلف أن ينبه علـى اصطلاحه فيه، في صدر التأليف أو خاتمته مثلا، وإلا فلا يجوز الرمز، الذي لا دليل عليه، وهذا كما نقول، إنه لابد من قرينة للمجاز، وللحذف من دليل.

الثامن: من المهمات تعظيم الكتـب واحترامهـا، فـلا يضعهـا علـى الأرض، ولا عنـد 192 / رجليه، أو تحت رأسه، والكتب كلها مشتركة في هذا المعنى، وإن كانت تتفاوت في شـدة الاعتناء ببعضها أكثر من بعض، وأن الكتاب لو فُرض أن يكون ما فيه غير حق، فقد بقيـت الحرمة للورق والحروف، ولا يضع عليها شيئا غيرها، إلا ما تصان به من فوق، وأما وضْـع بعضها على بعض، فيجب أن يكون أيضا بالتعظيم، فيجعل الأشـرف فـوق غـيره، وتقـدم بيان ذلك في الباب الثاني، وليحسن لها التجليد والأغشية، من غـير إسـراف، ولا يصطنـع الدفة من الورق المكتوب، فإنه من الإهانة.

الفصل الخامس عشر: في تصحيح الكتب بالمقابلة وإصلاح اللحن والخطأ في الحديث

اعلم أن القصد من الكتب، الاستفادة بالمراجعة، واستطعام ما فيها، كمخبر[1] يخبر وشاهد يشهد، فلابد أن تكون صحيحة موثوقا بها، وإلا لم تفد، ويراد بالصحة أحد أمرين: الأول، أن يوافق ما في نفس الأمر معنى أو لفظا. الثاني، أن يوافق ما قاله مؤلفه، فأما الأول فيكون بإصلاحه، إن وجد خطئا لفظا أو معنى، وإنما يكون بأيدي العلماء العارفين بذلك الفن، فإن كان المؤلف نفسه، فليصلحه حيث رأى في المتن أو خارجه، وإن كان غيره، فإنما يكون إصلاحه بتنبيه[2] في شرح، يوضع على ذلك المتن، أو التعليق، أو في طرة على المحل، بشرط أن يعرف خطه، وأنه فلان، وبشرط أن يكون الكل من أهل العلم، ولا يكون الإصلاح في المتن، إذ لا يُومَن الغلط أيضا على المصلح، ولأن ذلك يكون تخليطا ورفعا للثقة[3]، فلا يدري ما قاله المؤلف، وما قاله غيره، فالواجب أن يترك التصنيف [كله][4] بحاله، وينبه على ما فيه من خارج، ليبقى الكل معرضا للنظر.

وأما الثاني، فيكون بالمعارضة على أصل صحيح أو أكثر، ولابد أن تكون المعارضة ممن هو أهل، وكلما تكررت وتعددت الأصول قويت الثقة، بأن هذا هو ما قاله المؤلف، ويروى عن هشام بن عروة قال: « قال لي أبي: يا بُنَي، كتبتَ؟ قلت: نعم، قال: عارضتَ؟ قلت: لا، قال: لم تكتبْ»[5]. وقالوا: «الذي يكتب ولا يعارض، كالذي يدخل الخلاء ولا

1- ورد في ج: كمحتن.

2- ورد في ج: تنبيه.

3- ورد في ج: للثقتة.

4- سقطت من د و ح.

5- جامع بيان العلم وفضله/1: 77.

يستنجي»[1]. وقالوا: «لو عورض الكتاب مائة مرة، ما كاد يسلم من أن يبقى خطأ»[2]. وهذا كما يقال: «إن اللوح أو الكتاب ما يرتفع القلم عنه، كالمكلف».

ثم إذا اشتغل بالمقابلة، ففي أي محل وقف يكتب عليه بلغت، أي: المقابلة، والأولى أن تكون بين اثنين أو أكثر، وكل من تكون عينه[3] جوالة، أو نوامة، أو غفولا، فلا يعتد به، ومحل كل من النسخ والمقابلة والتصنيف الخلوة، والبعد عن الشواغل، «فطَنِين الذُّباب يشغل ذوي الألباب»، وإن كان الشاغل / باطنا، كجوع أو خوف، أو عشق أو تفكر في شيء ما، أو همٍّ ما، فلا تنفع الخلوة. 193

واختلف السلف في إعراب الحديث وإقامته على الصحة، إن وجد فيه لحن، فقيل لا بأس به، وذلك أن السلف المنقول عنهم، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لم يكونوا يَلْحَنُون، وإنما اللحن كان ممن[4] بعدهم، فإذا أزيل رجع الحديث إلى أصله، وهذا مذهب الشعبي والأوزاعي، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، ولهذا روي عن أبي الدرداء، أنه كان إذا حدث بحديث، وفرغ منه قال: «اللهم إن لم يكن هكذا فكشكله»[5]، وعن أنس ﷺ، كان إذا فرغ من الحديث قال: «أو كما قال ﷺ»[6]. وذهب قوم منهم نافع مولى ابن عمر، ومحمد بن سيرين، إلى أنه لا يبدل عما هو عليه، وهذا كالخلاف في نقل الحديث بالمعنى، ولا يخفى أن التبديل هنا أخف وأحسن منه هناك.

1- نسبه ابن عبد البر إلى يحيى بن كثير. جامع بيان العلم وفضله/1: 77.

2- نقله ابن عبد البر من كتاب المعرفة للحسن الحلواني. نفسه/1: 78.

3- ورد في ج: عينيه.

4- ورد في ج: فيمن.

5- جامع بيان العلم وفضله/1: 78.

6- نفسه/1: 79.

الفصل السادس عشر: في آداب المدارس في حق المتعلم والعالم لأنها مسكنهما غالبا ولا سيما المتعلم

وفي ذلك أمور: الأول، أنه لا ينبغي أن يسكنها، إلا بعد مراعاة ثلاثة أشياء: أحدها، استقامة الأمر فيها، بوجود بيت وتيسير الرزق وسائر المنافع. ثانيها، أن يكون المال الذي بنيت به، وما أجريت به منافعها طيبا[1]، فإن مراعاة المسكن لازم، كالمأكل والمشرب، ولأنه قد يأكل من أوقافها، فلابد من معرفة ذلك، وينبغي تجنب مباني الملوك إن أمكن، فإن تعذر نظر في ذلك، فالمعلوم بالعدل والاستقامة لا بأس به، وقليل ما هم.

ثالثها، أن يكون المدرس فيها أهلا لأن يؤخذ عنه العلم، وإن كان فيها مفيدا كان أهلا أيضا، وتقدمت آداب العالم في محالها، وآداب المعيد من ذلك النمط، وهذا إنما هو في المدارس التي تجعل للتعليم، وفيها مجالسها، فإن كانت لمجرد السكنى، كمدارس بلادنا، فإنما يعتبر الأمران الأولان، ومن سكن التقط العلم من حيث وجده.

{آداب وشروط ساكن المدرسة لطلب العلم}

الثاني: أن يتعرف أحكام المدرسة، وكلما شرطه الواقِفُ، ليقوم بذلك، فيسكن أو يترك، وإن أمكنه التنزه عن معلومها فهو أسلم، وإلا فليعرف أوصاف من جعل ذلك له، ليعرف أنه ممن يستحق ذلك أو لا ، فإن حصرها الواقف على قوم مخصوصين، أو جنس من الناس كالعرب أو العجم، أو كالفقهاء أو النحاة، أو كالشيوخ أو الكهول، لم يكن لغيره أن يسكن، فإن فعل كان متعديا ظالما، ولابد أن يعلم أن حكمة <بناء>[2] المدرسة، ووقف الأوقاف عليها، الإعانة على تحصيل العلم، أي إعانة / العالم على نشر ما عنده من 194

1- ورد في ج: حلالا.

2- سقطت من ج.

العلم، وإعانة المتعلم على طلب العلم وتحصيله، ليبقى العلم دائما، ويبقى الدين مستمرا، وليس بناؤها بالقصد لغرض آخر دنيوي، كمجرد السكنى أو الخزن أو التجارة، ولا ديني كالصلاة أو الصيام.

وعلى هذا المعنى يدور معظم الأدب والشروط، فمن ثبت له الوصفان أو أحدهما، كان أهلا في الجملة للسكنى، والانتفاع بمرافقها وأوقافها، ما لم يمنعه مانع، ومن لا فلا، كما أن لذي الأهلية الانتفاع، إن لم يكن وقف من بيت المال، أو كان وأمكن، أو من جماعة المسلمين إن لم يمكن، وليس المراد بالأهلية وجود الوصفين، أعني التعليم والتعلم في الصورة فقط، بل في المعنى، فإن فائدة التعليم استفادة الناس، ووصول العلم إليهم، وفائدة التعلم استفادة العلم، واستحصاله، فكل معلم في الصورة أو لا نتيجة له، لكونه لا تحقيق عنده، أو لا معرفة له بالصنعة، أو متعلم لا يحصل، لكونه لا فهم له، أو لا تفرغ، فهو لغو لا عبرة به.

وقد نص علماؤنا على أنه: «إن لم يكن بيت مال، أن يجمع الناس مالا ليرتبوا منه الجند، وحملة العلم، أعني فرض الكفاية، قالوا والذي يتعين عليه هذا العلم، هو من جاد حفظه، وحسن إدراكه، وطابت سجيته وسريرته، فمثل هذا هو الذي تجوز له الجائزة، ومن لم تكن فيه هذه الأوصاف، فلا يجوز له الأخذ، وربما كان طلبه العلم من باب العبث، باعتبار المصلحة التي ترجى، إذ لا تحصل عادة معه، ومعلمه يكون بطالا، ومتكلفا ما لا يطيق، وكل ذلك مذموم، ونص فقهاؤنا أيضا على أن من اتخذ المدرسة مسكنا للراحة ومخزنا، ولا يشتغل بالدرس ولا يحضر الحزب، أنه يخرج منها، ولا يجوز تركه فيها، قالوا وإنما يسكن المدرسة، من بلغ عشرين سنة فما فوقها، وأخذ في الدرس جهده، وفي حضور حزبها صبحا ومغربا، وحضور مجلس مقرئها، إلا لعذر مبيح من مرض ونحوه، ثم إذا سكن عشرة أعوام، ولم تظهر منه نجابة، أخرج منها جبرا، وليس له أن يختزن فيها إلا قوته، وما جرت به العادة في ذلك.

واختلف في لزوم الكراء، لمن خزن ما لا يجوز، وزاد على القوت، من طالب أو عامي، وتحديدهم بالعشرين عاما أخذا بالمظنة، والعلة هي الريبة وخوف الفتنة، وذلك قد يكون بعد العشرين، وقد ينتفي دونها. وقال بعضهم الأولى أن لا يسكن المدرسة وسيم الوجه، ولا صبي ليس معه ولي فَطِنٌ، وأن لا يسكنها النساء، في أمكنة ترى الرجال على أبوابها، أو لها كُوَى تشرف منها على ساحة المدرسة» انتهى.

195 وهذه إطلاقات، فوسيم الوجه إن / كان أمرد، فالواجب تجنبه، وإلا فتحجير حَرَج والصبي تبقى فيه فتنة النظر[1]، وإن كان معه ولي، فلابد من نظر الحاكم باجتهاد، وقد يقال إن بيوت المدرسة كالديار، فكما لا يطرد جار عن جاره، مما يخشى من الفتنة، كذلك ها هنا[2]، وقد يفرق بوجود الاتساع في الديار ووجود الوزعة[3]، بخلاف المدرسة. ولأن المدرسة ملحوظ فيها غرض الواقف، ومعلوم أنه لا يحب إلا المصلحة، ولأن غالب سكان المدرسة الأعراب، وهم محل الفتنة غالبا، فتراعى فيهم المظنة، ويحتاط لأجلها.

ولا يجوز لمن انقطع عن العلم، وحضور مجالسه، وتجرد للعبادة، سكنى المدرسة، إذ لم تحبس لذلك، وإنما حبست لطلب العلم، مع عبادة لا تشغل عنه، كما أن العكس كذلك، وهو أن الرباط لا يسكنه المشتغل بدرس العلم، وإنما هو للمريدين، إلا أن يكون ذلك في التحبيس، ولو وُقِف وَقْف على الغرباء فقط، ولم يُوجَدُوا دُفِع لغيرهم، ويتخرج على هذا الفرع ما يشبهه، كأن يوقف على جنس ولم يوجد.

الثالث: أن يحترم أهل المدرسة، فيعرف لهم حقهم، ويسعى في جبر خواطرهم ما أمكن، ويشكر محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، ويتحَرَّز عن إذايتهم، بفعل أو قول،

1- ورد في ج: الناظرين.

2- ورد في ج: هنا.

3- الوزعة: جمع الوازع: أعوان الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

كالجلوس كثيرا بباب المدرسة، وكلما هو طريق أو مشرع، فإن فيه مع كونه بطالة فتنة للنظر والسمع، وإذاية لمن يمر، ولا يريد هو أو وليه أن يرى أو يسمع، وكالمشي الحافي والصوت الجافي، وهذا كله غير مختص بأهل المدارس، فالعبد مطلوب منه التقوى، وحسن الخُلُق، أينما كان، فكل ما يذكر في المدرسة من التوقي عن الإذاية، وحسن الخلق، داخل في هذا المعنى.

الرابع: أن يختار لجواره أحسن الناس خلقا، وأتقاهم وأكثرهم إعانة وتحفظا، ليحظى بخيره ويسلم من شره، وليتطبع بطبعه، فإن الطِّبَاع تَسْرِق الطِّبَاع، ويتعلق بهذا المعنى البحث في الوضع، أي في وضع الناس في السكنى، فإنه لا ينبغي لأهل الحُكْم أن يغفلوا عن ذلك، إذ من الناس من يليق به صدر المدرسة، كالمتصدرين للمصالح، من تدريس أو فتوى، أو نظر أو رعاية، ونحو ذلك، ومن يليق به المضيء، كأهل النظر والنسخ، ومن يليق به العلو، كأهل المدن والقرى المتفرقين في المشي والتصرفات، ومن يليق به أسفل، كأهل البدو، ومن يليق به البعد عن مسجدها ومواضع درسها، كأهل الأصوات المرتفعة / بتلاوة القرآن مثلا، وغير ذلك، فينزل كل في المحل اللائق به وبالحُبُس. 196

الفصل السابع عشر: في ذكر جمل وجيزة في مدح العلم والعالم والمتعلم

جمعها بعض الأدباء، ووضعناها لاشتراك الأبواب الثلاثة فيها، كما أن الفصول الثلاثة قبل هذا أيضا كذلك، وتقدم بعضها في الأبواب، ومنها حديث، ومنها حكمة، وهي هذه: (اغد عالما أو متعلما، ولا تكن الثالث فتهلك)[1]. «العلم خير من المال، لأن العلم

1- حديث ضعيف الإسناد. أخرجه البزار في مسنده: 134. والطبراني في الصغير: 332.

يحرسك والمال تحرسه، والعلم حاكم والمال محكوم عليه» (العلماء ورثة الأنبيـاء)[1]. «العلـم أكثر من أن يحاط به، فخذوا من كل علم أحسنه». «قيمة كل إنسان فيما يحسن».

قلت وهذه مروية عن الإمام علي كرم الله وجهه، وأنه قال في خطبة خطبها: «واعلم أن الناس أبناء ما يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن، فتكلمـوا في العلـم تتبـين أقداركـم»، قيل ولم يسبق إليها. وقال بعضهم: «ليس كلمة أحض على طلـب العلـم منهـا»، و«لا كلمـة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين، من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئا».

وقول الشاعر في معناه:

لم يدع من مضى للذي قد غبر ❖ فضل علم سوى أخذه بالأثر

وقد نظم الناس كلمة علي إعجابا بحسنها.

فمن ذلك قول الشاعر:

لا يكـون السري مثل الدنـــي ❖ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبـــي

قيمة المرء كل ما يحسن المـــر ❖ ء قضاء من الإمـــام علـــي

غيره:

يلوم علي أن رحت للعلم طالبا ❖ أجمـع مـن عند الرواة فنونــه

فيا لائمي دعني أغالي بهمتـــي ❖ فقيمة كل الناس ما يحسنونــه

غيره:

تأمـل بعينـك هـــذا الأنــام ❖ وكـن بعـض مـن صانـه عقلـه

فحكمـــة كـل فتـــى فضلــه ❖ وقيمـة كـــل امــرئ نبلـــه

فـــلا تتكـــل في طلاب العـــلا ❖ علـــى حســـب ثابـــت أصلـــه

فمــا مـــن فتى زانــه قولـــه ❖ بشـــيء يخالفـــه فعلـــه

1- أخرجه الإمام أحمد في مسنده وابن عبد البر في جامعه/1: 169.

«الحكمة ضالة المؤمن»[1]، «الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك»[2]، «شكر العالم على علمه، أن يبذله لمن يستحقه»، «كل شيء يعز حين يندر، والعلم يعز حين يغزر»، «العلم مثل السراج من قربه / اقتبس منه خيرا»، «العلم ما نفع»، «العلم نور الدين»، «هلاك العلم بالجهال، وهلاك الجهال بالعلم»، «علامة العلم التصرف في كل معنى»، «لا عدو أضر من جهل»، «لا يستغني الإنسان عن العلم، حتى يستغني عن الحياة»، «بالعلم تعرف النعمة، وبالمعرفة تشكر، وبالشكر تستحق».

197

«العلم ثمرة الطلب، والطلب ثمرة التوفيق»، «أفضل العلم وقوف الرجل عند علمه»، «عمل قليل في علم، خير من كثير في جهل»[3]، «ما تعلمه ولا تعمل به، لغيرك نوره، وعليك بوره»، «فضل من وعى العلم على من علمه إياه، كفضل لبس التاج على من صاغه، فإن زينة التاج للابسه، وحض صانعه الدخان وحمل المطرقة»، «إن الرجل يطلب العلم لغير ا لله، فيأبى العلم أن يكون إلا لله، حتى يرده إلى ا لله»[4]، «النظر إلى العالم عبادة»، «العلم بصر والجهل عمى»، «تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة»[5]، «الناس موتى إلا العلماء»، «إذا استرذل ا لله عبدا، حظر عنه العلم والأدب».

1- تنسب إلى علي بن أبي طالب.

2- تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي.

3- تنسب إلى الحسن البصري.

4- ينسب إلى معمر.

5- ينسب إلى معاذ بن جبل.

«كاد العلماء يكونون أربابا»[1]، «كل عز لم يؤكد بعلم فإلى الذل يصير»[2]، «لا غنى عن علم الفرائض والنوافل، وعلم الفرائض أولى»، «ما ازداد أحد علما إلا ازداد على العلم حرصا»[3]، «منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال»[4]، «العلم منار سبل أهل الجنة، والأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والزين عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء»، «أربعة يسود بها العبد: العلم والأدب، والفقه والأمانة»، «أقرب الأشياء من الله العلم».

«يرفع الله بالعلم أقواما، فيجعلهم في الخير قادة، وأئمة، تُقْتَص آثارهم ويقتدى بأفعالهم»، «العلم يرفع الخسيسة ويتم النقيصة»، «الناس مع العلماء، كالأيتام في حجور الأوصياء»، «العلم حافظ العمل من التقصير والغلو»، «جفاء العلم ترك العمل به والتعليم له»، «هلك خُزَّان المال وهم أحياء والعلماء باقون أعيانهم مفقودة وأمثلتهم في القلوب مشهودة»، «ليس من جملة العلم لقن غير مأمون، يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا، ويستظهر بنعمة الله على أهل دينه، ولا ينقاد لأهل الحق»، «العلماء غرباء، لكثرة الجهال بينهم»، «علم بلا عمل كشجرة بلا ثمر»، «موت العالم كانكسار السفينة، تغرق ويغرق معها خلق كثير»[5].

قلت: هذا كقول الشاعر:

لعمرك ما الرزية فقد مال ❖ ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية موت نفس ❖ يموت بموتها بشر كثير

1- ينسب إلى الأحنف.

2- ينسب إلى الأحنف.

3- ينسب إلى حسان بن عطية.

4- ينسب إلى ابن عباس.

5- ينسب إلى الحسن البصري.

198 / غيره:

فما كان قيس هلكه هلك واحد ❖ ولكنه بنيان قوم تهـــدما

عليك سلام ا لله قيس بن عاصم ❖ ورحمته ما شاء أن يترحمـا

«العلم من ا لله وله»، «من حجب ا لله عنه العلم عذبه على الجهل»، «الشبهة آفة العلم».

خـــاتمــــة:

تشتمل على فوائد:

الأولى: في ذكر بقية من الكلام في حكم التعليم، فاعلم أن ثمرة العلم عند العالم العمل به، والعمل قسمان: عيني كصلاته وصومه، وكفائي نفعا للعباد، وقد يتعين هذا كما إذا لم يوجد من يقوم به غيره، فإن كان كفاية، فقد مر[1] أن الاشتغال بـه مـع صحـة القصـد، أولى من عبادة أخرى لا تتعدى، ولا سيما مع كثرة الجهل في العامـة، وهـذا بحسـب الظـاهر، وإلا فالمعرفة لمن فتح لـه منهـا أعلـى، وإذا كـانت أعلـى كـان سـببها مـن التجـرد والعزلـة والرياضة أولى، ولابد من النظر في هذا.

{أيها أفضل العلم أم المعرفة}

وكنت أيام صحبة أستاذنا الإمام أبي عبد ا لله بن ناصر رحمـه ا لله تعـالى، تنـازعني نفسي إلى التجرد والسياحة، وترك التعليم، وكان لا يرى ذلك، فقلت له يوما: أيها أفضـل العلم أم المعرفة؟ قال: «المعرفة، فقلت له: فلم لا نشتغل بأسبابها؟ قال: المعرفة قسمة، مـن قسم له شيء يأتيه، وما رأيت[2] في هذا الزمان أفضل من تعليم العلم».

1- ورد في ج: فقد تقدم.

2- ورد في ج: رأينا.

وكنت مدة بمدينة فاس، أيام رشيد بن الشريف، فكنت أدرس وآخذ الجوائز، وأركب إليه وآكل من طعامه[1]، وألبس كغيري، فضاقت نفسي من ذلك، وهممت أن أفر بنفسي، وأسيح في الأرض، وأدع العيال لخالقهم جل وعلا، فذكرت ذلك لشيخنا أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي، فقال لي: «لو كان ذلك بحالة صحيحة أمكن، ولكن يخشى أن تكون فيه شهوة، فلا تربح فيه»، فأمسكت عن ذلك[2]. ومعنى ما أشار إليه، أن العبد إذا تحرك لله تعالى[3]، كان عبدا لله تعالى، فأعانه وكفاه، وإذا تحرك لنفسه كان عبد نفسه، فيوكل إليها ويهلك معها.

وبسط[4] هذا الكلام، أن العبد إذا تحرك لأداء فريضة تعينت شرعا، أو ترك محرم، فقد علم أنه تحرك لله، لأن الله تعالى هو الذي حتم عليه ذلك الفعل أو الترك، وإذا تحرك إلى حالة لا يظهر وجوبها شرعا، ولكن يراها أفضل من حالته الوقتية، فهو لا يدري أباعثه أمر الله، وهو كونه تعالى طلب منه الحالة الفضلى، وإن لم يكن وجوبا، أم باعثه شهوة نفس، فيكون عبد نفسه.

ومثال ذلك في هذه الصورة أن يقال: مريد الخروج إلى السياحة، يحتمل أن يكون باعثه[5] كراهية الدنيا وأهلها، ومحبة المولى والرغبة في الجلوس بين يديه بلا علاقة، / أو نحو هذا من المقاصد الحسنة، فيكون تحركه لله، فيكون عبدا لله سبحانه، ويحتمل أن يكون الباعث والموجب لضيق النفس، إنما هو غلظ النفس وكفرها والأنفة من التذلل لغيره، 199

1- ورد في ج: متاعه.

2- ورد في ج: فلا تربح فيه فأمسك عن ذلك.

3- ورد في ج: إلى الله تعالى.

4- ورد في ج: ونبسط.

5- ورد في ح: خروجه.

والدخول تحت حكمه، فيكون قد خالف الشرع ظاهرا بـترك عيالـه بـلا قيـم، وهـرب عـن طاعة من وَلاَّه ا لله تعالى، واشتغل بالاعتراض عليه بالتكبر عليـه، وهـو اعـتراض علـى ا لله تعالى، فيستوجب المقت من ا لله تعالى، وهو يظن أنه يسعى في القرب وهكذا.

فمن هذا احتاج الناس إلى الشيخ المربي، يكون خليفـة ا لله تعـالى علـى المريـد، فـإذا تحرك بإشارته تحرك با لله، كالمتحرك للفرائض، والأمر أمر ا لله، فمن أراده بشيء كان له. فمثال العارف والعالم مثال عبدين لِلمَلك، أحدهما قريب يقوم على رأسه وبـين يديـه، وهـو متفرغ للقيام بحقوقه والأدب معه، والآخر متصد[1] لمصـالح الرعيـة، فـالأول أشـرف منزلـة، والثاني أكثر مصلحة، وكل منهما أدبه القيام بما أقيم فيه، فمن أُقِيم في الحضرة أو جُعِل له السبيل إليها، وطلب المصالح، استحق المقت، وكان كالعبد الذي اختار الولاية عـن مجلـس سيده فسم، وقصته مشهورة[2]، وكذا العكس، واللبيب الموفق يفهم ما أريد به، فيقبله بقلـب منشرح، فالعالم متى رأى العلم يتعطل لعدم من يقوم به، والناس يقعـون في الجهـل، تعـين عليه الاشتغال به، وإلا فإن قوي باعثه إليه، ولم يتحقق آفة من قبل نفسه، وصـادف أهلـه فليشتغل أيضا، فإن ذلك يرجى أن يكون آفة على كونه مطلوبا به، وليتعوذ با لله من شر ما عسى أن يخطر له من خواطر السوء في خلال ذلك.

وليعلم أن النفس لا تغفل أبدا، عن أن تـأخذ نصيبهـا مـن كـل شـيء، وإن لم يجـد باعثا قويا عليه، ولا على غيره، فالاشتغال أولى تفاديا من البطالة، وحرمان مـا يرجـى مـن الخير، ولو لم يكن الادعاء الْمُتَعَلَّم والمتعلم [علـى المتعلـم] [3]، وهلـم جـرا، فهـو خـير كثـير، ويعذر العالم في عدم الجلوس بمانع من مرض وخوف ونحـو ذلـك، أو اشتغال بكسب إذا

1– ورد في ج: متصدر.

2– ذكرها ابن عطاء ا لله والشطيبي وغيرهما.

3– ساقط من د.

أعوزته ضرورياته، ولم يجد حقا يكفيه من بيت المال، ولا من جماعة المسلمين، ولا حُبس، أو عدم وجود أهل التعلم، فقد مر «لا توتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[1].

وقال القائل في ذلك:

أَأَنْثُر دُرا بَيـن سَائِمـة الغَنَـم ❖ أم أنظمه نظما لمهملة النعم

ألم ترني[2] ضيعت في شر بلدة ❖ فلست مضيعا فيهم درر الكلم

فإن يشفني الرحمن من طول ما أرى ❖ وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

200 / بَثَثْتُ مفيدا واستفدت مودة ❖ وإلا فمخزون لدي ومكتتم

فمن منح الجهال علما أضاعه ❖ ومن منع المستوجبين فقد ظلم[3]

وقال الآخر:

وإذا حملت إلى سفيه حكمة ❖ فقد حملت بضاعة لا تنفق[4]

وقال الآخر:

قالوا نراك كثير الصمت قلت لهم ❖ ما طول صمتي من عَي[5] ولا خَرس

لكنه أحمد الأشياء عاقبة ❖ عندي وأيسره من منطق شكس

أأنشر البر فيمن ليس يعرفه ❖ أم أنثر الدر بين العُمْي[6] في الغلس

وقال صالح بن عبد القدوس:

1- تنسب إلى عيسى عليه السلام.

2- ورد في ج: تراني.

3- جاءت هذه الأبيات في كتاب الإحياء من غير أن تنسب لقائلها، وهي للإمام الشافعي.

4- ينسب لصالح بن عبد القدوس، كما يروى لسابق البربري. جامع بيان العلم وفضله/1: 111.

5- ورد في ج: عَمًى.

6- ورد في ج: عُمْي.

وإِن عَنَاء أَن تُفْهِم جَاهِلا ❖ فيحسب جهلا أنه منك أفهم

متى يبلغ البنيان يوما تمامه ❖ إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهي عن شيء من أتى به؟ ❖ إذا لم يكن منه عليه تندم

وقال أيضا:

لا توتين العلم إلا امرءا ❖ يعين باللب على نفسه

غير أن الأهلية كما مر، مرجعها إلى أن يرجى للطالب حصول علم نافع، فذلك أمران: أحدهما، رجاء الحصول، فلو لم يُرج له بحسب العادة الحصول، بأن يكون كزاً فَدْماً[1]، لا يسمع ولا يعقل فلا يشتغل به، لأنه يكون معه كالناقب في الصخور الملس، وكالراقم على الماء، فهو تضييع زمان، وتكليف ما لا يطاق، والواجب في حق هذا أن لا يتصدى لطلب العلم، بل يسمع ما طلب به على العين، ثم ينصرف إلى عبادة ينتفع[2] بها، أو سبب ينتفع به هو والمسلمون، وحق المعلم إن كان هذا الموصوف[3] وحده أن ينصحه، فإن قبل ذهب وإلا تركه واشتغل بما هو أهم، وإن كان معه غيره ممن هو أهل، فعلى المعلم الاشتغال ونصح هذا المذكور، فإن لم يذهب كان قصده من هو أهل، ولا عليه في هذا، وينشد بلسان حاله:

عليَّ نَحْت المَعَاني مِن مَعَادِنِها ❖ وَمَا عليَّ إذا لم تَفْهَم البَقَر

ثانيهما: كون العلم المرجو حصوله نافعا، بأن يقصد الطالب ا لله <تعالى>[4] فينتفع بما حصل، وينفع المسلمين، فلو ظهر منه غير ذلك، بأن يكون ذا نفس خبيثة، يطلب

1- الفدم جمع فدام: العيي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم.

2- ورد في ح: يشفع.

3- ورد في ج: الوصف.

4- سقطت من ج.

العلم ليتعلى به على الأقران، ويعظم به في مجالس السلطان، ويستميل به وجوه الرجال والنسوان، أو نفس خسيسة، / يطلب به مجرد المعاش، والاستعانة [به][1] على خطوب 201 الزمان، فهو كالأول، غير أن هذا لا يكاد يعلم لخفاء المقاصد، ولئن قام عليه سوء الظن، من كلمة تسمع، أو فعلة ترى، ليعارضنه حُسن الظن من جهة إسلامه وإيمانه با لله تعالى، ومن جهة ما يرجى له من حسن الحال، ببركة تعاطي العلم، حتى يصلح منه ما فسد، ويكمل ما انتقص، فلا ينبغي أن يصرف مثل هذا عن العلم،

اللهم إلا أن يظهر خبثه ظهورا بينا، فينبغي حينئذ صرفه وحده أو مع غيره، إذ يخشى منه أن يفسد الرفقة كلها، فإنه شيطان، وهذا كله مع الإمكان، ولابد أن يكون الصرف في الوجهين بوجه لطيف جميل، فإن ذلك شاق على النفوس، فإنه ما من أحد إلا وهو يحسن الظن بنفسه، ويرى أنه أهل لكل ما يروم، إلا القليل، وشروط النصح وتغيير المنكر معلومة.

{بقية الكلام في حكم المتعلم}

الثانية: ينبغي للمتعلم أيضا أن ينظر في حال نفسه، عند إقدامه على التعلم، فإن رأى من نفسه قابلية للعلوم كلها، فليتلجج في بحارها على الترتيب اللائق، وليأخذ ذلك من معلمه، ملقيا إليه قياد الاستسلام، ليقوده قودا سهلا صالحا، وإن رأى في نفسه قابلية لفن دون آخر، فليترك الذي لا يقبله، وليشتغل بما يجد عليه من نفسه إقبالا، ومن قلبه إدراكا، وليحذر مغالطة نفسه، بأن يظن بها القابلية، مع عدم ظهور آثارها، كما يجوز أن يدخله خَوَرٌ عن الإكباب على العلم، واستقصار لنفسه وهما واستكثارا للعوائق والآفات،

1- سقطت من د و ج.

وسوء الظن با لله تعالى، فيفر وينقطــع، وليعلــم أن بــاب ا لله تعــالى مفتــوح وخــيره ممنــوح، والصبر مقدمة الفتح كما قيل:

لا تيأســـن وإن طالـــت [1]مطالبـــة ❖ إذا استعنـــت بصبـــر أن ترى فرجـــا

اخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ❖ ومدمن القـــرع للأبـــواب أن يلجـــا

ومتى أشار عليه معلمه بأن اِفْعَلَ أَو أُتْرُكْ قلــده، لئــلا يحســن الظــن بنفســه، ويتــهم شيخه بالغلط، فذلك الحرمان، وليعلم أن ما ذكرنا من القابلية وعدمها، هو بحسب العادة، والنظر إلى فطرة ا لله التي فطرها في كل مخلوق، ومعلوم أن ا لله تعالى قادر أن يخــرق ذلــك، فهو حاكم على العادات، لا هي حاكمة عليه، فقد يفتح المقفل، وينبه المغفــل، ويكــون مــن أسباب ذلك طول اللجإ إلى ا لله تعالى، بصدق توجه وطاعة الأشــياخ واحــترامهم، وخدمتهــم بالنفس والمال، وزيارة أهل ا لله.

كما قيل:

زيارة أرباب التقى من هم يبـري ❖ ومفتاح أسباب السعادة والخير

{رجال التصوف المشهورين بالمغرب}

وقد توجه الحافظ التادلي إلى مدينة فاس، لطلب العلم ومعه بضاعة من أبيه، ومكــث فيه زمانا، / فلم ير من نفسه قابلية، فرجع إلى أبيه وأتاه بالبضاعة، وقال: « يا أبــت إنــي لم أر من نفسي شيئا، فخذ مالك لا أفسده لك في غير فائدة» ، فذهــب بــه أبــوه إلى ولي ا لله في الوقت، ويقال هو الشيخ أبو يعزى[2]، فاشتكى عليه، فيقال أنه دعا له أن يحفظ المدونة، 202

1– ورد في ج: محاولة.

2– الشيخ أبو يعزى يلنور بن ميمون قال قوم: «إنه من هزميرة إيروجان، وقيل من بني صبيح من هسكورة، وقد أناف على 100 سنة، ودفن بجبل إيروجان عام 572 هـ. التشوف: 195 – المحاضرات/1: 101.

كما حفظها سحنون بن سعيد، فكان من أمره ما كان. وقد جمع في رد المال أمورا صالحة، هي عنوان السعادة، كالتقوى وبر الوالدين، ومعرفة النفس وترك الدعوى، والتواضع واحتقار النفس، واتباع الحق ومجانبة الهوى، وتفقد الأحوال إلى غير ذلك.

وقد ثبت الانتفاع على أيدي الصالحين أحياء وأمواتا، وممن اشتهر منهم في بلاد المغرب، كما قال أبو العباس زروق، الشيخ أبو العباس السبتي[1]، والشيخ أبو يعزى، والشيخ أبو مدين، رضي الله عن جميعهم.

وأما ترك المعلم للتعليم أو المتعلم للتعلم، بسبب الاشتغال بالباطن، أو هجوم حال شاغلة، فإن كان الحال مغيبا، بحيث انتفى حكم الصلاة والصوم وغيرهما، فانتفاء التعليم والتعلم حينئذ أحرى، وإن لم يبلغ ذلك وجب النظر والحذر من الغلط، إن لم يقع الأمر على يد شيخ مُرَبٍّ، فإن الأمر مخطر كما قررنا أولا، وقد يكون صوابا كما وقع للشيخ أبي حامد والشيخ أبي الحسن الشاذلي، وغيرهما من مشايخ الإسلام، رضي الله عن جميعهم، وقد يكون غلطا نعوذ بالله من الغلط.

الثالثة: في تفصيل الناس بحسب الانتفاع بهدي الله تعالى، في الصحيح عن النبي ﷺ: (مَثَل مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْث الكَثِير أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا نَقِيَّة أَو بُقعَة طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ وَكَانَت مِنْهَا بُقْعة أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وكَانَت مِنْها طَائِفَةٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)[2]، وفي لفظ البخاري (فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ

1- هو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، ازداد (سبتة 524 - مراكش 601 هـ) دفن بباب تاغزوت. التشوف: 417 - الإعلام/1: 234.

2- أخرجه مسلم بألفاظ مغايرة في الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدي والعلم.

الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَـرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَـنْ فَقُهَ الخ)[1].

وحاصل التقسيم أن الناس أربعـة: وذلـك أن مـن سمـع الهـدى، إمـا أن ينفعـه ا الله وينفع به، وإما أن ينفعه ولا ينفع به، وإما أن ينفع به ولا ينفعه، وإما ألا ينفعـه ولا ينفـع به. فأما الأول: فهو العالم العامل المعلم للخير، وهو خـير / النـاس، ومثالـه الأرض الطيبـة 203 تشرب المياه الغزار فتنبت الأزهار والثمار. وأما الثاني: فالعالم العامل غير المعلـم ولا مقتـدى به، ولابد أن يكون ذلك لعذر، من مرض أو حبس، أو انقباض عن الخلق لموجب، أو نحو ذلك مما يبيح الخروج عمن يريد الانتفاع، وإلا كان عاصيا بتضييع حقوق الناس، فلا يكـون عاملا، ومثال هذا الأرض السبخة، تشرب الماء[2] ولا تمسك ولا تنبت.

وأما الثالث: فهو الذي انتفع الناس بعلمه، ولم يعمل به هو، وإنما صـار صحيفـة أو صندوقا، ولا مثال لهذا في باب الإنبات، لأن إنبات الأرض للكلام ملزوم لشربها الماء عـادة، ولكن في الانتفاع بالشرب، مثاله الصخرة التي تمسك الماء في بطنهـا، فالنـاس ينتفعـون بمـا أمسكت ولا تنتفع، ومن أخذ العلم ولم ينتفع به، فكأن لم يأخذه. وأما الرابـع: فهـو الـذي لم يتعلم ولم يعلم، ومثاله الصخرة التي لا تمسك ماء، فلا شاربة هي ولا تشرب.

الرابعة: في ذكر التفقه في الدين، في صحيح البخاري عـن حميـد بـن عبـد الرحمـن قال: سمعت معاوية خطيبا يقول: سمعت رسول ا الله ﷺ [يقول][3]: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَـيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ

1- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: فضل من عَلِمَ وعلَّمَ.

2- ورد في ح: المياه.

3- سقطت من كل النسخ، والزيادة منا لأن السياقة يقتضيها.

مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)[1]. وفي الصحيح أيضا عن جابر[2]، قال: قال رسول الله ﷺ: (النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)[3].

وعن أبي هريرة قال: (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَن أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ أَتْقَاهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ «يعني يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا)[4].

فالحديث الأول، يقتضي أن كل من أراد الله به الخير يفقهه في الدين، وينعكس بالنقيض الموافق إلى قولنا: كل من لم يفقهه الله في الدين، فهو لم يرد به الخير، وتستلزم السلب، ثم لا يكون المراد به خير الدنيا، لحصول معاشها وجاهها[5] فقط، لأن اليهود والنصارى لم تفتهم الدنيا، ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بهم خيرا، فوجب أن يكون الخير هو الأخروي، إما مع اعتبار الدنيا معه أو لا، والثاني يقتضي أن الفقه شرط في الفضل والشرف والكرم، والظاهر أن السائلين سألوا عن كرم الدنيا، إما مع اعتبار الأخرى معه أو لا، إذ لو كان مرادهم الأخرى، لاكتفوا بالجواب الأول أو الثاني، / فقد حصل من 204 مجموع الحديثين، أن الفقه مناط الخير والفضل والشرف دنيا وأخرى، وناهيك بذلك درجة للفقه.

1- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

2- في الصحيحين الحديث مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه وليس عن جابر رضي الله عنه.

3- أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾. وأخرجه أحمد عن جابر في باقي مسند المكثرين.

4- سبق تخريجه في نفس الكتاب ونفس الباب.

5- ورد في ج: وجانبها.

الخامسة: في ذكر بقاء عمل العالم بعده، عن أبي هريرة قال: قال رسول ا الله ﷺ: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ أَو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ أَو وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)[1]، وفي رواية أخرى (ثَلَاثٌ تَتْبع المُسْلِم بَعْدَ مَوْتِه صَدَقَةٌ أَمْضَاهَا يَجْرِي لَهُ أَجْرُهَا وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ وَعِلْمٌ أَفْشَاهُ يُعْمَلُ بِهِ بَعْدَهُ)[2]. وقد مر هذا كله في الباب الثاني.

وقال أئمتنا: ينبغي لطالب العلم أن ينوي أن لا يتعلم مسألة، إلا علمها من هو أهل لها، وأن لا يعلم مسألة إلا نوى التوصل بذلك، إلى أن يعلمها كل من هو لها أهل، فيكون المنوي في الطرفين عددا لا يعد ولا يحصى، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[3].

السادسة: في ذكر انفراد المعلم والمتعلم بالشرف عن سائر الناس، وأنهما شريكان في الأجر، وقد وقع ذلك في كلام علي كرم ا الله وجهه، في وصيته لكميل بن زياد[4]، «وأن الناس ثلاثة: عالم، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق»[5]، وعن النبي ﷺ قال: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ فِيهَا مِنْ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالى)، أو آوى إلى ذكر ا الله، و(الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ). وفي رواية أخرى عنه ﷺ: (الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالَاهُ أَوْ مُعلِّم أَوْ مُتَعَلِّم)[6].

1- سبق تخريجه في ص: 362.

2- أخرجه الدارمي في كتاب المقدمة، باب : البلاغ عن رسول ا الله ﷺ وتعليم السنن.

3- البقرة: 105 - آل عمران: 74 - الأنفال: 29 - الحديد: 29/21 - الجمعة: 4.

4- هو كميل بن زياد (12 - 82 هـ) من التابعين الثقات، صحب علي ابن أبي طالب وشهد موقعة الصفين، وسكن الكوفة، وروى الحديث، قتله الحجاج. الأعلام/6: 93.

5- روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. جامع بيان العلم وفضله/1: 145. والصفوة لابن الجوزي.

6- أخرجه ابن ماجة في الزهد، باب مثل الدنيا. بلفظ "عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا" بدل " مُعَلِّم أو مَتَعَلِّم".

وعنه ﷺ قال: (عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ، وَقَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، ثُمَّ قَالَ الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ، وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ بَعْد، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ). وفي رواية أخرى (عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يُقْبَضَ وَقَبْضُهُ أَنْ يُرْفَعَ وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ هَكَذَا ثُمَّ قَالَ الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْأَجْرِ وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ)[1]. وفي رواية أبي الدرداء (الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ في الأَجْرِ سَوَاء، وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ بَعْدَهُما).

وقيل: «ليس الأدب إلا في صنفين: رجل تأدب بالسلطان، ورجل تأدب بالفقه، وسائر الناس همج».

وقال الشاعر، ويقال هو صالح بن جناح:

تعلم إذا ما كنت لست بعالم ❖ فما العلم إلا عند أهل التعلم

<تعلم فإن العلم زين لأهله ❖ ولن تستطيع العلم إن لم تعلم>[2]

تعلم فإن العلم أزين بالفتى ❖ من الحلة الحسناء عند التكلم

205 / ولا خير فيمن راح ليس بعالم ❖ بصير بما يأتي ولا متعلم

السابعة: في ذكر حديث صفوان بن عسّال وأبي الدرداء، في فضل العلم وطلبه،

روي عن صفوان بن عسال المرادي أنه قال: «قلت يا رسول الله صلى الله عليك، إني جئت أطلب العلم، فقال: (مَرْحَباً بِطَالِبِ العِلْم، إنَّ طَالِبَ العِلْم لَتَحُفُّ بِهِ المَلائِكَة، وَتُظِلُّه بِأَجْنِحَتِهَا، فَيَرْكَب[3] بَعْضُهَا عَلَى بَعْض حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاء الدُّنْيَا مِن حُبِّهِم لِمَا يُطْلَب، فَمَا

1- أخرجه ابن ماجة في كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

2- ساقط من ج.

3- ورد في ج: فيركبوا.

جِئْتَ تَطْلُب)[1] قال: قلت يا رسول الله صلى الله عليك، لا أزال أسافر بين مكة والمدينـة، فافتني على المسح على الخفين». وروي عن زر[2] بن حبيش قال: « أتيت صفوان بـن عسـال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: ابتغاء العلم، فقال: ألا أبشرك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ خَرَجَ مِـنْ بَيْتِـهِ ابْتِغَـاء العِلْـمِ، وَضَعَـت لَـهُ المَلَائِكَـة[3] أَجْنِحَتِهَـا رِضًـى بِمَـا يَصْنَعُ)»..

الثامنة: في ذكر دعاء النبي ﷺ لمستمع العلم وحافظه ومبلغه، روي عن النـبي ﷺ قال: (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ وَيُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ فَرُبَّ حَـامِلِ فِقْـهٍ لَيْـسَ بِفَقِيـهٍ)[4]، وفي رواية أخرى (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْره فَـرُبَّ حَـامِلِ فِقْـهٍ

1- أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب: في فضل التوبـة والإستغفار ومـا ذكـر مـن رحمـة الله لعباده. والحديث بطوله: (حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَـاصِمِ بْـنِ أَبِـي النَّجُـودِ عَـنْ زِرِّ بْـنِ حُبَيْشٍ قَالَ أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ فَقَالَ مَـا جَـاءَ بِـكَ يَـا زِرُّ فَقُلْتُ ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ فَقَالَ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ فَقُلْتُ إِنَّـهُ حَـكَّ فِـي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ وَكُنْتَ امْرَأً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا قَالَ نَعَمْ كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّـا سَـفَرًا أَوْ مُسَـافِرِينَ أَنْ لَـا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ فَقُلْتُ هَـلْ سَـمِعْتَهُ يَذْكُـرُ فِـي الْهَوَى شَيْئًا قَالَ نَعَمْ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ يَـا مُحَمَّدُ فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ هَاؤُمُ فَقُلْنَا لَهُ وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِـكَ فَـإِنَّكَ عِنْـدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا فَقَالَ وَاللَّهِ لَا أَغْضُضُ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَـقْ بِهِـمْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

2- ورد في ج: زيد.

3- ورد في ج: الملائكة له.

4- أخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع.

لَيْسَ بِفَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[1]، وفي هذا المعنى عدة أحاديث لم نذكرها[2] اختصارا، ويلتحق بالمخاطبين من بعدهم إلى يوم القيامة، فهو دعاء شامل لمن سمع ووعى وبلغ أبدا، ويدخل العالم بنشره لغيره، والمتعلم باستماعه من أهل العلم.

التاسعة: تقدم في آداب العالم والمتعلم، أنه من المهمات مراعاة الإخلاص في التعليم والتعلم، والحذر من الرياء، وقصد الحظوظ العاجلة، ومن أهمها إيثار الصمت، والاعتراف بالعجز والجهل، والتبري من الحول والقوة، وترك الدعوى، فإنها بلاء عظيم في هذا الجنس، وأن النفس تسرع إلى ذلك، فإن إدراك العلم له لذة ونشوة، تستفز العقل أكثر مما يستفزه الخمر، وتحدث فيه جرأة وصولة فيدعي كما قيل: «جرأة الجنان تطلق اللسان»، فيجب الحذر من ذلك، فقد قيل: «الدعوى قبيحة وإن كانت صحيحة». وللدعوى عقوبة عاجلة، وهي الحرمان والفضيحة، ولذا يقال: «إن قلت لا أدري علموك حتى تدري، وإن قلت أدري سألوك حتى لا تدري».

وقال الشاعر:

كل من يدعي بما ليس فيه ❖ كذبته[3] شواهد الامتحان
وجرى في العلوم جري سُكَيْت ❖ خلفته الجياد يوم الرهان

206 / غيره:

من تحلى بغير ما هو فيه ❖ عاب ما في يديه ما يدعيه
وإذا حاول الدعاوى لما فيه ❖ أضافوا إليه ما ليس فيه

1- أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم.
2- ورد في ج: لم تذكر.
3- ورد في د: فضحته.

ويحسب الذي ادعى ما عـداه ❖ أنـه عالـم بـمـا يعتريـــه
ومحـــل الفتى سيظهـر في النـا ❖ س وإن كان دائما يخفيه[1]

العاشرة: في ذكر بعض ما قيل في آداب التعلم من الشعر، فمنه قوله، وتنسب هذه الأرجوزة إلى اللؤلؤي[2] رحمه الله تعالى:

واعلـم بأن العلـم بالتعلـم ❖ والحفـظ والإتقـان والتفهـم
والعلـم قـد يُرْزَقُـه الصغيـر ❖ فـي سنـه ويحـرم الكبيـر
وإنمـا المـرء بأصغـريـه ❖ ليـس برجليـه ولا يديـه
لسـانه وقلبـه المركـب ❖ في صـدره وذاك خلـق عجـب
والعلـم بالفهـم وبالمذاكـره ❖ والـدرس والفكـرة والمناظـره[3]
فـرب إنسـان ينـال الحفظـا ❖ ويـورد النص ويحكـي اللفظـا
ومـا لـه في غيـره نصيـب ❖ ممـا حـواه العالـم الأديـب
ورب ذي حرص شديد الحـب ❖ للعلـم والذكـر بليـد القلـب
يعجـز في الحفـظ والروايـة ❖ ليست له عمـن روى حكايـة
وآخـر يعطـى بـلا اجتهـاد ❖ حفظـا لمـا قد جـاء في الإسنـاد
يهده بالقلـب لا بناظـره[4] ❖ ليـس بمضطـر إلـى قماطـره

1- تنسب هذه الأبيات لأبي العباس الناشي. جامع بيان العلم وفضله/1: 145.

2- هو عبد الرحمن بن مهدي البصري (135-198 هـ)، من كبار حفاظ الحديث، ومن تابعي التابعين، لازم الإمام مالك، وصاحب الإمامين الشافعي وابن حنبل، وله تصانيف في الحديث. تذكرة الحفاظ/1: 329 - تهذيب الأسماء/1: 304.

3- ورد في ج: والفكر مع المنظرة.

4- ورد في د: للمناظرة.

فالتمس العلم واجمل في الطلب ❖ والعلم لا يحسن إلا بالأدب
والأدب النافع حسن الصمت[1] ❖ وفي كثير القول بعض المقت
فكن لحسن الصمت ما حييتا ❖ مقارنا تحمد ما بقيتا
فإن بدت بين أناس مسأله ❖ معروفة في العلم أو مفتعله
فلا تكن إلى الجواب سابقا ❖ حتى ترى غيرك فيها ناطقا
207 / فكم رأيت من عجول سابق ❖ من غير فهم بالخطاب ناطق
أزرى به ذلك في المجالس ❖ عند ذوي الألباب والتنافس
والصمت فاعلم بك حقا أزين ❖ إن لم يكن عندك علم متقن
إياك والعجب بفضل رأيكا ❖ واحذر جواب القول من خطأ بكا
كم من جواب أعقب الندامه ❖ فاغتنم الصمت مع السلامه
العلم بحر منتهاه يَبْعُد ❖ ليس له حد إليه يقصد
وليس كل العلم قد حويته ❖ أجل ولا العشر ولو أحصيته
وما بقي عليك منه يكثر ❖ مما علمت والجواد يعثر
فكن لما سمعته مستفهما ❖ إن كنت لا تفهم منه الكلما
القول قولان فقول تعقله ❖ وآخر تسمعه فتجهله
وكل قول فله جواب ❖ يجمعه الباطل والصواب
وللكلام أول وآخر ❖ فافهمهما والذهن منك حاضر
لا تدفع القول ولا ترده ❖ حتى يؤديك إلى ما بعده
فربما أعيى ذوي الفضائل ❖ جواب ما يلقى من المسائل

1- ورد في د: السمت.

فيمسكـوا بالصمـت عن جوابـه ❖ عنـد اعتراض الشك في صوابـه

ولـو يكـون القـول في القيـاس ❖ مـن فضـة بيضـاء عنـد النـاس

إذا لكان الصمت من عين الذهـب ❖ فافهـم هـداك ا لله آداب الطلب[1]

وهذه القصيدة كتبناها لضرورة التعـرض لما قيل، وإلا فجل جدواها الصمت، ولـو تمسك به قائلها، لأراحنا من التعب.

ومما قلته في وصف العلم وآداب طلبه، من قصيدة طويلة:

والعلـم بدءا ليس أريا سيغا[2] ❖ لكن جنـاة الحنظـل المتهبـد

علق نفيس لا يبـاع ونائـر ❖ متأبـد عن كـل فـدم أوغـد

لم يصمـه[3] سهـم ولم يبتـزه ❖ بـاز ولـم يصـرع برميـة مقلـد

لكن بإشـراك الحلـوم وهمـة ❖ نفـاذة الأغـراض فليتصيـد

208 / وجواد فكـر تمتطيـه مـؤوب ❖ أبـدا بأقطـار المـدارك مسئـد

قيـد الأوابـد لا يزال على الونا ❖ فـي كل معوصـة يـروح ويغتدي

من بعـد نزع الروح في استعطائه ❖ ومـذاق صبـر للحوايـا مصخـد[4]

وتفكـر وتدبـر وتصبـر ❖ وتضـرر وتقشـف وتمعـدد

وتوسـل وتوصـل وتحـول ❖ وتغـرب وتفـرد وتهجـد

1- ذكرها ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله/1: 146-147-148، ونسبها للؤلؤي، وزاد وبعضهم ينسب هذا النظم إلى المأمون.

2- ورد في د: سائغا.

3- ورد في ج: يعمه.

4- ورد في ج: مضحد.

فوراء وخز النحل شور شهاده ❖ ووراء شوك النخل نيل العرجد
وأمام أصداف اللئالي غوصة ❖ في البحر والترياق سم الأسود
والصقر ينتظم الطريدة لا اللآلي ❖ والليث يغشى السرح دون الصفرد[1]

الحادية عشر: إن طالب العلم يحتاج في حصول العلم فهما وحفظا، وفي قوة ذلك الحصول، وفي ثباته ليقع التحصيل، وفي الانتفاع به عاجلا أو آجلا، إلى حصول أمور وانتفاء أمور، تكون الأولى في معنى الأسباب، يكون حصولها للجلب، والثانية في معنى الموانع، يكون انتفاؤها للدفع، وكل ذلك إما من ذاته، وإما من خارج.

أما أولا، فالعقل كما مر والقريحة، فإن أعطي ذلك، بأن رُزق من طبعه عقلا وافرا وقريحة مشتعلة[2] وهي الفطنة، وقد تطلق في عرف الناس على الهمة، وهي القصد إلى الشيء، فقد كفي مئونة استجلاب ذلك، وإنما عليه مئونة الصيانة، فليصن عقله من الشواغل، وقريحته من المفترات، ومجموع ذلك هموم النفس وتصرفاتها جلبا ودفعا، غير ما هو بصدده، وذلك أن العقل في أول نشأ الإنسان، يكون بمثابة الطفل أو الغرس، يفتقر إلى أغذية لائقة، وغذاؤه اللائق العلوم والمعارف التي هو بصددها، فإن شغله بذلك تقوى، وقوي على ما يريد وراءه، وضرى به، وإن شغله بإدراكات أخر دنيوية، وما لا حاجة إليه، لم يضر إلا بذلك، وإن تعطل وتبطل فتر وجمد، كالطفل المقطوع عنه الغذاء، والغرس المقطوع عنه الماء، فقد بان أن أضر شيء به الاشتغال بما لا يعني والبطالة، وقلت في ذلك من قصيدة:

1- وردت هذه الأبيات ضمن قصيدة الدالية الطويلة التي تبلغ 543 بيتا. كما جاءت في الديوان حرف الدال. وأفاض اليوسي في شرحها في نيل الأماني في شرح التهاني: 123-124-125-126-127.

2- ورد في ج: مشغلة.

والعقل تكنفه الجهالة والعمى ❖ أبدا لقيط ظل غير مسرهد[1]

209 / أي لم يحسن غذاؤه فيضعف أو يموت، وهذا في الفهم.

وأما [في][2] الحفظ، فهو أيضا موهبة من الله تعالى قويا أو ضعيفا، ويكون بارتسام الأشياء المدركة بالحواس بعد غيبوبتها، زعم الحكماء في خزانة من وراء الدماغ، تسمى الحافظة، فإن بقي فيها الشيء، بحيث لو أريد استحضاره حضر بلا كلفة، كان ذلك حفظا، وإلا فنسيان وذهول، ويقوى كل ويضعف، فمن الناس سريع الحفظ والفهم، سريع النسيان، وشديدهما أوشديد أحدهما وسريع الآخر، وزعم الحكماء أن ذلك بحسب المزاج، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] فمن أعطي أيضا حفظا وافرا فقد كفي مئونة تحصيله، وإنما عليه صونه من الآفات.

فاعلم أن النسيان، يكون بإذن الله <تعالى>[4] من المزاج، ويكون من خارج، أما الأول، فقال الأطباء هو نوعان: نوع يكون من سوء مزاج بارد رطب، يغلب على الدماغ، ويمنع من بقاء ما ينطبع فيه، ونوع يكون لغلبة اليبس، فيمنع الانطباع، ويزول الشيء سريعا، فهذا بنوعيه يعالج، بتعديل المزاج وإصلاح ما فسد، وهو للمتطبب، وإن كان من خارج، فالتحفظ منه، وعلى الولي أن يحفظه صغيرا، ثم عليه حفظ نفسه.

وذكروا أشياء تورث النسيان بإذن الله تعالى بالخاصية، وهي حجامة النقرة[5]، وأكل الكزبرة الخضراء، والتفاح الحامض، وكثرة الهم، وقراءة ألواح القبور، والنظر في الماء الدائم،

1- راجع القصيدة الدالية في الديوان وشرحها في نيل الأماني: 119.

2- سقطت من د و ج.

3- الأنفال: 41 - التوبة: 39 - الحشر: 6.

4- سقطت من ج.

5- النُّقْرة: ثقب في القفا، وثقب في وسط الورك.

والبول فيه، والنظر إلى المصلوب، والمشي بين جملين مقطورين، ونبذ القمل، وأكل سؤر الفار.

{الأسباب المقويات للفهم والحفظ}

وإن انتقص فهمه وحفظه بأصل الخلقة، فعليه معالجتهما بالأسباب المقويات بإذن الله تعالى، كما عليه ذلك إن انتقصا بالعوارض، ومن أقوى الأسباب في ذلك، التقوى وتجنب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[3]، والرزق عام، وقال ﷺ : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)، إلى غير ذلك.

وقال الشاعر:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ❖ فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال بأن قيل العلم فضل ❖ وفضل الله لا يوتاه عاصي

210 / فمن ابتلي بالمعاصي، كالفواحش وشرب الخمر عياذا بالله تعالى، فقد تعذر عليه طلب العلم، ما دام كذلك، وذلك من جهات: منها الحرمان الإلهي، وفي الحديث (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[4] فكيف يطمع في الفتح، من لا يعد مؤمنا؟.

1- البقرة: 282.

2- الأنفال: 29.

3- الطلاق: 2-3.

4- أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغضب، باب: النُّهبى بغير إذن صاحبه. وأخرجه مسلم في الإيمان، باب: بَاب بَيَانِ نُقْصَانِ الْإِيمَانِ بِالْمَعَاصِي وَنَفْيِهِ عَنْ الْمُتَلَبِّسِ بِالْمَعْصِيَةِ عَلَى إِرَادَةِ نَفْيِ كَمَالِهِ.

ومنها، أن همته تغيب[1] في تلك اللذات، فتذهب معها فكرته وتأملـه، فمـن أيـن لـه تأمل في مدارك أخرى.

ومنها، أن شأنه أن لا يقر له قرار، لانزعاج باطنه بنيران الشهوات، فلا يزال جـوالا مترصدا مترددا في ميدان ما تولع به، فمن أين له اللبـث؟ في مجـالس العلـم، بقلـب حـاضر وسمع شهيد، والعكوف على النظر بذلك.

ومنها، أن ذلك البلاء يحوجه إلى المال والاشتغال بـه، وفي ذلـك تلفـه، وإلى معاشـرة الأضداد، وكل من لا خلاق له، وفي ذلك جفاؤه وانقطاعه.

ومنها، أن تلك الشهوات غالبة علـى النفـس، إذا تمكنـت منهـا إلا مـن وفقـه الله تعالى، فلا تسلمها لشيء، فقد قطعت[2] الناس عـن الملـك، الـذي هـو مجمـع لـذات النفـس النفسانية والروحانية، وقد قال الوليد بن اليزيد[3] حين أنكر الناس عليه:

خذوا ملككم لا ثبت الله ركنه ❖ ثباتا يساوي ما حييت قبـالا

دعوا لي سليمي[4] مع طلاء وقينة ❖ وكأس ألا حسبي بذلك مالا

وفي هذا المعنى قال الآخر، وهو منظور بن زيان:

ألا لا أبالي اليوم بما فعل الدهر ❖ إذا منعت مني مليكة والخمـر

وما منهمـا إلا عظيـم فراقـه ❖ فراق الندامى والمخدرة البكر

وحكى الربيع عن الأمين[5]، أنه جلس يوما للناس، فوقـع في ثمانمائـة قصـة، فـوا لله لقد أصاب في جميعها فما أخطأ، وأسرع فما أبطأ، ثم التفت إلي فقال: «يا ربيع، أترانـي لا

1- ورد في ج: تغييت.

2- ورد في ح: انقطعت.

3- هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الفاسق (90-126هـ). تاريخ الخلفاء: 233.

4- ورد في ج: سليمان.

5- يعني الأمين محمد ابن هارون الرشيد (ت: 198هـ). السيئ التدبير الكثير التبدير. نفسه: 276.

أحسن التدبير والسياسة؟ كلا، ولكني وجدت شَمَّ الأسِّ وشرب الكاس، والاستلقاء من غير نعاس، أشهى إلي من النظر في أمور الناس».

ومما يقوي الحفظ، قراءة القرآن نظرا، والسواك، وشرب العسل، وأكل الكندر مع السكر، وأكل إحدى وعشرين زبيبة كل يوم على الريق. ومما يعين بإذن ا لله على الحفظ والفهم وكل فلاح وخير، زيارة الصالحين، كما قيل:

زيارة أهل التقى من هم يبرى ❖ ومفتاح أسباب السعادة والخير

211 / ولا سيما من ظهر النفع[1] على يديه، كالشيخ أبي يعزى، والشيخ أبي العباس السبتي، والشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ أبي مدين في بلاد المغرب، وكالشيخ يوسف ابن عمر، والفقيه أبي جيدة في مدينة فاس، وغيرهم ممن لا يحصى، وخدمة الأشياخ كما مر.

ومما يعين على التبحر في علم التأليف فيه، ومما يعين على ثبات المحفوظ، المراجعة والتكرار والتعليم، فمن لم يشتغل بالتدريس، فيما حصل من الفنون والعلوم، قلما يثبت منها على طائل، ويكون الانتفاع بالعلم بالعمل به وبثه للعباد، فبالعمل به في نفسه ينتفع به عند ا لله تعالى، وبتعليم العباد ينتفع عند ا لله وعند العباد، وبتعظيمه وصونه، فمن لم يعظم العلم لا ينفعه ا لله تعالى به، ومن أهانه أهانه ا لله، كما قيل:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ❖ ولو عظموه في النفوس لعُظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ❖ محياه بالأطماع حتى تجهما[2]

ومما يذكي القريحة فيه، منافسة أهل التحصيل، وهي محمودة، فلا خير فيمن لا ينافس على الخير، وقيام حظ للنفس[3] من جائزة تستجلب، أو فائدة ما تطلب، وفهم أوائله

1- ورد في ج: الخير المجمع.

2- هي للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني حسب ما ورد في يتيمة الدهر للثعالبي/4: 23.

3- ورد في ج: الناس.

بسهولة، كما أن انغلاقهما مما يخمد الفكرة، ويفـتر القريحـة، ومـن ثـم كـان العـارف مـن العلماء[1] بترتيب فنون العلم، وترتيب المسائل للمبتدئ أنفع للعبـاد، ممـن لا يحسـن ذلـك، فالمبتدئ إذا فهم ما ألقي إليه، وتطعم حلاوة الإدراك، انحل بصره وبصيرته، وتقوت رغبته في ازدياد العلم، وذلك بإذن ا لله عنوان الفلاح.

وكنت والأمثال تضرب، أول ما تـأهلت حركـت أسـباب الحـرث، فجـاء رجـل مـن الفلاحين المشاهير، فسمعته يقول لأصحابه، احرثوا للشيخ حرثـا جيـدا بقوانينـه، ليسـتلذ الغلة، فيستلذ الحرث، وإلا مقته وانقطع عنه، فقلت سبحان ا لله هذه عبرة.

{ما يعين على طلب العلم في الجملة}

ويعين على طلب العلم في الجملة بـإذن ا لله تعـالى، بعـد حصـول الفهـم والقريحـة، صحة البدن، واغتراب عن الوطن، وفراغ بال، وقـدر مـن المـال، ورغبـة فيمـا أعـد للعلمـاء عند ا لله تعالى، وهو عزيز الوجود، أو مراعاة حظ عاجل، وهـو الكثـير الوجـود، فمـن هـذا لا ينبغي لطالب العلم، أن يستهين بصحـة بدنـه حفظـا وعلاجـا، وقـد قـال مـالك ﷺ، ليحيى بن يحيى ﷺ، حين انصرافه عنه: « أوصيك بثلاث: الأولى أجمع لـك فيهـا علـم العلماء، والثانية أجمع لك فيها حكمة الحكماء، والثالثة أجمع لك فيها طب الأطباء، فأمـا 212 التي أجمع لك / فيها علم العلماء، فإذا سئلت عن شيء لا تدريه قل لا أدري، وأمـا الـتي أجمع لك فيها حكمة الحكماء، فإذا جلست مـع قـوم فكـن أصمتهـم، فـإن أصـابوا أصبـت معهم، وإن أخطئوا سلمت، وأما التي أجمـع لـك فيهـا طـب الأطبـاء، فـأن تضـع يـدك في الطعام وأنت تشتهيه، وترفع يدك وأنت تشتهيه، فإنك إذا فعلت ذلك، لم يصبـك مـرض إلا مرض الموت» انتهى.

1- ورد في ج: العلوم.

فنحو هذه الحمية التي ذكرها الإمام ﷺ، تنفع الطالب في بدنه بحفظ الصحة، وفي فهمه وحفظه بالتقلل مما عسى أن يكثر المواد، ويوجب بإذن الله تعالى الجمود، وفي دينه بالتنزه عن السرف وعن كثرة الشبهات، وفي معاشه بالتخفف من الإنفاق، ومتى أحكم حفظ الصحة، استغنى بإذن الله تعالى عن العلاج، ولا يتوانى عن الاغتراب عن وطنه، والتنقل من مكان إلى مكان، كطالب الرعي، وهو ما مر في ذكر الرحلة، وليقس نفسه بطالب المال في الآفاق، والمشغوفين بالغنى، والمتحولين من دار الذل طلبا للعز، وليتمثل بما قالوا في ذلك، فإنه أولى به، كقول البحتري[1]:

وإذا الزمان كساك حلة معدم ❖ فالبس له حلل النوى وتغرب

<وقل أنت حلة جاهل أو معدم من العلم، وهو العدم الفاحش>[2].

وقول الآخر:

ليس ارتحالك تزداد الغنى سفرا ❖ بل المقام على خسف هو السفر

وقل أنت تزداد الهدى، بل المقام على جهل، وهو الخسف حقا.

وقول الآخر:

سأعمل نص العيس حتى يكفني ❖ غنى المال يوما أو غنى الحدثان

وقل أنت غنى العلم.

وكقول الآخر:

يقيم الرجال الأغنياء بأرضهم ❖ وترمي النوى بالمغتربين المراميا

وقل أنت ذوو العلم الفحول بأرضهم، وترمي النوى بالطالبين أو الجاهلين.

1- أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى البحتري الطائي (206-284هـ). كان شاعرا فاضلا، نقي الكلام مطبوع، أكثر من مدح المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان. الأعلام/8: 121.

2- ساقط من ح.

وليجتهد في تفريغ باله لفهم العلم، بقطع العلائق وحسم ا لعوائق، وهي إحدى فوائد الرحلة والتجرد.

وليعلم أن طنين الذباب يشغل ذوي الألباب، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[1]، وما أحسن هما واحدا في طلب العلم يغنيه عن كل هم، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾[2]، أي من كل شيء غير ذكر موسى.

وبلغنا أن بعض من كان معتنيا بهذا المعنى من طلبة العلم، كانت تأتيه الكتب من جهة قومه، فما يقرأها خوفا أن يجد فيها بعض ما يهول عقله، فكان كلما أتي بكتاب رماه في كوة، / فلما فرغ من شأنه، وعزم على القفول إلى بلده، استخرجها كتابا كتابا، فوجد من مات من أهله، ومن عرض له أمر، فبكى ولم يتضرر حينئذ بذلك، لأنه قد تفرغ. 213

وليحفظ ما رزق من المال، ليستعين به على قوته وكسوته وكتبه، ولا يفسده في غير صنيع، فإن الشرع قد أمر بحفظ المال، ونهى عن إضاعة المال.

{أشياء مجلبة للغنى وأخرى للفقر}

ولا بأس أن يراعي في تصرفاته ما يعد مجلبة للغنى بإذن ا لله فيأتيه، وما يكون مجلبة للفقر فيحذر منه، فمن الأول إقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾[3]، ومداومة صلاة الضحى، وسورة الواقعة، ولا إله إلا ا لله الملك الحق المبين، ويقال: «من قاله مائة مرة، كان له أمانا من الفقر، وأنسا من وحشة

1- الأحزاب: 4.

2- القصص: 10.

3- طـه: 132.

القبر، واستجلب الغنى وقرع باب الجنة»، وعن الحسن بن علي رضي ا لله عنهما قال: «كنس الفناء وغسل الإناء مجلبة للغنى[1]» .

ومن الثاني، النوم عريانا، والبول عريانا، والأكل جُنُبا، والتهاون بسقط المائدة، والمشي أمام المشايخ، وهذا يستثنى منه المواضع الأربعة كما مر ذكرها، ونداء الوالدين باسمهما، وغسل اليدين بالطين والتراب، والكتب بالقلم المعقود، وترك الدعاء للوالدين، والتعمم قاعدا، والتسرول قائما، ومن ذلك على ما تلقيت من أهل التجريب، كنس ساقط الطعام، بالخرقة من منديل ونحوه، فمراعاة هذا القدر خفيف لا يعوقه عن شغله، وكذا إن ظفر بشيء من أسباب البركة، من أسماء ا لله تعالى ونحوها، من غير أن يعطل في طلب ذلك وقته، ولا أن يشغل فكره.

وأما الخروج إلى استجلاب المال، بالتشاغل بأسبابه المعتادة، كالتجارة والحرث والتعليم، ، فشاغل له عما هو بصدده، اللهم إلا تنمية لمال موجود بقراض أو حكرة مثلا، ولا يخلو عن شغل إما للجسد أو للبال أو لهما معا.

وأما المسألة فآخر كسب المرء كما قيل، أي أقبحه وأخسه، أو آخره بمعنى أنها لا تنبغي، حتى تعجز [عن][2] المكاسب كلها، وهو الضرورة، وأقبح من ذلك وأخس منه، تعاطي الأسباب غير المعتادة، كالتقصيص والتدبير، وقراءة الدعوات، واستخدام الجان، وطلب الكنوز والدفائن، ونحو ذلك، فهو طريق الخسران والفقر الحاضر، وانتهاك العرض والدين، واختلال العقل والمروءة، فإياك وإياه.

أما التقصيص، فإن أمره يئول إلى الجن، ولا خير في صحبتهم، ثم إن كانوا يلبسون القرطاس بالمعدن في الظاهر، فهو غش حرام، وإن كانوا يستبدلونه بالدراهم أو الدنانير،

1- ورد في ج: للغناء.

2- سقطت من د و ج.

214 فإن أتوا بها من مال معصوم، مسلم أو ذمـي فسـرقة، ولـو / جـاءوا بهـا مـن معـدن أو مـال حربي، لكانت مباحة، ولكن من لنا بذلك، ولو أخبروا به لم يوثق بهم، وقـد حدثونـا عـن بعض المشايخ القرباء العهـد، أنـه جـاءه طـالب فقـال: «يـا سـيدي أريـد أن أعينـك علـى الزاوية بتقصيص عندي، وأفعله حتى تراه»، فقال: «افعل، فلما فرغ، قال له: يا ولدي أما أنا فقد أغناني ا لله عن هذا، وأمـا أنـت فكلـه إن شـئت، فهـو حـلال، فقـد رأيـت الجـن يخدمون في المعدن، وأخرجوا هذا منه الآن».

قلت: ولا يعتمد على مثل هذا، لأن هذا الشيخ قد رأى الجن ببصيرته، ومن للطالب بذلك، ولو رآهم مرة، فمن له في غيرها، على أن ذلك نـادر، وهـو مسـتبعد، لأن اسـتخراج النقد صافيا مطبوعا، من أحجار المعدن في ساعة لطيفة في غاية البعـد، ثـم اسـتخدام الجـن المومن في نحو ذلك بالعزائم القاهرة ظلم لهم، كما لو استخدم الإنس بالسيف.

وأما التدبير وهو عمل الكيمياء، فمرجعه إلى تبدل المعادن بعضها ببعض، حتى يصير النحاس مثلا فضة أو ذهبا، بالأسباب المقتضية لذلك بإذن ا لله تعالى، وقد تردد الحكمـاء في إمكان ذلك، فضلا عن وقوعه، ولا نزاع في أن ذلك لا يقع، وإن وقع عند المجوزين للوقوع، ففي غاية الندور، كما قيل:

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا ❖ لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا

وقد تحـــدث أقـــوام بكونهمـــا ❖ ولا أظنهمـــا كانـــا ولا وقعـــا

فإن وقع التبدل غير تام كما هو المعـروف اليـوم في الدينـار الجبلـي والسـكي ، أو زاد عليـه شيء من النقد، كان ذلك كله غشا في باب التعامل، لأن الذهب المعدني نافع في محـال، لا ينفع فيها هذا المصنوع، ولو ُبيِّن لهذا الشخص، فمن له أن يبين هو لآخر، وهكذا.

وأما استخدام الجان بالدعوات والتباخير، فقد مر أنه معدود في[1] أنواع السحر، وما هو إلا شبه القيام على الناس، لطلب الملك عليهم، وناهيك به ظلما وجرما، ثم هو مقرون بالهلك، لا يكاد يسلم من اشتغل به في بدنه أو في عقله.

وكنت أعرف شابا حدثا لبيبا ذكيا، نشأ في طلب العلم، فشدا منه طرفا قويا عن قريب، ولو دام لالتحق عن قريب بأكابر العلماء المحصلين المحققين، فابتلي بهذا الأمر، فلم نشعر به إلا وهو مجنون، لا يقر له قرار، مسلوب العقل والدين، فسئل عن حاله، فأخبر أنه اشتغل في خلوة بدعوة لاستخدامهم، فلما أكمل العمل أذعنوا له، وحضروا بين يديه، وأروه أموالا جزيلة، وشرطوا عليه ألا يفوته الفجر، وعليهم السمع والطاعة، وأنه لم يلبث أن نام حتى طلعت الشمس وهو جنب.

215 فقام / وهبط إلى النهر فاغتسل ورجع، فبينما هو مقبل إلى الدار، إذ أبْصَر بخباء فوق رأسه مضروب عليه، فكان ذلك آخر عهده بعقله، وبقي كذلك حتى مات، نسأل الله العافية، ونحوه كثير. وكيف لصعلوك يريد أن يتملك على ملوك عظام في قومهم، أن ينجو منهم بلا حارس ولا جند، وهم يرونه ولا يراهم، وأي خطر أعظم من هذا الذي اقتحم، والجن فجار، لا يكاد يسلم منهم من لم يتعرض لهم، فكيف بمن يحرقهم ويطلب ملكهم.

وأما الكنوز فغالبة العطب، نادرة الحصول، وإنما يُغْرِ طلابها ما يقرع أسماعهم، من وقائع نادرة في الدهور لمن اتصل بشيء منها، ولم يحفظوا وقائع الخيبة[2] عنها، بعد شديد العناء والهلاك فيها، إما بالجوع أو الجن أو الإنس، وهي الغالبة، والعاقل يجعل الأمر للغالب لا للنادر، فليصرف العاقل نظره عن هذه الطرقات، وليستغن عنها بانتظار قسمة ضامن الأرزاق سبحانه لا إله غيره، قبل أن يفتقر بها ويغض بالماء شاربه.

1- ورد في ج: من.

2- ورد في ج: الخبيثة.

وليعلم أن المرزوق مرزوق فيها وفي غيرها، <والمحروم محروم فيها وفي غيرها>[1]، كما وقع لعبد الله بن جدعان[2]، فقد كان خليعا من أهله، فذهب لما[3] ضاقت عليه الأرض، ليتعرض لمهلكة فيهلك، ويخرج عن أعين الناس وألسنتهم، فرأى كهفا في البرية، فاقتحمه يرجو أن يلقى حية تلدغه فتريحه من الدنيا وأهلها، فلما دخل إليه إذا بتنين تقد عيناه كالنار، فقال في نفسه هذا الذي يبطش بي، وترامى عليه فقبضه ليلدغه، فإذا هو تمثال، وإذا العينان ياقوتتان جليلتان، ونظر فإذا هو بأكداس المال بلا مانع، وجعل يأخذ ما شاء، ورجع إلى قومه، واشتغل بتلك الصنائع المشهورة عنه.

والمحروم محروم، كما وقع لصاحب نبي الله عيسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فقد ورد أنه عليه السلام صحبه إنسان في سياحته، فلما احتيج إلى الطعام بعثه إلى قوم، فأعطوه ثلاثة أرغفة، فأتى بها فجلسا يأكلان، ثم قام نبي الله لحاجة، فلم يرجع إلا وقد أكل الرجل منها رغيفا[4]، فقال: « أين الرغيف؟ فقال: لا أدري»، فانطلقا فإذا بنهر عظيم بين أيديهما، لا يستطيع أحد عبوره، فأخذ نبي الله بيد الرجل فمشيا على الماء، فلما قطعا قال له نبي الله: «بالذي أراك هذه الآية، ما فعل الرغيف الثالث؟»، فقال الرجل: « لا أدري».

ثم انطلقا إلى أن جاعا، فإذا بقطيع من الظباء، فدعا نبي الله واحدا منها فأقبل، فقال للرجل: « اذبح فكل»، فذبحه وسلخه، واشتوى من لحمه، حتى أكلا ما أرادا،

1- ساقط من ح.

2- عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن عم والد أبي بكر الصديق ﷺ، من الكرماء في الجاهلية. وقد ثبت في الصحيح قول عائشة لرسول الله ﷺ: «هل ينفعه ذلك يوم القيامة؟» فقال: (لاَ إِنَّهُ لَم يَقُلْ يَوْماً رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَومَ الدِّينِ). البداية والنهاية/2: 276-277.

3- ورد في د و ج: بما، وفي ح: مما. والصواب ما أثبتناه كما يفيده سياق الكلام.

4- ورد في ج: رغيفا منها.

فقال نبي الله [للظبي][1] : « قم بإذن الله»، فقام حيا وذهب نحو أصحابه، ثم قال للرجل: «بالذي أراك هذه الآية، ما فعل ذلك الرغيف [الثالث][2]؟ فقال: لا أدري». ثم

216 انطلقا / فإذا بثلاث آجر من الذهب كبار، فقسم نبي الله، فقال: « هذه لي، وهذه لك، وهذه لمن أكل الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا أكلته، فقال نبي الله عليه السلام: خذها كلها واذهب عني» ففارقه.

وبقي الرجل يحاول أن يرفع الذهب فلم يستطع، فقعد عنده ينتظر من يأتي فيعينه، فأقبل رجلان فاستدعاهما، فكانوا ثلاثة، فاتفقوا أن بعثوا واحدا منهم، إلى القرية ليشتري لهم طعاما، فذهب الرجل فاشترى طعاما، واشترى سما ووضعه فيه، وقال: «عسى أن يأكلاه فيموتا، وأختص بالذهب»، وقد كان صاحباه اتفقا على قتله إذا جاء، ليختصا بالذهب، فلما وصل إليهما بادرا به، فقتلاه فجلسا للطعام، فأكلاه فماتا معا، وبقوا صرعى حول ذلك الذهب، فجاء نبي الله عليه السلام فمر بهم صرعى فقال: « هكذا تفعل الدنيا <بأهلها>[3]»[4].

ولا يُمَنِ نفسه أن يكون من الأفراد النوادر، والذين ظفروا بالغنى من إحدى تلك الطرق، فإنه يهلك في تلك الأماني، كما قيل:

من كان مرعى عزمه وهمومه ❖ روض الأماني لم يزل مهزولا

ومثال من ترك الأسباب المشهورة، التي عاش بها جمهور الخلق، راع أحمق يسمع بعشبة الكيمياء، التي إذا رعتها الماشية سمنت، وصار حليبها كله أو جله زبدا، فأعجبه

1- سقطت من د و ح.

2- سقطت من د و ح.

3- سقطت من ح.

4- ونفس القصة أوردها اليوسي في المحاضرات/2: 644-645.

ذلك، وسمع أنه وقع ذلك لأناس رعوها في الدهر، فحلـف لا يرعـى غيرهـا، وجعـل يهيـم عليها بماشيته فلم يظفر بها، حتى هلكت ماشيته جوعا وهزالا، ولـو أنـه تـرك نفسـه مـع الناس، يرعى ما يرعون، فإن اتفق له ظفره بتلك العشبة، من غير عنـاء في طلبهـا، فيحمـد ا لله تعالى، وإلا عاشت ماشيته وسمنت بقدر ما يحتاج إليه، وأخذ منها من الزبـد مـا قسـم له، فكذا العاقل يعيش بما يعيش به الناس، من الأسباب العادية، أو التجـرد عنهـا توكـلا على مسبب الأسباب، فإن سبق له أن ينال رزقا غير معتـاد، فسـيناله بـلا هـم ولا نصـب، وإلا عاش مع الناس، فإن أكثر من يتبع هـذه الطرقـات، لا يمـوت إلا مملقـا ذليـلا حزينـا مذعورا بإذن ا لله، إلا من تداركه ا لله بعقل جديد فتخلـى عـن ذلـك، ﴿وَاللَّـهُ يَهْـدِي مَـنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

ولا يغفل عن الباعث له على الاشتغال بالعلم، فإنه إن كـان هـو طلـب مـا أعـد مـن الثواب فهو حسن، وأحسن منه أن يكون طلب التقرب إلى ا لله تعالى، وأحسن منه أن يكون امتثالا لأمر المولى سبحانه، وطاعة له وسعيا في تصحيح طاعتـه، والنفـس نـزوع إلى الحظـوظ العاجلة، من مال وعز وجاه ونحو ذلك، وعندها تشتغل قريحتها، ولا خير في ذلك، وقد مر التنبيه عليه.

وهذا آخر ما وجدنا من هذا الكتاب، جعله ا لله تعالى لمؤلفه كنزا مدخرا ليوم المعـاد، ونفع به الجميع أولا وآخرا إلى يوم التناد، والحمد لله رب العالمين.

نجز بحمد ا لله وحسن عونه وتوفيقه يوم الأحد العاشر من شوال عام إحدى وثلاثـين ومائة وألف. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

1- البقرة: 213 – النور: 46.

الفهـــارس العامـــة

1- مسرد أوائل الآيــات

2- مسرد أوائل الأحاديث النبوية

طرف الحديث — الصفحة

— أ —

- ف -

- ق -

- ك -

- لا -

- م -

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

3- مسرد أوائل الموقوفات والمأثورات

- ز -

- س -

- ش -

- ض -

- ط -

- ع -

-ف-

-ق-

-ك-

-لا-

4- فهرس الشواهد الشعرية

القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
قافية -أ-			
- أدلاء	1	علي بن أبي طالب كرم ا لله وجهه	304
- الداء	1	--	413
- اللقاء	1	زهير بن أبي سلمى	290
قافية -ب-			
- أشيب	1	--	409
- أعجب	2	--	320
- الأدب	2	سابق البربري	410
- الحبيب	2	جميل بثينة	384
- الغبي	2	--	449
- الكتب	3	أبو بكر بن مروان	314-313
- اللعب	2	أبو تمام	159
- المحجبا	1	--	383
- المنسوب	1	--	362
- بحسيب	2	بعض الأدباء	315
- تغرب	1	البحتري	475
- طيب	2	--	409
- كتاب	1	ابن لب	316
- كتبي	1	أبو عمرو الداني	381

قافية –س–

قافية –ص–

قافية –ض–

قافية –ع–

قافية –غ–

قافية –ف–

قافية –ق–

قافية –ك–

قافية –ل–

قافية –لا–

قافية –م–

قافية —ن—

قافية —هـ—

قافية –ي–

5- فهرس الفرق والملل والمذاهب

6- فهرس الأجناس والأماكن والبلدان والقبائل والصنائع

7- فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الطاء

حرف العين

حرف الواو

حرف الياء

8- فهرس الكتب

حرف الألف

9- فهرس المصادر والمراجع

1- الكتب المطبوعة

- القرآن الكريم.
- أساس البلاغة للزمخشري. تحقيق د عبد الرحيم محمود. دار المعرفة بيروت لبنان.
- الإتحاف لعبد الرحمن بن زيدان. المطبعة الوطنية بالرباط 1929م.
- إحياء علوم الدين للغزالي. دار المعرفة بيروت.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه. المكتبة الثقافية بيروت لبنان.
- إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي. دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
- الأعلام لخير الدين الزركلي. ط: 2 القاهرة 1959م.
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع. طبعة معلم أحمد بن الطيب الأزرق.
- الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى للناصري. بتحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصريين. دار الكتاب الدار البيضاء. ط: 1955.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي. المطبعة الملكية ط: 1977.
- التعريفات للسيد الجرجاني. بيروت طبعة 1983.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار القرن الحادي والثاني عشر لمحمد بن الطيب القادري. دراسة وتحقيق هاشم العلوي القاسمي. دار الآفاق الجديدة ط. 1983م.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي. منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. ط: 1976.
- الحياة الأدبية في المغرب لمحمد الأخضر. دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء ط: 1 - 1977
- الديباج لابن فرحون المالكي. دار الكتب العلمية بيروت.
- الديوان الشعري لليوسي. طبعة حجرية.

– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي. تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة. طبعة دار الثقافة بيروت.
– الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي لحجي. المطبعة الوطنية الرباط 1964م
– السلطة والمؤسسات السياسية لأكَنوش. مكتبة برفاس البيضاء 1988م.
– الصلة لأبي قاسم خالف بن بشكوال. الدرا المصرية للتأليف والترجمة 1966م.
– الطبقات الكبرى لابن سعد. دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
– الغنية للقاضي عياض. تحقيق ماهر جرار. دار الغرب الإسلامي بيروت ط: 1 1982.
– الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي. دار اكتب العلمية. ط: 1 1985.
– الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري. دار الآفاق الجديدة. بيروت ط: 5 1983م.
– الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم. طبعة دار الجيل.
– الفقيه أبو علي اليوسي د. عبد الكبير العلوي المدغري. طبعة 1989.
– القاموس المحيط للفيروزبادي. دار الفكر.
– القوانين الفقهية لابن جوزي. دار القلم بيروت لبنان.
– الكامل في التاريخ لابن الأثير. تحقيق دار إحياء التراث العربي بيروت ط: 4 – 1994م.
– المحاضرات في اللغة والأدب لليوسي. تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال. بيروت ط: 1982.
– المستصفى من علم الأصول للغزالي. دار الفكر بيروت.
– المعجم الفلسفي لجميل صليبة. دار الكتاب اللبناني بيروت.
– المعين في المصطلحات الفلسفية والعلوم الإنسانية للحبابي. دار الكتاب ط: 1– 1977م
– الملل والنحل للشهرستاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. دار المعرفة بيروت 1982م.
– المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية للسايح. إدارة العلوم والمعارف الرباط 1960
– المنجد في اللغة والأعلام. دار المشرق بيروت ط: 27 1984م.
– المنقد من الضلال للغزالي. مكتبة التراث العربي ط: 1.

- المواقف في علم الكلام لعضد الدين الإيجي. عالم الكتب بيروت.
- الموسوعة المغربية معلمة المدن والقبائل ذ. عبد العزيز بن عبد الله. ط: 1976.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي لكنون. ط: 2 دار الكتاب اللبناني بيروت 1961.
- النشر الطيب بشرح الشيخ الطيب. المطبعة المصرية بالأزهر. ط: الأولى 1348هـ.
- الوثائق الملكية المجموعة الثالثة. المطبعة الملكية الرباط 1976م.
- تاريخ تطوان لمحمد داود. تطوان 1959.
- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي. دار الجيل بيروت.ط: 11 - 1978.
- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. ط: 2 مطبعة المدني بالقاهرة 1988م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض. تحقيق وطبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر. دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- جامع بين العلم وفضله لابن عبد البر. تحقيق الزهيري. دار ابن الجوزي ط:1 - 1994م.
- دائرة المعارف الإسلامية. مطبعة دار المعرفة بيروت لبنان.
- رسائل ابن حزم. تحقيق إحسان عباس. بيروت ط: 2 1987م.
- رسائل اليوسي تحقيق ودراسة فاطمة خليل. دار الثقافة الدار البيضاء ط: 1 - 1981.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي. تحقيق محمد حجي.
- سلسلة الأحاديث الضعيفة تخريج الألباني. المكتب الإسلامي ط: 4 بيروت 1394 هـ.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. للكتاني. طبعة حجرية 1316هـ.
- سنن أبي دواد. تعليق الشيخ أحمد سعد علي. ط: 1 1952م.
- سنن ابن ماجة. تحقيق فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي بيروت.
- سنن الدارمي. نشر دار إحياء السنة النبوية دمشق 1349هـ.
- شجرة النور الزكية لطبقات المالكية لابن مخلوف. دار الفكر.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد. دار إحياء التراث العربي بيروت.
- شرح المقاصد للتفتزاني. تحقيق وتعليق عبد الرحمن عميرة. بيروت ط: 1 – 1989م.
- صحيح البخاري. عالم الكتب بيروت ط:2 – 1982م.
- صحيح مسلم. منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت. طبعة بدون تاريخ.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد الإفراني. الطبعة الحجرية
- صلة الخلف بموصول السلف لمحمد بن سليمان الروداني. تحقيق محمد حجي. دار الغرب الإسلامي ط: 1 – 1988م.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لعبد الحي الكتاني. باعتناء د. إحسان عباس. بيروت دار الغرب الإسلامي ط: 2 – 1982م.
- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977م
- لسان العرب لابن منظور. بيروت لبنان.
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين للإمام الرازي. دار الكتاب العربي بيروت. ط: 1 – 1984م.
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل. المكتب الإسلامي بيروت. ط: 4 – 1983م.
- مشرب العام والخاص من كلمة الإخلاص لليوسي. طبعة حجرية.
- مصابيح البشرية في أبناء خير البرية لأحمد الشباني الإدريسي. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1987م.
- معجم مصطلحات الصوفية د. عبد المنعم الحفني. دار المسيرة بيروت 1400 هـ.
- مقدمة ابن خلدون. دار القلم بيروت ط: 4 – 1981
- منوغرافيا اقليم صفرو. إعداد عمالة إقليم صفرو 1991.
- موطأ الإمام مالك برزاية يحيى بن يحيى الليثي. تحقيق فؤاد عبد الباقي.
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي للإفرني. منشورات بردى الرباط ط: 2،

– نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان لابن زاكور. المطبعة الملكية 1967.

– نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد الطيب القادري.

– نفائس الدرر في حواشي المختصر لليوسي. مخطوطة خاصة.

– نيل الأماني في شرح التهاني لليوسي. مطبعة علي صبيح مصر 1847.

– وصف افريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي. ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر. بيروت ط: 2 – 1983م.

– وفيات الأعيان لابن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة لبنان 1397 هـ.

البداية والنهاية للحافظ ابن كثير. تحقيق التراث. دار إحياء التراث العربي 1993م.

2– المخطوطات

– الأقنوم في مبادئ العلوم. مخطوط الخزانة العامة رقم: 15ك.

– الدرر المرصعة في أخبار درعة لمحمد المكي الناصري. مخطوط الخزانة العامة رقم: 265ك.

– الرحلة مخطوط الخزانة العامة رقم: 1418ك.

– الرحلة مخطوط الخزانة الملكية رقم: 2343.

– الفهرست مخطوط الخزانة العامة رقم: 1418ك

– تذكرة المحسنين مخطوط الخزانة العامة رقم: 270ك.

– حاشية اليوسي على شرح الكبرى. مخطوط الخزانة الملكية رقم: 603.

– خلع الأطمار البوسية عن الأسطار اليوسية. مخطوط الخزانة العامة رقم: 115ج.

– سراج طلاب العلوم في آداب العلم والمتعلم والتعليم. مخطوط خ ع رقم: 2817د.

– طبقات الحضيكي مخطوط الخزانة العامة

– فهرسة أبو القاسم العميري. مخطوط الخزانة العامة رقم: 91ج

– فهرسة مخطوط الخزانة العامة رقم: 147ق.

– فهرست الحاوي لاسلاوي ضمن مجموع مخطوط بخزانة الرباط العامة رقم: 1421ك.

- كناشة عبد الرحمن المدغري. مخطوط الخزانة العامة رقم: 3634.
- مباحث الأنوار للولالي. مخطوط الخزانة العامة رقم: 2305.
- نزهة الناظر مخطوط الخزانة العامة رقم: 1669 ك.

3- المجلات

- المناهل عدد: 15 يونيو 1979.
- المناهل عدد: 36 دجنبر 1986.
- جريدة "صباح الصحراء" عدد: 5428.
- دعوة الحق عدد: 248 مايو 1985.

10- فهرس إجمالي للموضوعات

الموضوع	الصفحة